فيوض الرحمن
في
محاضرات شهر رمضان

للإمام السيّد
عبد الكريم آل السيّد علي خان المدني

الطبعة الثانية المنقحة

التدقيق والتعليق والمراجعة
الأستاذ الدكتور السيّد عبد الحليم المدني

طبع بنفقة ومتابعة الأستاذ السيد محمد السيد عبد الكريم المدني
الأمين العام لمؤسسة الإمام المدني الإسلامية

الجزء الأول - الجزء الثاني

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

فيوض الرحمن
في
محاضرات شهر رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

محمد وآله الطيبين الطاهرين

فيوض الرحمن في محاضرات شهر رمضان

للإمام السيد

عبد الكريم آل السيد علي خان المدني (قدس سره)

الطبعة الثانية المنقحة

التدقيق والتعليق والمراجعة

الأستاذ الدكتور السيد عبد الحليم المدني

طبع بنفقة ومتابعة الأستاذ السيد محمد السيد عبد الكريم المدني
الأمين العام لمؤسسة الإمام المدني الإسلامية

الجزء الأول - الجزء الثاني

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية المنقحة

٢٠١٤ م ـ ١٤٣٥ هـ

طبع بنفقة ومتابعة الأستاذ السيد محمد السيد عبد الكريم المدني
الأمين العام لمؤسسة الإمام المدني الإسلامية

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ حارة حريك ـ شارع المقداد ـ بناية الهدى
هاتف: ٧٢٧٧٦٤ ٣ ٠٠٩٦١ ـ ٥٥٤٠٩٤ ١ ٠٠٩٦١
e-mail: najaf_86@yahoo.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الاخلاق ..... فلسفة الحياة

أ.د. السيد عبد الحليم المدني

علم الاخلاق: هو الفنُّ الباحث عن الملكات الإنسانية، وتمييز الفضائل من الرذائل، ليستكمل الإنسان بالتحلي والاتصاف بها سعادته، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد، والثناء من بني نوعه من البشر.

القوى المتحكمة في النفس: ويرى الباحثون في علم الأخلاق ان مصدره يرجع الى قوى عامه ثلاثة، هي الباعثة للنفس على اتخاذ التفكير والسلوك وهذه القوى هي:

١. الشهوية.

٢. الغضبية.

٣. النطقية الفكرية.

فإن جميع الأفعال الصادرة لجلب المنفعة كالأكل والشرب واللبس وغيرها تصدر عن القوة الشهوية، وكل الاعمال الكائنة لدفع المَضَرَّة، كدفاع الإنسان عن

نفسه هي الصادرة عن المبدأ الغضبي. أما الأعمال المنسوبة إلى التصور والتصديق الفكري، كتأليف القياس، وإقامة الحجة،والجدل، وغير ذلك، فهذه الأفعال صادرة عن القوة النطقية الفكرية.

ولما كانت ذات الإنسان مؤلفة ومركبة من هذه القوى الثلاث التي باتحادها، وحصول الوحدة التركيبية فيها يبلغ الإنسان سعادتة، فمن الواجب إن لا يدع الانسان قوة من هذه القوى الثلاث ان تسلك مسلك الإفراط أو التفريط،او تتغلب احداها على الاخرى.

وحَدّ الاعتدال في القوة الشهوية هو استعمالها على ما ينبغي كَمّاً وكيفاً بما يسمَّى العِفَّة، والجانبان في الإفراط والتفريط الشَّرَه والخُمُود، وحَدّ الاعتدال في القوة الغضبية هو الشجاعة، والجانبان هما التهور والجبن، وحَدّ الاعتدال في القوة الفكرية هو الحكمة، والجانبان هما الحمق والبلادة.

وتحصل في النفس من اجتماع هذه الملكات ملكة رابعة، وهي العدالة، وهي إعطاء كل ذي حَقٍّ حَقَّه، ووضعه في موضعه الذي ينبغي له، والجانبان فيها الظلم والتظلم.

نظرة معاصرة: يعتبر علم الأخلاق أو الفلسفة الخلقية من وجهة نظر معاصرة من العلوم المعيارية التي لا تقتصر على دراسة ما هو كائن، ولكن ما ينبغي أن يكون عليه الانسان ولذا فإن مهمته هي «وضع الشروط التي يجب توافرها في الإرادة الإنسانية وفي الأفعال الإنسانية لكي تصبح موضوعًا للأحكام الأخلاقية».

وهناك قدر كبير من الاتفاق على أن المبادئ الخُلُقِيّة والمثل العليا قد حازت في تاريخ الإنسانية الطويل على قدر ثابت من التأييد. فقد غرس الله تعالى في البشر

بصائر أخلاقية فطرية، إذ مهما بلغت درجة الانحراف والفساد اللذين قد يسقط فيهما الانسان، فهو يحبّ ويقدّر الفضيلة في ذاتها وفي غيرها حتى إن أعوزته الشجاعة للارتفاع إلى مستواها.

لقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة أن تاريخ الحضارة البشرية مليء بالشرائع الأخلاقية وأنها تتقارب تقارباً كبيرا، وهذا يعني أن الأساس الأخلاقي في البشرية فطري، وأن للقيم وجودها الذاتي حيث تفرض نفسها على الوجدان البشري بطريقة أولية حدسية.أما عجز بعض الأشخاص عن إدراك القيم أو التمييز بينها فهو نتيجة «العمى الخُلُقِيّ» الذي قد يرجع إلى انعدام النضج أو نقص التربية.

الأخلاق وعلم الاجتماع: لقداتجهت مدرسة من علماء الاجتماع في فرنسا بالأخلاق في القرن الماضي اتجاهاً اجتماعياً صورت فيه علم الأخلاق فرعاً من علم الاجتماع موضوعاً ومنهجاً.

لكن عالمي الاجتماع (ليفي برايل) وأستاذه (دروكايم) فصلا علم الاخلاق عن علم الاجتماع، وأطلقا عليه اسم «علم العادات» إشارة إلى أن الأخلاق هي دراسة موضوعية تجريبية لقوانين العادات الخلقية عند الإنسان.اذ يجب على الإنسان أن يفرض على نفسه قاعدة داخلية حتى يستطيع أن يحتفظ بتوازنه العقلي والعضوي.

واشتهر الفيلسوف الانكليزي (برتراند راسل) (١٨٧٢ــ ١٩٧٠م) بآرائه ونظرياته الفلسفية في حقل الأخلاق، على الرغم من انه فيلسوف مادي،وله منهج خاص في تفسير القيم والأخلاق ذكره في كتبه ورسائله، وخاصة كتابه المعروف بـ (العالم الذي أراه).

وحاصل منهجه في الأخلاق: أنّ الإنسان موجود أناني يطلب كلّ شيء لنفسه ويدور سعيه وجهده حول هذا المحور، فالنفع الشخصي هو كعبة آمال كلّ إنسان يعيش على هذا الكوكب، وهذا أمر لا يمكن تجريد الإنسان عنه .ومن جانب آخر ليس له في الحياة الاجتماعية مناص عن رعاية الأُصول والقوانين التي تسمى بالوظائف والتكاليف، التي توجب على كلّ إنسان رعاية حقوق الآخرين واحترام شخصياتهم إلى غير ذلك ممّا يعد وظيفة اجتماعية.

ولا يخفى أنّ هناك تزاحماً بين النفع الشخصي والاحترام لحقوق الآخرين، إذ كثير ما يصطدم النفع الشخصي بحقوق المجتمع، فكان لابد من تقديم تنازلات وترجيح حقوق الآخرين على الانتفاع الشخصي من أجل تسوية النزاع.

الإسلام وعلم الاخلاق: لقد ظهرت في وقت مبكر من التاريخ الاسلامي المدرسة الإسلامية في المجال الأخلاقي فيما أبدعته عقول الفقهاء والمحدثين في مجال التربية والسلوك اللذين يستمدان أصولهما من قواعد الشريعة الإسلامية ويستلهمان مبادئها من الكتاب والسنة والماثور عن ال البيت وغيرذلك من المصادر الإسلامية.

لقد ظهرت الاهتمامات المبكرة بالفكر الأخلاقي منذ عهد الصحابة – رضوان الله عليهم – والتابعين – رحمهم الله تعالى – وائمة اهل البيت - عليهم السلام - في شكل وصايا ونصائح، أو في شكل تفسير للآيات المتعلقة بالأخلاق في القرآن الكريم.

ويرى بعض الباحثين ان اول من صَنّف كتابا في علم الاخلاق، هو الامام عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) فقد كتب كتاباً في الاخلاق عند رجوعه من صفين أرسله إلى ولديه الحسن و محمد بن الحنفية وهو كتاب طويل جمع فيه جميع أبواب هذا

العلم وطرق سلوكه ومكارم الملكات وكلّ المنجيات والمهلكات، وطرق التخلّص من تلك الهلكات.

وقد ايد ذلك العديد من علماء اهل السنة والجماعة، ومن علماء الامامية رواه الكليني في كتاب (الرسائل) من عدّة طرق، ورواه أبو محمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري، وأخرجه بتمامه في كتاب (الزواجر والمواعظ)، قال: «ولو كان من الحكمة ما يجب أن يكتب بالذهب لكانت هذه».

في القرن الثاني الهجري بدأت الأعمال العلمية المنظمة في مجال العلوم الفقهية التي تضمنت إشارات واضحة إلى المجال الأخلاقي، وقد تمثلت هذه الجهود في أعمال المجتهدين الكبار من أمثال الامام جعفر بن محمد الصادق و الإمام أبي حنيفة النعمان، والإمام مالك بن أنس، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وكان ما توصلوا إليه من أحكام شكلاً من أشكال الحكم الذي ينظم حياة الناس طبقاً لاجتهادات شرعية على كافة مستويات الحياة من فردية وأسرية واجتماعية، وقد كانت اجتهادات هؤلاء الأئمة مصابيح أضاءت الطريق في المجتمع الإسلامي في إطار معياري أخلاقي سليم.

لقد ظهر المؤلفون الكبار في هذا الميدان وصنفوا المصنفات التي وإن لم تغرق في المباحث النظرية المجردة إلا أنها أسهمت بنصيب وافر في مجال السلوكيات والأخلاق العلمية.

فمن علماء اهل السنة والجماعة :

١. ابن المبارك (ت١٨١هـ) وله كتاب (الزهد)، وهو كتاب مليء بالتوجيهات الخلقية، وأدلتها من القرآن والسنة وأقوال التابعين خاصة الزهاد منهم.

٢. وكيع بن الجراح (ت١٩٧هـ)، وله أيضاً كتاب (الزهـد) وقـد رتبـه عـلى الأبواب، وضمنه أحاديث الأدب والأخلاق.

٣.هنَّاد بن السَّرِي (ت٢٤٣هـ) وله أيضاً كتـاب (الزهـد) وقـد تتلمـذ عـلى وكيع بن الجراح وتأثر به.

ومن علماء الامامية:

١. إسـماعيل بـن مهـران بـن أبي نـصر، أبـو يعقـوب الـسكوني ولـه كتـاب (صفةالمؤمن والفاجر).

٢.ابو محمد الحسن بن عليّ بن الحسن بن شعبة الحراني من علماء المائة الثالثة، صنّف كتاب (تحف العقول فيما جاء في الحكم والمواعظ ومكارم الأخلاق عـن آل الرسول).

٣.علي بن أحمد الكوفي المتوفي سـنة ٣٥٢، صـنّف كتـاب (الآداب) وكتـاب (مكارم الأخلاق).

٤.أبو عليّ بن مسكويه، صنّف كتاب (تهذيب الأخـلاق وتطهـير الأعـراق) يشتمل على ست مقالات لم يصنّف مثله على التحقيق.

لقد تناولت هذه المصنفات الحث عـلى مكـارم الأخـلاق والزهـد في الـدنيا والتطلع إلى ثواب الله في الآخرة،ومادتهـا تتكـون مـن القـرآن الكـريم والحـديث الشريف ومرويات اهل البيت وآثار السلف الصالح.

وظهرت في القرن الثالث الهجري بواكير الأعـمال العلميـة التـي خصـصها مؤلفوها للحديث عن موضوعات أخلاقية.

و يظهر الكاتب الشهير عمرو بن بحر الجـاحظ رائـدا مـن رواد التـأليف في

هذا المجال، فمن مؤلفاته البارزة كتاب (تهذيب الأخلاق).. و(رسالة في كتمان السر وحفظ اللسان)، و(رسالة في النبل والتنبل وذم الكبر)، و(رسالة في المودة والخلطة) وأخرى في (الجد والهزل)، هذا بالإضافة إلى ما تضمنته كتاباته الأخرى مثل (البيان والتبيين)و(البخلاء) و(الحيوان)، إذ تضمنت العديد من الوصايا الخلقية التي برزت في شكل أدبي جذاب.

وفي نفس الفترة (تقريباً) ظهرت الموسوعات الأدبية والتاريخية التي ضمنها مؤلفوها أبوابا في الأخلاق،من ذلك ما كتبه ابن قتيبة(ت ٢٧٦هـ) عن الطبائع والأخلاق في موسوعته (عيون الأخبار).

وقد تتابع تأليف هذه الموسوعات في القرون التالية.فظهر أبو عبد الله المحاسبي (ت٢٤٣هـ) و الإمام البخاري (ت٢٥٦هـ)، وابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ). وتمتاز مصنفاتهم بالوحدة الموضوعية، وجودة الترتيب، ونسبة الآثار والأقوال لأصحابها. مع الاعتناء الكامل بذكر الشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف.

لقد بدأ بزوغ مدرسة علمية في الفكر الفلسفي عامة والأخلاقي خاصة منذ منتصف القرن الثالث الهجري، وقد كانت إسهامات كتابها ذات قيمة عالية في المجال الأخلاقي وكان دورهم واضحاً في أمرين:

الأول : أنهم استوعبوا الثقافة اليونانية وعدلوا فيها وأضافوا إليها كثيراً من الفكر الأخلاقي عند المسلمين.

الثاني : أنهم حفظوا هذه الثقافة من الضياع ثم أعطوها للعالم مرة أخرى بعد تجريدها من النزعات الوثنية اليونانية.

ويذكر في هذا الإطار : -

١.يعقوب بن إسحاق الكندي (ت٢٦٠هـ)، وله في الأخلاق (القول في النفس).

٢. أبو بكر الرازي (ت ٣١٣هـ) وله في المجال الأخلاقي كتاب (الفقراء والمساكين).

٣.الحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ) ومن مؤلفاته في الأخلاق (كتاب الذوق). وله أيضاً (الرياضة وأدب النفس).

٤. أبو نصر الفارابي (محمد بن أحمد) (ت٣٣٩هـ) ويعرف بالمعلم الثاني، ومن مؤلفاته في الأخلاق (آراءأهل المدينة الفاضلة)،(والآداب الملوكية).

٥. ابن مسكويه (ت٤٢١هـ) ومن أشهر مؤلفاته في الأخلاق،كتاب (تهذيب الأخلاق).

٦. ابن سينا (ت٤٢٨هـ) ومن مصنفاته في الأخلاق (رسالة في الحكمة)، و(كتاب الطير) في الفلسفة،(أسرار الصلاة)، (الإنصاف) في الحكمة.

٧. ابن باجة الأندلسي (ت٥٣٣هـ) المعروف بابن الصائغ، وقد شرح كتب أرسطو، وله كتب عديدة منها : (اتصال العقل) و (كتاب النفس).

٨. ابن طفيل (محمد بن عبد الملك)، وهو صاحب قصة (حي بن يقظان) وله في المجال الأخلاقي (رسالة في النفس).

٩.ابن رشد (ت٥٩٥هـ) ومن كتبه في الأخلاق: (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال)،وقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية والعبرية والإسبانية.

إن هؤلاء جميعاً وإن تأثروا بالفلسفة اليونانية، إلا أنهم لم يقتصروا عليها،

وإنما أضافوا إليها ونقوها من شوائبها، ثم أخذها عنهم الأوروبيون منذ مستهل عصر نهضتهم.

مواصفات علم الاخلاق الاسلامي: إنّ أكثر المذاهب الأخلاقية تنطوي على التزامات، توصي باتّباعها، فمثلاً: تأمر بالصدق في الكلام، و الوفاء بالعهود والمواثيق،والنهي عن الكذب إلى غير ذلك من القضايا. ولكنّها لا تخرج عن إطار التوصيات، لكن المنبع الأخلاقي في الإسلام، يتجلّى (وراء كونه منهجاً منسجماً مسايراً للحياة ضامناً للسعادة) في ضرورة العمل وفق تلك القضاياوالوصايا، وذلك بوضع ضمانات ووعد ووعيد في ذلك المجال.

فأغلب المناهج الأخلاقية لا تتجاوز عن كونها وصايا مجردة، لا يدعمها أي فعل إجرائي، إلاّ الحس الأخلاقي أو ما يعبر عنه بالوجدان، ولكنّه لا يشكل دعامة قوية أمام إجراء القوانين بصورة صحيحة، بل ينهار أمام التيارات النفسانية الجارفة التي تزيل كل رادع أمامها. مما يشكل ثغرة واضحة في كيان المذاهب الأخلاقية الوضعية.

إن المذهب الأخلاقي في الإسلام ليس مجرد وصايا فحسب، ولا يقتصر في مقام الإجراء على الحس الأخلاقي، بل يعتمد أيضاً على قدرة فوق الطبيعة، قاهرة قادرة على كلّ شيء، تحاسب عمل الإنسان، حقيره وخطيره، يوم تبلى السرائر وتكشف الحقائق ويتجسد عمل كل إنسان أمامه. فهذا النوع من المنهج يعلوه الكمال حيث جمع بين العلم والإيمان، والتقنين والتنفيذ.

فيوض الرحمن وعلم الاخلاق

لعل كتاب (فيوض الرحمن في محاضرات شهر رمضان) خير مجسد للاخلاق وفق منظورها الاسلامي. لكن الجديد فيها ان الامام المدني قدس سره قد اخضع

الاحكام الشرعية للاطار الاخلاقي مستوحيا الحديث النبوي المشهور: «انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق».

ففيوض الرحمن ليس كتابا تخصصيا في علم الاخلاق،باحثا في عناصره ومفرداته، لكنه كتاب يمتلئ بما نطلق عليه : (احكام الاخلاق).

ان الكتاب في جزئه الاول يتحدث عن فرائض الاسلام كالصوم والصلاة والحج والزكاة، ويفسر القران الكريم في بعض جوانبه، لكنه يفرد محاضرات خاصة بالاخلاق، مثل :(بيان ميزان السعادة والشقاء) و (الصبر وعواقبه) و(التوبة وشئ من شؤونها) و (في التذكير والارشاد) و (السلام تحية المسلم).. بما تكاد تكون مباحث اخلاقية صرفة مدعمة بما يسندها من القران الكريم والسنة النبوية واحاديث اهل البيت عليهم السلام. اما في جزئه الثاني المتعلق بفضائل امير المؤمنين علي بن ابي طالب(عليه السلام) ومناقبه فهو وان ركز على ذلك الجانب الا انه كان زاخرا بمفردات علم الاخلاق المستوحى من سيرة علي بن ابي طالب وسلوكه كانسانٍ ومسلمٍ واميرٍ للمؤمنين.

ان الامام المدني قد اعطانا في ثنايا كتابه ملامح اخلاقية تكاد تكون تجديدا في علم الاخلاق في مختلف جوانبه الفكرية والسلوكية ويطرح اراء في غاية التحضر والانسانية قد تفاجئنا ان تكون صادرة من مرجع اسلامي بارز في الفقه الاسلامي.

يقول الامام المدني (اعلى الله مقامه):

الانسان هو الغاية

ان الله تعالى جعل كل ما هو اشرف في الموجودات سببا كماليا وعلّة غائيّة لما هو ادنى، فخلق الارض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للانسان، وآخر

درجة الانسان هو غاية هذه الاكوان وهو الانسان الكامل الذي هو سلطان العالم وخليفة الله في الارض.

السعادة هي العلم النافع والاخلاق الفاضلة

ان ما به السعادة المرتبط بالنفس انما هو العلم النافع والاخلاق الفاضلة فانهما المؤديان الى السعادة الحقة والفوز بالحياة السعيدة الخالدة المؤبدة اذ انهما لا ينفكان عن الدين ولا ينفك الدين عنهما.

لايتساهلنّ الانسان في طلب العلوم

مهما تساهل الانسان في شي ء فلا يتساهلنّ في الجد والاجتهاد من مزاولة العلوم النافعة الموجبة لتشحيذ الذهن وتنوير الفكر، فان الجهل من أعظم المهلكات والعلم من أهم المنجيات.

المعرفة قبل الصلاة

ان الامام جعفر الصادق(عليه السلام) يقول:«لا اعلم شيئا بعد المعرفة افضل من الصلاة».

فتش عن عيوبك فاصلحها

ينبغي على الانسان أن يتحرى نقص نفسه والتفتيش عن غوامض عيوبه، ولو كان تحريه من ناحية اتخاذ محب صميم أو صديق حميم لا يخدعه ولا يكذبه، يجعله مرآة نفسه ويوكل إليه تحري نواقصه وعيوبه وأن ينبهه على ما لا يحسن من مساوئ الحالات وذميم الصفات،إذ حب النفس ربما يعمي عن إدراك النقص من النفس.

السعادة هي الكمال

ان السعادة لكل موجود هو كونه كاملا في وجوده..والشقاء بخلافه.

العدو خير من يدلك على نواقصك

ربما يحصل للانسان من العدو مّا يدلّه على نقصه أكثر ممّا يحصل له من صديقه، إذ الصديق ربما يتحاشى عن إبداء نقص صديقه، ولكن العدو لا يتحاشى. فمن دلّه عدوه على نقص فيه كان حقيقا به أن يحدث لله سبحانه شكرا حيث أنه هيأ له طريقا من طرق الخير، وفتح له بابا من أبواب السعادة، حيث علم من نفسه النقص المؤدي إلى الهلكة، وأوصله الى ما يرجى معه الوصول إلى ما به السعادة والنجاح.

مجاهدة النفس

لاريب ان التجافي عن تلك الشهوات النوعية والردع عن تلك الرغبات الحيوانية مرتبة من مراتب مجاهدة النفس التي لها شانها الرفيع وموقعها المهم، التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بالجهاد الاكبر عندما رجع اليه بعض سراياه المجاهدين فقال لهم : لقد قضيتم ما عليكم من الجهاد الاصغر وبقي عليكم الجهاد الاكبر وهو جهاد النفس.

انقياد الشهوة للعقل

فان جعلت الشهوة منقادة للعقل فقد فزت فوزا عظيما واهتديت صراطا مستقيما وان سلطت الشهوة على العقل وجعلته منقادا ساعيا في استنباط الحيل المؤدية الى مراداتها، هلكت يقينا وخسرت خسرانا مبينا. واعلم ان النفس اذا تابعت القوة الشهوية سميت بهيمية واذا تابعت الغضبية سميت سبعية وان جعلت رذائل الاخلاق لها ملكة سميت شيطانية.

الاتصال بعالم الاسرار

لا يخفى على ذي بصيرة ما تؤدي اليه المجاهدة من رفيع المقام وعلو الشان

وما تصل اليه النفس من الصفاء والخلو عن شوائب الكدر والاتصال بعوالم الاسرار.

اصدقاء الانسان واعداؤه

ان للانسان صديقين: صديقه، وصديق صديقه....وان اعداء الانسان اربعة: عدوه، وعدو صديقه، وصديق عدوه، وصديق عدو صديقه..

محركات قوى الخير والشر

ان للمعاشرة واستماع القصص والحكايات تاثيرات على النفس وتحريكات لقوى الخير والشر، وحيث ان قوى الشر وبواعثه في الانسان اكثر من قوى الخير وبواعثه يكون التباعد عن مصاحبة الاشرار واستماع حكاياتهم احرى واولى واحق من التحري لمصاحبة الاخيار واستماع احاديثهم وكيفية سلوكهم لما عرفت من ان قوى الشر ثلاث، وقوى الصلاح و الخير واحدة، وهي خصوص القوة العقلية الملكية.

القبح بالذات والقبح بالعرض

ان المعاصي تجمع بين القبح بالذات والقبح بالعرض فان الفاحشة من قبائح نفس الافعال وذمائم ذات الاعمال وهي ايضا قبيحة بالعرض لادائها الى هلكة الفاعل وصده عن السبيل الموصل الى السعادة الحقة والحياة الخالدة وذلك من اظهر مراتب العلم.

القرآن وعلم الاخلاق

من مبادئ علم الاخلاق قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

وكقوله تعالى:

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

الصبر والاستعانة بالصبر

الصبر منع النفس عن محابّها وكفها عن هواها. واستعينوا بالصبر: اي بحبس النفس عما تشتهيه من المقبّحات وحملها على ماتنفر منه من الطاعات.

درجات الصبر

ان الصبر ثلاث درجات، الاولى: ترك الشكوى، ويسمى الصبر الجميل وهي درجة التائبين. الثانية: الرضا بالمقدور، وهي درجة الزاهدين. الثالثة: المحبة لما يصنع به المولى، وهي درجة الصديقين.

الجنة محفوفة بالمكاره

يقول الامام الباقر(عليه السلام): «الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات، فمن اعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار».

حقيقة الحب

ان حقيقة الحب هو ادراك كمالٍ في المحبوب يقتضي القرب منه والدنوّ اليه، والله سبحانه هو المتفرد بحقيقة الكمالات بما لها من الرتب العالية والدرجات السامية التي لايحيط بها الا هو تعالى شانه.

السالك طريق المحبة

ان السالك طريق المحبة لله سبحانه لاينبغي ان يقصرعن طريق العاشق لمن تعلق حبه وتمركزحبه في قلبه..اتراه كيف لايتجاوز عن التفكّر في محبوبه وجماله وكماله وصفاته وافعال نفسه التي تقربه منه وتحببه اليه ليتصف بها؟؟ او التي

تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها؟؟ ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق..كذلك المحب الخالص لله تعالى شانه ينبغي ان يحصر فكره في الله وصفاته وفي افعاله وفيما يقربه منه ويحببه اليه او يبعده عنه...ولو تفكر في غيرذلك كان كاذبا فيما يدعيه من الحب والشوق..

من اراد ان يكون محبا

المحبة اقبالك على المحبوب بكليتك، ثم ايثارك له على نفسك ومالك وولدك، ثم موافقتك له في جميع الامور، سرا وجهرا، ثم الاعتقاد بعد ذلك بانك مقصر في محبته. ومن اراد ان يكون محبا فليكن كما حكى بعض فتيان الهند : انه احب جارية فرحلت عن ذلك البلد، فخرج الفتى في وداعها، فدمعت احدى عينيه دون الاخرى، فاغمض العين التي لم تدمع اربعا وثمانين سنة، ولم يفتحها، عقوبة لها، لانها لم تبك على فراق حبيبته.

هامان وفرعون

روي ان الزاهد سفيان الثوري رحمه الله قال يوما لجعفر (البرمكي) وزير هارون الرشيد: «ياهامان...» فسمعها الرشيد...فقال لجعفر: والله ما جعلك هامان حتى جعلني فرعون!!...

ما العصمة ومن المعصوم

صنف لم تصدر منه المعصية ولا الظلم لنفسه ولا لغيره . وهذاالصنف هو الصنف الراقي من البشر وهم الرسل والأنبياء والأوصياء الأمناء صلوات الله وسلامه عليهم،الذين قد ثبتت لهم العصمة وتمركزت في نفوسهم الحكمة.

وهؤلاء لعصمتهم لا يقترفون ذنبا ولا يحملون أصرا، لا لأنهم لا يستطيعون أن يعصوا فيكونوا كالمجبرين على الفعل أو الترك، فإن ذلك يمنع عن

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

للكبير، وعطف على الصغير، واحترام للآخر، حتى ولو لم يكن مسلما، تطبيقا لوصية امير المؤمنين علي بن ابي طالب(ﷺ): «الناس صنفان امّا اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق».

كان من ابرز فضائله الاخلاقية احترام الآخر شخصا وفكرا ومعتقدا، احتراما يصل حده الاعلى، ومحتواه الاوفر والأوفى، يقبل على المقابل بابتسامته، ويجيب على اسئلته، ويحل مشكلته. وكان كرمه وحبه للفقراء لاتحده حدود، ولا تقيده قيود، فصار مقصد الناس جميعا. وكان مجلسه المبارك في مسجده ببعقوبة لا يخلو ابدا من طلبة الحوزات العلمية الذين يقصدونه بشكل دائم لطلب العلم او لطلب المساعدة المادية.

احبه الناس جميعا لصدقه المطلق، وامانته، وحبه لله، وخشيته منه، وايمانه الحقيقي. وكان موئل اسرار الناس جميعا، يأتمنونه عليها، وهم يعلمون انها في حصن حصين.

كانت نزعته الانسانية تفوق الوصف، يحب الناس ويتفقد احوالهم، ويعود مريضهم، ويعزّي في مآتمهم، ويواسي في ملماتهم، لايفرق بين احد منهم لدينه او مذهبه او فكره او سنّه او جنسه.

واشهد وأُشْهِدُ الله انني كنت اسمعه في صلاة تهجده اليومية (صلاة الليل)، يرفع يده بالدعاء لاربعين من المؤمنين، يسميهم باسمائهم، من اصحابه واهله ومريديه، ثم يختم قنوته بالدعاء: «اللهم اغفر لاعدائي.. » يكررها ثلاثاً.

كان استاذه الاكبر الامام الشيخ محمد رضا ال ياسين رفع الله درجته يكتب له بخطه في رسائله: «روحي فداك...». ويصرح زعيم الحوزة العلمية الامام السيد ابو القاسم الخوئي قدس سره امام الملأ : «السيد عبد الكريم قلّ نظيره..»

ثم يستدرك على الفور:«لا..لا..بل لانظير له..».

لقد سجل المؤرخون وانشأ الكتّاب وانشد الشعراء مكارم الامام المدني واخلاقياته التي بلغت القمة، ونتج عنها ذكره الخالد الذي لاتمحوه الايام.

هذا الكتاب:

(فيوض الرحمن في محاضرات شهر رمضان) طبع جزؤه الاول في بيروت في سبعينيات القرن الماضي، وعزمنا على الحاق الجزء الثاني به،الذي كان مخطوطا بخط الشهيد السعيد الشيخ ناظم غلام كريم المندلاوي تغمده الله بواسع رحمته،إذ كان قد طلب من الامام الراحل استنساخه اثناء دراسته في حوزة النجف الاشرف الدينية، وكان في دفاتر واوراق متناثرة، فجمعها وكتبها بخطه الجميل الانيق.

وضمن المشروع الذي اضطلع بتنفيذه سيدي واخي الكريم الاستاذ السيد محمد السيد عبد الكريم المدني (الامين العام لمؤسسة الامام المدني الاسلامية) ايده الله، بطبع مؤلفات الامام الوالد قدس الله نفسه الطاهرة، فاننا نقدم هذا الكتاب بجزئيه في مجلد واحد كي يكون مصدرا ومرجعا للباحثين في كل الجوانب الفقهية والتاريخية والاخلاقية التي تضمنها الكتاب. وقد تمت اضافة العديد من الهوامش الايضاحية التي اقتضتها المقامات.

وحمدا لله اولا وآخرا وظاهرا وباطنا.

«ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير»

الاستاذ الدكتور السيد عبد الحليم المدني

غرة ذي القعدة ١٤٣٤هـ

٧ ايلول ٢٠١٣م

تقديم

سر الامام المدني

بقلم المؤرخ العراقي الكبير

الأستاذ الدكتور

عماد عبد السلام رؤوف

شغفت بالتاريخ وبخاصة سير الماضين من الرجال منذ زمن بعيد وقادني هذا الشغف إلى دراسة سير العظماء منهم وتتبع تفاصيل حياتهم وما اثر عنهم من أقوال وأفعال.

وكنت أحاول بعد كل جولة في حياة عظيم نابه أن أجيب على سؤال يتلجلج في نفسي: أين مكمن العظمة في الرجل؟ وما هي مواصفات ذلك الجزء غير العادي في شخصيته وهو ما اصطلحنا عليه أحياناً العبقرية.

ولاحظت أيضا بعد جولات في هذا المجال أني اخرج بنتائج تبدو لي جديدة فما أراد كاتب سيرة فلان أن يظهره من جوانب شخصيته ليس بالضرورة هو ذلك الجانب الفذ منها بل كثيرا ما يهتم كاتب بإيراد تفاصيل يستوي فيها الكثيرون ولا تعني شيئا عند تقويم شخصية الرجل وتحديد معالمها الخاصة. وبالمقابل فانه يبقى ثمة جانب أو جوانب هي أساس عبقريته وسر شهرته أيضا.. إلا أنها لم تستلفت أنظار كاتبي سيرته لأسباب عدة.

ولاحظت أيضا أن أكثر من مسّهم هذا الضرب من ظلم المؤرخين هم أهل

العلم بصرف النظر عن مراتبهم العلمية.. وسبب ذلك هو اتفاق أكثر أولئك المؤرخين والمترجمين على منهج محدد يتعاملون وفقه مع صاحب الترجمة وهو منهج فيه الكثير من الجمود والقليل من الحيوية ..وفي أحسن الفروض فان هذا المنهج يقتصر على ذكر معلومات محددة لا تزيد على تعيين سنة ولادته ودراسته ومشايخه وربما تلامذته ومؤلفاته ثم وفاته. فهل يكفي نهج اسم كهذا أن يوضح لشخصية فذة إبعادها الحقيقية ومعانيها الإنسانية فضلا عن أن يحدد مكمن العبقرية والنبوغ في تلك الشخصية؟

ولعل سيرة الإمام العلامة السيد عبد الكريم المدني الحسيني، أغدق الله عليه شآبيب رحمته، تقف خير دليل على قصور ذلك المنهج. فهل يكفي أن نبحث عن سر عظمته في طبيعة المناخ الثقافي الذي نشأ فيه مدينة النجف الأشرف في أوائل القرن العشرين بما تحفل به من مدارس وعلماء وحلقات درس؟؟

انه مناخ أعلى روعته، عاش فيه المئات من معاصريه فلمَ لمْ يكن بينهم مثله إذن؟

أو كان ذلك السر كامنا في المستوى الرفيع من الشيوخ والأساتذة الذين تهيأت له الفرصة للدراسة على أيديهم؟؟ والجواب أن مئات آخرين درسوا على أيدي هؤلاء أيضا، ومنهم من زامله في الدراسة ومع ذلك لم يكن أكثرهم كالسيد المدني علما وفضلا.

فلعل السبب يتمثل في مؤلفاته القيمة العديدة كالبيان الأرقى والمعالم والعبقات والخمس والفيوض وغيرها؟ لا نشك في منزلة هذه الكتب الرفيعة وقيمتها العلمية الفائقة إلا أنها وحدها لا تكفي في تقديري لان تبلغ بصاحبها ما بلغه العلامة المدني رحمه الله من شهرة عريضة ملأت الأرض انتشارا، وكثيرة هي

الكتب، ولكن مؤلفيها غابوا في غياهب النسيان.

وصحيح انه درّس العديد من طلبة العلم الذين تبوّؤا بجهده وفضله مواقع علمية وروحية رفيعة ... إلا أن التدريس كان مهمة العلماء عامة ويندر أن يكون عالم ما لم يتحلق حوله طلبته، فليس هو إذن معقد الأمل في فهم الرجل نبوغا وعبقرية. فأين تكمن هذه الصفات العسيرة التحديد إذن؟

أمّا أن الفقيد الجليل كان عظيما فذلك من البديهيات التي يدركها الجميع في العراق والعالم الإسلامي تمام الإدراك، إلا أن سر عظمته كان يزيد على كل ما ذكرنا.

انه بكلمة واحدة يتجسد في تعبيره غير المحدود عن الكل.. وانعكاس ذلك التعبير على كل جزئيات حياته. وصحيح انه ألف كتابا مهما في الروح بمعناها الذي هو من أمر الرب، إلا انه بإنسانيته العميقة الصادقة نجح أيضا في التعبير عن «روح عصره» في كل فعل له وقول، حتى يمكن القول انه كان عالماً عصرياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

وبذا فانه لم يتخلف عن فهم أكثر تطورات مجتمعه تعقيدا ولم يعتكف رغم زهده وقناعته في برج عاجي بعيدا عن مشاكل الناس ومتاعبهم، وإنما عاش وسط تلك المشاكل : تفهمها وسعى جاهدا في حلها والتخفيف عن المتعبين أوما أكثرهم، ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وهو لم يقض حياته، رغم شغفه العجيب بالعلم حبيس خزانة كتبه أو رهين أوراقه ومحابره وإنما تنفس الحياة العادية التي يحياها الملايين من أبناء عصره فشاركهم أفراحهم وأتراحهم على حد سواء . وهو لم يجعل الحقيقة المستمدة من الكتب وحدها هدفه وإنما سعى لنشدانها من مصدرها العريض ومنبعها

الأصيل: من الحياة نفسها بمعاناتها وزخمها وعبرها.

وهو رغم نشأته في بيئة تميل بطبيعتها إلى المحافظة إلا انه كان ذا أفق أنساني رحيب يتجاوز محدودية زمانه ومكانه معا لأنه ينتمي إلى «الإنسان» أيا كان عصره ومصره.

ومع انه ينتسب إلى السلالة النبوية الطاهرة فانه كان يتعاطف بحق وصدق مع أدنى الناس واقلهم نصيبا في مجتمعهم ويتواضع لهم ويخفف عنهم ويمدهم بالثقة التي هزها في نفوسهم حيف ذلك المجتمع واعتباراته غير المنصفة.

وفي تقديري فان إنسانيته كانت تتجاوز حدود بيئته الأولى وحدود مجال درسه وتتمرد على نطاق الاهتمامات التقليدية لأمثاله من أهل العلم وتتسامى فوق كل اعتبار طائفي ومحلي لتشمل الجميع دون استثناء وما كان ذلك مجرد شعور يتملكه أو عاطفة يحس بها وإنما هو عنده عقيدة وإيمان بمبدأ لم يتخل عنه طيلة حياته.. عقيدة لا نجد أحسن من تعريفها بأنها تعني «المحبة».. المحبة للإنسان والاحترام للإنسانية جمعاء ومبدأ يتمثل بالتمسك غير المحدود بالوحدة الوطنية والتأكيد المستمر على وحدة النسيج الذي يتألف منه مجتمعه مهما كانت الألوان التي تزيد من جمال ذلك النسيج، فلم يبخل بجهده على طائفة دون أخرى وجماعة دون غيرها. وقد اخبرني العديد ممن أثق بروايته أن له أيادي بيضا على كثير من الأسر دونما نظر للطائفة التي تنتمي إليها.

ولأنه كان إنسانا وإنسانيا، فانه كان متفتحا على الدوام على أكثر الآراء بعدا عن أرائه الشخصية، فلم يؤثر عنه انه غضب لرأي أو تحزب لفكرة أو أنكر على احد قوله. لقد كان في الواقع مؤمنا بالحوار القائم على أساس احترام كل محاور رأي محاوره بلا استنكار أو تسفيه أو استخفاف، وإنما باتجاه اكتشاف جوانب

الحقيقة كما تبدو عليها من زوايا مختلفة.

لقد قضى الإمام المدني حياته الثرة في علم وعمل أسعى إلى نشر الثقافة الحقة التي توحد ولا تفرق، والعلم الذي يدني ويقرّب ولا يفرق أو يمزق. وها هي المكتبات الغنية التي أنشاها في بعقوبا، وخزائن الكتب التي أهداها إلى المكتبات الأخرى تشهد له بعمق إيمانه برسالة العلم والمعرفة. ولمّا يزل الكثيرون يذكرون محاضراته الغنية بكل مفيد، مما يلقيه في حسينيته ببعقوبا، ويتذكرون أماليه ومناظراته ومجالسه، التي تؤلف بحد ذاتها مدرسة فكرية عامة كم نحن في حاجة إليها في يومنا هذا، فضلا عن أعماله الكثيرة الأخرى التي سعى فيها إلى خير الجميع مما ذكره وسيذكره التاريخ.

رحم الله الفقيد الجليل واسكنه أعلى غرف فردوسه، جزاء جهاده في سبيل المثل والمبادئ، ولقاء ما أسداه إلى وطنه وأمته من وافر الخدمة، وما قدمه إلى مجتمعه من نموذج للإنسان العالم العامل، والمربي الكامل، وألحقه بالشهداء والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

أ.د. عماد عبد السلام رؤوف

خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعد...

فيقول العبد الأثيم عبدالكريم السيد علي خان المدني عامله الله بلطفه الجسيم: هذه عدة محاضرات علمية عملية أدبية تاريخية شارحة وموضحة، ألقيتها في الحفل العمومي في حسينية بعقوبة في ليالي شهر رمضان المبارك، وخصصت كل ليلة من لياليه الميمونة بمحاضرة تخصها.

وقد جمعتها وحررتها ودونتها في سنة ١٣٦٥ هجرية، وربما أضفت إليها أو علّقت عليها ما سنح في نفسي لدى التحرير ما لا يخلو عن فائدة.

راجياً من المولى الكريم أن ينفعني بها بأن تكون مقبولة لديه وإحدى وسائلي إليه. وقد سميتها: فيوض الرحمن في محاضرات شهر رمضان وحصرتها في جزئين:

أولهما: في مجموعة فوائد من تعاليم قيمة ونصائح وإرشادات مهمّة.

وثانيهما: يتعلق بسيد الوصيين ومولى الثقلين أمير المؤمنين صلوات الله عليه

وعلى أبنائه الأئمة الهادين المهديين، وذلك بمناسبة[1] تعلق بعض ليالي الشهر الشريف بذلك المقام الرفيع.

---

(١) تنبيه

لا يخفى أن في ص٨١ من أربعين الشيخ البهائي(قدس) الشريف خطبة الرسول(صلى الله عليه وآله) فيما يتعلق بشهر رمضان وفضله، وهي الخطبة الشهيرة الفاضلة المعروفة، وفي آخرها سؤال أمير المؤمنين(عليه السلام) عن أفضل الأعمال في هذا الشهر وجوابه(صلى الله عليه وآله)له بأنه الورع عن محارم الله، ثم بكائه(صلى الله عليه وآله)، وسؤال علي(عليه السلام) عن ذلك وجوابه(صلى الله عليه وآله) له(عليه السلام) بأنه لما يستحل منك في هذا الشهر من ضربه ابن ملجم لعنه الله، وقوله(صلى الله عليه وآله): يا علي من قتلك فقد قتلني ومن أبغضك فقد أبغضني لأنك مني كنفسي وطينتك من طينتي وأنت وصيي وخليفتي على أمتي.

ثم أنه(قدس) عقب هذا الحديث ببيان ما يحتاج إلى البيان فراجعه بإمعان واتقان.

المحاضرة الأولى

في الصوم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم كتابه الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

أقول: خصّ الله تعالى بخطابه الشريف وجليل ندائه المنيف المؤمنين، إبانة لفضلهم وإعلاءً لشأنهم وللتنبيه على أنهم اللائقون بخطابه، وأن من سواهم لا يستأهل الإقبال عليه ولا يليق توجيه الخطاب إليه، إذ كانت الإنسانية والإيمان متلازمين بل متحدين، فإنّ الإنسان حقيقة هو المؤمن والمؤمن هو الإنسان، إذ الإنسان إنسان بعقله والعقل على ما عرّفه أهله هو ما عبد به[2] الرحمن واكتسب

---

(١) هذه الآية المباركة هي آية ١٨٣ من السورة الثانية وهي سورة البقرة... ومحررة في ص٢٧١ من المجلد الأول من مجمع البيان وفي ص١٦٨ من المجلّد الثاني من تفسير الرازي. وفي ص٤٥٣ من شرح الصحيفة السجادية للعلامة الكبير السيد علي خان المدني بيان معنى الآية وبيان صوم اليهود والنصارى فراجع.

(٢) هذا المعنى للعقل قد ورد به النص ففي الحديث الثالث من أحاديث العقل البالغة(٣٢) حديثاً، إذ فيه بعد حذف الإسناد «فعن أبي عبدالله(عليه السلام) بعد سؤال السائل ما العقل: قال(عليه السلام): ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان... ».

وللعقل معان أُخَرُ دقيقة وشحنا الكلام بها في كتابنا: الشافي في المختارات من الكافي فلتراجع.

به الجنان، وهذا لا يكون إلّا في المؤمن.

كما أنه تعالى قد كرّم هذه الأمة بنحو آخر من التكريم، حيث اختصّهم بصيام هذا الشهر الذي اختص به أنبياءه وحبا به رسله وأصفياءه من دون سائر الأمم كما ورد به الخبر(١) وصدّقه الأثر من قول صاحب صحيفة سيد الساجدين(عليه السلام):

ثم آثرنا به على سائر الأمم واصطفانا بفضله دون أهل الملل..

ثم بيّن تعالى شأنه ما أجمله من وقت الصوم المكتوب وعدده بنحو من البيان بقوله عز قائله:

الآية الثانية: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أفاد تعالى تحديد ما كتبه من حيث الكم بنحو من التحديد المخرج له عن الإبهام المطلق، المتناول لصوم الدهر أو السنين بل ما

---

(١) الخبر المومئ إليه ما ذكره الجزائري في أول كتاب الصوم من آيات أحكامه ناقلاً له عما رواه في الفقيه عن حفص بن غياث قال سمعت أبا عبدالله(عليه السلام) يقول: شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا. فقلت له فقول الله(عز وجل): ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. فقال إنّما فرض الله صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم، ففضّل الله هذه الأمة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله(صلى الله عليه وآله) وعلى أمته.

وبهذا المضمون ما ذكره صاحب كتاب وقائع الأيام في ص٤٢٥ قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) إن الله تبارك وتعالى لم يفرض صيام شهر رمضان فيمن مضى إلّا على الأنبياء دون أممهم، وإنّما فرض عليكم ما فرض على أنبيائه ورسله قبلي إكراماً وتفضيلاً لي. والذي بعثني بالحق ما أعطى الله(عز وجل) نبيّاً من أنبيائه فضيلة إلا وقد أعطانيها، ولقد أعطاني ما لم يعطهم وفضلني على كافتهم وأنا سيّدهم وخيرهم وأفضلهم ولا فخر...

كان داخلاً في الكثير، فإن التعبير بالأيام وتوصيفها بأنها معدودات تفيد إنها قليلة مثل دراهم معدودة.

والأيام المفروضة في الآية وإن قيل فيها أنها ثلاثة أيام من كل شهر ونحو ذلك ثم نسخ وجوبها بشهر رمضان، إلّا أن الأظهر عند الأكثر هو شهر رمضان، وإن الآية المصرحة فيما بعد هذه الآية بأن الواجب هو شهر رمضان، تكون مفسّرة لهذه الآية لا ناسخة... هذا فيما يرتبط بهذه الآية من هذه الجهة. وأما الكلام في فقهها وبعض شؤونها الأخرى فسيأتي القول فيه إن شاء الله. ثم أنه تعالى أوضح تلك الأيام المعدودات بما عقب آياتها به من قوله:

الآية الثالثة: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ[1] ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

فبيّن سبحانه ما أجمله بالآيتين السابقتين فأوضحه وقتاً وكمّاً بما بيّنه من أنه شهر رمضان.

وأضاف الشهر إليه تعالى شأنه، فإنّ رمضان على ما وردت به الرواية من الفريقين[2] اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، تنبيهاً على عظيم قدره وجليل خطّره

---

(١) من ص٤٢٣ إلى ص٤٢٩ من شرح الصحيفة السجادية لمؤلفها العلامة الأجل السيد علي خان المدني(قدس سره) أبحاث علمية وعملية تتعلق بالقمر وسيره ومنازله وجملة من شؤونه.

(٢) ذكر العلامة الأجل السيد علي خان المدني(قدس سره) في ص٤٣٠ من شرح الصحيفة روايتين في الكافي، أولها عن أبي جعفر(عليه السلام) وثانيها عن أبي عبدالله(عليه السلام). وهناك ثالثة عن =

حيث ضمّنه فضيلة الانتساب المشعرة بفضيلة الذات. كما أنه تعالى شأنه كشف عن فضله بجهة أخرى وأعرب عن كبير شأنه بما أومئ إليه، توطئة وتمهيداً لما يريد

= الكاظم (عليه السلام) يذكرها نقلاً عن الشهيد الأول(قدس سره)، وإنها أحسنها كما عن بعض الفضلاء. كلّها متحدة المضمون في أنّه لا تقولوا هذا رمضان ولا ذهب رمضان ولا جاء رمضان فرمضان اسم من أسماء الله تعالى. وهو(عز وجل) لا يجيء ولا يذهب ولكن قولوا شهر رمضان.

وذكر قريباً من هذه الرواية العلامة الجزائري طاب ثراه في آيات أحكامه.

وذكر العلامة السيد المتقدم من طريق أهل السنة والجماعة روايتين. إحداهما عن أبي هريرة وثانيتهما عن أنس.

ولكن في مجمع البحرين في مادة رمض ما يظهر منه الخلاف القوي في صحة ما يروى في ذلك فراجع.

ثم قال(قدس سره): وقال في القاموس إن صح أنه من أسماء الله تعالى فهو غير مشتق أو راجع إلى معنى الغافر....

وقد ذكر قبل ذلك بقليل، ما قيل في اشتقاقه فقال فيه أقوال:

أحدهما: أنه مأخوذ من الرمض وهو حر الحجارة من شدّة الشمس، فسمّى هذا الشهر رمضان، لأن وجوب صومه صادف شدّة الحر.

الثاني: أنه مأخوذ من الرميض، وهو السحاب والمطر ما كان في آخر القيظ وأول الخريف، سمّي رميضاً لأنه يدرأ سخونة الشمس، فسمّي هذا الشهر رمضان، لأنه يغسل الأبدان من الذنوب والآثام. وبهذا المضمون حديث عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: إنّما سمّي رمضان لأن رمضان يرمض الذنوب.

الثالث: أنه من قولهم: رمضت النصل أرمضته رمضاً، إذا دققته بين حجرين برق فسمّي هذا شهر رمضان، لأنهم كانوا يرمضون أسلحتهم فيه ليقضوا أوطارهم منها في شوال، قبل مجيء الأشهر الحرم، وعليه فهذا الاسم جاهلي، وعلى الأولين يكون إسلامياً. وقبل الإسلام لا يكون له هذا الاسم.

أن يفرضه فيه من الواجب الأهم والمشروع الأكمل الأتم، وهو الصيام عن الملذّات والإمساك عن الشهوات تطوّعاً وانقياداً وتخضّعاً. من كونه ظرفاً لنزول[١] القرآن الذي هو كلام الله العظيم، وأفضل الكتب السماوية، وأظهر ما جاء به الرسول(ﷺ) من المعجزات وخوارق العادات، وإن كان(ﷺ) كل حالة من حالاته وكل صفة من صفاته آية بينة،(ﷺ).

كما دلّت الآثار أيضاً ونطقت الأخبار من طريقي الشيعة والسنة على نزول جملة من الكتب السماوية في هذا الشهر المبارك.

فعن[٢] الكافي عن النبي(ﷺ) أنه قال:

نزلت صحف إبراهيم(عليه السلام) في أول ليلة من شهر رمضان.

ونزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان.

وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلون من شهر رمضان.

وأنزل الزبور لثماني عشرة خلون من شهر رمضان.

---

(١) نزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا دفعة، ونزل نجوماً متفرقة في(٢٣) سنة. وقيل: أول سورة نزلت في مكة المكرمة سورة إقرأ. وقال بعضهم المدثر. وعن الواقدي أن أول سورة نزلت في المدينة سورة القدر. وإن قيل في كل ذلك غير ذلك.

وقال في المجلّد ٥ من مجمع البيان في ص٤٠٥:

أول سورة نزلت هي سورة إقرأ، وآخر سورة نزلت هي سورة التوبة. وقال هناك: عدد سور القرآن ١١٤ سورة وعدد آياته ٦٢٣٦ آية وعدد حروفه ٣٢١٢٥٠ ثلثمائة ألف وواحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً... وقد ذكرنا هذا في أواخر بحث القرآن.

(٢) وذكر الفخر الرازي في ص١٨١ من الجزء الثاني نزول هذه الكتب في شهر رمضان بتغيير وتبديل يسير.

وأنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان.

وأما عوائد هذا الشهر على الأمة فمما لا تحصى...

منها ما دل عليه الرسول(ﷺ) فيما خطبه في أول ليلة من شهر رمضان التي قال فيها بعد الحمد له تعالى والثناء عليه:[1].

أيّها الناس قد كفاكم الله عدوّكم من الجن، ووعدكم الإجابة وقال: ادعوني استجب لكم إلا وقد وكّل الله سبحانه بكل شيطان مريد سبعة من الملائكة، فليس بمحلول حتى ينقضي شهر رمضان إلّا وأبواب السماء مفتحة من أول ليلة منه إلى آخر ليلة منه، إلا والدعاء فيه مقبول... إلخ.

ومنها ما عن العالم[2](عليه السلام): إن الله جل وعلا يعتق في أول كل ليلة من شهر رمضان ستمائة ألف عتيق من النار. فإذا كان العشر الأواخر أعتق كل ليلة منه مثل ما أعتق في العشرين الماضية، فإذا كان ليلة الفطر أعتق من النار مثل ما أعتق في سائر الشهر.

وأعظم من ذلك ما عن[3] علي(عليه السلام) في خطبته من قوله:

لقد سمعت رسول الله(ﷺ) يقول: إنّ لله تبارك وتعالى عند فطر كل ليلة من شهر رمضان عتقاء من النار، لا يعلم عددهم إلّا هو علم الغيب عنده، فإذا كان في آخر ليلة منه أعتق فيها مثل ما أعتق في جميعه.

---

(١) ذكر هذا في ص٤٣٦ من كتاب وقائع الأيام عن السيد رضي الدين ابن طاووس(قدس سره).

(٢) وذكر هذا المؤلف المذكور في ص٤٣٧ (*).

(٣) وذكر هذا أيضاً في ص٤٣٨.

(*) عالم آل محمد هو الإمام علي بن موسى الرضا (د. المدني)

وقريب من ذلك ما عن[1] البحار في خطبة الرسول(ﷺ) أنه قال فيما قال فيها: إن الله تبارك وتعالى في آخر كل يوم من أيام شهر رمضان عند الإفطار ليعتق ألف ألف رقبة من النار، وإذا صارت ليلة الجمعة ويوم الجمعة أعتق في كل ساعة منها ألف ألف رقبة، كل واحد منهم كان ممن استوجب النار، وفي الليلة الأخيرة منه يعتق بمقدار ما أعتقه في تمام الشهر.

هذا كله فيما يتعلق في بيان مفردات ألفاظ الآيات المذكورة وبعض ما يستفاد من تراكيبها من نكات ومزايا مع قطع النظر عمّا يستفاد منها من الأحكام الفرعية.

بيان ما يستفاد منها من الأحكام الشرعية:

أما ما يتعلق بها من هذه الوجهة. فالآية الأولى وهي آية الكتب فلا شيء فيها إلّا وجوب الصوم مجملاً من حيث الكيف والكم والوقت.

وأما الآية الثانية فقد أفادت نحواً من التعيين في موضوع الحكم، وإخراجه عن مرتبة الإجمال المطلق إلى التعيّن في الجملة، وأن الصوم الواجب هو أيام معدودة غير مهملة ومحدودة غير مرسلة، أو بمعنى إنها قليلة على ما هو شأن الشيء المعدود مثل قوله تعالى: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ كما أومأنا إليه آنفاً.

كما أفادت تقييد الحكم المطلق المستفاد من الآية الأولى وقصرته على غير

---

(١) وذكر هذا أيضاً في ص٤٥٧.

وممّا يناسب ذكره ما قيل: من أن مجوسياً رأى ابنه يأكل في شهر رمضان بحضرة المسلمين فضربه وقال له: لم لا حفظت حرمة المسلمين في شهرهم، فمات في ذلك الأسبوع فرآه عالم البلد في النوم وهو في الجنّة، فقال ألست كنت مجوسياً؟ قال بلى ولكن لما حضرت وفاتي أكرمني الله بالإسلام لاحترامي شهر رمضان... ذكر ذلك في ص١٦٢ من نزهة المجالس للصفوري الشافعي.

المريض والمسافر، وأما هما فيجب عليهما القضاء.

وأما قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، فالذي عليه المشهور منّا ومن الجمهور[١] إن الضمير في يطيقونه راجع إلى صيام الأصحاء الحاضرين، وإن الله سبحانه في بادئ بدء نظراً إلى أن الناس بعد لم يكونوا قد تعودوا ذلك، قد خيّرهم بين أن يصوموا ولا يكفّروا، وبين أن يكفّروا عن كل يوم بإطعام مسكين ولا يصومون. ثم نسخ[٢] ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وعلى هذا القول المشهور والمنصور بالظهور[٣] يتضح جداً، ما بعد البيان المزبور من قوله: ومن تطوع خيراً، بمعنى أطعم أكثر من مسكين واحد أو بمعنى

---

(١) قال العلامة الطبرسي في ص٢٧٤ من الجزء الأول من مجمعه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ الهاء يعود إلى الصوم عند أكثر أهل العلم.

وقال الرازي في ص١٧٧ من المجلّد الثاني من تفسيره: القول: القول الثاني وهو قول أكثر المفسّرين أن المراد من قوله: وعلى الذين يطيقونه، المقيم الصحيح، فخيّره الله تعالى أولاً بين هذين ثم نسخ ذلك وأوجب الصوم عليه مضيّقاً معيناً.

(٢) قال في مادة: نسخ من سفينة البحار:

عن أبي شبرمة قال: ما ذكرت حديثاً سمعته من جعفر بن محمد(عليه السلام) إلّا كاد أن يتصدّع قلبي، قال حدثني أبي عن جدي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال، وقال ابن شبرمة وأقسم بالله ما كذب أبوه على جدّه وما كذب جدّه على رسول الله(صلى الله عليه وآله). قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): من عمل بالمقاييس فقد هلك وأهلك ومن أفتى وهو لا يعلم الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك.

(٣) أقول: إن الظهور المدّعى لا ينكر، وإن كان استظهار أن القول المشهور منا ومن الجمهور: رجوع ضمير يطيقونه إلى الأصحاء الحاضرين دون مطلق المطيقين، ولو كانوا مرضى أو مسافرين من كلمات المجمع والفخر الرازي، لا يخلو عن تأمّل.

أطعم مسكيناً واحداً أكثر من مقدار الكفاية على قول آخر، أو بمعنى من فعل برّاً في الدين مطلقاً، أو بمعنى من جمع الصيام والتكفير، فهو خير...

ومن قوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، إذ لا ريب مع فرض تخيير مطيق الصوم والفدية بينهما، أن الصوم أفضل طرفي التخيير، كما لا ينبغي الريب أن الخطاب بقوله: وأن تصوموا، إنما هو مع المطيقين الحاضرين الأصحاء المتمكنين من الصوم.

فلا وجه لما تكلّفه الرازي من إرجاع الخطاب إلى مطلق من يطيق صحيحاً كان أو مريضاً وحاضراً كان أو مسافراً، فإن ذلك خلاف الظاهر جداً، ومعه يبطل ما استنتجه من لزوم الإضمار في قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وإن التقدير: فافطر فعدّة من أيام أخر.

فإن هذا منه ضرب على وتر لتصحيح ما عن أسلافه من جواز الصوم في السفر المنافي لظاهر الآية والمخالف للأصل.

وأما الآية الثالثة فهي مفيدة لأمرين: أحدهما مقدمة للآخر. فإن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾، قد تضمّن تعظيماً وتكريماً للشهر بالإضافة إلى أنه اسم من أسمائه تعالى، وإلى أنه محل لنزول القرآن، الذي هو كلامه تعالى، ومن عظيم آياته، ووصفه بأنه الهادي المرشد الذي لا يضل والناصح الذي لا يغش ولا يكذب.

ولا ريب أن هذا تشويق وترغيب إلى ما يريد أن يفرضه فيه من المشروع الأهم، الذي أفاده بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، إذ ذلك البيان توطئة وتمهيد لما أفاده أخيراً. حيث أنه فرق واضح بين أن يقول ابتداءً: ﴿فَمَن شَهِدَ

﴿مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وبين أن يذكر هذا بعد تلك التوطئة وذاك التمهيد. وحاصل المستفاد من فقه الآية المباركة، بعد العلم بأن ظاهر الشهود في قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾، لا سيّما بضميمة المقابلة لقوله: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، هو الإقامة والحضور كما هو المشهور أيضاً، لا بمعنى الرؤية والمشاهدة، وإن قيل به. وعلى ذاك يمكن إدراج مورد الإقامة للمسافر في موضوع الحاضر، لا دخوله حكماً فقط. إن مفاد الآية، هو إيجاب الصوم على الصحيح الحاضر، وإيجاب الإفطار أو حرمة الصيام على المريض والمسافر، لما اقتضته صناعة التعبير وقواعد اللغة، من كون التفصيل قاطعاً للشركة، وقرينة التقابل بين الحاضر وبين المسافر المصرح به في الآية، أكبر قرينة مانعة عن إرادة الخلاف.

وفرض الحذف في الآية، والتقدير فيها بأن من كان مريضاً أو مسافراً فاضطر، فعدّة من أيام أخر، خلاف الظاهر والأصل معاً، كما اعترف به ابن رشد في كتابه: بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

وليعلم أن فقهاء الإسلام في حكم صوم المسافر على قولين:

أحدهم: وجوب الإفطار وحرمة الصيام، وعليه عامة الإمامية وأئمتهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وجملة من غيرهم من أعيان الصحابة وفقهائهم كعمر بن الخطاب وابنه عبدالله وعبدالله بن عباس وعبدالرحمن بن عوف وأبي هريرة وعروة بن الزبير. وفي حديث عبدالرحمن بن عوف، إن رسول الله(ﷺ) قال: الصائم في السفر كالمفطر في الحضر. ومن طريق أصحابنا عن أبي عبدالله(عليه السلام) مثلها. وهناك روايات أُخر بهذا المضمون من الطريقين.

ومما[1] ذكره الفخر الرازي، الحديث المعروف عندما سأله شخص ممن يبدّل اللام بالميم حيث قال: هل من أمبّرامصيام في امسفر؟ فأجابه(ﷺ) على لغته لمكان مكارم أخلاقه(ﷺ) التي استعظمها له خالقه وباريه جلّ وعلا: ليس من امبّر امصيام في امسفر.

لكن الرازي لم يذكرها بهذه اللغة بل ذكرها باللام على اللغة الأفصح.

وواضح أن تشبيهه(ﷺ) الصيام في السفر بالإفطار في الحضر، يعطي مزيد تغليظ وتشديد لهذا التحريم، لما علم من حكم المشبه به وهو المفطر في الحضر. من وجوب تعزيره في أول مرة بخمسة وعشرين سوطاً، وهكذا لو عاد ثانية وثالثة ثم يقتل في الرابعة أو في الثالثة، هذا ما لم يكن مستحلاً.

وثانيهما: جواز الإفطار في السفر. وأربابه على قولين، الإمام الحنفي والمالكي، وفي الرازي[2] إلحاق الشافعي على رجيحة الصوم في السفر على الإفطار فيه، والإمام أحمد وجماعة آخرين على رجحان الإفطار على الصوم.

وتخيل أن تعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، يفيد الرخصة لا الإلزام، فهو ناشئ من قلّة بضاعة العلم، إذ ذلك بيان لحكمة التشريع لا لإفادة الجواز والترخيص. وقد أشار إلى ذلك عبدالله بن عمر

---

(١) لا يخفى أن الرازي قد ذكر هذه الرواية باللام لا بالميم كما ذكرنا، وذكر بعدها الرواية التي نقلناها عن عبدالرحمن بن عوف، ولكن لم يسندها إليه بل أرسلها إرسال المسلّمات وذلك في ص١٧٥ من المجلّد الثاني.

(٢) هذا الإلحاق ذكره الرازي في ص١٧٦ من الجزء الثاني. وما عداه قد ذكره كل من ابن رشد في نهايته والرازي في الصحيفة المومأ إليها آنفاً.

كما في رواية[١] يوسف بن الحكم حيث قال: سألت ابن عمر عن الصوم في السفر؟ فقال: أرأيت لو تصدقت على رجل صدقة فردّها عليك، ألا تغضب؟ فإنها صدقة من الله تصدق بها عليكم. وأما قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، فلإفادة إتمام عدة ما يقضيه بمقدار ما يفطر في المرض والسفر على أحد الوجهين، أو إتمام عدّة الصوم الواجب لمن كان حاضراً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فللندب إلى إيقاع التكبير عقيب أربع صلوات آخرهن صلاة العيد في يومه.

ثم نبّه على أهمية هذا الإرشاد، وأنه يستوجب مزيد الشكر لذلك المرشد، أداءً لبعض حقّه وقياماً ببعض ما يجب له، فإن شكر المنعم مما يفرضه الإنصاف ويوجبه العدل، وهو بعد ذلك من مستقلات العقل.

توشيح فيه مزيد فوائد وتوضيح:

غير خفيّ أنّ قوله تعالى: فليصمه في آية: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾، أمر وطلب وبعث وتحريك نحو تحصيل المطلوب، وهما من أفعاله تعالى. ولا ريب في أنّ أفعال العقلاء نوعاً مبنية على الفوائد، وإلّا كان ذلك ضرباً من الجزاف والعبث، تنزّه عنه العقلاء، والمولى المطلق والآمر بالحق ربّ العقلاء وسيّدهم، فهو أحق بإبتناء أفعاله على الفوائد والغايات، وإلا كانت أفعاله دون أفعال العقلاء، وهو شطط في القول وغلط في الاعتقاد.

فأفعال العقلاء على وفق أفعال سيّدهم من الابتناء على الغايات والفوائد،

---

(١) ذكر هذه الرواية في ص٢٧٣ من الجزء الأول من مجمع البيان.

وإن كان بين غاياته وغاياتهم بون بعيد. حيث أن غايات أفعالهم، غايات فقر واحتياج، وغايات المحتاج لا تكون إلّا لسدّ خلّة فقره وحاجته.

وغايات أفعاله سبحانه وتعالى، غايات عزّ وغناء، وغايات الغنى من أفعاله، لا تكون إلّا لجبر فقر المحتاجين وإصلاح شأن المغلوبين.

فغايات أفعاله تعالى وفوائدها، عائدة على عباده المفتقرين إليها، نحو انتفاعهم بغايات أفعالهم، من دون أن يعود شيء من الفائدتين عليه تعالى شأنه، لأن فرض ذلك يساوق فرض الحاجة. وقد ثبت بطريق البرهان إنه(عَزَّوَجَلَّ) الغني على الإطلاق، والغني على الإطلاق يمتنع فرض عود النفع إليه.

وإلى هذا يومئ قول بعض العرفاء عند بيان معنى الرّب، حيث قال: الرّب بمعنى المربي. وهذا المعنى وإن شاركه فيه خلقه، حيث أن ضرباً من التربية يوصفون به ويسند إليهم، غير أنه من المهم التمييز بين التربيتين ومعرفة ما به الافتراق بين التربيتين، إذ أن كلّ مرّب سوى الله سبحانه، إنما يربّي شيئاً ليربح به ويربح عليه، بخلاف تربية الله سبحانه لخلقه، فإنه يربّيهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، لاستغنائه عن كل موجود، واحتياج كل موجود إليه، كما هو الشأن في الرّب والمربون. وحيث أن التكليف بالصوم على حدّ سائر أفعاله تعالى، المبتنية على الغايات والفوائد، العائدة على المكلّفين، لا جرم كان الأحرى بهذه المحاضرة أن لا تخلو عن ذكر بعض فوائده.

فنقول: أن للصائمين في صومهم فوائد مهمة، وللصوم على الصائمين عوائد قيمة بعضها يكون قوامها بين العبد وربّه سبحانه، وبعضها يكون بين الإنسان وبني نوعه، وبعضها يكون بين الإنسان ونفسه.

أما التي قوامها بين الله تعالى والعبد:

فأولها: بل أهمها إنها طاعة لأمره وانقياد لطلبه، وهو مستتبع للخير الكثير والثواب الخطير، ويكفي في أهميته، مضافاً إلى كونه واجباً من الواجبات الموعود عليها نوعاً بالمثوبة من الله سبحانه، هو ما ورد في الحديث القدسي من قوله تعالى: (كل عمل ابن آدم هو له غير الصيام هو لي وأنا أجزي به).

ومنها ما يترتب على ما يجده الإنسان عند الصوم، من ضعف وجوع وعطش، من التنبّه على أنه فقير محتاج إلى المطعِم والمنعِم والمربّي، وحيث يعلم أنه لا مطعِم ولا منعِم ولا مربّي إلا الله(عَزَّوَجَلَّ)، فيحثه هذا العلم وتبعثه تلك المعرفة، على الطاعة والانقياد، وتسوقه إلى مقام الخضوع والخشوع والشكر، المؤدي إلى مزيد النّعم من المنعم الفياض عقلاً ونقلاً، لأنّ الشكر عبادة والعبادة تستتبع زيادة ذلك الأجر وتكثيره كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

على أن شكر المنعم واجب عقلاً، لأن الإنعام إحسان، والإحسان واجب المكافآت، والشكر للمنعم مكافآت.

وأما الفوائد التي بينه وبين بني نوعه، فإنّ الإنسان بجوعه وعطشه، يعرف ما للجوع من ألم فيتنبّه إلى ما يلاقيه الضعفاء من بني نوعه أو أهل ملّته وطريقته، أو الفقراء من ذوي رحمه، فيحنو عليهم ويعطف، فيكون ذلك سبباً للعطف من الله تعالى شأنه عليه واللطف به، وهو من أعظم الفوائد والعوائد.

وأما التي بينه وبين نفسه، فذاك الشيء الكثير والنفع الخطير، وهذا النوع قد يكون بدنياً وقد يكون أخلاقياً.

أما البدنية وهي التي نبّه عليها بعض الغربيين على ما نقله البعض عن الجامعة الأمريكية، حيث أعلنت بأن الصيام تجديد للشباب وعلاج للشيخوخة.

ويشهد لما في الصوم من حفظ الصحة قول[1] بعض الحكماء لابنه، حيث تعلم الأشياء بأضدادها: إعلم: أن الشبع داعية البَشَم[2]، والبَشَمُ داعية السَقَم، والسَقَم داعية الموت. ومن مات هذه الميتة فقد مات موتة لئيمة، وهو مع هذا قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره... إلى أن قال له:

يا بني أني قد بلغت تسعين عاماً، ما نقص لي سنّ ولا انتشر لي عصب ولا عرفت دنيف[3] أنف ولا سيلان عين ولا تقطير بول، ما لذلك علّة إلّا التخفيف من الزاد. فإن كنت تحبّ الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تريد الموت فلا يبعّدن الله إلّا من ظلم.

وقال عمرو بن العاص لأصحابه يوم حكم الحكمان:

أكثروا لأبي موسى الطعام الطيب، فوالله ما بطن قوم قط إلّا فقدوا عقولهم أو بعضها، وما مضى عزم رجل بات بطيناً.

وفي الحديث المرفوع: ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطن، بحسب الرجل من طعامه ما صلبه، وأما إذا أبيت فثلث طعام وثلث شراب وثلث نفس.

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) في كلماته القصار، ذامّاً للإكثار من الطعام:

---

(١) ذكر هذا شارح النهج المعتزلي في المجلّد الرابع من شرحه ص٣٧٩.

(٢) قال في ص٤٦٣ من مجمع البحرين: بشم الحيوان بشماً من باب تعب اتخم من كثرة الأكل.
وقال في ص٤٧٥، وفي الدعاء: أعوذ بك من السَقَم. بفتحتين وبضم السين وإسكان القاف كالحزن والحزن المرضى.

(٣) قال في ص٣٧٧ من مجمع البحرين: والمدنف أي الثقيل في المرض من الدنف بالتحريك وهو المرض الملازم.

كم من أكلة تمنع أكلات[1].

---

(١) قال شارح النهج علامة المعتزلة في ص٣٢٤ من المجلّد الرابع بمناسبة ذكره لفوائد قلّة الأكل وتأثيره في صفاء ورفع درجة المجاهدين، تعرض لذكر بعض الحكايات عمّن يأكل كثيراً. فإن الشيء ربما يذكر عند ذكر ضده. ونحن إنما ذكرناها لذلك، والعرب تعيّر بكثرة الأكل وتعيب بالجشع والشره والنهم، وقد كان فيها قوم موصوفون بكثرة الأكل منهم:

١ ـ معاوية، قال أبو الحسن المدائني في كتاب الأكلة: كان يأكل في كل يوم أربع أكلات آخرهن عظماهن ثم يتعشّى بعدها بثريدة عليها بصل كثير ودهن قد سبغها. وكان أكله فاحشاً يأكل فيلطخ منديلين أو ثلاثة قبل أن يفرغ، وكان يأكل حتى يستلقي ويقول: يا غلام ارفع، فلا والله ما شبعت ولكن مللت.

٢ ـ وكان عبيد الله بن زياد يأكل في اليوم خمس أكلات، آخرهن خبيّة بعسل ويوضع بين يديه بعد أن يفرغ الطعام عناقاً وجدي[*] فيأتي عليه وحده.

٣ ـ قال: وكان سليمان بن عبدالملك المصيبة العظمى في الأكل، دخل إلى الرافقة، فقال لصاحب طعامه: اطعمنا اليوم من خرفان الرافقة، ودخل الحمام فأطال ثم خرج، فأكل ثلاثين خروفاً بثمانين رغيفاً، ثم قعد على المائدة فأكل مع الناس كأنه لم يأكل شيئاً. إلى أن قال الشارح المتقدم: قالوا وكان الطعام الذي مات منه سليمان، إنه قال لديراني كان صديقه قبل الخلافة: ويحك لا تقطعني ألطافك التي كنت تلطفني بها على عهد الوليد أخي. قال فأتيته بزنبيلين كبيرين أحدهما بيض مسلوق والآخرتين، فقال ألقمنيه، فكنت أقشر البيضة واقرنها بالتينة والقمه حتى أتى على الزنبيلين فأصابته تخمة عظيمة فمات. =

(*) قال في ص٤٠٨ من مجمع البحرين: والعناق بالفتح الأنثى من ولد المعزى قبل استكمالها الحول.

وقال في ص١٦: والجدي من أولاد المعزى وهو ما بلغ ستة أشهر أو سبعة. والجمع جداء وأجد أيضاً مثل الدلو ودلاء وأدل.

وفي المصباح عن ابن الأنباري أنه قال: الجدي هو الذكر من أولاد المعزى، والأنثى عناق، وقيّده بعضهم في السنة الأولى

وأما فوائده الأخلاقية:

فإنه يعينه على العفّة بواسطة حبس النفس عن الشهوات، ويعوده الصبر عن الرغبات، ويسهّل عليه الصبر على الشدائد والأمور الصعبة، ويشد عزيمته على حفظ الأمانة ورد الوديعة، بعد حفظه لأمانات الله سبحانه وودائعه، وهي واجباته ومحرماته، ويميت مرادات النفس وشهوات الطبع الحيواني. وفيه صفاء القلب وطهارة الجوارح وعمارة الباطن، إذ لا شبهة في أنّ الصوم مرتبة من مراتب مجاهدات النفس، فإن رياضة القوة البدنية بالجوع والعطش، والصبر على مشاق ترك العادة وصد النفس البهيمية عن رغباتها، أسباب لتلطّف الأخلاق ورفع كدر النفس الذي كثيراً ما يكون من كدر الجسد والبطنة.

كما قيل: البطنة تذهب بالفطنة.

وإن شئت توسعة البحث في الموضوع بنحو أنفع وأعم، فقل إن حقيقة الصوم تتقوم بدعامتين وترتكز على حجرين أساسين:

= ٤ ـ قال: ويحكى عن عمر بن معدي كرب إنه أكل كبشين بتمامهما، ثم دعا زوجته للمقاربة، فلم يقدر، فقالت له: كيف تستطيع وبيني وبينك كبشان.

٥ ـ ونقل عن الحجاج أنه أكل ثمانين جاماً من السمك بثمانين رغيفاً من الخبز.

٦ ـ قال: وكان ميسرة الرأس أكولاً، حُكي عنه عند المهدي ابن المنصور أنه يأكل كثيراً. فاستدعاه واستحضر فيلاً، وجعل يرمي لكل واحد منهما رغيفاً حتى أكل كل واحد منهما تسعة وتسعين رغيفاً وامتنع الفيل من إتمام المائة وأكل ميسرة تمام المائة وزاد عليها.

٧ ـ وكان أبو الحسن العلاف والد أبي بكر العلّاف الشاعر المحدث أكولاً، دخل يوماً على الوزير أبي بكر محمد المهلّبي فأمر الوزير أن يؤخذ حماره فيذبح ويطبخ بماء وملح، ثم قدّم له على مائدة الوزير. فأكل وهو يظنه لحم بقر ويستطيبه حتى أتى عليه.

فلمّا خرج ليركب طلب الحمار، فقيل له في جوفك.

١ـ أحدهما: التروك المخصوصة والإمساكات المعهودة، أو كف النفس عنها، الذي هو صدّ النفس الحيواني من شهواته البهيمية، وجعله شبيهاً بالنفوس المتمحّضة بالروحانية وهي الأنفس الملكية.

ولا ريب في أن هذا التجافي عن تلك الشهوات النوعية، والردع عن تلك الرغبات الحيوانية، مرتبة من مراتب مجاهدة النفس التي لها شأنها الرفيع وموقعها المهم، التي عبّر عنها الرسول(ﷺ) بالجهاد الأكبر، عندما رجع إليه بعض سراياه المجاهدين فقال لهم: لقد قضيتم ما عليكم من الجهاد الأصغر وبقي عليكم[1] الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس. والحديث القدسي الواصف أهل الخير بأنهم يموتون في كل يوم سبعين مرة، لمجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم والشيطان الذي يجري في عروقهم.

والمقصود من النفس المعنية بالمجاهدة، هي النفس الأمارة[2] والنفس

---

(١) قال في ص١٩٢ من مجمع البحرين: ورد عن النبي(ﷺ) أنه رجع عن بعض غزواته فقال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

وفي ص١٩٧ من المجلّد الأول من سفينة البحار:

قال عن موسى بن جعفر(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام): قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام) أن رسول الله(ﷺ) بعث سرية، فلمّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس. ثم قال(ﷺ): أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه. ثم قال المؤلف المتقدم. وفي الحديث القدسي في وصف أهل الخير، قال تعالى:

يموت الناس مرة ويموت أحدهم في كل يوم سبعين مرة من مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم والشيطان الذي يجري في عروقهم.

(٢) وهي المعنية بقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

=

اللّوامة. ومعنى مجاهدتهما أضعافهما وجعلهما في قيادة النفس العاقلة، المعبّر عنها في القرآن الكريم: بالنفس المطمئنة.

وقد أوضح ذلك بعض المحققين فقال: إن النفس الإنسانية واقعة بين القوة الشهوانية والقوة العاقلة. فبالأولى يحرص على تناول اللذّات البدنية والبهيمية كالغذاء والسفاد والتغالب وسائر اللذّات العاجلة الفانية، وبالأخرى يحرص على تناول العلوم الحقيقية والخصال الحميدة المؤدية إلى السعادة الباقية أبد الآبدين.

وإلى هاتين القوتين أشار سبحانه بقوله تعالى:

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾... وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾...

فإن جعلت أيها الإنسان الشهوة منقادة للعقل، فقد فزت فوزاً عظيماً، واهتديت صراطاً مستقيماً. وإن سلّطت الشهوة على العقل وجعلته منقاداً ساعياً في استنباط الحيل المؤدية إلى مراداتها، هلكت يقيناً وخسرت خسراناً مبيناً.

ثم قال: واعلم أن النفس إذا تابعت القوة الشهوية، سمّيت بهيمية. وإذا تابعت الغضبية، سمّيت سبعية. وإن جعلت رذائل الأخلاق لها ملكة، سمّيت شيطانية. وسمّى الله سبحانه وتعالى هذه الجملة في التنزيل: نفساً أمّارةً بالسوء، إن كانت رذائلها ثابتة، وإن لم تكن ثابتة بل تكون مائلة إلى الشر تارة وإلى الخير أخرى، وتندم على الشر وتلوم عليه سمّاها لوّامة. وإن كانت منقادة للعقل العملي سمّاها مطمئنة.

= قال في ص٣١٣ من مجمع البحرين: أي النفس الأمارة بالسوء عن الهوى المردي وهو أتباع الشهوات وضبطها بالصبر.

والمعين على هذه المتابعات، قطع العلائق البدنية كما قال بعضهم:

إذا شئت أن تحيا فمت عن علائق من الحس خمس ثم عن مدركاتها
وقابل بعين النفس مرآة عقلها فتلك حياة النفس بعد مماتها

أقول: ولقد أجاد هذا المتبحر فيما أفاد من تشريح المقصود وتوضيح المراد، بما يغنينا عن التوضيح والبيان في تشريح النفس المجاهدة وكيفية الجهاد. والركن من الصوم المقصود بالبحث هنا، وهو الكف عن الأمور المعهودة أو الإمساك ولعل الاقتصار عليها وعدم التعدي إلى ما فوقها من الدرجات، نظراً إلى عموم الحكم للنوع الجامع لشرائط التكليف الكبير والصغير والقوي والضعيف، والملائم لهذا التعميم إنما هو هذا التسهيل والاكتفاء بمثله، وإلّا فالدرجات العالية من المجاهدة لها عرض وطول متباعد الأطراف، وهو ما عليه الأنبياء والأوصياء(عليهم السلام) ـ والأولياء والصلحاء والأمثل فالأمثل.

قال شارح المنهج المعتزلي: وجاء في الحديث المرفوع: إن فاطمة عليها السلام جاءت إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله) بكسرة خبز، فقال ما هذه؟ قالت(عليها السلام): قرص خبزته فلم تطب نفسي أتيتك منه بهذه الكسرة. فأكلها(صلى الله عليه وآله) وقال: أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث[1].

---

(١) قال العلامة الأجل القمي طاب ثراه في ص٥٦٩ من المجلّد الأول من سفينة البحار:
وروي أن نبينا(صلى الله عليه وآله) أصابه يوماً الجوع، فوضع صخرة على بطنه، ثم قال: ألا رُبّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا ربّ نفس كاسية ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة.
قال العلامة الأجل في الصحيفة المذكورة:
وفي موعظة النبي(صلى الله عليه وآله) لابن مسعود قال:
يا ابن مسعود إن شئت نبأتك بأمر نوح(عليه السلام) نبي الله، إنه عاش ألف سنة إلّا خمسين عاماً فكان إذا أصبح قال لا أمسي، وإذا أمسى قال لا أصبح، فكان لباسه الشعر وطعامه =

ونقل أيضاً عن ابن عباس، أنه(ﷺ) كان يبيت طاوياً ليالي، ماله ولأهله عشاء. وأما حال علي وأهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم، فيكفينا عن شرحه وبيان ما هم عليه من مراتب جهادهم، قول الله تعالى الذي بلغ صداه المشرقين وآفاق السموات والأرضين: ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً... وقال شارح النهج المعتزلي:

وكان علي(عليه السلام) يفطر في رمضان الذي قتل فيه عند الحسن(عليه السلام) ليلة وعند الحسين(عليه السلام) ليلة، وعند عبدالله بن جعفر ليلة، لا يزيد على لقمتين أو ثلاث، فيقال له، فيقول: إنما هي ليالي قلائل حتى يأتي أمر الله وأنا خميص البطن. فضربه

= الشعير. إن شئت نبأتك بأمر داود(عليه السلام) خليفة الله في الأرض، كان لباسه الشعر وطعامه الشعير.

وإن شئت نبأتك بأمر سليمان(عليه السلام) لما كان فيه من الملك، كان يأكل الشعير ويطعم الناس الحواري، وكان لباسه الشعر. وكان إذا جنّه الليل شدّ يَدَه إلى عنقه فلا يزال قائماً يصلي حتى يصبح.

وإن شئت نبأتك بإبراهيم(عليه السلام) خليل الرحمن كان لباسه الصوف وطعامه الشعير.

وإن شئت نبأتك بأمر يحيى(عليه السلام) كان لباسه الليف وكان يأكل ورق الشجر.

وإن شئت نبأتك بأمر عيسى ابن مريم(عليه السلام) وهو العجب... ثم ذكر زهد عيسى(عليه السلام). ثم ذكر ما أثنى الله تعالى به على هؤلاء الأنبياء الزاهدين في كتابه.

ثم قال(ﷺ): يابن مسعود النار لمن ركب محرماً والجنّة لمن ترك الحرام، فعليك بالزهد فإن ذلك مما يباهي الله به الملائكة ويقبل عليك بوجهه ويصلي عليك الجبار.

ثم نقل المؤلف المتقدم في ص٥٦٨ عن المسيح(عليه السلام) أنه قال للحواريين:

أكلي ما أنبتته الأرض للبهائم وشربي ماء الفرات بكفي وسراجي القمر وفراشي التراب ووسادتي المدد ولبس الشعر، ليس لي ولد يموت ولا لي امرأة تحزن ولا بيت يخرب ولا مال يتلف، فأنا أغنى ولد آدم(عليه السلام).

ابن ملجم(لعنه الله تعالى) تلك الليلة.

وما ورد من مجاهدة علي(عليه السلام) وزهده، ما تضيق له الموسوعات دون مثل هذا المختصر. ويشير إلى بعضه قوله(عليه السلام) في خطبته: والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها؟ فقلت أعزب عنّي فعند الصباح يحمد القوم السرى.

أقول: ولا يخفى على ذي بصيرة ما تؤدي إليه المجاهدة من رفيع المقام وعلو الشأن، وما تصل إليه النفس من الصفاء والخلو عن شوائب الكدر، والاتصال بعوالم الأسرار. أما ذلك في الأنبياء والأوصياء فظاهر معلوم، حيث انقادت لهم الأشياء بأسرها، وأطاعتهم الموجودات بكلّها، إذ هم أظهر مصاديق المطيعين الذين أخبرهم الله سبحانه عن مكافآت طاعتهم بإطاعة كافة الأشياء لهم، بقوله تعالى شأنه في الحديث القدسي: عبدي أطعني تكن مثلي، أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء كن فيكون. وأما في غيرهم من الأولياء والصالحين، ففوق حدّ الإحصاء.

ذكر بعض أهل المجاهدات المرتاضين أنه قال: كنت في جبل فرأيت رماناً فاشتهيته فدنوت فأخذت منه واحدة، فشققتها فوجدتها حامضة، فمضيت وتركت الرّمان فرأيت رجلاً مطروحاً قد اجتمعت عليه الزنابير، فسلّمت عليه، فردّ عليّ باسمي، فقلت له: كيف عرفتني؟ قال: من عرف الله لم يخف عليه شيء. فقلت له: أرى لك مع الله حالاً، فلو سألته أن يحميك ويقيك من أذى هذه الزنابير... فقال وأرى لك حالاً مع الله، فلو سألته أن يقيك من شهوة ويحميك الرّمان، فإنّ لذع الرّمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولذع الزنابير يجد الإنسان ألمه في الدنيا... فتركته ومضيت على وجهي.

وقال آخر: صحبت شخصاً من أرباب المجاهدات، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد، فلما صحبته، قال: أيّما أحبّ إليك: تكون أنت الأمير أم أنا؟ قلت: بل أنت فقال وعليك الطاعة، قلت نعم. فأخذ مخلاة ووضع فيها زاداً وحملها على ظهره، فكنت إذا قلت له: أعطني حتى أحملها، قال: الأمير أنا وعليك الطاعة، قال فأخذنا المطر ليلة، فوقف إلى الصباح على رأسي وعليه كساء يمنعني عن المطر، فكنت أقول في نفسي: يا ليتني مت ولم أقل له أنت الأمير... ثم قال لي: إذا صحبت إنساناً فأصحبه كما رأيتني صحبتك.

هذا أحد ركني الصوم.

٢ـ **وأما الركن الثاني**: وهو أهم الركنين، كيف لا، ونسبته إلى الركن الأول كنسبة الروح من البدن والرأس من الجسد، وهو كون الترك مقروناً بالنية، وأنها بنحو الطاعة والامتثال لأمر المولى على الإطلاق، وهو المعبّر عنه بقصد القربة. ومن الواضح: أنه كما لا خير في جسم لا روح فيه أو لا رأس له، كذلك لا خير في إمساك لا قربة معه بل لا خير في فعل لا قربة معه.

وقصد القربة وإن كان حقيقته هو الانبعاث ببعث المولى والتحرك بتحريك خطابه، والمطاوعة في الحركة لأمره، إلّا أن غايات ذلك الانبعاث مختلفة المراتب ومتفاوتة الدرجات، على ما هو الشأن في تفاوت إطاعة المطيعين، إذ ربّ طاعة تنبعث عن محض الخوف من العقاب على تقدير المخالفة، أو لمحض تحصيل الأجر والثواب المضروب على تقدير الموافقة...

وقد تكون لا لذاك ولا هذا، بل لمكان علم المأمور بأهلية الآمر للإطاعة والانقياد، فلا يكون محرّكه خوف عقابه، وإن خاف عقابه. ولا مزيد ثوابه، وإن أمّل ثوابه، بل لأنه أهل في أن يطاع ولا يعصى، وهذه أعلى درجات الطاعة، وهي

المعبّر عنها: بعبادة الأحرار. وإليها يشير علي أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه بما روي من قوله:

ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك... وهذه العبادة في قبال النوعين السابقين المعبر عنهما: بعبادة العبيد والتجار.

وكيف كان: لا ريب في أن هذه المرتبة من المجاهدة، أعني كف النفس عن الأمور المقررة شرعاً، المعبر عنها في لسان علماء الدين بالمفطّرات، لها أثرها في صحة الجسم وطهارة القلب وصفاء النفس، لا سيّما وقد اقترنت بنيّة الخلوص إلى الله تعالى، والعبودية والانقياد لمراده... وهذا المقدار وإن لم يكن من أرفع درجات المجاهدة، الموجب للوصول إلى أتم الغايات وأرفعها، إلا أنها لا تكون عديمة الأثر المطلوب، إذ يكفي فيها أن تكون رافعة لرين القلب، المكتسب بالتخلّف عن الطاعة أحياناً، وتخفيف ما تكاثف منه حتى كاد أن يجعل سمع القلب وقرا وبصره أعمى. وهذا المقدار من الأثر كاف في إيجاب الصوم. مضافاً إلى إمكان حصول نتائج وآثار أهم من ذلك، مما هو في علمه من المصالح التي تكون مدركاً لأحكامه وميزاناً لتشريعاته، ويكفينا في الجزم بوجود فائدة بالغة حدّ الإيجاب من الله سبحانه، نفس إيجابه تعالى المدلول عليه بالحجة الشرعية، إذ إيجابه تعالى بالفعل بقاعدة ما سبق منا الإيماء إليه، من كون أفعاله تعالى معلّله بالغايات والأغراض، والفوائد العائدة إلى المكلّفين، يكون معلولاً للفائدة المفروضة.

ولا ريب في أن وجود المعلول دليل على وجود علّته. وهذا دليل عام في كافة الأحكام على اختلافها نوعاً، هذا مضافاً إلى ورود الأدلّة الخاصة في الموضوع الناصّة على عظيم المثوبة ومزيد الأجر:

١ــ منها الحديث القدسي الذي أومأنا إليه آنفاً، من قوله تعالى شأنه:

كل عمل ابن آدم هو له غير الصيام هو لي وأنا أجزي به.

وهذا الحديث المبارك يعطينا صورة مفخّمة للصوم، حيث أنه تعالى اعتبر هذا الواجب له من بين سائر الواجبات، وفرض الجزاء على نفسه، وأنه هو وليّ جزائه ومكافآته.

ولعل الوجه في هذا التعبير، مع أن الواجبات كلّها امتثال لأمره وعبوديةٌ له وجزاؤها كافة عليه، إذ لا مجازي سواه ولا كافي إلّا هو: الإشارة إلى خصوصية في الصوم لا توجد إلّا فيه، وهو كون الصوم بحقيقته لا يقبل منافيات الخلوص من رياء أو نحوه، فإنّ منافيات الخلوص في غير الصوم تتوقف على إيجاد صورة العمل خارجاً، فلذا يتصف العمل المفروض بأنه يكون مقروناً بالخلوص وبعدمه أخرى.

وأمّا منافيات الخلوص في الصوم، لا تتوقف على إيجاد صورة العمل خارجاً، بل يُكْتَفى بمحض دعوى الفعل من دون حاجة إلى تحققه. فلو فرض أن الصوم بحقيقته الذي هو الإمساك بحقيقته، قد تحقق بصورته المشروعة، كان ذلك ملازماً للإخلاص فيه كما هو ظاهر.

كما أن جعل جزاء الصوم عليه تعالى شأنه، للإرشاد إلى أنه لا يقوى على إحصاء فضله غيره ولا يقدر على توفيته سواه، وهذه منزلة سامية ودرجة تحطّ لديها الدرجات.

٢ــ ومنها ما كان من طريق[1] أمناء الوحي والسفرة، العترة الطاهرة(عليهم السلام)

---

(١) هذا الحديث في ص٤٢٠ من كتاب: وقائع الأيام.

عن جابر عن الرسول الكريم(ﷺ) من قوله:

وقد أعطيت في شهر رمضان خمساً لم يعطهن أمة نبي قبلي:

١ــ نظر الله(عَزَّوَجَلَّ) إليهم، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً.

٢ ـ إن خلوف أفواههم حين يمسون عند الله(عَزَّوَجَلَّ)، أطيب من ريح المسك.

٣ ـ إن الملائكة يستغفرون لهم في ليلهم ونهارهم.

٤ ـ إن الله تعالى يأمر الجنة في أن تستغفر لهم، وأن تتزيّن لهم، وأن تتهيأ لاستقبالهم.

٥ ـ إنه إذا كان آخر ليلة من الشهر غفر لهم جميعهم.

ثم قال(ﷺ): ألا ترى العمال إذا فرغوا من الأعمال وفّوا...

٣ ـ ومنها ما عن باقر علم آل محمد(ﷺ):

إنّ لله تبارك وتعالى ملائكة موكّلين بالصائمين، يستغفرون لهم في كل يوم من شهر رمضان إلى آخره، وفي كل يوم عند الإفطار ينادون: أبشروا عباد الله وقد جعتم قليلاً وستشبعون كثيراً، بوركتم وبورك فيكم.

٤ ـ ومنها ما عن الإمام الرضا صلوات الله وسلامه عليه:

إنّ لله تبارك وتعالى ملائكة موكلّين بالصائمين والصائمات، لا يعلم عددهم إلّا الله... وفي رواية أخرى:

إنّ لله تبارك وتعالى ملائكة موكلّين بهم، يمسحونهم بأجنحتهم ويسقطون عنهم ذنوبهم.

لكنه غير خفي على أولي الألباب: إن الصوم وإن كان في ظاهر الشرع، هو الإمساك عن الأمور المعهودة المقرون بالنية والإخلاص، إلّا أنه ليس أعلى مراتبه، بل أول المراتب وأدناها.

حيث أن الصوم على ما عن المستدرك عن الفقه الرضوي، حجاب على الجوارح والجوانح... فإنه قال هناك:

واعلم يرحمك الله أن الصوم حجاب ضربه الله(عَزَّوَجَلَّ) على الألسن والأسماع والأبصار وسائر الجوارح، لما لها عادة من شره. وإظهاره لتلك الحقيقة حتى يستتر به من النار. وقد جعل الله على كل جارحة حقاً للصيام، فمن أدّى حقها كان صائماً ومن ترك شيئاً منها نقص من فضل صومه بحسب ما ترك منها.

٥ ـ ومنها قوله(عليه السلام) نروي عن بعض آبائنا أنه قال:

إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وجلدك وشعرك.

٦ ـ ومنها ما عن الفقه الرضوي:

اجتنبوا الغيبة غيبة المؤمن، واحذروا النميمة، فإنهما يفطّران الصائم. ولا غيبة للفاجر وشارب الخمر واللاعب بالشطرنج والقمار.

٧ ـ ومنها ما عن صادق العترة سلام الله عليه:

لا صيام لمن عصى الإمام، ولا صيام لعبد آبق حتى يرجع، ولا صيام لامرأة ناشز حتى تتوب، ولا صيام لولد عاق حتى يبر.

٨ ـ ومنها ما ذكره العلامة الكبير السيد علي خان المدني في ص٤٢٧ من شرح الصحيفة عن أبي عبدالله(عليه السلام)، قال:

إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، إن مريم عليها السلام قالت:

إني نذرت للرحمن صوماً، أي صمتاً. فاحفظوا ألسنتكم وغضوا أبصاركم، ولا تحاسدوا ولا تنازعوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب.

ولا بدّ من تصفية العمل، وتنزيهه عن كل شركة بحيث لا يكون فيه لغير الله سبحانه نصيب. بل ينبغي أن يريد عامله عليه عوضاً في الدارين، وهذه هي الدرجة العلية العزيزة المنال، التي عليها أمير المؤمنين وأبناؤه الطاهرون سلام الله عليهم. وهي المومأ إليها فيما حكاه في شرح الصحيفة وحكاه غيره، من قول علي(عليه السلام): ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك...

وقد ذكرنا ذلك آنفاً.

ولا يخفى أنّ في لياليه وأيامه صلوات وأعمالاً، قد ملأ منها الأعلام أعلى الله درجاتهم، صحفاً كثيرة ونحن نشير إلى نزر يسير منها.

فعن[1] الإقبال عن صادق أهل البيت(عليهم السلام)، إنه يستحب الغسل في أول ليلة من شهر رمضان وليلة النصف منه. وأفضل مستحبات الشهر زيارة الشهيد الأول والسبط الثاني في أول ليلة منه وليلة النصف وليلة الآخر.

وفي وقائع[2] الأيام عن الرسول(صلى الله عليه وآله): من صلى في كل ليلة من شهر رمضان في أول الليل أو في آخره، ركعتين في كل واحدة منهما بعد الحمد التوحيد ثلاثاً، والذي بعثني بالحق نبياً أن الله(عزّ وجلّ) يبعث بكل ركعة مائة ألف ملك يكتبون له الحسنات ويمحون عنه السيئات ويرفعون له الدرجات، وأعطاه الله سبحانه

---

(١) ذكر هذا صاحب وقائع الأيام في ص٤٤٥ منه.

(٢) يعني كتاب الوقائع أيضاً في ص٤٤٩.

ثواب من أعتق سبعين رقبة.

وفي جواهر الكلام: استحباب صلاة ألف ركعة في ليالي الشهر كلها. وكيفيتها: أن يصلي في العشرين الأول منه كل ليلة منها عشرين ركعة، وفي كل ليلة من ليالي العشر الأواخر ثلاثين ركعة، وفي كل ليلة من ليلة ١٩و٢١ و٢٣ يضاف إلى وظيفتها مائة ركعة فيتم بذلك ألف ركعة.

وفي مفاتيح الجنان[1] نقلاً عن زاد المعاد للمجلسي رحمه الله، استحباب صلاة مخصوصة لكل ليلة منه.

الليلة	عدد الركعات	الكيفيّة
١	٤	ركعات بالحمد مرة والتوحيد ١٥ مرة
٢	٤	ركعات بالحمد مرة والقدر ٢٠ مرة
٣	١٠	ركعات بالحمد مرة والتوحيد ٥٠ مرة
٤	٨	ركعات بالحمد مرة والقدر ٢٠ مرة
٥	٢	ركعتان بالحمد مرة والتوحيد ٥٠ مرة
٦	٤	ركعات بالحمد مرة وتبارك في كل ركعة مرة واحدة
٧	٤	ركعات بالحمد مرة وبالقدر ١٣ مرة
٨	٢	ركعتان بالحمد مرة والتوحيد ١٠ مرات
		وبعد الفراغ يقول: سبحان الله ١٠٠٠ ألف مرة

---

(١) يعني كتاب الوقائع أيضاً في ص٢٤١.

الليلة	عدد الركعات	الكيفيّة
٩	٦	ركعات بالحمد مرة وآية الكرسي ٧ مرات وبعد الفراغ يصلي على النبي(ﷺ) ٥٠ مرة
١٠	٢٠	ركعة بالحمد مرة والتوحيد ٣٠ مرة
١١	٢	ركعتان بالحمد مرة وبالكوثر ٢٠ مرة
١٢	٨	ركعات بالحمد مرة وبالقدر ٣٠ مرة
١٣	٤	ركعات بالحمد مرة والتوحيد ٢٥ مرة
١٤	٦	ركعات بالحمد مرة والزلزلة ٣٠ مرة
١٥	٤	ركعات بالحمد مرة في الركعتين الأوليتين والتوحيد ١٠٠ مرة والأخيرتين ٥٠ مرة
١٦	١٢	ركعة بالحمد مرة والتكاثر ١٢ مرة
١٧	٢	ركعتان بالحمد مرة وأي سورة في الركعة الأولى وفي الركعة الثانية التوحيد ١٠٠ مرة وبعد الفراغ يقول: لا إله إلا الله ١٠٠ مرة
١٨	٤	ركعات بالحمد مرة والكوثر ٢٥ مرة

الليلة	عدد الركعات	الكيفيّة
١٩[(١)]	٥٠	ركعة في كل ركعة بعد الحمد الزلزلة ٥٠ مرة واستظهر[(٢)] مؤلف المفاتيح توزيع الخمسين على الخمسين فيكن مرة مرة.

---

(١) غير خفي أن ليلة القدر في واقعها مرددة بين ليلة ١٩ ـ ٢١ ـ ٢٣... ومن المعلوم أن الاحتياط في إجراء وظيفة ليلة القدر في الليالي الثلاث، التي منها نشر المصحف بين يدي القارئ وقراءة الدعاء المرسوم هناك.

وغير خفي أيضاً أن الدعاء الأخير وهو: اللهم بحق هذا القرآن ثم التوسل بالنبي(ﷺ) وبالأئمة(عليهم السلام) واحداً بعد واحد من جملة مراسيم تلك الليلة. ولا يخفى أن هناك تعليقاً أعني في المحاضرة المعدة لليلة القدر يرتبط بالموضوع ومفاده: أن ذاك الدعاء والتوسل بالقرآن وبالهداة المعصومين(عليهم السلام) أجمعين مع موجز من العمل، وفيه رواية مفادها: إن هذا العمل ينفع لقضاء الدين والأمن من مكائد السلطان.

وحاصل هذا المطلب أنه قال العلامة القمي رحمه الله في ص٤١٤ من المجلّد الثاني من سفينة البحار، باب في كيفية التوسل بالقرآن... إلى أن قال:

وتعليم الصادق(عليه السلام) رجلاً لقضاء دينه وكفاية ظلم سلطان زمانه: أن يصلي ركعتين إذا جنّه الليل في الأولى الحمد وآية الكرسي وفي الثانية الحمد وآخر سورة الحشر وهي قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾... الآية، ثم تأخذ المصحف فتضعه على رأسك وتقول: بحق هذا القرآن وبحق من أرسلته به... إلى آخر الدعاء، ثم تقول: يا الله عشراً يا محمد كذلك ويا علي كذلك، وهكذا لكل أمام حتى تنتهي إلى المهدي(عليه السلام) فتقول: يا أيها الحجة، كل واحد عشراً، ثم يسأل الله حاجته. تقضى إن شاء الله.

(٢) قال مؤلف المفاتيح بعد ذكر العدد المذكور:

والظاهر أنّ المراد أن تقرأ السورة في كل ركعة مرّة واحدة.

فإنّ من الصعب أن يقرأ سورة إذا زلزلت في ليلة واحدة ألفين وخمسمائة مرة... انتهى.

الليلة	عدد الركعات	الكيفيّة
٢٠	٨	ركعات بالحمد مرة وبأي سورة في كل ركعة.
٢١	٨	ركعات بالحمد مرة وأي سورة تيسّرت
٢٢	٨	ركعات بالحمد مرة وأي سورة تيسّرت
٢٣[1]	٨	ركعات بالحمد مرة وأي سورة تيسّرت
٢٤	٨	ركعات بالحمد مرة وأي سورة تيسّرت
٢٥	٨	ركعات بالحمد مرة والتوحيد ١٠ مرات

(١) وفي ص٤٩٢ من شرح الصحيفة ما لقراءة القدر من الثواب. وهنا حكاية جميلة سنوردها في المقام. وفي ص٤٣٥ منه نقل الأموال في ليلة القدر والحكمة في إخفائها.

وفي ص٤٣٣ معنى كون ليلة القدر خير من ألف شهر... فراجع إن شئت.

قال الشيخ العلامة الحبر النوري في ص١٧٩ من الجزء الأول من دار الإسلام:

قال السيد العالم علي بن عبدالحميد النجفي في شرح المصباح للشيخ الطوسي عند بيان ما روي أنّ من قرأ في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان سورة القدر ألف مرّة، أصبح وهو شديد اليقين بالاعتراف بما يختصّ بنا يعني الأئمة عليهم السلام :

قال كنا جماعة في ليلة يسفر صباحها عن يوم الخميس ثالث والعشرين شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة في الجامع الشريف معتكفين على دكّة.

فلمّا فرغنا من القراءة أخذ كل واحد منا مضجعه، فرأيت في النوم، ولقد كان يوم غير غالب بل قريب من السبنة، كأن أبواب السماء فتحت لم أدري هي في السماء أو في الأرض، وخرج منها جماعة على هيئات حسنة، فأقبلوا عليّ يقولون: التزم بأئمتك المعصومين فهم الأعلام الهداة الأكارم الثقات السادات البررة الأتقياء السفرة الأنجم الزهر والأوابين الغرر... إلى غير ذلك من المكارم.

فلمّا أصبحت قصصت رؤياي على أصحابي....

الليلة	عدد الركعات	الكيفيّة
٢٦	٨	ركعات بالحمد مرة والتوحيد ١٠٠ مرة
٢٧	٤	ركعات بالحمد مرة وتبارك الذي بيده الملك مرة واحدة
٢٨	٦	ركعات بالحمد مرة وفي كل ركعة آية الكرسي ١٠٠ مـرة والتوحيد ١٠٠ مرة
٢٩	٢	ركعتان بالحمد مرة والتوحيد ٢٠ مرة
٣٠	١٢	ركعة بالحمد مرة والتوحيد ٢٠ مرة، وبعد الفراغ يـصلى على النبي(صلى الله عليه وآله) ١٠٠ مرة... والحمد لله أولاً وآخراً.

المحاضرة الثانية

في الصلاة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في سورة البقرة:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[1].

أقول: أفادت الآية المباركة وجوب المحافظة على الصلاة، وهو أشد وآكد من إيجاب الصلاة، فإنه إيجاب للصلاة وإيجاب للمحافظة عليها.

والحفظ في أصل معناه: ضبط الشيء في النفس، ثم يشبه به ضبطه بالمنع عن الذهاب والحراسة له وأخذ الحيطة له كما هاهنا. فإنّ المراد بالمحافظة عليها المواظبة عليها والمراقبة لها وشدة الاعتناء وعدم تضييعها في أوقاتها[2].

---

(١) هذه آية: ٢٣٨ من السورة ٢ وهي سورة البقرة المحررة في ص٣٤٢ من المجلّد الأول من مجمع البيان وفي ص٤١٣ من الجزء الثاني من تفسير الرازي الكبير.

(٢) والصلاة المأمور بالمحافظة عليها المعبّر عنها بذات الأركان وهو المعنى الشرعي، واجبة ومندوبة. فالواجبة منحصرة في ستة أقسام: ١ـ ركعتا الطواف الواجب ٢ـ وصلاة الآيات ٣ـ وصلاة الولد الأكبر عما فات من أبويه ولم يتمكنا من قضائه ٤ـ وصلاة الملتزم بنذر أو بعهد أو بيمين ٥ـ وصلاة الأموات وإن لم تكن ذات ركوع وسجود ٦ـ والصلاة اليومية. =

والأمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى(١)، تخصيصٌ بعد التعميم لإفادة مزيد

= أمّا المندوبة ففوق حدّ الإحصاء، ومنها النوافل اليومية البالغة بضميمة أعداد ركعات اليومية ٥١ ركعة، وقد جعلت إحدى العلامات الخمس للمؤمن.

وشرعية الصلاة ووجوبها في الجملة مما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع.

أمّا الكتاب فعدة آيات... ومنها الآية المذكورة، أعني آية المحافظة.

وأمّا السنة فقد ورد فيها ما يعلم منه عظم شأنها من طريق الفريقين.

أمّا من طريق الجماعة، فمنه الحديث الذي ذكر في ص١٣١ من المجلّد الأول من فقه الأئمة الأربعة وهو قوله(ﷺ): بني الإسلام على خمس:

١ـ شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله. ٢ـ إقامة الصلاة. ٣ـ وإيتاء الزكاة.

٤ ـ وصوم رمضان. ٥ـ وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن طرقنا ما رواه في الكافي ص١٨ وص١٩ من المجلّد الثاني ما نصه:

عن أبي جعفر(عليه السلام) قال: بني الإسلام على خمسة أشياء، على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم ينادَ بشيء كما نودي بالولاية، فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه يعني الولاية...

وفي رواية أخرى قريبة من ذلك وفي ذيلها:

أمّا لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته، ما كان له على الله جلّ وعزّ حق في مثوبة ولا كان من أهل الإيمان.

أمّا الإجماع فإنعقاده مصرح به بين الفريقين.. وحينئذٍ تكون الصلاة مما ثبت وجوبه بالضرورة من الدين التي يكون المشكك فيها فضلاً عن الجاحد لها خارجاً عن ربقة الدين، تترتب عليه أحكام الكفر أو الارتداد كما لا يخفى.

(١) لا يخفى أنّ في تعيين الصلاة الوسطى أقوالاً:

١ـ فعن بعض أئمة الزيدية على ما في مجمع البيان أنها الجمعة يوم الجمعة والظهر في سائر الأيام وعن أبي جعفر(عليه السلام) وأبي عبدالله(عليه السلام) وابن عمر وأبي سعيد الخدري وأسامة وعائشة وأبي حنيفة أنها الظهر، وربّما يؤيد هذا القول سبب نزول الآية كما عرفت. وقال في المجمع في أنها أول صلاة فرضت، ثم قال: =

الأهمية لها وبيان مزيد فضل، يقتضي رفع شأنها، وإفرادها بالذكر كإفراد جبرئيل وميكائيل عن الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾... وفي أسباب نزولها قد قيل[1]: إن النبي(ﷺ) كان يصلي بالهاجرة، وكانت أثقل الصلوات على أصحابه، فلا يكون خلفه إلّا الصف والصفان، فقال(ﷺ): لقد هممت أن أحرق على قوم لا يشهدون الصلاة بيوتهم، فنزلت هذه الآية.

والصلاة في أصل معناها لغة وإن كانت هي الدعاء، إلا أنها جاءت في الكتاب العزيز لمعان:

= ٢ـ وروي عن علي(عليه السلام) قال: قال النبي(ﷺ): إن للهّ في السماء الدنيا حلقة تزول فيها الشمس، فإذا زالت الشمس سبح كل شيء لربّنا، فأمر الله سبحانه بالصلاة في تلك الساعة، وهي الساعة التي تفتح فيها أبواب السماء، فلا تغلق حتى يصلى الظهر ويستجاب فيها الدعاء.

٣ ـ وقيل في تعيين الوسطى إنها العصر، لأنها بين صلاتي الليل والنهار. وروي ذلك عن جماعة منهم ابن عباس والحسن وابن مسعود وأبو حنيفة في رواية.

٤ـ وقيل إنها المغرب لأنها وسط في الطول والقصر.

٥ ـ وقيل إنها صلاة العشاء لأنها بين صلاتين لا تقصران.

٦ـ وقيل إنها صلاة الفجر، وهو قول جماعة من الصحابة ومختار الشافعي، لأنها بين صلاة الليل وصلاة النهار وبين الظلام والضياء، ولأنها صلاة لا تجمع مع غيرها فهي منفردة بين مجتمعين. ويدل عليها القرآن الكريم لقوله تعالى: وقرآن الفجران قرآن الفجر كان مشهوداً... يعني تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار وهو مكتوب في ديوان الليل وديوان النهار.

٧ـ وقيل إنها إحدى الصلوات الخمس، لم يعينها الله سبحانه، ليصير الكل مورد الاهتمام. والمراد بالقنوت هنا: الدعاء في حال القيام. وهو المروي عن الصادقين عليهما السلام. وقيل فيه غير ذلك كما في مجمع البيان

(١) ذكر هذا في ص٣٤٢ من المجلّد الأول من مجمع البيان عن زيد بن ثابت.

١ـ منها ذات الأركان كما في الآية المفروضة، وقوله تعالى: إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً.

٢ـ ومنها المعنى الأصلي، كما في قوله تعالى: وصلّ عليهم، أي وأدع لهم، إن صلاتك؛ أي دعاءك سكن وتثبيت لهم.

٣ـ ومنها قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، أي ترحّم.

٤ـ ومنها بمعنى الدين، كما في آية شعيب(عليه السلام).

٥ـ ومنها بمعنى المكان كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

٦ـ ومنها بمعنى إظهار الشرف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾...

قال في ص٥٢ من مجمع البحرين:

قال بعض الأفاضل: الصلاة وإن كانت بمعنى الرحمة، لكن المراد بها هنا الاعتناء بإظهار شرفه(صلى الله عليه وآله) ورفع شأنه(صلى الله عليه وآله). ومن هنا قال بعضهم: تشريف الله محمداً(صلى الله عليه وآله) بقوله: إن الله وملائكته يصلون على النبي... أبلغ من تشريف آدم(عليه السلام) بالسجود.

وفي الدعاء: اللهم صلى على محمد وآل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، ليس من باب تشبيه الناقص بالكامل، بل لبيان حال من يعرف بمن لا يعرف.

وقيل: هو في أصل الصلاة لا في قدرها.

وقيل: إجعل لمحمد(صلى الله عليه وآله) صلاة بمقدار الصلاة لإبراهيم وآل(عليهم السلام). وفي آل إبراهيم خلائق لا يحصون من الأنبياء، وليس في آله نبي قط، فطلب إلحاق جملة

فيها نبي واحد بما فيه أنبياء.

أقول: وكيف كان لا يرتاب ذو مسكة في أنّ الصلاة من ضروريات الدين ومنكرها لا يكون من المؤمنين بل من المسلمين، وأنها لا يفضلها واجب غير المعرفة كما نطقت بذلك الأحاديث المتكاثرة التي منها: ما عن أبي عبدالله(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) عن النبي(صلى الله عليه وآله)، أنه قال: ما من صلاة يحضر وقتها إلّا نادى ملك بين يدي الناس: قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فاطفؤها بصلاتكم.

قلت: هذا الحديث ذكره العلامة الحبر البهائي(قدس سره) في ص٢٠ من أربعينه شرح لا غنى عن مراجعته.

ومنها ما عن أبي عبدالله(عليه السلام) من قوله، بعد ما سئل عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربّهم:

(لا أعلم شيئاً بعد المعرفة[1] أفضل من الصلاة).

---

(١) قال العلامة السيد الأجلّ المدني طاب ثراه في ص٢٨٤ من شرح الصحيفة، عند التفرقة بين العلم والمعرفة:

١ـ قيل: المعرفة إدراك متعلق بالمفرد، والعلم إدراك متعلق بالنسبة التامة الخبرية.

٢ـ وقيل: المعرفة قد يقال فيما يدرك آثاره وإن لم تدرك ذاته. والعلم لا يكاد يقال إلّا فيما أدرك ذاته، ولهذا يقال: فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله، لما كانت معرفته تعالى ليست إلّا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته.

وأيضاً فالمعرفة تقال فيما لا يعرف إلا كونه موجوداً فقط. والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وعلّته وكيفيته، ولهذا يقال: الله عالم بكذا ولا يقال عارف كما كان العرفان يستعمل في العلم القاصر وأيضاً فالمعرفة تقال فيما يتوصل إليه بتفكر وتدبّر، والعلم قد يقال في ذلك وفي غيره... =

وغير خفي ما يفيده هذا البيان من عظيم شأن الصلاة وسموّ رتبتها حيث قد جعلت في أرفع درجات الواجبات على الإطلاق، سوى معرفة الله سبحانه، التي هي أساس الطاعات ومبدأ الخيرات، وهي التي تفاضل بها النبيّون، وتفاوت لأجلها المقرّبون حسب تفاوتهم فيها.

ولا يخفى أنّ المراد من معرفة الله ـ كما قيل ـ الاطلاع على نعوته وصفاته الجلالية والجمالية بقدر الطاقة البشرية.

وأما الاطلاع على الذات المقدسة، فمما لا مطمع فيه لأحد.

قال في المحكي عن سلطان المحققين: إن مراتب المعرفة مثل مراتب النار:

١ ـ وأن أدناها من سمع أنّ في الوجود شيئاً يُعدم كل شيء يلاقيه، ويظهر أثره في كل شيء يحاذيه، ويسمّى ذلك الموجود بالنار.

ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى، معرفة المقلّدين الذين صدّقوا بالدين من غير وقوف على الحجّة.

= وفرق بينهما بفروق أخر تقدم بعضها. وأهل اللغة وبعض أهل الأصول والميزان على أنهما مترادفان.

وقال في ص٣٨٤ من مجمع البحرين في مادة: عرف.

والمعرفة باعتبار السبر قد يراد بها العلم بالجزئيات المدركة بالحواس الخمس، كما يقال: عرفت الشيء... إلى أن قال: وقد يراد بها إدراك الجزئي والبسيط المجرّد عن الإدراك المذكور كما يقال: عرفت الله ولا يقال علمته. وقد يطلق على الإدراك المسبوق بالعدم. وعلى الإدراك الأخير من الإدراكين إذا تخلّل بينهما عدم كما لو عرف الشيء ثم ذهل عنه ثم أدرك ثانياً. وعلى الحكم بالشيء إيجاباً أو سلباً.

أقول: وقريب من هذا ما ذكره السيد الأجل المتقدم في المقام الذي أومأنا إليه في ص٤٦ من الكتاب المذكور.

٢ـ وأعلى منها مرتبة من وصل إليه دخان النار وعلم أنه لا بدّ له من مؤثر، فحكم بذات لها أثر هو الدخان، ونظير هذه في معرفة الله تعالى معرفة أهل النظر والاستدلال، الذين حكموا بالبراهين القاطعة على وجود الصانع تعالى شأنه.

٣ـ وأعلى منها مرتبة من أحسّ بحرارة النار بسبب مجاورتها وشاهد الموجودات بنورها وانتفع بذلك الأثر، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى معرفة المؤمنين المخلصين الذين اطمأنّت قلوبهم وتيقنوا أن الله نور السموات والأرض كما وصف به نفسه.

٤ـ وأعلى منها مرتبة من احترق بالنار بكليته وتلاشى فيها بجملته. ونظير هذه المرتبة في معرفة الله سبحانه معرفة أهل الشهود والفناء في الله في الدرجة العليا والمرتبة القصوى(١)... رزقنا الله الوصول إليها والوقوف عليها.

---

(١) أقول: الظاهر أن الفرق بين اليقين والمعرفة هو الفرق بين العلم والمعرفة، حيث أنهم لم يفسّروا اليقين إلّا بالعلم.

قال في ص٥٢١ من مجمع البحرين:

واليقين العلم وزوال الشكّ، وربّما عبّروا بالظن عن اليقين وباليقين عن الظن. ويقنت بالكسر يقيناً وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى.

وفي الحديث: لم يقسم بين الناس شيء أقل من اليقين.

لكن هذا الفرق بينهما إنما هو بلحاظ المعنى اللغوي كما صرح به السيد العلامة الأجل في شرح الصحيفة، حيث أفاد في ص٣٢٢: واليقين في اللغة: العلم الذي لا شكّ فيه، وفي الاصطلاح: اعتقاد مطابق ثابت لا يمكن زواله، وهو في الحقيقة مؤلف من علمين العلم بالعلوم والعلم بأن خلاف ذلك العلم محال. وعند أهل الحقيقة رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان.

وقيل: مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب وملاحظة الأسرار بمخالفة الأفكار.

أقول: والظاهر أن ما ذكره هاهنا في معنى اليقين لا يتجاوز ما ذكره في ص٢٠٩ وإن اختلف التعبير، حيث أنه بعد أن ذكر قريب ما نقلناه عنه هنا قال: =

= وقال المحقق الطوسي في بعض رسائله: اليقين اعتقاد جازم مطابق ثابت لا يمكن زواله، وهو مؤلف من علمين العلم بالمعلوم والعلم بأن خلاف ذلك محال، وله مراتب: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. والقرآن ناطق بذلك قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾.

قال: وهذه المراتب مرتّبة في الفضل والكمال وهي مثل مراتب معرفة النّار.

١ـ فالعلم بالنّار مثلاً بتوسط الدخان هو علم اليقين، وهو العلم الحاصل لأهل النظر والاستدلال بالبراهين القاطعة.

٢ـ والعلم بمعاينة جرم النار المفيض للنور، وهو العلم الحاصل بالكشف للخلّص من المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم بالله وتيقنوا بمعاينة القلوب أنّ: الله نور السموات والأرض كما وصف به نفسه سبحانه.

٣ـ والعلم بالنار بالوقوع فيها والاحتراق بها، كيفيتها التي لا تفصح عنها العبارة، وهو حق اليقين. وهو العلم الحاصل بالاتصال المعنوي لأهل الشهود والفناء في الله، وهذه المرتبة هي الدرجة العليا والمنزلة الفضلى.

أقول: وهذه المعاني لليقين عين ما قلناه من معاني المعرفة عن المحقق سلطان العلماء فتأمل ولاحظ.

ثم قال السيد المتقدم: قال الشيخ بيان الحق في كتاب خلق الإنسان:

قالوا أن اليقين يقينان:

١ـ أحدهما: ينفي الشكّ وهذا لا يغلب الشهوة وهو يقين التوحيد.

٢ـ والآخر نور مشرق للصدر غالب للشهوات مبطل للاختيار صارف لصاحبه عن أمور الدنيا والآخرة وأحوال الملكوت معاينة، وأصبحت نفسه لأمره خاضعة طائعة. وعلى هذا جاء عن الله في الزبور المنزل على داود(عليه السلام): لو صدق يقينكم ثم قلتم للجبل انتقل فقع في البحر لوقع.... ثم قال المؤلف المتقدم: ومما يدل على تفاوت اليقين حتى في الأنبياء(عليهم السلام) ما روي في مصباح الشريعة عن الصادق(عليه السلام) أنه قال: اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب كذلك أخبر رسول الله(صلى الله عليه وآله) من عظم شأن اليقين، حتى ذكر عنده أن =

أقول: وهذه الدرجة لعلّها هي التي أومأ إليها أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، من قوله: لو انكشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً...

وكيف كان، لا ريب أن الميزان في ارتفاع الدرجات والقرب من الرضوان، هو ارتفاع رتبة المعرفة واليقين.

كما ورد في أنه ذكر عند النبي(ﷺ) كلمة الله وروحه المسيح(عليه السلام) وأنه كان يمشي على الماء، فقال(ﷺ): لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء. يشير(ﷺ) بذلك إلى وجود مراتب أخرى لليقين، تؤهل صاحبها إلى ما هو أرفع من تلك الدرجات وأسمى، حيث أن الإنسان كلّما ازداد يقيناً بالله تعالى ومعرفة، ازداد طاعة للمولى وقرباً منه، وكلّما ازداد قرباً ازدادت الموجودات انقياداً له وتسخيراً، كما ورد في الحديث القدسي من قوله تعالى شأنه:

= عيسى(عليه السلام) كان يمشي على الماء، فقال (ﷺ): لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء...

فدلّ هذا على أن الأنبياء(عليهم السلام) مع جلالة قدرهم ومحلّهم من الله كانت تتفاضل على حقيقة اليقين لا غير، ولا نهاية لزيادة اليقين على الأبد.

والمؤمنون أيضاً يتفاوتون في قوة اليقين وضعفه. فمن قوي منهم يقينه فعلاً فحصل منه التبري من الحول والقوة إلاّ بالله والاستقامة على أمر الله وعبادته ظاهراً وباطناً. قد استوت عنده حالة العدم والوجود والزيادة والنقصان والمدح والذم والعزّ والذلّ، لأنه يرى كلّها من عين واحدة.

ومن ضعف يقينه تعلّق بالأسباب ورخص لنفسه بذلك واتبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة، والسعي في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها يقرّ بأنه لا مانع ولا معطي إلا الله، والعبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له، والجهد لا يزيد في الرزق، ويتكرر ذلك بفعله وقوله. قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أقول: نقلنا هذا بطوله لما فيه من فوائد. فتدبره.

عبدي أطعني تكن مثلي أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول له كن فيكون.

ومصداق هذا الحديث المبارك ومصدقه ما ذكر، من أنه خرج(١) موسى الكليم(عليه السلام) يوماً يرعى غنمه، فانتهى إلى واد كثير الذئاب، فأدركه التعب والنوم، فبقي متحيراً أن اشتغل بالغنم عجز عن ذلك من غلبة النوم والتعب، وإن نام غارت الذئاب على الغنم، فرمق بطرفه السماء وقال: أحاط علمك ونفذت إرادتك وسبق تقديرك، ثم وضع رأسه فنام فلما استيقظ وجد ذئباً واضعاً عصاه على عاتقه وهو يرعى الغنم. فتعجب من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى كن كما أريد أكن لك كما تريد. ومثل ذلك ما ذكر(٢) أيضاً عن الشيخ أبي عبدالله الاسكندري قال: خرجت إلى البادية لعلّي أرى أحداً من الرجال أو النساء. فرأيت جارية، فقلت في نفسي كان اجتماعي برجل أولى من امرأة. فقالت: يا عبدالله تريد الاجتماع بالرجال وأنت لم تصل إلى مقام النساء! فقلت: ما أكبر دعواك. فقالت الدعوى بغير بينة باطلة. قلت: فما بينتك؟ قالت: هو لي كما أريد لأني له كما يريد. ثم قالت: ما تريد في هذه الساعة؟ قلت: أريد سمكاً مشوياً. فقالت: هذا من ضعف يقينك ونزول مقامك، هل سألت جناحاً من الشوق تطير به كطيراني ثم طارت في الهواء، فعدوت خلفها، وقلت لها: بحق الذي أنعم عليك جودي علي بدعوة، قالت: أنت ما تريد إلّا الرجال.

ومثل ذلك ما قيل(٣) من أن ضيفاً جاء إلى سلمان الفارسي رضوان الله تعالى

---

(١) ذكر هذا الصفوري الشافعي في ص٩٤ من المجلّد الأول من نزهة المجالس.

(٢) ذكر هذا الصفوري في ص١٧ من المجلّد الثاني من كتابه نزهة المجالس.

(٣) قد ذكر ذلك أيضاً المؤلف المذكور في ص٩٦ من المجلّد المزبور. =

عليه، فخرج إلى الصحراء، فوجد ظباءً وطيوراً، فأشار إلى ظبي وطير فأقبلا: فقال الضيف: سبحان الله قد سخر الله لك الظباء والطيور. فقال سلمان: هل رأيت عبداً أطاع فعصى عليه شيء؟.

وكيف كان يكفي في الصلاة فضلاً، وقوعها تلواً للمعرفة في الفضل، الكاشف عمّا فيها من عظيم الفوائد وجسيم العوائد. فالمسلم وإن كان يكفيه في وجوب الطاعة استقلال العقل بذلك، نظراً إلى إلزامه بوظائف العبودية، التي هي ضريبة لازمة عليه بطبيعة الحال بلا توقف في ذلك على رعاية جلب منفعة أو تخلص من وقوع في مهلكة، إلّا أننا مع ذلك علمنا بمقدمات قطعية الانتاج، أنه ما من واجب إلّا وفيه مصلحة تعود على المكلفين نوعاً أو شخصاً، كما أنه ما من

= وقال أيضاً في ص١٧ من المجلّد الثاني:

رأيت في فردوس العارفين قال عبدالله بن زيد: خرجت إلى بيت المقدس، فضللت الطريق، وإذا امرأة. فقلت لها: يا غريبة أنت ضالة... فقالت: كيف يكون غريباً من يعرفه وضالاً من يعرفه. ثم قالت: خذ طرف عصاي وتقدم، ففعلت فمشيت قليلاً فإذا أنا ببيت المقدس، فتعجبت من ذلك، وقلت: ما هذا؟ فقالت: يا هذا سيرك سير الزاهدين وسيري سير العارفين، الزاهد سيّار والعارف طيّار، فمتى يلحق السيّار بالطيّار ثم غابت عني...

وذكر العلامة الأجل السيد علي خان المدني في ص٢٠٩ من شرح الصحيفة قال: ومن أخبار أهل اليقين ما حكاه إبراهيم الخواص، قال:

لقيت غلاماً كأنه سبيكة فضة... فقلت إلى أين؟ فقال: إلى مكّة. فقلت: بلا زاد ولا راحلة؟ فقال: يا ضعيف اليقين الذي يحفظ السموات والأرض لا يقدر أن يوصلني إلى بيته بلا علاقة...

يا عين سحيّ أبداً　　　يا نفس موتي كمدا
ولا تخشي أحداً　　　إلّا الجليل الصمدا

فلمّا رآني ناداني: يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعف من اليقين.

إن من وثق بالله في رزقه لم يطلب الرزق قبل وقته.

محرّم إلّا وفيه مفسدة كذلك، بحيث لو وصل إليها العقل كان قد أوجب الأولى جزماً ومنع الأخرى حتماً. وإلى هذا يشير قول أهل العلم في أن الواجبات الشرعية ألطاف في الواجبات العقلية، مضافاً إلى ما قد يصل إليه العقل من إدراك بعض الفوائد، لنوع العبادة الذي منه الصلاة، وهي تجديد علاقات الإنسان بينه وبين ربّه، بواسطة ذلك المشروع، إذ وقوف العبد في اليوم والليلة خمس مرات بين يدي سيّده حامداً الله مقدّساً له تضرعاً إليه مستكيناً لفضله، معترفاً بأنه ولي أموره في النشأتين، ولي الرحمة والنعمة ودافع النقمة في الدارين، يكون مؤهلاً بطبيعة الحال للفيض من المبدأ الفياض، الذي يستحيل عن المحلّ القابل.

فإن تصحيح المنع مع فرض استعداد المحل للفيض، مستلزم نسبة البخل إليه سبحانه تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، إذ أنه السلطان على الإطلاق والجواد على الإطلاق، ولا يمنع عن الفيض منه تعالى إلّا خساسة المحل وعدم استعداده للفيض المفروض. فإن قابلية المحل واستعداده للفيض الربوبي من الشرائط العقلية، بحيث يمتنع تحققه منه تعالى بدونه، إذ أنه يكون من وضع الشيء في غير محلّه، الذي يستحيل صدوره عن العقلاء. فما ظنّك بباريء العقل وموجده جلّ وعلا...

وعلى أي، الصلاة أحبّ القربات إلى الله سبحانه، وأفضل الطاعات[1] كما

---

(١) أقول: ولأهميتها كثرت أحكامها وحدودها، إذ قد ورد في أن لها أربعة آلاف حدّ.

قال العلامة القمي طاب ثراه في ص٤٢ من سفينة البحار: قال الصادق(عليه السلام): للصلاة أربعة آلاف حدّ، وفي رواية أخرى: أربعة آلاف باب ثم قال: بيان: فسّر الشهيد رفع الله درجته الأبواب والحدود بواجبات الصلاة ومندوباتها وجعل الواجبات ألفاً تقريباً وصنف لها الألفية، والمندوبات ثلاثة آلاف وألف لها النفلية.

ثم قال: قال المجلسي وقال الوالد(قدس سره): لعل المراد بالأبواب والحدود المسائل المتعلقة بها هي تبلغ أربعة آلاف بلا تكلّف.

يدل عليه مضافاً إلى ما سمعت ما ورد فيها من أنها عمود الدين، التي أن قبلت قبل ما سواها وإن ردّت ردّ ما سواها. وأنها أول عمل ينظر فيه من أعمال ابن آدم، فإن صحّت نظروا في أعماله الأخرى وإلّا فلا. وإنها معراج المؤمن، وسلّم تسنّمه المقامات العالية والرتب الرفيعة، وأنها قربان كل تقي، الموصلة له إلى ساحة الرحمة ومحط الفيض المقام الكريم، وأنها الناهية عن الفحشاء والمنكر، المطهرة للقلب، والماحية للذنب، وأنها خير موضوع فمن قلّل منها فمن حظّه من الخير قلّل، ومن استكثر منها فلحظه من الخير وفر. وهي الفلاح والنجاح وخير الأعمال الذي يعلن به الإنسان في اليوم والليلة في بعض المقامات ستين مرّة(١)...

حيث أنه قد جعل ذلك في الأذان من الأصول وفي الإقامة من الفصول وأنها التي قد ورد فيها بأنّ فريضة منها خير من عشرين بيتاً مملوءاً ذهباً ينفق كلّه في الطاعات وسبل الخيرات. وفي آخر أنها أفضل من الدنيا وما فيها ألف مرّة...

ولعل ما ذكر إنما هو بيان الجهة المشتركة في الفرائض بل مطلقاً، لعموم الدليل وعدم الحاجة إلى التقييد، فتبقى الخصوصيات الأخرى خارجة عن التحديد، لها حظها الوافر مما رتب عليها من الثواب الجسيم والأجر العظيم، كخصوصيات الزمان والمكان والطوارئ الأخرى من الجماعات ومزاياها...

وينبغي أن يستقرب ولا يستغرب ما فرض من الخير الكثير الذي أعدّ لهذا الواجب الخطير، فإنه المناسب بذي الرحمة التي لا تتناهى وذي السلطان الذي لا

---

(١) إذا أردت بيان ما يتعلق بمشروعية الأذان وكيفية شرعيته، فراجع: آيات الأحكام للحائري في مقدمات الصلاة.

وراجع ص١٦ من سفينة البحار من الجزء الأول.

ومن كتب أهل السنة والجماعة: بداية المجتهد وفقه الأئمة الأربعة.

يعرضه النقصان، بل الأمر فوق ذلك بما لا يحصى، كما ينبئك عنه الحديث القدسي، الذي نص بعض فقراته:

فلو أن أهل سمواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً، ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمّل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرّة، فكيف ينقص ملك أنا قيّمه...[(١)].

بل العطاء الجسيم هو اللائق بالعظيم الكريم، الذي قد قيل في معناه بأنه من إذا غفر ذنب عبده غفر لكل من فعل مثل ذلك الفعل، وغفر لكل من اسمه اسم ذلك العبد... روي أن سائلاً وقف على باب رفيع، يسأل شيئاً فأعطي قليلاً، فجاء في اليوم الثاني بفأس وأخذ يخرّب الباب، فقيل له: ولم تفعل ذلك؟ قال: أمّا أن يجعل الباب لائقاً بالعطيّة أو العطيّة لائقة بالباب...

روي عن بعض أهل المعرفة أنه قال: رأيت امرأة في عرفات وهي تقول: يا

---

(١) ما ذكرناه جزء من حديث مفصّل ذكره العلامة الأجل السيد علي خان المدني في ص١٧٠ من شرح الصحيفة قال: روي ثقة الإسلام في الكافي بإسناده عن الحسين بن علوان قال: كنا في مجلس يطلب فيه العلم وقد نفذت نفقتي في بعض أسفاري. فقال لي بعض أصحابنا: لمن تؤمّل لما قد نزل بك؟ فقلت: فلاناً. فقال: والله إذن لا يسعف حاجتك ولا يبلّغك أملك ولا ينجح طلبتك. قلت: وما علمك رحمك الله؟ قال: إن أبا عبدالله(عليه السلام) حدّثني أنه قرأ في بعض الكتب: إن الله تعالى يقول: وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي، لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلّة عند الناس، ولأنحينّه عن قربي ولأبعدنّه عن فضلي. أيؤمّل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي... إلى أن قال تعالى شأنه:
أبخيل أنا فيبخلني عبدي، أو ليس الجود والكرم لي، أو ليس العفو والرحمة بيدي، أو ليس أنا محل الآمال، فمن يقطعها دوني، أفلا يخشى المأمّلون أن يؤمّلوا غيري، فلو أن أهل سمواتي وأهل أرضي إلخ... الحديث.

مولاي أتعبتني حتى إذا بلغت منعتني، فرق لها قلبي. فقلت لها: إن لي ثلاثين حجّة وقد وهبتها لك. فقالت: يا هذا أنت كريم وربّك أكرم، أتراه مع كرمه لا يهب لي حجّة واحدة، ولكن اصبر فقد رفعت قصتي إليه وأنا منتظرة الجواب. فبينما هي كذلك إذ سقطت ورقة في حجرها فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم قد قبلناك ووهبنا الكل لأجلك.

هكذا يؤدي الإخلاص، وإلى هذا وفوقه بدرجات تؤدي الطاعات، كيف لا تكون المعرفة المقترنة بالطاعة مؤدية لذلك، والله سبحانه وتعالى شأنه يقول في الحديث القدسي: عبدي أطعني تكن مثلي. أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول له كن فيكون. كما قد مرّ بيانه.

فإلى المعرفة أيها العاملون... وإلى الطاعة أيها العارفون.

المحاضرة الثالثة

في الصلاة أيضا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[1].

قال في مجمع البيان عند ذكر معنى الآية المباركة:

معناه: فإذا فرغتم من صلاتكم أيها المؤمنون وأنتم مواقفوا عدوكم، فاذكروا الله قياماً وقعوداً، أي في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم يعني مضطجعين... إلى أن قال: أي ادعوا الله في هذه الأحوال لعلّه ينصركم على عدوكم ويظفركم بهم... إلى آخر ما ذكره هناك.

أقول: غير خفي أن الآية المباركة ذكرت لفظ الصلاة مرّتين، والمراد من الصلاة في مبدأ الآية هي الصلاة المقصورة في الحرب، التي أشارت الآيات السابقة على الآية المذكورة من قوله تعالى:

---

(١) هذه الآية هي آية ١٠٣ من سورة النساء، وموقعها الصحيفة ١٠٣ من المجلّد الثاني من مجمع البيان.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾.

وإن وقع الاختلاف في معنى القصر في الآية من أنه قصر الرباعية على ركعتين كقصرها في السفر، كما هو قول جماعة من المفسّرين وقول أكثر الفقهاء، وهو مذهب أهل البيت(عليهم السلام) كما في مجمع البيان، ومن أنه قصر صلاة الخائف من صلاة المسافر، وهما قصران قصر الأمن من أربع إلى ركعتين، وقصر الخوف من ركعتين إلى ركعة واحدة. عن جابر ومجاهد. وقد رواه أيضاً أصحابنا. إلى غير ذلك من الوجوه المذكورة هناك. ومن شرعية الصلاة في تلك الأحوال الخطرة وعدم سقوطها حتى في تلك المواقف الرهيبة، يُعرف ما لهذا الواجب من الأهمية والعظمة، كما تعرف أهميته أيضاً من محافظة أئمة الدين عليها واهتمامهم بها حتى في أهم مواقفهم وأحرج مقاماتهم، هذا علي أمير المؤمنين(عليه السلام) يفرش له في حرب صفين بين الصفين لأداء ورده، والسهام تمرّ بين أذنيه، فلا يصده مثل ذلك الخطر عن أداء ورده. وربما قال له قائل في ذلك، فيجيبه(عليه السلام): بأننا لم نقاتلهم إلّا لأجل الصلاة... وهذا نجله السبط(عليه السلام) وصلاته في يوم عاشوراء، الذي لم يسمع بمثله في حوادث الدهر... وهذه عقيلة أمير المؤمنين سلام الله عليهما في موقفها ليلة الحادي عشر من المحرم وما هي فيه من المحن والشدائد، التي ليس في وسع البيان بيانها وتحديدها، تقوم في تلك الليلة بأداء وردها من صلاة التهجد من جلوس، فيراها الإمام السجاد وزين العباد(عليه السلام) فيقول لها، كالمستغرب من اقتصارها على أداء وردها من جلوس، وأنه يرى شأن عمّته أجل من أن تؤثر عليها الحوادث والكوارث في تغيير عبادتها ولو من حال مشروع إلى حال دونه ولو كان مشروعاً، فتجيبه العقيلة بأن الضعف قد أفقدها فلا تستطيع القيام.

نعم. هكذا النفوس الرفيعة، هكذا المعارف الحقة، هكذا النوايا الصادقة. نعم. هكذا ينبغي أن يكون من أذهب الله عنهم الرجس بنص فرقانه وطهّرهم تطهيراً...

وأما الصلاة في منتهى الآية، فلا ريب في أنها هي الصلاة التامة الحدود، فلذا قال في مجمع البيان:

اختلف في تأويله أي الاطمئنان فقيل: معناه إذا استقررتم في أوطانكم وأقمتم في أمصاركم فأتموا الصلاة التي أذن الله لكم في قصرها. وقيل: معناه إذا استقررتم بزوال خوفكم فأتموا حدود الصلاة.

وقال عند تفسير قوله تعالى: إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً:

اختلف في تأويله، فقيل: معناه إن الصلاة كانت على المؤمنين واجبة مفروضة، وهو المروي عن الصادقين عليهما السلام. وقيل: معناه فرضاً موقوتاً أي منجماً تؤدونها في نجمها. والقولان متقاربان.

أقول: لا ريب في إفادة الآية مزيد الاهتمام في الصلاة، فلذا تراها لا تسقط في حال من الأحوال حتى في مقام الأهوال ومواطن النزال، كما أومأ إلى ذلك صدر الآية. وقد عرفت ما ورد فيها من التحبيب والترغيب.

كما أنها قد ورد فيها من التهديد والتوعيد مثل ما ورد فيها من الترغيب... منها ما عن الرسول (صلى الله عليه وآله) في قوله: ليس مني من استخف[1] بصلاته ولا يرد عليّ

---

(١) قال في ص٣٧٤ من مجمع البحرين عند ذكر هذا الحديث:

أي من استهان بها ولم يعبأ بها ولم يعظم شعارها مثل قولهم: استخف بدينه إذا أهانه ولم يعبأ به... إلى أن قال: وفي حديث علي (عليه السلام): تخففوا تلحقوا أي تخففوا من الذنوب تلحقوا من سبقكم في العمل الصالح. =

الحوض لا والله. وقول الصادق(عليه السلام): لا تنال شفاعتنا مستخفاً بصلاته.

وعن أبي جعفر(عليه السلام) أنه قال: بينما رسول الله(صلى الله عليه وآله) جالس في المسجد إذ دخل رجل، فقام فصلى فلم يتم ركوعه ولا سجوده. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): نقر كنقر الغراب لئن مات هذا وهكذا صلاته، ليموتن على غير ديني[١] وعن أبي جعفر(عليه السلام)ـ أيضاًـ قال: لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل منه كل يوم خمس مرات، أكان يبقى على جسده من الدرن شيء... قلنا: لا. قال(عليه السلام): فإن مثل الصلاة كمثل النهر الجاري، كلّما صلى صلاة كفّرت ما بينهما من الذنوب.

أقول: وقد جمع أمير المؤمنين(عليه السلام) في بعض[٢] خطبه بين مضامين بعض الآيات والأحاديث، كما قد جمع بين الترغيب والترهيب... فقال عليه الصلاة والسلام:

= قال بعض الشارحين: فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً، وما أبدع غورها من كلمة وأنفع نطقها من حكمة.

إلى أن قال: وفي الخبر: إن بين أيدينا عقبة كؤود لا يجوزها إلا المخف أي من الذنوب وأسباب الدنيا وعُلَقِها، هو من قولهم: خف الرجل فهو مخف إذا خف حاله أو دابته وإذا كان قليل النقل.

أقول: ومن كلام أمير المؤمنين(عليه السلام) هذا، أخذ سلمان رضي الله عنه حين ولي بعض الأطراف وجاءها السيل في بعض الأيام، فأخذ مضارب الناس وأبنيتها وأثاثها، ولم يكن عند الوالي شيء من أثقال الدنيا، سوى عصاه وجلد كبش، فلما ضايق القوم السيل واشتغل الناس في نقل أثقالها أخذ سلمان عصاه وجلد الكبش وصعد إلى رأس جبل يطل على الناس، فجعل يناديهم ويقول: هكذا ينجو المخفّون غداً.

(١) قلت: والأمر كذلك فإنه كما قال بعضهم: أما أن تصلي صلاة تليق بمعبودك أو تتخذ معبوداً يليق بصلاتك.

(٢) هذه الخطبة موجودة في ص٥٦٩ من المجلد الثاني من شرح النهج للمعتزلي.

تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها واستكثروا منها وتقرّبوا بها، فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً... ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾... وإنها لتحتّ الذنوب حَتّ الورق وتطلقها إطلاق الرّبق. وشبهها رسول الله(ﷺ) بالحمّة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرّات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن. وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم زينة متاع ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول الله سبحانه:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾...

وكان رسول الله(ﷺ) نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنة لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، فكان يأمر به أهله ويصبّر عليها نفسه...

إلى آخر ما ذكره(عليه السلام) في المقام.

وقد ذكر الجزائري في آياته عن علي بن إبراهيم أنه بعد نزول الآية، كان رسول الله(ﷺ) يجيء كل يوم عند صلاة الفجر حتى يأتي باب علي وفاطمة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فيقول علي وفاطمة والحسن والحسين: وعليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم يأخذ رسول الله(ﷺ) بعضادتي الباب فيقول: الصلاة الصلاة يرحمكم الله. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. فلم يزل يفعل ذلك إذا شهد المدينة.

وفي بعض الروايات إنه يجيء في كل يوم وليلة خمس أوقات الصلاة...

أقول: وكيف لا يهتم رسول الله(ﷺ) وآله(عليهم السلام) بإقامة الصلاة، وهي التي قالوا بأنها عمود الدين وأنها عنوان المسلم وأنها الشفاء من أعظم الداء.

قيل: مرض موسى الكليم(عليه السلام) واشتد وجع بطنه، فشكا إلى الله تعالى، فدلّه على عشب في المفازة فأكل منه فعوفي بإذن الله تعالى. ثم عاوده المرض في وقت آخر، فأكل ذلك العشب فازداد مرضه. فقال ربي أكلته أولاً فانتفعت به وأكلته ثانياً فازداد مرضي. فقال تعالى شأنه: لأنك في المرة الأولى ذهبت مني إلى الكلاء فحصل فيه الشفاء، وفي المرة الثانية ذهبت منك إلى الكلاء فازداد المرض. أما علمت أنّ الدنيا كلّها سمّ قاتل وترياقها اسمي.

وأنت خبير: بأن هذا أثر الاسم الواحد، فكيف في الفعل المشتمل على أسماء ومتضمّن لأعظم المدح والثناء والاعتراف بالربوبية والاستكانة إليه تعالى شأنه، بالخضوع والدعاء. فلعمري إن ذلك هو الدواء الأكبر والترياق الأعظم.

وكيف كان، ينبغي للعاقل أن يكتفي في الانبعاث نحو الواجب بعلمه بأنه إيجاب من حكيم عليم، إذ إنه بحكمته يستدل على اتقان التدبير، وبعلمه يستدل على حسن مواقع التكليف. فكيف لو كان ذلك مسبوقاً بالبيان الشافي والإرشاد الكافي الوافي.

وهل يبقى مجال للتساهل أو التكاسل بعد قوله تعالى بمدح المؤمنين كالمباهي بهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1] ثم يذكر لهم ما أعدّه من الخير الذي لا يحصى والنعم التي لا تستقصى، فيقول وهو الصادق الأمين: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

(١) هذه الآية هي الآية ١٦ من سورة السجدة وهي سورة آلم تنزيل، الواقعة في ص٣٣٠ من المجلد الرابع من مجمع البيان.

قد قيل: هذه أعظم آية وردت في ذكر الثواب، حيث لم تجعل له حدّاً محدوداً...

قال في مجمع البيان عند تفسير قوله تعالى[1]:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ أي إنها ترتفع جنوبهم عن مواضع اضطجاعهم لصلاة الليل، وهم المتهجدون بالليل الذين يقومون عن فرشهم للصلاة. عن الحسن ومجاهد وعطا، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله(عليهما السلام).

قال: وروى الواحدي بالإسناد عن معاذ بن جبل، قال: بينما نحن مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) في غزوة تبوك، وقد أصابنا الحرّ فتفرق القوم، فإذا رسول الله(صلى الله عليه وآله) أقربهم مني فدنوت منه(صلى الله عليه وآله) فقلت: يا رسول الله انبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال(صلى الله عليه وآله): لقد سألت عن عظيم وأنه ليسير على من يسّره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم شهر رمضان. قال(صلى الله عليه وآله): وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير... قال: قلت: أجل يا رسول الله. قال(صلى الله عليه وآله): الصوم جنّة والصدقة تكفّر الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله، ثم قرأ هذه الآية:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ ... الآية.

وبالإسناد عن بلال قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم. فإن قيام الليل قربة إلى الله ومنهاة عن الإثم وتكفير للسيئات ومطردة للداء عن الجسم.

ثم قال المؤلف المذكور في الصحيفة نفسها عند ذكر قوله تعالى:

---

(١) ذكر ذلك في ص٣٣١ من المجلد الرابع من التفسير المتقدم.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، أي لا يعلم أحد ما خبئ لهؤلاء الذين ذكروا، مما تقربه أعينهم. قال ابن عباس: أما هذا فلا تفسير له فالأمر أعظم وأجل مما يعرفون تفسيره. وقد ورد في الصحيح عن النبي(ﷺ) أنه قال: إن الله يقول: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بل هو ممّا أطلعتكم عليه: إقرأوا إن شئتم: فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة عين... الآية، رواه البخاري ومسلم جميعاً... إلى أن قال:

روي عن أبي عبدالله(عليه السلام) أنه قال: ما من حسنة إلّا ولها ثواب مبين في القرآن إلا صلاة الليل، فإن الله عزّ اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾... الآية.

قيل: وقال لقمان(عليه السلام) لابنه: يا بني لا يكن الديك خير منك فإنه إن انتصف الليل ذكر ربّه.

ومن الآيات الواردة على المجتهدين والقائمين للعبادة في الليل، قوله تعالى في الآية ٩ من سورة الزمر المذكورة في ص٣٩ من المجلد الرابع من مجمع البيان.

وقد نبّه المؤلف هناك بالرواية عن أبي جعفر(عليه السلام)، وهي قوله عزّ قائله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]، وأيضاً مما مدح الله تعالى

---

(١) قال العلامة السيد الأجل السيد علي خان المدني في ص٥٦ من شرح الصحيفة:

قال بعضهم: المحاسن البدنية ثلاثة أمور:

الأول الصورة الحسنة، كما قال تعالى: وصوركم فأحسن صوركم. =

شأنه به المتهجدين القائمين بصلاة الليل، قوله تعالى في سورة الذاريات في الآية ١٧ ... منها: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾...

قال في مجمع البيان: قال أبو عبدالله(عليه السلام): كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرّة في السحر. ومما ورد في صلاة الليل أيضاً قوله عزّ قوله في سورة بني إسرائيل: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾.

قال الجزائري في آيات أحكامه(١):

والخطاب له(صلى الله عليه وآله) فيدل على وجوب صلاة الليل واختصاصه به(صلى الله عليه وآله) يمنع من التأسي فيه، فيكون استحبابه لغيره(صلى الله عليه وآله) مستفاداً من دليل آخر.

= الثاني حسن القامة والتعديل، كما قال تعالى، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.

الثالث تمكينه من القيام والقعود والاستلقاء والانبطاح والاضطجاع.

وذلك أنه تعالى ركّب الخلق على أصناف أربعة:

أحدها: ما يشبه القائمين كالأشجار.

وثانيها ما يشبه الراكعين كالبهائم.

وثالثها ما يشبه الساجدين كالحشرات التي تدبّ على وجوهها وبطونها.

ورابعها: ما يشبه القاعدين كالجبال.

ثم إنه سبحانه خلق الإنسان قادراً على جميع هذه الهيئات، ومكّنه من ذكره على جميع هذه الأحوال. كما قال الله تعالى شأنه:

الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم... الآية.

إلى آخر ما ذكره السيد الأجل المتقدم في المقام الذي منه قوله:

فمن هذا الوجه قالوا: إن الإنسان عالم صغير، ومن حيث إنه يتغذى وينمو قالوا إنه نبات، ومن حيث أنه يحس ويتحرك قالوا إنه حيوان، ومن حيث إنه يدرك حقائق الأشياء قالوا إنه ملك. فصار مجمعاً لهذه المعاني، ليس في خلق الله سبحانه من يجمعها غيره.

(١) ذكر في ص٣٤ ج١.

وقيل: نافلة لك ولغيرك.

وإنما خصه(عَزَّوَجَلَّ) بالخطاب لما في ذلك من دعاء الغير للاقتداء به، والحث على الاستنان بسنّته. ولعل هذا القول هو الأنسب بالسياق.

وقيل: إنها كانت واجبة عليه فنسخ وجوبها بهذه الآية... إلى أن قال في معنى المقام المحمود:

ويجوز أن يكون قد ضمّن يبعثك معنى الإقامة، أي يقيمك مقاماً يغبطك فيه الأولون والآخرون وهو المقام الذي يعطي فيه لواء الحمد فيوضع في كفه وتجتمع تحته الأنبياء والملائكة فيكون أول شافع وأول مشفع.

أقول: حقيق أن يقال: لو لم يكن في البين للتهجد وصلاة الليل إلّا المدح والثناء من ربّ الأرباب، في هذه الآيات المباركة، لكان ذلك فوق حدّ الكفاية للانبعاث نحو هذا المشروع بدرجات.

فكيف وقد وعد الله تعالى شأنه المقيمين على هذه الطاعة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال، من جزيل الثواب وعظيم الأجر...

فليهنأ المحيون للّيل بالعبادة بمشاهدتهم والحشر في زمرتهم إنه أرحم الراحمين.

المحاضرة الرابعة

في أطوار من الكلام في الزكاة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في قرآنه المجيد وفرقانه الحميد:

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ(١) أَن تُوَلُّواْ(٢) وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ

---

(١) هذه الآية هي الآية ١٧٧ من سورة البقرة الكائنة في ص٢٦٠ من تفسير مجمع البيان المجلّد الأول.

قال الطبرسي في ص٢٦١ من مجمع البيان عند التعرض للقراءات المتعلقة بالآية المباركة:

قرأ حفص عن عاصم غير هبيرة وحمزة: ليس البرّ بالنصب، والباقون بالرفع.

وقال في الصحيفة المذكورة عند بيان الحجة: قال أبو علي حجة من رفع البرّ: إن ليس تشبه الفعل وكون الفاعل بعد الفعل أولى من كون المفعول بعده. وحجة من نصب البرّ أنه حكى عن بعض شيوخنا أنه قال: في هذا النحو أن يكون الاسم أنْ وصلتها أولى بشبهها بالمضمر في أنها لا توصف، كما لا يوصف المضمر. وكأنه اجتمع مضمر ومظهر، والأولى إذا اجتمعا أن يكون المضمر الاسم من حيث كان أذهب في الاختصاص من المظهر.

قال ابن جني: يجوز أن يكون إنما نصب البرّ مع الباء بأن جعل الباء زائدة كقولهم: وكفى بالله وكيلاً.

وقال في الأعراب: من نصب البرّ جعل أن مع صلتها اسم ليس، أي ليس توليتكم وجوهكم البرّ كله... ومن رفع فالمعنى ليس البرّ كله توليتكم.

وكلا المذهبين حسن... انتهى المقصود من النقل.

أقول: لكن المرسوم في المصاحف هو النصب كما لا يخفى.

(٢) قال في ص٢٦٢ من المجلد الأول من المجمع في بيان شأن النزول: =

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

أقول: والمعنى ليس البرّ هو التوجه بدون الإيمان إلى المشرق، كما يفعله النصارى نظراً إلى مجيء جبرئيل (عليه السلام) إلى مريم عليها السلام من جهة المشرق، لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ[1] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا[2]﴾... ولا إلى المغرب كما يفعله اليهود، نظراً إلى أنّ نداء موسى (عليه السلام) كان منه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ[3] ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾... بل البرّ هو هذا مع الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وغيرها مما دلّ على توقف الانتفاع بالأعمال على الإيمان، كما أفاده العلامة الجزائري في آيات[4] أحكامه[5].

= لما حوّلت القبلة وكثر الخوض في نسخها وصار كأنّه لا يراعى بطاعة الله إلا التوجه للصلاة، وأكثر اليهود والنصارى ذكرها، أنزل الله سبحانه هذه الآية.

(١) كما في الآية ١٦ من سورة مريم الواقعة في ص٥٠٦ من المجلّد الثالث من تفسير مجمع البيان.

(٢) انتبذت من أهلها، أي اعتزلتهم بمعزل بعيد. قاله في مجمع البحرين.

(٣) كما في الآية ٤٤ من سورة القصص، الكائنة في ص٢٥٥ من المجلد الرابع من تفسير مجمع البيان.

(٤) ذكر ذلك في ص٨٦ من الآيات.

(٥) ولا يخفى أن الآية المباركة أجمع ما يكون لموارد البر والخيرات، كما أنها جمعت بين مهمّات الأصول والفروع. حيث أشارت إلى أصول الإيمان بالله الذي هو توحيده تعالى شأنه. وهو أول الأصول وأهمها. والإيمان باليوم الآخر وهو منتهاها، والتصديق بما بينهما من نبوة أو نحوها كما قد أشارت إلى الفروع بما أفادته من إيتاء المال على حبّه وما بعده من الأفعال من =

أما معنى الإيمان بالله تعالى شأنه، فإنه التصديق به سبحانه ويدخل فيه جميع ما لا تتم المعرفة إلّا به، كتوحيده تعالى بالخلق والرزق والأحياء والأماتة، وكلّما كان من شؤون الربوبية من الأزلية والأبدية والعلم والقدرة والعدل والحكمة، ونحو ذلك من الصفات الثبوتية والسلبية. قال العلامة الطريحي ص٤٩٨ في مادة: أمن من مجمع بحرينه:

وفي الحديث وقد سئل(عليه السلام) عن أدنى ما يكون العبد به مؤمناً. فقال(عليه السلام): يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً(صلى الله عليه وآله) عبده ورسوله، ويقرّ بالطاعة ويعرف إمام زمانه. فإذا فعل ذلك فهو مؤمن.

والإيمان يرد على صيغتين: الإيمان بالله والإيمان لله.

فالإيمان بالله هو التصديق بوجوده على النعت الذي يليق بكبريائه. والإيمان لله هو الخضوع والقبول عنه والاتباع لما يأمر والانتهاء عمّا ينهى... إلى أن قال:

وفي الحديث: الوسائل إلى الله الإيمان الكامل أي الإيمان بالله ورسوله هو

= إقامة صلاة وإيتاء زكاة ونحوهما من المهمات.

قال في مجمع البحرين عند ذكر قوله تعالى: أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم: قال علي بن إبراهيم: نزلت في القصّاص والخطّاب. وهو قول أمير المؤمنين(عليه السلام) على كل منبر منهم خطيب مصقع يكذب على الله وعلى رسوله وعلى كتابه. انتهى... ونظم بعض الشعراء في هذا المعنى:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى   طبيب يداوي الناس وهو عليل

وقال عند قوله تعالى: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون: البرّ على ما قيل: اسم جامع للخير كلّه... إلى أن قال: والبرّ بالفتح هو الذي عادته الإحسان وهو البار، والبررة جمع بار وهو فاعل البر أي فاعل الخير، والبر بالكسر هو الاتساع في الإحسان والزيادة. لا يخفى مقتبسات من المجمع لا بنحو الكلام المتصل...

أصله، وباقي الفرائض والسنن كمالات... إلى أن قال:

قال المحقق الشيخ علي(رحمه الله): المؤمن من كان يعتقد اعتقاد الإمامية وإن لم يكن عنده دليل. وقريب منه ما نقل عن المحقق الطوسي(قدس سره).

وأما معنى اليوم الآخر أعني التصديق به، فهو التصديق بالحشر والنشر والخروج من القبور إلى عالم الحساب كما قال الله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، أي سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها... والتصديق بالثواب والعقاب كما قال تعالى شأنه:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

وأما معنى التصديق بالملائكة فهو التصديق بوجودهم وأن لله سبحانه خلقاً روحانياً كريماً، مطيعاً قائماً بأمره تعالى شأنه، عاملاً بأمره ومنتهياً بنهيه.

وأما معنى التصديق بالكتاب فهو التصديق بأن الكتب المأثورة، أعني ما ثبت كونه كتاباً سماوياً، إنما هي منزلة من قبله تعالى شأنه، مبينة لما أراد من عباده على تفاوت رتب المرادات والمنهيات، من حيث الشدة والضعف والمشقة والسهولة.

وأما معنى التصديق بالنبيين، فهو التصديق بأنهم سفراء الله في عباده، صادقون فيما جاؤوا به من قبله تعالى، لا ينطقون عنه إلّا بما أمرهم به، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. وأنهم ومن جرى مجراهم أطباء النفوس المبعوثون للعلاج، كما أن الحكماء أطباء الأبدان، المخصوصون بمداواتها لغاية بقائها على صلاحها، أو رجوعها إلى العافية من أمراضها...

رُؤي المسيح(عليه السلام) خارجاً عن بيت فاجرة مجاهرة بالفجور، فقيل: يا روح الله ما تصنع هاهنا؟ فقال(عليه السلام): إنما يأتي الطبيب المريض.

ولما ذكرنا من أن الأنبياء(عليهم السلام) أطباء النفوس قال أمير المؤمنين(عليه السلام) في صفة سيد النبيين صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين:

طبيب دوار بطبّه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه يضع ذلك حيث الحاجة من قلوب عُمي وأذان صمّ وألسنة بكم متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة[1].

هذا كله فيما يرجع إلى باب الأصول وما يكون من أعمال الجوانح.

وأما ما يتعلق بالركن الثاني أعني الأفعال وأعمال الجوارح، التي هي مورد التكاليف الفرعية، فقد قدّم تعالى ذكره ذكر الأعمال المتعلقة بالأموال لما لها من الشأن الخطير والشأن الكبير. بل هي المحك المظهر لما عليه النفوس من دغش وخلوص...

والضمير في حبّه، وإن صح تعلّقه بالمال كما هو أحد الأقوال، لكن الأقرب والأنسب تعلّقه بحضرة الربوبية فيكون المعنى: وإن من موارد البرّ والخير إيتاء العبد المال على حب سيّده ومولاه لمستحقيه المنصوصين عليهم في الآية.

ولا ريب أن إيتاء المال كذلك له شأنه الرفيع ومحلّه المنيع[2].

---

(١) هذه الجملة موضعها ص٢٢٣ من المجلد الثاني من شرح النهج للمعتزلي.

(٢) كيف لا وقد قال الصادق جعفر(عليه السلام): إن من بقاء المسلمين وبقاء الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف، وإن من فناء الإسلام وفناء المسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق ولا يصنع فيها المعروف. ذكر ذلك في المجلّد الثاني من جامع السعادات.

وقال في ص٣٤ من المجلد الثاني أيضاً: =

كما أن الحبّ[1] لله تعالى شأنه له شأنه الأرفع ومحلّه الأمنع، لا يلقاه إلّا ذو حظّ عظيم، ولا يصل إليه ببعض درجاته السامية، إلّا من تمسّك بحبل وثيق من

= روى أنه لما بعث النبي (ﷺ) أتت إبليس جنوده. فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمّة. قال يحبون الدنيا؟ قالوا: نعم. قال إن كانوا يحبّونها لا أبالي ألا يعبدوا الأوثان، وأنا أغدو عليهم وأروح بثلاثة:

أخذ المال من غير حقه، وانفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه...

والشر كلّه لهذا تبع.

أقول: والمصيبة الكبرى إن ذا المال يموت ويسلب منه كلّه ويسأل عنه كله...

وما أصدق ما ذكره في جامع السعادات في ص٤٩ من المجلّد الثاني عن بعض الأكابر من قوله: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما، للعبد في ماله عند موته...

قيل له: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله ويسأل عنه كلّه...

قال العلامة القمي رحمه الله في ص٥٥٨ من سفينة البحار:

سئل أمير المؤمنين(عليه السلام) عن أعظم الناس حسرة. قال: من رأى ماله في ميزان غيره وأدخله الله به النار، وأدخله وارثه به الجنة...

وقال: قال الصادق(عليه السلام): توجّه عيسى(عليه السلام) في بعض حوائجه ومعه ثلاثة نفر من أصحابه. فمرّ بلبنات من ذهب على ظهر الطريق. فقال لأصحابه: هذا يقتل الناس. ثم مضى، فقال أحدهم: إن لي حاجة فانصرف، ثم قال الآخر لي حاجة فانصرف ثم قال الآخر لي حاجة فانصرف. فوافوا عند الذهب ثلاثتهم. فقال اثنان لواحد: اشتر لنا طعاماً. فذهب ليشتري لهما طعاماً فجعل فيه سماً ليقتلهما كيلا يشاركاه في الذهب. وقال الاثنان: إذا جاء قتلناه كيلا يشاركنا. فلما جاء قاما إليه فقتلاه. ثم تغدّيا فماتا...

فرجع إليهم عيسى(عليه السلام)، وهم موتى حوله. فأحياهم بإذن الله عزّ وجل. وقال: ألم أقل لكم: إن هذا يقتل الناس.

(١) في مادة حبب من مجمع البحرين بيانات جليلة نافعة في حب الله سبحانه لعباده وحبّهم له عزّ وجل: فراجع.

مجاهدة النفس وتفريغ البال للطاعة والإخلاص في العبادة، وفرّغ قلبه عن كلّ من سوى الله سبحانه. كما ورد في أن الله سبحانه أوحى إلى بعض الأنبياء:

إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حبّ الدنيا ملأته من حبّي...

أقول: هكذا يجب أن يكون حبّ العبد لربّه، لأن حقيقة الحب هو إدراك كمال في المحبوب، يقتضي القرب منه والدنو إليه. والله سبحانه هو المتفرد بحقيقة الكمالات بما لها من الرتب العالية والدرجات السامية، التي لا يحيط بها إلّا هو تعالى شأنه...

والإنسان وإن كان قاصراً عن إدراك كمالاته على ما هي عليه، وبذلك يقصر أيضاً عن نيل درجات محبته تعالى شأنه، بالنحو الذي تقتضيه كمالاته، إلّا أنه لا يقصر عن إدراك تلك الكمالات له تعالى بنحو الإجمال، التي تحطّ عنه كمالات كل كامل سواه.

فلذا ينبغي أن لا يكون له محبوب سواه، فضلاً عن أن يتّخذ له ندًّا[1] سواه.

ولذا ترى بعض العرفاء فانين في حبّه جلّ وعلا...

---

(١) قال العلامة الطبرسي في ص٢٤٨ من المجلّد الأول من مجمع البيان عند بيان اللغة المتعلّقة بقوله تعالى شأنه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾... قال: الأنداد والأشباه والأمثال نظائر، واحدها ندّ. وقيل هي الأضداد. وأصل الندّ المثل المناوئ. والحب خلاف البغض... والمحبّة هي الإرادة إلا أنّ فيها حذفاً لا يكون في الإرادة. فإذا قلت: أحبّ زيداً فالمعنى أني أريد منافعه أو مدحه. وإذا قلت: أحبّ الله زيداً فالمعنى أنه يريد ثوابه وتعظيمه. وإذا قلت: أحبّ الله فالمعنى أريد طاعته وأتباع أوامره... ولا يقال: أريد زيداً ولا أن الله يريد المؤمن ولا إني أريد الله، فاعتيد الحذف في المحبة ولم يعتد في الإرادة... إلى آخر ما ذكره هناك.

قال الفخر الرازي في تفسيره[١]:

مرض لبعضهم جار يهودي. قال: فدخلت عليه للعيادة وقلت له: أسلم. فقال: على ماذا؟ قلت: من خوف النار. قال: لا أبالي بها. قلت: للفوز بالجنة. قال: لا أريدها. قلت: فما تريد؟ قال: على أن يريني وجهه الكريم. قلت: أسلم على أن تجد هذا المطلوب. قال: فاكتب بهذا خطاً، فكتبت له بذلك خطاً. فأسلم ومات من ساعته، فصلّينا عليه ودفناه. فرأيته في النوم كأنه يتبختر. فقلت: يا شمعون ما فعل بك ربّك؟ قال: غفر لي وقال أسلمت شوقاً إليّ... وذُكر عن بعض العرفاء: أنه رأى في البصرة عبداً يباع بعيوب ثلاثة: لا ينام من الليل إلّا قليلاً ولا يأكل بالنهار ولا يتكلم إلّا عند الحاجة... فقلت لسيده: كيف تبيعه: قال: رأيت درجته أرفع من درجتي. فكلّما قمت للخدمة وجدته قد سبقني، فأردت بيعه غيرة منه. فقلت: بعني إياه: قال: نعم أنت مجنون وهو مجنون والمجنون بالمجنون أليق.

وذكر شارح النهج المعتزلي قال[٢]. قال بعضهم ـ يعني في تحديد المحبة:

المحبّة: إقبالك على المحبوب بكلّيتك ثم إيثارك له على نفسك ومالك وولدك، ثم موافقتك له في جميع الأمور سرّاً وجهراً، ثم الاعتقاد بعد ذلك بأنك مقصّر في محبّته. ثم قال: قال بعضهم: من أراد أن يكون محباً فليكن كما حكى عن بعض الهنود: إنه أحبّ جارية فرحلت عن ذلك البلد، فخرج الفتى في وداعها فدمعت إحدى عينيه دون الأخرى، فغمّض التي لم تدمع أربعاً وثمانين سنة ولم يفتحها عقوبة لها لأنها لم تبك على فراق حبيبته. وقيل: إن بعض أهل المحبّة

---

(١) ذكر هذا في ص١٣٣ من المجلد الأول من تفسيره.

(٢) ذكره في ص٢٦ من المجلد الثالث من شرح النهج.

الصادقة لله سبحانه افتصد يوماً، فارتسم دمه على الأرض مكتوباً: الله الله.

وقيل: أن زليخا امرأة العزيز افتصدت يوماً فارتسم دمها على الأرض مكتوباً: يوسف يوسف. وقال بعضهم[١] بكى شعيب(عليه السلام) حتى عُمي فردّ عليه بصره، ثم بكى حتى عمي أيضاً فأوحى الله تعالى إليه وهو أعلم به. إن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد آمنتك، وإن كان بكاؤك شوقاً إلى الجنة فقد أوجبتها لك. فقال: يا ربّ لم أبك لهذا ولا لهذا وإنّما بكيت شوقاً إليك.

فأوحى الله تعالى إليه: فابك فما لهذا الداء من دواء.

وعن بعض الخطباء البارعين: فقال له تعالى شأنه:

وعزّتي وجلالي لأخدمنّك كليمي موسى.

أقول: كما فعل الله سبحانه تعالى حيث أخدمه كليمه موسى(عليه السلام) عشر سنين. وليعلم أن الحبّ متبادل بين العبد وربّه، بل الله سبحانه أشدّ حبّاً لعبده، فالمعنى المعقول من حبّ الله سبحانه.

قال بعضهم: إن في بعض الكتب السماوية المنزلة قوله تعالى شأنه:

---

(١) ذكر هذا الصفوري الشافعي في ص٣٦ من المجلد الثاني من كتابه: نزهة المجالس. وذكره بتفاوت يسير مع الإضافة التي نقلناها عن بعض الخطباء السيد العالم الكبير السيد نعمة الله الجزائري طاب ثراه في ص٢٤٢ من المجلد الأول من قصص الأنبياء عليهم السلام... وللسيد المذكور شرح فيما يتعلق بقول شعيب(عليه السلام): لا أفتر عن البكاء حتى ألقاك... ينبغي أن يراجع... وذكر في أوائل هذه الصحيفة: إن شعيب(عليه السلام) هو ابن نوبه بن مدين بن إبراهيم(عليه السلام) خليل الرحمن، وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعة قومه وهم أصحاب الأيكة... وقال في ص٢٤٦ من الجزء المذكور ناقلاً عن ابن عباس:
إنّ شعيباً(عليه السلام) عاش مائتين واثنتين وأربعين سنة.

عبدي أنا وحقّك لك محبّ فبحقي عليك كن لي محبّاً...

وعلامات المحبة الصادقة: أتباع المحبوب في الأمر والنهي والانقياد إليه في كل ما يريد.

ولا تجتمع المحبّة مع التخلّف عن الطاعة، كما يشير إلى ذلك قول الأديب العارف:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه — هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته — إن المحبّ لمن يحبّ مطيع

قيل لبعض العارفين عند موته: هل اشتقت إلى الله؟

قال: لا لأن الشوق إلى غائب وما غاب عنّي طرفة عين.

ومن علامات المحبّة الصادقة لله: أن يحبّ العبد من يحبّ في الله ويبغض من يبغض في الله. وهذا هو معنى: فرّغ قلبه لله وأنه لا يكون فيه غير الله... وهذه درجة عالية ومرتبة سامية وفقنا الله لنيل شيء من تلك الدرجات والوصول لبعض تلك المقامات[١].

---

(١) قال في: حبب من سفينة البحار:

عن الحكم بن عيينة: بينما أنا مع أبي جعفر (عليه السلام) والبيت غاص بأهله إذ أقبل شيخ يتوكأ على عترة له حتى وقف على باب البيت. فقال: السلام عليك يابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم سكت. فقال أبو جعفر (عليه السلام): وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت. وقال: السلام عليكم ثم سكت، حتى أجابه القوم جميعاً وردوا (عليه السلام). ثم أقبل بوجهه على أبي جعفر (عليه السلام) ثم قال: يابن رسول الله ادنني منك جعلني الله فداك، فوالله إني لأحبّكم وأحبّ من يحبّكم. ووالله ما أحبكم وأحبّ من يحبّكم لطمع في دنيا. وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه والله ما أبغضه وابرأ منه لوتر كان بيني وبينه ووالله لأحل =

قال في أصول الكافي[١] بحذف الإسناد منّا:

عن أبي عبدالله(عليه السلام): من أحبّ لله وأبغض لله وأعطى لله فهو ممّن كمل إيمانه. وعن فضيل بن يسار قال: سألت أبا عبدالله(عليه السلام) عن الحبّ والبغض أمن الإيمان هو؟

فقال(عليه السلام): وهل الإيمان إلّا الحبّ والبغض ثم تلا هذه الآية:

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ وعن أبي حمزة الثمالي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين(عليه السلام) أنه قال:

إذا جمع الله(عزّ وجلّ) الأولين والآخرين، قام مناد فنادى يسمع الناس فيقول: أين المتحابّون في الله... قال: فيقوم عنق من الناس. فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنّة

= حلالكم وأحرّم حرامكم وانتظر أمركم. فهل ترجو لي؟ جعلني الله فداك؟ فقال له الإمام الباقر(عليه السلام) ما ملخصه: ادن مني... لقد سئل بمثل ما سألت أبي علي بن الحسين فقال للسائل: إن تمّت ترد على رسول الله(صلى الله عليه وآله) وعلى علي وعلى الحسن والحسين وعلى علي بن الحسين ويثلج قلبك ويبرد فؤادك وتقر عينك... إلى أن قال:

وتكون معنا في السنام الأعلى.

وقال ما ملخصه: كان شيبة بن عثمان بن طلحة أعدى عدو لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، وجاء عندما انهزم الناس عن الرسول(صلى الله عليه وآله) جاء ليقتل النبي(صلى الله عليه وآله) وكان(صلى الله عليه وآله) وحده، فالتفت إليه الرسول(صلى الله عليه وآله) فقال: ادن يا شيبة. فوضع الرسول(صلى الله عليه وآله) يده في صدره فصار رسول الله(صلى الله عليه وآله) أحبّ الناس إليه. فجعل يقاتل بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وآله) حتى لو عرض له أبوه لقتله في نصرة رسول الله(صلى الله عليه وآله)... ولكن في رواية: إن حبّنا إنما ينفع حين يقرن بالعمل والعمل إنما ينفع حين يقرن بحبّنا فلا يكفي أحدهما دون الآخر... وهو الحق الذي لا وراءه حق.

(١) ذكر هذا في ص٢٨٢ من أصول الكافي...

بغير حساب فتتلقّاهم الملائكة فيقولون إلى أين، فيقولون: إلى الجنة بغير حساب. قال: فيقولون: أيّ حزب أنتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابّون في الله. فيقولون: وأيّ شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحبّ في الله ونبغض في الله. فيقولون: نعم أجر العاملين.

قال أبو حامد الغزالي[١] قال رسول الله (ﷺ): إن رجلاً زار أخاه في الله فأرصد الله له ملكاً. فقال: أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلاناً. قال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا. قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا. قال: فبنعمة له عندك؟ قال: لا. قال فبم؟ قال: أحبّه في الله. قال: إنّ الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبّك لحبّك إيّاه وقد أوجب لك الجنّة.

وقال أيضاً: قال عيسى (عليه السلام): تحبّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقرّبوا إلى الله بالتباعد منهم، والتمسوا رضا الله بسخطهم...

قالوا: يا روح الله: فمن نجالس؟ قال: جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد في عملكم كلامه ومن يرغبكم في الآخرة عمله[٢].

---

(١) ذكر ذلك في ص١٥٧ من المجلّد الثاني من إحياء العلوم.

(٢) قال العلامة القمي رحمه الله في ص٢٠١ من المجلّد الأول من سفينة البحار:

عن أبي عبدالله (عليه السلام): من أوثق عرى الإيمان أن تحبّ في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله عزّ وجل.

وعنه (عليه السلام): من أحبّ كافراً فقد أبغض الله ومن أبغض كافراً فقد أحبّ الله.

ثم قال (عليه السلام): صديق عدو الله عدو الله.

وفي الكتاب المذكور عن دعوات الراوندي:

روي أن الله تعالى قال لموسى (عليه السلام): هل عملت لي عملاً قط. قال: صلّيت لكِ وصمت وتصدّقت وذكرت لك. قال الله تبارك وتعالى: أما الصلاة فلك برهان والصوم جنّة =

وكيف كان: إنّ للمحبّة لله سبحانه وللحبّ في الله والبغض لله شأناً عظيماً ومقاماً رفيعاً. لا يسعه البيان ولا يقوى على تحديده اللسان. جعلنا الله من المحبّين له والمحبّين في ذاته.

وغير خفي في أنّ إيتاء المال على حبّه تعالى شأنه، كما يتوقف على مؤتي يتوقف على معطى له. وحيث أنه يتفاوت فضل الإعطاء بتفاوت المعطين لخصوصيات فيهم تقتضي ذلك التفاوت، فلذا ذكر الله سبحانه من يكون مورد ذلك الإيتاء والإعطاء...

فذكر تعالى شأنه جملة عناوين:

أحدها: ما أشار إليه سبحانه بقوله: ذوي القربى.

= والصدقة ظل والزكاة نور ... وفي نسخة: والذكر نور... فأي عمل عملت لي؟ قال موسى(عليه السلام): دلّني على العمل الذي هو لك. قال تعالى: يا موسى هل واليت لي وليّاً وهل عاديت لي عدوّاً قط... فعلّم موسى(عليه السلام) إن أحبّ الأعمال الحبّ في الله والبغض في الله تعالى.

وفيه أيضاً الحديث القدسي: يابن عمران كذب من زعم أنه يحبّني فإذا جنّه الليل نام عني. أليس كل محبّ يحبّ الخلوة بحبيبه.

وفيه أيضاً: روى أن سليمان(عليه السلام) رأى عصفوراً يقول لعصفورة: تمنعين نفسك مني ولو شئت أخذت قبّة سليمان بمنقاري فألقيها في البحر. فتبسم سليمان من كلامه ثم دعاهما. وقال للعصفور: أتطيق لأن تفعل ذلك؟ فقال: لا يا رسول الله، ولكن المرء قد يزيّن نفسه ويعظّمها عند زوجته، والمحبّ لا يلام على ما يقول... فقال سليمان(عليه السلام) للعصفورة: ولم تمنعيه من نفسك وهو يحبّك؟ فقالت: يا نبي الله: إنه ليس محباً ولكنه مدّع، لأنه يحبّ معي غيري... فأثّر كلام العصفورة في قلب سليمان(عليه السلام). وبكى بكاءً شديداً واحتجب عن الناس أربعين يوماً يدعو الله أن يفرّغ قلبه لمحبّته وأن لا يخالطها بمحبّة غيره.

قال في مجمع البيان عند شرح الآية المباركة: أراد به قرابة المعطي، كما روى عن النبي(ﷺ) أنه سئل عن أفضل الصدقة. فقال: جهد المقل على ذي الرحم[1] الكاشح[2].

وقوله لفاطمة بنت قيس لما قالت: يا رسول الله أن لي سبعين مثقالاً من ذهب. قال: أجعليها في قرابتك.

ويحتمل أن يكون أراد قرابة النبي(ﷺ)، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ

---

(١) قال في المجمع: الأرحام الأقارب. وواحده الرحم. وقال: والرحم الموضع الذي يضع الرجل ماءه فيه من المرأة.

وقال في مادة رحم من سفينة البحار قال:

عن الرضا(عليه السلام): قال: قال أبو عبدالله(عليه السلام): صل رحمك ولو بشربة من ماء. وأفضل ما يوصل به الرحم كفّ الأذى عنه. وقال: صلة الرحم: منسأة في الأجل مثراة في المال محبة في الأهل.

وعنه(عليه السلام): إن رسول الله(ﷺ) قال: إن المعروف يمنع مصارع السوء وإن الصدقة تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر وتنفى الفقر. وقول: لا حول ولا قوة إلا بالله فيه شفاء من تسعة وتسعين داءً أدناها الهم.

وصلة الرحم واجبة ومستحبة، والواجب منها ما يخرج به الرحم عن القطيعة لأنها من كبائر الذنوب. وما زاد على ذلك يكون مستحباً.

وعن أبي جعفر(عليه السلام) قال: قال رسول الله(ﷺ): أوصِ الشاهد من أمتي والغائب منهم ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة أن يصل الرحم وإن كان منه على مسيرة سنة فإن ذلك من الدين.

وفي ص٥١٥ من المجلّد الأول من السفينة كلام في المقام لا يستغنى عن مراجعته.

وما ذكرناه إنما هو قبسة عجلان منه. فراجع.

(٢) عن النهاية: الكاشح العدو الذي يضمر عداوته ويطوي عليها.

﴿أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾. وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (عليهما السلام).

وثانيهما: اليتامى.

وقد قال في مجمع البيان: اليتيم من لا أب له مع الصغر. قيل: أراد أن يعطيهم أنفسهم المال، وقيل: أراد ذوي اليتامى أي يعطي من تكفّل بهم لأنّه لا يصح إيصال المال إلى من لا يعقل.

وثالثها: المساكين.

قال في المجمع: هم أهل الحاجة.

ورابعها: ابن السبيل.

قال في المجمع: يعني المنقطع به. عن أبي جعفر (عليه السلام). وقيل: الضعيف عن ابن عباس.

وخامسها: السائلون.

أي طالبو الصدقة، لأنه ليس كل مسكين يطلب.

سادسها: الرّقاب.

قال في المجمع فيه وجهان:

أحدها: عتق الرقاب بأن يشتري ويعتق.

والآخر: في رقاب المكاتبين.

والآية محتملة للأمرين. فينبغي أن تحمل عليهما.

ولا يخفى أن الآية في صدد بيان أفعال البرّ والخير، التي تكون من سنخ أفعال الجوارح، بعد ما أشارت إلى أفعال البر والخير التي تكون من سنخ أفعال

الجوانح. وقد عرفت:

أنّ أوّل ما جعلته من أفعال البرّ التي تكون من أفعال الجوارح إنما هي النفقات المالية على خلاف في أنها من النفقات الواجبة أو من المستحبّة أو منهما كما هو محرر في كتب التفسير.

وثانيها: ما ذكرته الآية المباركة من قوله تعالى شأنه: وأقام الصلاة.

قال في مجمع البيان: أي أدّاها لميقاتها وعلى حدودها.

وثالثها: قوله تعالى: وآتى الزكاة.

أي أعطى زكاة ماله.

أقول: غير خفي بأن الزكاة المفروضة وإن كانت داخلة في عنوان: إيتاء المال على حبّه، لا سيّما فيما لو كان المقصود من المال المذكور ثمة خصوص النفقات الواجبة أو الأعم منها، إلّا أنّها غير منافية لذلك، إذ يكون ذكرها حينئذٍ على أحد الوجهين من باب التخصيص بعد التعميم، الذي يكون مفاده التأكيد ومزيد الاهتمام في الموضوع الذي يكون ذكره كذلك.

هذا... وأما لو كان المراد من إيتاء المال خصوص النفقات المستحبّة، فعدم المنافاة في ذكرها أوضح وأجلى.

وكيف كان: فالزكاة الواجبة من أهم موارد البرّ والخير، كيف لا وهي بحسب الغالب مقرونة بالصلاة، التي لا يساويها شيء من الواجبات، هذا مضافاً إلى ما ورد فيها من الآيات التي تقشعر لها الأبدان وتضطرب لها الجوارح، ومثل ذلك من الأحاديث والسنة الواردة في مقام الحث عليها والترهيب والتهديد والتوعيد لتركها، كما أنه قد ورد فيها الشيء الكثير من الآيات والروايات المبينة لما

فيها من فضل وما يترتب عليها من الخير الكثير، الذي لا يحصيه إلّا الله سبحانه.

ومن الآيات الواردة في مقام التهديد والتوعيد لمانع الزكاة: قوله تعالى شأنه:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1].

قال في مجمع البيان عند تفسير الآية:

أي يجمعون المال ولا يؤدون زكاته. فقد روي عن النبي(ﷺ) أنه قال: كل مال لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً. وكلّ مال أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض. وبه قال ابن عباس والحسن والشعبي والسدّي. قال الجبائي وهو إجماع[2].

ثم قال المؤلف: وأكثر المفسّرين على أنّ قوله: والذين يكنزون على الاستيناف وإن المراد مانعو الزكاة من هذه الأمّة.

أقول: ولا يبعد أن يكون مانع الزكاة كذلك، بعد أن كان وجوبها من ضروريات الدين، والمشكك فيه فضلاً عن الجاحد ليس من المسلمين. بل قد تعدّى بعض الصحابة فجعل مانعها من المرتدّين وإن لم يكن منكراً أو شاكاً في وجوبها.

---

(١) هذه الآية هي الآية ٣٤ و٣٥ من سورة التوبة الكائنة في ص٢٥ من المجلّد الثالث من مجمع البيان. وص٦٢٦ من المجلّد الرابع من تفسير الرازي الكبير.

(٢) قال الرازي في ص٦٢٨ من المجلّد الرابع من تفسيره:

اختلف علماء الصحابة في المراد بهذا الكنز المذموم فقال الأكثرون هو المال الذي لم تؤد زكاته... إلخ.

قال الحافظ ابن رشد(١):

وبقي من أحكامها مشهور وهو ما حكم من منع الزكاة ولم يجحد وجوبها. فذهب أبو بكر إلى أنّ حكمه حكم المرتد. وبذلك حكم في مانع الزكاة من العرب وذلك أنه قاتلهم وسبا ذريّتهم. وخالفه في ذلك عمر وأطلق من كان أسروا منهم. وبقول عمر قال الجمهور. وذهبت طائفة إلى تكفير من منع فريضة من الفرائض وإن لم يجحد وجوبها.

وسبب اختلافهم هو اسم الإيمان الذي هو ضدّ الكفر. يطلق على الاعتقاد دون العمل فقط أو من شرطه وجود العمل معه. فمنهم من رأى أنّ من شرطه وجود العمل معه، ومنهم من لم يشترط ذلك، حتى لو لم يلفظ بالشهادة إذا صدّق بها، فحكمه حكم المؤمن عند الله.

والجمهور وهم أهل السنة على أنه ليس بشرط فيه ـ أعني في اعتقاد الإيمان الذي ضدّه الكفر من الأعمال إلّا التلفظ بالشهادة فقط لقوله(ﷺ) : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ويؤمنوا بي. فاشترط مع العلم القول، وهو عمل من الأعمال.

فمن شبّه سائر الأفعال الواجبة بالقول، قال: جميع الأعمال المفروضة شرط في العلم الذي هو الإيمان. ومن شبّه القول بسائر الأعمال التي اتفق الجمهور على أنها ليست شرطاً في العلم الذي هو الإيمان، قال: التصديق فقط هو شرط الإيمان، وبه يكون حكمه عند الله حكم المؤمن. والقولان شاذان. واستثناء التلفظ بالشهادتين في سائر الأعمال هو الذي عليه الجمهور... انتهى كلامه. وكيف كان:

---

(١) ذكر ذلك في ص٢٢٧ من المجلّد الأول من كتابه: بداية المجتهد.

لو لم يكن تهديد أو توعيد لمانع الزكاة إلّا هذه الآية، لكانت فوق الكفاية في أداء هذا الواجب وعدم التخلف عنه، فكيف وهي آية من آيات.

هذا وقد اشتملت الآية المباركة على بعض الخصائص وهو جعل الحمي للنار على الذهب لا الذهب على النار، وذلك أبلغ في الشدة والحرارة والتأثير. إذ لو قيل: بأن الذهب يحمى على النار لما أفاد ذلك إلا كون الذهب محمى على النار، من دون أن تؤخذ الشدة في النار المحمى عليها الذهب، بخلاف ما إذا كان الحمو للنار فإنه يفيد الشدة فيها ومزيد الحرارة لها، المستتبع لمزيد الحرارة والشدة لما أحميت عليه.

كما أن جعل الكي للمواضع المذكورة، إنما هو لمكان أنها أفضل جوارح الإنسان، فيكون تعذيبها أظهر في إذلال المعذّب، كما أنها أكثر الجوارح تأثراً وأشدّها تأثراً، حيث أن الكي على الجبهة يفضي إلى الدماغ. وعلى الجوانب والظهور لأنه يفضي إلى القلب، وهو أشد الجوارح تأثراً وتألماً... أعاذنا الله والمؤمنين عامة من ذلك بفضله.

ولا يخفى ما تكفّلته الآية إنما هو تعذيب تارك إخراج حقوق النقدين، إذ هي المورد لصدق الكنز. ولا يبعد أن اختصاصهما بالذكر، لأنهما أفضل الأموال بل لأن المال حقيقتهما، وصدق المال على غيرهما من الأعيان لأنهما يبذل في قبالهما المال.

ولكن على كل حال أن الزكاة غير مقصورة عليهما بل ثابتة في الأنعام الثلاث والغلّات الأربع. وقد ورد فيها من الأحاديث ما لا يقصر في مقام التوعيد والتهديد عن الآية المباركة.

فإنه ورد على ما في الوسيلة: ما من ذي مال أو نخل أو زرع أو كرم، يمنع من زكاة ماله، إلّا قلّده الله تربة أرضه يطوّق بها من سبع أرضين إلى يوم القيامة. وما

من أحد يمنع زكاة ماله شيئاً إلّا جعل الله ذلك ثعباناً من النار مطوقاً في عنقه ينهش لحمه حتى يفرغ من الحساب. والله يحبسه يوم القيامة بقاع قفر، ويسلّط عليه شجاعاً أقرع أي ثعباناً لا شعر في رأسه لكثرة سمّه يريده وهو يحيد عنه، فإذا رأى أنه لا يتخلّص منه أمكنه من يده فقضمها، كما يقضم الفحل ثم يصير طوقاً في عنقه.

وما من ذي مال إبل أو غنم أو بقر يمنع زكاة ماله، إلّا حبسه الله يوم القيامة بقاع قفر يطأه كل ذي ظلف بظلفه وتنهشه كل ذات ناب بنابها.

فكان هذا الحديث المبارك مستوفياً لكافة موارد الزكاة. وهو كما ترى ليس دون الآية المباركة في تهديده ووعيده.

هذا وقد ورد أيضاً: أنّ السراق: مانع الزكاة ومستحل مهور النساء وكذلك وورد أيضاً: إن لله تعالى بقاعاً تسمّى المنتقمة. فإذا أعطى الله عبداً مالاً ولم يخرج حق الله تعالى منه، سلّط الله عليه من تلك البقاع فأتلف المال فيها ثم مات وتركها.

وقد ورد أيضاً: إن مانع قيراط من الزكاة ليس من المؤمنين ولا من المسلمين. وليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً[1].

---

(١) وفي باب ثبوت الكفر بمنع الزكاة:

عن الصادق(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) في وصية النبي(صلى الله عليه وآله) لعلي(عليه السلام) قال: يا علي كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة وعدّ منهم مانع الزكاة.

ثم قال(صلى الله عليه وآله): يا علي ثمانية لا يقبل الله منهم الصلاة وعدّ منهم مانع الزكاة. ثم قال(صلى الله عليه وآله): يا علي من منع قيراطاً من زكاة ماله فليس بمؤمن ولا بمسلم ولا كرامة. يا علي تارك الزكاة يسأل الله الرجعة إلى الدنيا وذلك قوله(عزّ وجلّ):

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

هذا بعض ما ورد في التهديد والتوعيد لمانع ولو اليسير من الزكاة.

وأما ما ورد في الترغيب والتحبيب لفاعلها ومؤديها، فذلك شيء كثير أيضاً.

فمن الآيات القرآنية المباركة: قوله تعالى شأنه:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ[١] لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢].

أقول: هذا استدعاء من الله تعالى شأنه بلطف إلى أعمال الخير والبر، وهو الإنفاق في سبيله تعالى مقروناً منه تعالى شأنه بضمان ذلك بالأضعاف الكثيرة[٣].

والقرض هو قطع جزء من المال بالإعطاء على أن يرد بعينه أو يرد مثله بدلاً، وهو بطبيعة حاله يتوقف في تحقق مفهومه على أطراف ثلاثة مُقرض ومقترض ومال مقتَرَض. ولا يعقل تحقق المفهوم المفروض مع وحدة المقرض والمقترض.

---

(١) قال العلامة الطبرسي في قراءة الآية المباركة ما مضمونه:

إن في: يضاعفه قراءات بالألف والرفع وبالألف والنصب، ويضعّفه بالتشديد والرفع وبالتشديد والرفع. وفي يَبسُطُ قراءتان السين والصاد.

(٢) هذه الآية المباركة هي آية ٢٤٥ من سورة البقرة، وهي واقعة في ص٣٤٧ من المجلّد الأول من تفسير مجمع البيان. وفي ص٤٢٨ من المجلّد الثاني من تفسير الرازي.

(٣) قال الصفوري الشافعي في ص٢١٦ من المجلّد الأول من النزهة:

كان لعبدالله فرس يجاهد عليها، فجاءه ضيف فذبحه له فخاصمته زوجته، فطلّقها ثم جاءه رجل. فقال أن لي بنتاً جميلة فتزوجها وأرسل أبوها معها عشرة أفراس. فرأى عبدالله في منامه قائلاً يقول:

أنت طلقت لأجلنا عجوزاً فقد زوجناك بكراً

وأنت ذبحت لأجلنا فرساً فقد أعطيناك عشراً

وإن شئت قلت: إنه لا يعقل أن يكون المالك لـذلك المـال المقـتَرض مقترضـاً لـه لرجوعه إلى تملّك ما هو ملكه، فيكون من تحصيل الحاصل.

وعليه يتوجه الإشكال في تسمية هذا الإنفاق قرضاً لله سبحانه، مع أنه تعـالى هو المالك بحقيقة الملكية المطلقة، وإنّ كـل ملكيـة لغـيره إنـما هـي ملكيـة مقيـدة محدودة. فلذا ترى أن الإنسان ليس له التصرف المطلق فيما يكون تحت سلطته، بل إنما تكون سلطته مقيّدة بالجهة المرخّص فيها من المالك المطلق.

ويجري ذلك فيما تحت سلطانه حتى إلى جوارحه وأعضائه... ومع هذا وذاك كيف يعقل أن يكون هذا الإنفاق في سبيله تعالى شأنه قرضـاً واقعـاً تحـت مفهـوم القرض...!

لكنك خبير: بأن التعبير لو كان جارياً على الحقيقة كان الأمر كذلك.

أما إذا كان مبنياً على الادعاء والتنزيل للجهـات المـصحّحة لهـا، فـلا يكـون مورداً للسؤال المذكور. والأمر هاهنا كذلك، فإنه تعالى شأنه مـن اللطـف بعبـاده ومزيد التفضل عليهم يفرض لهم الملكية المطلقة، كما يفرض لهم شأنية الاقـتراض منهم وصلاحية المعاملة معهم فيستقرضهم. ففي الآية مزيد توقير لعباده وتكريم حيث نزّلهم تلك المنزلة، وأعطاهم تلك الأهلية.

ولم يكتف تعالى شأنه بهذا الترغيـب لـذلك الإنفـاق، بـل أضـاف إلى ذلـك الالتزام منه تعالى شأنه بإعادة ذلك المال المقترض موفوراً على ما هو الاسـتحباب الشرعي في العرض، حيث يحسن بالمقترض أن يعيد المال المقترض في وقت إعادته مع زيادة، وإن كان اشتراط ذلك من المقرض أو وقـوع القـرض مبنيـاً عليـه غـير جائز، فإنه يكون إذ ذاك من الربا في القرض، ولكـن الزيـادة التـي فرضـها تعـالى شأنه بما تناسب شأنه الرفيع من الأضعاف المضاعفة الكثيرة.

ومعلوم أن مفهوم الكثير من المفاهيم المقولة بالتشكيك، وأن الكثير عندنا غير ما يكون كثيراً عند الله سبحانه. فإن الكثير منه هو ما يكون مناسباً لشأنه، كما أن الكثير عندنا هو ما يكون مناسباً لشأننا.

وقد قالوا في شأن نزول الآية المباركة على ما في تفسير المجمع عن صادق آل محمد(ﷺ): أنه لما نزل قوله تعالى شأنه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، قال رسول الله(ﷺ): ربي زدني. فأنزل الله سبحانه إجابة لرسوله المكرم(ﷺ): ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

فقال رسول الله(ﷺ): ربي زدني. فأنزل الله تعالى شأنه إجابة لنبيّه المعظم(ﷺ): ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فكان في هذا مقتنع للرسول(ﷺ) عن طلب الزيادة لاشتمال هذا العطاء على الشيء الكثير المناسب لعطاء الرب الكريم سبحانه وتعالى.

وقد قالوا في وجه النزول شيئاً آخر على ما ذكره كل من الطبرسي والرازي وهو: إن النبي(ﷺ) قال: من تصدّق بصدقة فله مثلاها في الجنة. فقال أبو الدحداح[1] الأنصاري: يا رسول الله أن لي حديقتين أن تصدقت بأحداهما فإن لي

---

(١) قال العلامة القمي(قدس سره) في ص٤٤١ من المجلّد الأول من سفينة البحار:

أقول: أبو الدحداح اسمه ثابت بن الدحداح. وفي نسخة: الدحداحة. صحابي يستفاد قوة إيمانه مما ذكر ومما روته أهل السنة والجماعة من أنه كان يصيح يوم أحد: يا معشر الأنصار إليّ، أنا ثابت ابن الدحداحة. إن كان محمد(ﷺ) قد قتل فإن الله حي لا يموت فقاتلوا عن دينكم فإن الله مظهركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار فجعل يحمل بمن معه من المسلمين. =

مثليها في الجنة؟ فقال(ﷺ): نعم. قال: أم الدحداح معي؟ قال: نعم. قال: والصبية معي؟ قال: نعم. فرجع أبو الدحداح فوجد أم الدحداح والصبية في الحديقة التي جعلها صدقة. فقام على الباب وتحرّج أن يدخل الحديقة وقد جعلها صدقة. فنادى: يا أم الدحداح. قالت: لبّيك يا أبا الدحداح. إني قد جعلت حديقتي هذه صدقة واشتريت مثليها في الجنة وأم الدّحداح معي والصبية معي. قالت: بارك الله لك فيما شريت وفيما اشتريت. فخرجوا منها وأسلموها إلى النبي(ﷺ)، فنزلت الآية فضاعف الله صدقته ألفي ألف وذلك قوله: أضعافاً كثيرة. فقال النبي(ﷺ): كم نخلة متدّل عذوقها لأبي الدّحداح في الجنة.

ولا يخفى أن الطبرسي أعلى الله مقامه عند تفسير الآية السادسة من سورة الليل وهي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾... قال:

وروى الواحدي بالإسناد المتصل المرفوع عن عكرمة عن ابن عباس: أنّ رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجل إذا جاء

= أقول: وفي حديقة هذا الرجل كان يوم الحسنين(عليهما السلام) وحراسه ملك من الكروبيين الذي أزيل عن مقامه بصورة ثعبان إياهما واستشفاعه بهما إلى الله تعالى ليردّه الله تعالى إلى مكانه... ولكن الذي ذكره في مجمع البيان عند تفسير هذه الآية هو عمرو بن الدحداح... ولعلّه غير من ذكره العلامة القمي المتقدم، فإن ما أفاده من البيان المتقدم إنما هو في بيان سبب نزول قوله تعالى في الآية ٦ من سورة: والليل إذا يغشى، وهو قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾... وقد ذكر هذه الآية صاحب مجمع البيان في ص٥٠٠ من المجلّد رقم ٥. وذكر لها سبب نزول يغاير ما ذكره من سبب النزول للآية المتقدمة. وسوف نورده في المتن. وذكر أنها نازلة في قصة أبي الدحداح ولكن لم يسمّه باسمه الخاص بل اكتفى بذكره بكنيته... فليتأمل.

فدخل الدار وصعد النخلة ليأخذ منها التمر فربّما سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر من أيديهم، فإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعه حتى يأخذها من فيه. فشكا ذلك الرجل إلى النبي(ﷺ) وأخبره بما يلقى من صاحب النخلة. فلقى رسول الله(ﷺ) صاحب النخلة، فقال تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة. فقال له الرجل: إن لي نخلاً كثيراً وما فيه نخلة أعجب إليّ تمرة منها. قال ثم ذهب الرجل. فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول الله(ﷺ): يا رسول الله أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال(ﷺ): نعم. فذهب الرجل ولقى صاحب النخلة فساومها منه. فقال له: أشعرت أن محمداً(ﷺ) أعطاني بها نخلة في الجنة فقلت له يعجبني تمرتها وإن لي نخلاً كثيراً فما فيه نخلة أعجب إليّ تمرة منها. فقال له الآخر: أتريد بيعها؟ قال: لا إلّا أن أعطى مالاً أظنّه أعطى. قال: فما هناك. قال: أربعون نخلة. فقال الرجل: جئت بعظيم تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة. ثم سكت عنه. فقال: أنا أعطيك أربعين نخلة. فقال له: أشهد إن كنت صادقاً. فمرّ إلى أناس فدعاهم فأشهد له بأربعين نخلة. ثم ذهب إلى النبي(ﷺ). فقال: يا رسول الله إنّ النخلة قد صارت في ملكي فهي لك. فذهب رسول الله(ﷺ) إلى صاحب الدار، فقال له: النخلة لك ولعيالك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾... السورة.

قال الطبرسي رحمه الله: متصلاً بما حكيناه عنه: وعن عطاء قال اسم ذلك الرجل أبو الدّحداح. ثم قال: فأما من أعطى وأتقى هو أبو الدّحداح. وأما من بخل واستغنى وهو صاحب النخلة. وقوله: لا يصلاها إلّا الأشقى وهو صاحب النخلة، وسيجنّبها الأتقى هو أبو الدّحداح، ولسوف يرضى إذا دخل الجنة. قال:

وكان(ﷺ) يمرّ بذلك الحش وعذوقه دانية، فيقول: عذوق وعذوق لأبي الدّحداح في الجنة...

أقول: وإن قيل في الآية غير ذلك.

وكيف كان: فالآية المباركة قد أجزلت الثواب لمن قام بتلك المعاملة بها لا يكون إلّا ممن بيده خزائن السموات والأرض، بل كان شيء طوع إرادته وتحت قدرته.

ولا أعجب ولا أغرب من قول أقوام ما كان لهم في الإنسانية من نصيب، وهم القائلون من العنصر الإسرائيلي عندما نزلت هذه الآية المباركة. إنما يستقرض منّا ربّنا عن عوز فإنما هو فقير ونحن أغنياء، كما ذكر الله سبحانه عنهم ذلك في كتابه العزيز(١).

بل تعالى شأنه هو الغني على الإطلاق المستغنى عن كل من سواه، وإن كل من سواه محتاج إليه ومفتقر لفيضه ورحمته، بل الأمر كما ورد من قوله(عليه السلام):

استنصركم لا عن ذلّة واستقرضكم لا عن قلّة، بل استنصركم وله جنود السموات والأرض استقرضكم وبيده مقاليد السموات والأرض. كما أهلك

---

(١) هي آية من سورة آل عمران، الواقعة في ص٥٤٧ من المجلّد الأول من المجمع. وفي ص١٥٨ من المجلّد ٣ من تفسير الرازي، وهي قوله تعالى شأنه:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

أقول: ونظير هذه الجرأة وذلك الصلّف ما حكاه عنهم تعالى شأنه بقوله في الآية ٦٤ من سورة المائدة الكائنة في ص٢١٨ من المجلّد ٢ من مجمع البيان وص٦٢٨ من المجلّد ٣ من تفسير الرازي. وهي قوله تعالى شأنه:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.. الآية.

النمرود وجنوده بالبعوض، وأعطى الدنيا والآخرة باليسير من الأعمال. وهو القائل تعالى شأنه كما مرّ: فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة وكيف ينقص ملك أنا قيّمه...

ولكن لا يخفى ما اعتبر في ذلك القرض من الشرط أو ما اعتبره فيه من الوصف، وهو كونه حسناً. والقرض الحسن أن ينفق صاحبه من حلال ولا يفسده بمنّ ولا أذى، وأن يكون محتسباً طيباً به نفسه، كما عن الواقدي.

ثم قال تعالى شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾... قال في مجمع البيان:

معناه: الله يقبض الصدقات ويبسُط الجزاء عليها عاجلاً أو آجلاً أو كلاهما.

ثم قال تعالى شأنه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. وهذا تأكيد للجزاء.

وغير خفي أن الآية المباركة وإن لم تكن مخصوصة بالزكاة، غير أن الزكاة من أظهر مواردها ومصاديقها كما لا يخفى.

ومن الآيات الفرقانية المتناولة بعمومها الترغيب في الزكاة قوله تعالى شأنه:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١] ...[٢].

---

(١) هذه الآية المباركة هي آية ٢٦١ من سورة البقرة الكائنة في ص٣٧٣ من المجلّد الأول من مجمع البيان وص٤٩٥ من المجلّد ٢ من الرازي.

(٢) وهذه الآية المباركة على الضد من الآية ١٨٠ من سورة آل عمران الموجود في ص٥٤٦ من الأول من مجمع البيان وهي قوله تعالى:

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

قال العلامة الطبرسي أعلى الله مقامه في مجمعه:

قيل: تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أمواله كمثل حبّة. وقيل: تقديره مثل الذين ينفقون كمثل زارع حبّة... وسبيل الله هو الجهاد وغيره من أبواب البرّ كلها. فالآية عامة في النفقة في جميع ذلك وهو المروي عن أبي عبدالله(عليه السلام). واختار مثل التعميم العلامة الجزائري في آيات أحكامه[1] وقال:

وفي هذا التشبيه إشارة إلى أنه ينبغي التنوق واختيار الجيّد والأحسن فيما ينفقه ومن ينفق عليه واختيار الأزمان الصالحة والأصلح لذلك، كما يختار الزارع لبذره وأرضه.

ثم قال: فإن قيل: هل يوجد في السنبلة مائة حبّة يضرب الله به مثلاً... قلت: نعم يوجد في الذرة والدخن أكثر من ذلك، وقد يوجد في الأرز والشعير في الأرض الجيّدة على أنه يمكن ذلك من باب التمثيل الذي يكفي فيه تصوره.

وقد ذكر الطبرسي والرازي ما هو قريب من البيان المذكور.

ثم قال في الآيات: وأما المضاعفة فهي لمن أحسن في الانقياد والإخلاص. ويدلّ عليه ما رواه في كتاب ثواب الأعمال عن أبي عبدالله(عليه السلام):

قال إذا أحسن العبد المؤمن ضاعف الله له عمله بكل حسنة سبعمائة ضعف، وذلك قول الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

ويحتمل أن المعنى أنه سبحانه يزيد على السبعمائة لمن يشاء.

وفي رواية سعد بن ظريف عن أبي جعفر(عليه السلام) في قول الله(عزّ وجلّ): ﴿فَأَمَّا مَنْ

---

(١) ذكر ذلك في ص١٠١ من الكتاب المزبور.

﴿أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾، بأن الله يعطي بالواحد عشراً إلى مائة ألف فما زاد.

ثم قال: وفي الآية دلالة واضحة على كمال التحريض على الإنفاق الشامل للواجب والمندوب. وقال العلامة الطبرسي عند شرح قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾:

وروى عن ابن عمر أنه قال: لمّا نزلت هذه الآية، قال رسول الله(ﷺ): ربّ زد أمّتي فنزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾... الآية، قال: ربّ زد أمّتي، فنزل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

قال: وقوله: والله واسع أي واسع المقدرة لا يضيق عنه ما شاء من الزيادة. وقيل: واسع الرحمة لا يضيق عن المضاعفة... عليم: بما يستحق الزيادة، وقيل: عليم بما كان من النفقة وبنيّة المنفق وما يقصده من الإنفاق.

هذا بعض ما ورد فيها وفي غيرها من الآيات المرغّبة فيها والمشوّقة إليها.

وأما ما ورد فيها من الأخبار فلعله فوق حدّ الإحصاء. ويكفي في فضلها ما ورد في الصدقة التي تشملها من أن الله سبحانه يربّيها لصاحبها كما قال تعالى شأنه:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾... فيأتي بها يوم القيامة مثل أحد. وأنّها تدفع ميتة السّوء وتفك من لحى سبعين شيطاناً وأنها تطفئ غضب الرب وتمحو عظيم الذنب وتهوّن الحساب وتنمي المال وتزيد في العمر.

---

(١) هذه الآية ١٠ من سورة الزمر.

قال في مجمع البحرين[١]:

أمر رسول الله(ﷺ) بالتلحّي ونَهى عن الاكتعاط...

ثم قال: التلحّي جعل بعض العمامة تحت الحنك، والاكتعاط بخلاف ذلك. واللحي كفلس عظم الحنك. واللّحيان بفتح اللام العظمان اللّذان تنبت اللحية على بشرتهما. ويقال لملتقاهما الذقن وعليهما نبات الأسنان السفلى، وجمع اللحي لحى على فعول... ومنه الصدقة تفك من بين لحيتي سبعمائة شيطان أو سبعين شيطاناً كل يأمره أن لا يفعل.

قال الرازي في تفسيره[٢]:

الشياطين كثيرة مرئية وغير مرئية بل المرئي ربّما كان أشدّ.

حكى عن بعض المذكرين أنه قال في مجلسه:

إن الرجل إذا أراد أن يتصدّق فإنه يأتيه سبعون شيطاناً فيتعلّقون بيديه ورجليه وقلبه ويمنعونه من الصدقة...

فلما سمع بعض القوم ذلك فقال: إني أقاتل هؤلاء السبعين.

وخرج من المسجد وأتى المنزل وملأ ذيله من الحنطة وأراد أن يخرج ويتصدّق به، فوثبت زوجته وجعلت تنازعه وتحاربه حتى أخرجت ذلك من ذيله...

فرجع الرجل خائباً إلى المسجد. فقال المذكّر: ماذا عملت؟

فقال: هزمت السبعين، فجاءت أمّهم فهزمتني.

---

(١) ذكر ذلك في ص٧٥ في مادة لحا.

(٢) ذكر هذا في ص٧٤ من المجلّد الأول من تفسيره الكبير.

أقول:

ومن هنا يلزم أن يتعوّذ الإنسان من شياطين الإنس، كما ورد ذلك في كثير من الأدعية المأثورة، حيث أن الشيطان الأنسي ربّما كان أشدّ بلاءً على الإنسان وأقدر على إضلاله.

نعوذ بالله تعالى منهما ونستعين عليهما به سبحانه إنه وليّ من اعتصم به وتوكّل عليه.

والحمد له تعالى شأنه أولاً وآخراً.

المحاضرة الخامسة

في وجوب الحج وما يتعلق بشؤونه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم قرآنه المجيد وشريف بيانه الحميد:

﴿إِنَّ أَوَّلَ [1] بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ [2] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ [3] حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[4].

---

(١) قال العلامة الطبرسي أعلى الله مقامه عند بيان لغة الآية: أول الشيء ابتداؤه ويجوز أن يكون المبتدأ له آخر ويجوز أن يكون له آخر لأن الواحد أول العدد ولا نهاية لآخره ونعيم أهل الجنّة له أول ولا نهاية له.

(٢) قال الرازي في ص١٢ من المجلّد ٣ من تفسيره: لمكة أسماء كثيرة وهي: مكة وبكة وأم رحم وكوبساء والشاشة والحاطمة تحطم من استخف بها وأم القرى... كما للبيت الحرام أسماء: الكعبة والبيت العتيق لقدمه أو لأن الله سبحانه أعتقه من الغرق أو أن زائره عتيق جهنم والمسجد الحرام.

(٣) قال في مجمع البحرين عند ذكر الآية وعند تفسير لفظ الحج: أي قصده والسعي إليه. يقال حججت الموضع أحجّه حجّاً من باب قصدته... أقول: ومقتضى هذه البُنية أحجّه بالضم وكذا يحجّه وحج إليه أو حج البيت لغتان فلاحظ.

(٤) هذه آية ٩٦ من سورة آل عمران في ص٤٧٦ من المجلّد الأول من المجمع وص٧ من المجلّد ٣ من تفسير الرازي...

قال الفخر الرازي[1]، وقريب منه ما في مجمع البيان عند بيان شأن نزول الآية:

المراد منه الجواب عن شبهة أخرى من شبه اليهود في إنكار نبوّة النبي محمد(ﷺ) وذلك أنه(ﷺ) حوّل القبلة إلى الكعبة.

أقول: غير خفي على من أحاط خبراً بالآثار والأخبار أن النبي(ﷺ) كان طيلة مكثه وجواره لبيت ربّه الكريم وهي ١٣ سنة. وظل كذلك ١٧ شهراً من هجرته(ﷺ) إلى المدينة المنوّرة يتوجّه في صلاته إلى بيت المقدس.

قال العلامة الجزائري في آيات أحكامه[2]:

روى الطبرسي في الاحتجاج عن أبي محمد العسكري(عليه السلام) أنه لما كان رسول الله(ﷺ) بمكة أمره الله تعالى أن يتوجّه نحو البيت المقدس في صلاته، ويجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس إذا أمكن. وإذا لم يتمكن يستقبل البيت المقدس كيف كان. فكان رسول الله(ﷺ) يفعل ذلك طول مقامه بها ١٣ سنة. فلما كان في المدينة وكان متعبّداً باستقبال بيت المقدس استقبله وانحرف عن الكعبة ١٧ شهراً. جعل قوم من مردة اليهود يقولون: والله ما ندري محمداً كيف يصلي حتى صار يتوجه إلى قبلتنا ويأخذ في صلاته بهدانا وتمسّكنا... فاشتد ذلك على رسول الله(ﷺ) لما اتصل به ذكر قبلتهم وأحبّ الكعبة، فجاء جبرئيل. فقال له رسول الله(ﷺ): يا جبرئيل لوددت لو صرفني الله تعالى عن بيت المقدس إلى الكعبة فقد تأذيت بما يتصل بي من قبل اليهود ومن قبلتهم. قال جبرئيل(عليه السلام): فاسأل ربّك أن يحوّلك إليها فإنه لا يردّ طلبتك ولا يخيّبك عن بغيتك. فلما استتم دعاءه(ﷺ)

---

(١) ذكر هذا في ص٧ من المجلّد ٣ من التفسير.

(٢) ذكر ذلك في ٣٧.

صعد جبرئيل(عليه السلام) ثما عاد من ساعته. فقال: أقرأ يا محمد:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾... الآيات.

فقد تساءل اليهود عند ذلك ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها... فأجابهم الله سبحانه بأحسن الجواب: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾: أي هو يملكها.

وتكليفه بالتحول إلى جانب كتحويله لكم إلى الجانب الآخر.

أقول: ونص بعض من كتب في الموضوع، إلى أن اليهود كانوا يتحرّون الفتن وإلقاء الشبه في أذهان المسلمين. وكانوا قبل التحول يقولون: إن ديننا أحق ومعتقدنا أشد وأوثق، ولذا ترى محمداً(صلى الله عليه وآله): يصلي إلى قبلتنا ويأخذ بطريقتنا. ولما انقطعت تلك التلبيات بتحويل القبلة إلى الكعبة، تحولت تلبياتهم بشكل آخر فقالوا: إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال، لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر وقبلة جملة من الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلاً.

فأجاب الله سبحانه عن احتجاجهم ببطلان أولية بيت المقدس وإثباتها إلى بيت الحرام فيكون أفضل، إذا كان السبق والأولية من مقتضيات التفضيل.

وكيف كان: إن بيت المقدس وإن كان له فضله إذ هو البيت المقدّس في الأرض المقدّسة ومسكن النفوس المقدّسة والأنبياء الصالحين وقبلتهم ومدفنهم، إلّا أن هذا لا يقتضي مضاهاته للبيت الحرام شرفاً، ولا يوجب مباراته له في الفضيلة، إذ بيت الله الحرام هو المجمع لكل أنحاء الفضيلة والشرف، والسابق بكل مراتب السبق. ويكفي فيها قول الصادق الأمين(صلى الله عليه وآله) لما أزعجه شرار

الخليقة وسفلة الأمة وألجأه إلى الهجرة عن موطن رحله ومسقط رأسه، وهو واقف على راحلته مخاطباً مكة: والله إنك لخير أرض الله وأحبّها إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت[1] في بيان إن بقعته أوّل بقاع الأرض وكذا بنيته:

---

(١) أقول: ذكر هذه الجملة العلامة الأجل السيد علي خان المدني في ص٧٧ من شرح الصحيفة.

ثم قال(قدّس): قيل: في أن مكة شرّفها الله هي أفضل من سائر البقاع، لأنه(ﷺ) هو أفضل الأنبياء، فينبغي أن يكون موطنه ومنشأه ومولده ومأنسه أفضل الأماكن... وقد اختلف العلماء من أهل السنة والجماعة في التفضيل بين مكة والمدينة. فذهب جمهورهم إلى أفضلية مكة وبعضهم إلى أفضلية المدينة. ولكل حجج عقلية ونقلية يطول ذكرها. وأجمعوا على أن الموضع الذي ضمّ أعضائه الشريفة(ﷺ) أفضل بقاع الأرض.

والمستفاد من أحاديث أهل البيت(عليهم السلام) أنّ مكة أفضل من سائر الأرض، وأنّ الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد النبي(ﷺ).

أمّا كون مكة أفضل من سائر الأرض فيدل عليه ما رواه رئيس المحدّثين في الفقيه بإسناده عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال: أحبّ الأرض إلى الله مكة، وما تربة أحبّ إلى الله من تربتها ولا حجر أحبّ إلى الله من حجرها ولا جبل أحبّ إلى الله من جبلها ولا ماء أحبّ إلى الله من مائها.

وأمّا كون الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد النبي(ﷺ) فيدل عليه صريحاً ما رواه رئيس المحدّثين أيضاً في كتابه ثواب الأعمال بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن الصادق(عليه السلام) قال: قال رسول الله(ﷺ): صلاة في مسجدي تعدل عند الله عشرة آلاف صلاة في غيره من المساجد إلّا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه تعدل مائة ألف صلاة... وفي هذا المعنى أخبار كثيرة.

وقال شيخنا الشهيد(*)(قدّس) في الدروس: مكة أفضل بقاع الأرض ما عدا قبر رسول الله(ﷺ). =

(*) وهو محمد بن مكي بن محمد العاملي الذي كانت وفاته قتلاً ثمَّ صلباً ثمَّ رجماً ثم حرقاً في دمشق سنة ٧٨٦. كما في مادة: شهد من سفينة البحار... فراجع.

وغير خفي على من نظر في الأخبار والآثار أن بقعة البيت الحرام، هي أوّل بقاع الأرض حدوثاً، كما أنّ بنيته هي أوّل بنية حدثت على وجه الأرض.

أما سبق بقعته في الوجود والتكوين على كافة بقاع الأرض، فقد ذكر العلامة الجزائري أنه في تفسير علي بن إبراهيم عن أبي عبدالله(عليه السلام) أنه قال:

كان عرش الله تعالى شأنه على الماء والماء على الهواء والهواء لا يحد ولم يكن يومئذٍ خلق غيرهما، والماء يومئذٍ عذب فرات. فلما أراد الله سبحانه أن يخلق الخلق

= ومن عظمته وجلالة قدره غزير علمه ينسب إليه قوله(قدس سره):

غنينا بنا عن كل من لا يريدنا وإن كثرت أوصافه ونعوته
ومن صدّعنا حسبه الصدّ والقلا ومن فاتنا يكفيه أنّا نفوته

وروي في كربلاء على ساكنها السلام مرجّحات.

وفيها أخبار يشير إليها العلامة الكبير الطباطبائي بحر العلوم قدّس الله روحه الزكية بقوله:

ومن حديث كربلا والكعبة لكربلا بان علو الرتبة

قال العلامة القمي طاب ثراه في مادة: كربل من سفينة بحاره:

وصح عن علي بن الحسين(عليه السلام) قال: كأني بالقصور قد شيّدت حول قبر الحسين(عليه السلام) وكأني بالأسواق قد حفّت حول قبره. فلا تذهب الأيام والليالي حتى يسار إليه من الآفاق. وذلك عند انقطاع ملك بني مروان. وفي نسخة: بني عباس... قال: وعن هشام بن سالم عن الصادق(عليه السلام) قلت: فما لمن أقام عنده (يعني الحسين(عليه السلام)). قال(عليه السلام): كل يوم بألف شهر. قال فما للمنفق في خروجه إليه والمنفق عنده؟

قال(عليه السلام): كل درهم بألف درهم.

والأقرب أن موضع قبور الأئمة عليهم الصلاة والسلام كذلك

أما البلدان التي هم فيها فمكة أفضل منها حتى المدينة... إلى آخر ما أفاده هناك من كراهة المجاورة بها واستحبابها وذكران المشهور الكراهة. والمسألة محل خلاف فلتراجع هناك لدى الحاجة.

أمر الرياح فضربت متن الماء حتى صار موجاً ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلاً من زبد. ثم دحى الأرض من تحته، وهو قول الله(عَزَّوَجَلَّ):

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾.

أقول: ولا يخفى أن المراد من البيت على هذا في الآية مكانه لا نفسه.

وأما أنّ بنيته أوّل بنية على وجه الأرض، فلما ذكره العلامة الطريحي في مجمعه[1] قال في الحديث: أمر الله ملكاً من الملائكة أن يجعل له بيتاً في السماء يسمّى بالضّراح هو بالضم قبل البيت المعمور في السماء الرابعة... إلى أن قال فيه ــ يعني في الحديث :

إن الله سبحانه قال للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء... إلخ. وردّوا[2] على الله تعالى هذا الجواب فندموا

(١) ذكر ذلك في ص١٧٦.

(٢) أقول: وكان فعلهم خوفاً وفرقاً من الله سبحانه أو استحياء منه. فإن الملائكة أحقّ بالاستحياء من الله تعالى شأنه:

قال السيد العلامة الأجل السيد علي خان المدني في ص١٦٤ من شرح الصحيفة في موضوع الحياء وأربابه:

قال بعض العلماء: الحياء على وجوه:

أولاً: حياء الجناية كحياء آدم(عليه السلام)، نودي أفراراً منّا... قال: بل حياءً منك.

ثانياً: حياء التقصير كالملائكة يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

قيل: عند رؤية الآلاء والتقصير يتولّد بينهما حال للعبد يسمّى الحياء.

ثالثاً: حياء الجلالة وذلك كحياء إسرافيل يتغطى بجناحيه حتى يصير من الحياء كالوصع، وهو طائر أصغر ما يكون... ولهذا يقال: الحياء ذوبان الحشاء لإطلاع المولى. =

ولاذوا بالعرش واستغفروا فأحبّ الله سبحانه أن يتعبّد بمثل ذلك، فوضع في السماء الرابعة بيتاً بحذاء العرش يسمّى بالضراح، ثم وضع في سماء الدنيا بيتاً ويسمّى بالبيت المعمور بحذاء الضراح. ثم وضع هذا بحذاء البيت المعمور...

ومنه يعلم: أن البيت المعمور في سماء الدنيا وأن البيوت ثلاثة والثالث الكعبة.

ويؤيد هذا الحديث ما ذكره الرازي في تفسيره[1]:

= وقيل: إن الحياء مقسوم بين أربعة أشياء:

أحدها: النفس وحياؤها من العصيان إذا كان ذلك بمرأى من الرحمن.

قال تعالى في الحديث القدسي: أشدّ الحياء حياء النفس من قلّة الحياء يوم كشف الغطاء.

الثاني: الروح وحياؤها من قلّة الإحسان.

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وقيل في تفسير قوله تعالى: والمستغفرين بالأسحار، إن ذلك للحياء من هبوب الطاعات وما كان من القيام بالليل.

الثالث: العقل وحياؤه من النسيان، كما حكى الله تعالى عن قوم قوله:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

الرابع: السر وحياؤه من الالتفات إلى كلّ من على وجه الأرض.

كما حكى بعضهم: قال خرجنا ليلة فَمَرَرنا بأجمة فإذا رجل نائم فحركناه وقلنا له: يا فتى ألا تخاف تنام في مسبعة. فرفع رأسه وقال: أنا أستحي منه أن أخاف غيره.

وربّما زاد حياء السر على الالتفات إلى الغير، وأوجب الحياء من الإقبال على الحبيب والنظر إليه كما قال:

تتوق إليك النفس ثم أردّها ... حياءً ومثلي بالحياء حقيق

على كل حال استحيك واتقي ... وإن طار من قبلي إليك فريق

(١) ذكر هذا في ص٨ من المجلّد ٣ من تفسيره الكبير.

عن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب(عليهم السلام) عن آبائه(عليهم السلام) عن جدّه الرسول(صلى الله عليه وآله) قال: إن الله تعالى بعث ملائكة. فقال: ابنوا لي في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور. وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء في البيت المعمور، وهذا كان قبل خلق آدم(عليه السلام).

ويعضد هذا الحديث من حيث قدم البيت على هبوط آدم(عليه السلام) وأنّه كان محجوجاً قبله، ما ذكره[1] العلامة الطريحي حيث قال:

قال الزمخشري: روي: أن الله تعالى أنزل ياقوتة من يواقيت الجنة لها بابان من زمرد شرقي وغربي وقال لآدم: أهبطت ما يطاف به كما يطاف حول عرشي. فتوجّه آدم من أرض الهند إليه ماشياً، وتلقّته الملائكة فقالوا: برّ حجّك يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. وكان آدم قد حجّ من أرض الهند إلى مكّة أربعين حجّة[2] على رجليه. فكان ذلك البيت إلى أن رفعه الله تعالى أيام الطوفان.

---

(١) ذكر هذا في ص١٣٨ من كتابه مجمع البحرين.

(٢) أقول: قال العلامة القمي رحمه الله في ص١٥ من المجلّد الأول من سفينة البحار:
أتى آدم(عليه السلام) هذا البيت ألف أتية على قدميه، منها سبعمائة حجّة وثلثمائة عمرة.
ثم قال: توفي آدم يوم الجمعة لست خلون من نيسان في الساعة التي كان فيها خلقه.
وكان عمره ٩٣٠ سنة...
ويقال: مات عن أربعين ألفاً من ولده وولد ولده.
واختلفوا في قبره: فمنهم من قال: قبره بمنى في مسجد الخيف. ومنهم من رأى أنه في كهفٍ في جبل أبي قبيس. وقيل غير ذلك. والله سبحانه هو العالم.
ثم قال: ومن قال أنه في جبل أبي قبيس أن زوجته حواء ماتت بعده بسنة ودفنت إلى جنبه.
وشيت أيضاً دفن عن يمين آدم(عليه السلام) في غار أبي قبيس وكذا كان إلى زمن نوح(عليه السلام) فأخذ نوح(عليه السلام) تابوت آدم(عليه السلام) ودفنه بالغري. وقال في الصحيفة المذكورة عن صحف إدريس النبي(عليه السلام) عند ذكر أحوال آدم(عليه السلام) ما هذا لفظه: =

أقول: وهذه الروايات متطابقة وبعضها يفسّر بعضاً، في أنّ أوّل بيت وضع في جهة الأرض هو البيت الحرام. وإن اختلفت ظواهرها من كونه بنحو البناء أو غيره كما هو مقتضى حديث الياقوتة، وهي مع ذلك غير متنافية بهذا الاعتبار أيضاً لإمكان الجمع بينها كما هو ظاهر.

نعم ربّما يظهر من بعض الأحاديث أن وضع البيت الحرام إنّما كان يوم وضع الأرض.

قال الرازي(١).

قال القفال في تفسيره: روى حبيب بن ثابت عن ابن عباس أنه قال:

وجد في كتاب في المقام أو تحت المقام:

أنا الله ذو بكّة وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر. وحرّمتها يوم وضعت هذين الحجرين وحففتها بسبع أملاك حنفاء.

بل يظهر من بعض الروايات سبق حدوث البيت على وجود الأرض.

= حتى إذا كان الثلث الأخير من الليل ليلة الجمعة لسبع وعشرين خلت من شهر رمضان، أنزل عليه كتاباً بالسريانية. وقطع الحروف في إحدى وعشرين ورقة. وهو أول كتاب أنزله الله في الدنيا، أنزل الله عليه الألسن كلّها. فكان فيه ألف ألف لسان، لا يفهم فيه أهل لسان عن أهل لسان حرفاً واحداً بغير تعليم. فيه دلائل الله وفروضه وأحكامه وشرائعه وسننه وحدوده... ثم قال في حيوان الحيوان: قال كعب الأحبار: أهبط الله الحيّة بأصبهان وإبليس بجدة وحواء بعرفة وآدم بجبل سرانديب وهو بأعلى الصين، في بحر الهند عالٍ يراه البحريون من مسافة أيام، وفيه أثر أقدام آدم(عليه السلام) مغموسة في الحجر. ويرى هذا الجبل في كل ليلة كهيئة البرق من غير سحاب، ولا بدّ له في كل يوم من مطر يغسل موضع قدم آدم(عليه السلام)... ويقال: إن الياقوت الأحمر يوجد على هذا الجبل ويوجد فيه الماس ويوجد به العود.

(١) ذكر هذا في ص٨ من المجلّد ٣ من تفسيره الكبير.

قال العلامة الجزائري طاب ثراه:

روى في الفقيه عن أبي عبدالله(عليه السلام): إنّ الله تعالى خلق البيت قبل دحو الأرض بألفي عام...

وبمضمونه ما ذكره الرازي حيث قال:

روى الواحدي في البسيط عن مجاهد أنه قال: خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيء من الأرضين. وأن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى[١].

وأما بانو هذا البيت.

فقد عرفت أن الباني الأول بمقتضى رواية مجمع البحرين المارة ورواية الرازي المارة من هذا الجزء، هم الملائكة. وأن هذا البناء التأسيسي غير بناء جبرئيل(عليه السلام) وأنّ بناء جبرئيل(عليه السلام) الذي كان في أوائل هبوط أبي البشر النبي المكرّم آدم(عليه السلام) هو البناء الثاني، كما تفصح عنه رواية محمد بن إسحاق عن أبي جعفر(عليه السلام) على ما في آيات الأحكام[٢].

قال: وفي رواية محمد بن إسحاق عن أبي جعفر(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) أنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى جبرئيل(عليه السلام): إنّي أنا الله الرحمن الرحيم وإنّي قد رحمت آدم وحواء لّما شكيا إليّ ما شكيا. فاهبط إليهما بخيمة من خيم الجنة وعزّهما عنّي بفراق الجنّة. واجمع بينهما بالخيمة، فإني قد رحمتهما لبكائهما ووحشتهما في وحدتهم. وانصب الخيمة على الترعة[٣] التي بين جبال مكة... قال: والترعة مكان البيت

---

(١) وقال في آيات الأحكام أيضاً: روى في الكافي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر(عليه السلام): إن الله خلقه قبل الأرض، ثم خلق الأرض من بعده فدحاها من تحته.

(٢) ذكر هذه الرواية العلامة الكبير الجزائري في ص١٢٦ من آيات أحكامه.

(٣) قال العلامة الطريحي أعلى الله مقامه في ص٣٤٦ من كتابه: مجمع البحرين:

في حديث آدم: وانصب الخيمة على الترعة، هي بالضم: الروضة في مكان مرتفع... =

وقواعده التي رفعتها الملائكة قبل آدم(عليه السلام).

قال: والترعة مكان البيت وقواعده التي رفعتها الملائكة قبل آدم(عليه السلام).

فهبط جبرئيل(عليه السلام) على آدم بالخيمة على مقدار أركان البيت وقواعده فنصبها... إلى أن قال... إن الله(عزّ وجلّ)(أوحى) إلى جبرئيل(عليه السلام) بعد ذلك(أن أهبط)[1] إلى آدم وحواء فخلّهما عن مواضع قواعد بيتي وارفع قواعد بيتي لملائكتي ثم ولد آدم(عليه السلام). فهبط جبرئيل(عليه السلام) إلى آدم وحواء فأخرجهما من الخيمة ونحّاهما عن ترعة البيت ونحّى الخيمة عن الترعة، ووضع آدم على الصفا وحواء على المروة. فقال يا جبرئيل: أسخط من الله حوّلنا وفرّق بيننا أم برضا وتقدير علينا. فقال لهما: لم يكن ذلك. بسخط من الله عليكما، ولكنّ الله لا يسأل عما يفعل. يا آدم إنّ السبعين ألف ملك الذين أنزلهم الله تعالى إلى الأرض ليؤنسوك ويطوفوا أركان البيت والخيمة، يسألون الله أن يبني لهم مكان الخيمة بيتاً على موضع الترعة المباركة، حيال البيت المعمور فيطوفون حوله كما كانوا يطوفون في السماء حول البيت المعمور. فأوحى الله إليّ أن أنحّيك وارفع الخيمة. فقال آدم(عليه السلام): قد رضينا بتقدير الله ونافذ أمره فينا. فرفع قواعد البيت الحرام بحجر من الصّفاء وحجر من المروة وحجر من طور سيناء وحجر من السلام وهو ظهر

= إلى أن قال: وإن كانت في الموضع المطمئن فهي روضة.

وقال في ص٣٣٠ في مادة: روض:

الروضة: الأرض الخضرة بحسن النبات. ومنه روضات الجنات، وهي أطيب البقاع وأنزهها. ومنه الحديث: ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنّة.

وقال في طي كلامه في مادة: ترع المشار إلى بعضه آنفاً عند ذكر هذا الحديث المبارك: (لأن قبر فاطمة عليها السلام بين قبره ومنبره. وقبرها روضة من رياض الجنّة).

(١) هذه الكلمة مني بالمناسبة. وكذلك أوحى.

الكوفة. وأوحى إلى جبرئيل أن ابنه وأتمّه. فاقتلع جبرئيل الأحجار الأربعة بأمر الله تعالى من مواضعهنّ بجناحه فوضعها حيث أمر الله تعالى إلى جبرئيل أن ابنه وأتمّه بحجارة من أبي قبيس، واجعل له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً. قال فأتمّه جبرئيل (عليه السلام) فلمّا أن فرغ طافت حوله الملائكة. فلمّا نظر آدم وحوّاء إلى الملائكة يطوفون حول البيت، انطلقا فطافا سبعة أشواط، ثم خرجا يطلبان ما يأكلان.

ومثل هذه الرواية ما ذكره أيضاً في الآيات[١] من رواية الكافي عن عمران بن عطيّة عن الصادق (عليه السلام) قال: أمّا بدء هذا البيت فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فقالت: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فأعرض تعالى شأنه عنها فرأت أن ذلك من سخط، فلاذت بعرشه. فأمر الله ملكاً من الملائكة أن جعل له بيتاً في السماء السادسة يسمّى بالضراح بإزاء عرشه فصيّر لأهل السماء أن يطوف به سبعون ألف ملك في كل يوم ثم لا يعودون، ويستغفرون. فلما أن هبط آدم إلى السماء[٢] الدنيا أمره بمرمّة هذا البيت وهو بإزاء ذلك. فصيّره لآدم وذريته كما صيّر ذلك لأهل السماء.

أقول: ولا يخفى ما في التعبير بالمرمّة من الدلالة على سبق وضع البيت على هبوط آدم (عليه السلام)... ولا يخفى عدم التنافي بين هذه الرواية ورواية محمد بن إسحاق من كون الباني الثاني هو جبرئيل (عليه السلام) لإمكان معاونة آدم (عليه السلام) له.

نعم هذه الرواية تخالف رواية ابن سنان من كون الضراح في السماء الرابعة والبيت المعمور في سماء الدنيا... فلا تجهل.

---

(١) ذكرها في ص١٦٣ من آيات الأحكام.

(٢) النسخة هكذا... والظاهر أن الأصح: إلى الدنيا... فلاحظ.

الباني الثالث هو إبراهيم(عليه السلام) خليل الرحمن...

قال الرازي[١] في مقام بيان التفضيل لبيت الله الحرام على بيت المقدس:

اتفقت الأمم على أن الباني لهذا البيت هو الخليل... إلى أن قال:

واعلم أن الله تعالى أمر الخليل[٢] بعمارة هذا البيت. فقال في سورة الحج:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾... الآية والمبلّغ لهذا التكليف هو جبرئيل(عليه السلام).

فلهذا قيل: ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة فالآمر هو الملك الجليل والمهندس جبرئيل والباني هو الخليل والتلميذ هو إسماعيل.

أقول: إن المستفاد من هذا ومن غيره هو كون الدال على أساس البيت

---

(١) ذكر ذلك في ص١٠ من المجلّد الثالث من تفسيره.

(٢) أقول: الخلّة جعلها الله سبحانه وساماً لنبيّه وصفيّه إبراهيم(عليه السلام)، ودلّ على ذلك بقوله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، تكريماً له وإعلاءً لشأنه. كما وسم جملة من الأنبياء الأصفياء خص كل نبي منهم بوسام مخصوص ككون آدم صفي الله ونوح نجي الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله(سلام الله عليهم) ومحمد(صلى الله عليه وآله) حبيب الله... ومن النوارد ما يذكر عن خليل الرحمن على ما في المجلّد الثاني ص١٠٦ من تفسير الرازي قال:

روي أن إبراهيم(عليه السلام) قال لملك الموت وقد جاء لقبض روحه:

هل رأيت خليلاً يميت خليله.

فأوحى الله تعالى شأنه إليه:

هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله.

فقال يا ملك الموت الآن فاقبض... وقال في ص١٠١ من العرائس: وكان عمر إبراهيم مائتي سنة وقيل مائة وخمس وتسعون سنة. ودفن عند قبر سارة في مزرعة جبرون.

وفي مادة: خلل من مجمع البحرين معنى الخلّة... فراجع.

وقواعده الأصلية التي كان قبل الطوفان إنما هو جبرئيل(عليه السلام). فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة، فبينا الكعبة من خمسة أجبل طور سيناء وطور زنيا ولبنان والجودي. وبيت قواعده من حراء. ولما أكمل إبراهيم البناء قال لإسماعيل: ائتني بحجر حسن أضعه على الركن، ليكون علماً للناس. فناداه أبو قبيس: إن يا إبراهيم إنّ لك عندي وديعة هناك فخذها، فأخرج إبراهيم الحجر الأسود من أبي قبيس وركّبه في موضعه... فلما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت دعوا ربّهما بما حكاه الله تعالى عنهما بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]. أقول: وقد قيل في كيفية بناء إبراهيم(عليه السلام) البيت وجوه أخرى لا تخفى على المتتبع.

قال: بعضهم فلم يزل البيت على ما بناه إبراهيم(عليه السلام) إلى سنة خمس وثلاثين من مولد النبي محمد(صلى الله عليه وآله)، وذلك قبل مبعثه بخمس سنين. فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها.

فأما البناء الرابع فهو بناء قريش، وهو على ما ذكره البعض المتقدم: إن الكعبة كانت فوق العامة فأرادوا رفعها وتسقيفها، وكانت حيّة تخرج من بئر الكعبة التي يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم، فتشرف على جدار الكعبة، وكانوا يهابونها إذ كانت لا يدنو منها أحد إلّا كشّرت وفتحت فاها! فبينما هي ذات يوم كذلك على جدار الكعبة، إذ بعث الله سبحانه طائراً فاختطفها فذهب بها. فقالت قريش: إنّا لنرجو إنّ الله تعالى قد رضي ما أردناه من عمارة بيته. ولمّا أجمعوا على هدمها وبنائها قام أبو لهب بن عمر وابن عمير بن عامر بن عمر بن مخزوم فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كيسكم إلّا طيباً ولا تدخلوا فيها من مهر بغي ولا بيع ربا

---

(١) آية ١٢٧ من سورة البقرة. وهي في ص٢٠٦ من تفسير مجمع البيان المجلّد الأول.

ولا مظلمة أحد... ثم أخذوا في هدمها حتى انتهى الهدم إلى الأساس فوصلوا إلى حجارة خضر كأنها أسنمة الإبل، قد أخذ بعضها ببعض. فأدخل بعض الفعلة عتلة بين حجرين ليقلع أحدهما. فلمّا تحرك الحجر تحركت مكة بأسرها فعلموا أنهم قد انتهوا إلى الأساس. هذا وقد اجتمعت القبائل لبنائها، ولما بلغوا في البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه، فكل قبيلة أرادت أن تضعه في صفة دون أخرى حتى كثر النزاع بينهم وتواعدوا القتال واستمر نزاعه إلى أربع ليالٍ أو خمس على ذلك. ثم اجتمعوا بعد تحزّب من القبائل وتقابل بين بعضها وبعض في المسجد وتشاوروا وتناصفوا فقيل: إن رجلاً من شيوخهم قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل من يدخل عليكم من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. فرضوا بذلك وتوافقوا. فكان أوّل من يدخل عليهم محمد رسول الله(ﷺ). فلما رأوه قالوا: هذا محمد الأمين قد رضينا به. فلمّا انتهى إليهم وأخبروه الحال. قال هلمّوا ثوباً فأتوا به. فأخذ الركن فوضعه فيه بيده(ﷺ) ثم قال(ﷺ): لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الثوب. ثم رفعوه جميعاً. ففعلوا ذلك حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه(ﷺ) بيده ثم بنى عليه. قالوا: فكانت الكعبة كذلك على ما بنته قريش إلى أربع وستين من الهجرة، حتى حاصر الحصين بن نمير السكوني عبدالله بن الزبير، فقذفوا البيت بالمنجنيق، فمالت حيطان الكعبة ممّا رميت به من حجارة المنجنيق. ثم بناها ابن الزبير بعد أن هدّمها وسوّاها مع الأرض حتى انتهى إلى الأساس وادخل الحجر فيها، وجعل لها بابان يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر. فكانت الكعبة على ما بناها ابن الزبير[١] إلى سنة أربع وسبعين حتى قتل

---

(١) عبدالله بن الزبير وأمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الخليفة قتله الحجّاج بمكّة ١٧ جمادي الثاني سنة ٧٣ وصلبه. =

الحجّاج بن يوسف الثقفي عبدالله بن الزبير بأمر عبدالملك بن مروان، وأعادها إلى بنائها الأوّل بمشهد مشايخ قريش. فهي اليوم على ما بناها الحجّاج إلّا ما كان من بعض التغيرات غير الأساسية.

في بيان بناء بيت المقدس ومنشأ بنائه وواضع أسسه:

قد عرفت أن تفضيل الآية المباركة للبيت الحرام كان بالقياس إلى بيت المقدس...

ولا يخفى أن بيت المقدس بيت من بيوت الله المعظّمة. كيف لا، وهي البنية المنسوبة إليه تعالى شأنه فضلاً عمّا اشتملت عليه من خصائص ومزايا توجب تعظيمها وتستدعي تفخيمها وتكريمها.

ومن مزاياه وخصائصه أن واضع أسسه وقواعده داود النبي(عليه السلام) الذي كرّمه الله سبحانه وحباه واختاره خليفة واجتباه وهو النبي الكريم ذو الشأن

= قال العلّامة القمي في ص٢٤٨ من الجزء الثاني من كتاب: الكنى والألقاب:

قال ابن قتيبة في المعارف: لما خرج ابن الزبير وقوتل زماناً. قال الحجّاج لعبدالملك بن مروان: إني رأيت في منامي كأني أسلخ عبدالله بن الزبير فوجّهني إليه. فوجهه في ألف رجل... إلى أن قال: فحاصره فقتله.

أقول: قال في ص١٢٣ من الجزء الثاني من مروج الذهب:

وكان حصار الحجّاج لابن الزبير بمكّة هلال ذي العقدة وكانت مدّة حصار ابن الزبير خمسين يوماً. ووقعت الحرب بين الفريقين في المسجد، وقد تكاثر أهل الشام عليه ألوفاً من كل باب فحمل عليهم وكشفهم عن المسجد، ثم عادوا إليه وعاد إليهم فشدخ بالحجارة فانصرع فأكبّوا عليه وقتلوه، وأمر به الحجّاج فصلبه بمكّة. وكان مقتله يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادي الأول سنة ٧٣.

العظيم، الذي جمع الله سبحانه له الملك والحكمة. وكتابه الزبور ولسانه العبرانية وسور كتابه ١٥٠ سورة خمسون منها ما تلقاه الأمة من بخت نصّر وخمسون منها ما تلقاه من الروم وخمسون منها في الحكم والوعظ والإرشاد.

ومن جملة ما خصّ الله تعالى به نبيّه داود(عليه السلام) الصوت الطيب والنغمة الفعّالة بحيث لم يؤت أحد من الخلق مثل صوته وتأثير نغمته فإنّها تؤثر في المحموم فيعرق وفي المغمى عليه فيفيق، كان إذا أراد أن يقرأ الزبور برز إلى البريّة فيقوم أمام المجتمع وتقوم خلفه العلماء من بني إسرائيل وتقوم خلف العلماء الناس، ويقوم خلف الناس الجن وخلف الجن الشياطين، وتقوم الطير على رأسه فتضلّله عن الشمس ويركد الماء ويسكن الريح، ويؤثر في الوحوش والسّباع حتى تأتي فتختلط بالناس فيؤخذ بأعناقها. وإذا سبّح سبّحت الجبال معه والطير. وقد ألان الله تعالى له الحديد فيكون في يده كالعجين فيصنع منه: الدروع الداودية وكيف كان فقد قال العلامة[1] الطبرسي رحمه الله عند شرح قوله تعالى:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

قال: وكان مما عملوه بيت المقدس. وقد كان السبب في بنائه أن الله سبحانه سلّط على بني إسرائيل الطاعون فهلك خلق كثير في يوم واحد. فأمرهم داود(عليه السلام) أن يغتسلوا ويبرزوا إلى الصّعيد بالذراري والأهلين ويتضرّعوا إلى الله تعالى لعلّه يرحمهم. وذلك صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد، وارتفع داود(عليه السلام) فوق صخرة فخرّ ساجداً يبتهل إلى الله سبحانه وسجدوا معه، فلم يرفعوا رؤوسهم حتى كشف الله عنهم الطاعون. فلمّا إن شفّع الله تعالى داود(عليه السلام)

---

(١) ذكره في ص٣٧٢ من المجلّد ٤. وهي آية ١٣ من سورة سبأ.

في بني إسرائيل جمعهم داود(عليه السلام) بعد ثلاث[1] وقال لهم: إن الله تعالى قد منّ عليكم ورحمكم فجدّدوا له شكراً[2] بأن تتخذوا من هذا الصّعيد الذي رحمكم فيه

---

(١) هكذا النسخة... ويحتمل سقوط لفظة: ليال.

(٢) والشكر الذي أراده داود(عليه السلام) هاهنا من سنخ العمل وهو الأحق في الصدق.

قال العلامة السيد جعفر بحر العلوم طاب ثراه في ص١٩ من الجزء الأول من كتابه: تحفة العالم ذكر أهل التاريخ أن السلطان سنجر السلجوقي مرّ في طريق وهو في موكب سلطنته. وكان في الطريق درويش من أهل الفقر فسلّم على السلطان فلم يرد عليه جواب التحية بلسانه بل حرّك رأسه بدل الجواب. فقال الدرويش: أيها الملك أن الابتداء بالتحية مستحب وجوابها واجب وأنا قد أدّيت المستحب فلم لا تؤدّي الواجب؟ فأمسك السّلطان بعنان موكبه وأخذ يعتذر من الدرويش بأنّه كان مشغولاً بالشكر فغفل عن جواب التحيّة. فقال الدرويش للسلطان: لمن كنت تشكر؟ فقال: لله الذي هو المنعم على الإطلاق وما من نعمة إلّا وهي منه ولا عطاء إلّا من قبله. فقال الدرويش: بأيّ نوع كنت تشكره؟ قال: بكلمة الحمد لله ربّ العالمين فإنّ فيها شكر سائر النعم. فقال الدرويش: أيها السّلطان: ما أجهلك بطريق الشكر الواجب عليك إنّ ما يجب عليك من هذا الأمر هو مقدار ما أفاض عليك من النعم وأردف عليك عطاياه غير المتناهية من اقتدار أيامك وسعة زمانك، فليس الواجب عليك من هذا الأمر قول الحمد لله فإنّ الشكر من السّلطان إنّما يقع موقع القبول وتستزاد به النعمة إذا وقع منه على كلّ نعمة عنده بما يناسبها. فالتمس السّلطان منه أن يعلّمه ذلك. فقال له: شكر السّلطان هو العدل والإحسان مع عامة العباد، وشكر سعة ملكه عدم الطمع في أملاك الرعية، وشكر ارتفاع عرشه إقباله وإلتفاته إلى المنخفضين في تراب الفاقة والمذلّة، وشكر نعمة التأمر أداء حق المأمورين، وشكر الخزائن العامرة التصدق على أهل الاستحقاق والإدرار عليهم بالمقرّرات... إلى آخر ما ذكره من شكر كل نعمة بما يناسبها.

إلى أن قال المؤلف المذكور: وسنجر هذا هو ابن السّلطان ملكشاه السلجوقي اتّسع ملكه من حدود خطا وختن إلى أقصى مصر والشام ومن بحر الخزر إلى اليمن. وكان ذا هيبة ووقار كثير الحياء والكرم شفيق على الرّعية يخاف الله ويعظم العلماء ويعاشر الزهّاد. مدة سلطنته أربعون سنة وثلاثة أشهر. ومدّة حياته اثنتان وسبعون سنة. توفي سنة ٥٢٢ سادس عشر =

مسجداً... ففعلوا وأخذوا في بناء بيت المقدس وكان داود(عليه السلام) ينقل الحجارة لهم على عاتقه وكذلك خيار بني إسرائيل حتى رفعوه قامة. ولداود(عليه السلام) يومئذٍ ١٢٧ سنة. فأوحى الله سبحانه إلى داود أن إتمام بنائه يكون على يد ابنه سليمان(عليه السلام). فلمّا صار داود(عليه السلام) ابن أربعين ومائة سنة توفّاه[1] الله سبحانه واستخلف سليمان فأحبّ إتمام بيت المقدس، فجمع الجن والشياطين وقسّم عليهم الأعمال يخصّ كلّ

= ربيع الأول...

والسلجوقيون أربعة عشر ملكاً مدّة ملكهم سنة ١٦١ وتأسيس ملكهم سنة ٤٦٩ وانقضائه سنة ٧٠٠.

(١) قال الرازي في ص٦٣٥ من المجلّد ٨ من تفسيره:

روى أن داود(عليه السلام) لّما مرض مرض الموت. قال: إلهي كن لسليمان كما كنت لي، فنزل الوحي: قل لسليمان: فليكن لي كما كنتَ لي... وروي عن إبراهيم(عليه السلام) خليل الرحمن أنه فقد الضيف أياماً، فخرج بالسفرة ليلتمس ضيفاً فإذا بخيمة فنادى: أتريدون الضيف؟ فقيل: نعم. فقال للمضيّف: أيوجد عندكم أدام لبن أو عسل، فرفع صخرتين فضرب إحداهما بالأخرى فأنشقا فخرج من أحدهما اللّبن ومن الآخر العسل. فتعجب إبراهيم(عليه السلام) وقال: إلهي أنا خليلك ولم أجد مثل ذلك الإكرام فماله؟ فنزل الوحي: يا خليلي كان لنا فكنّا له.

وذكر العلّامة القمي رحمه الله في ص٤٨ من الجزء الثاني من سفينة البحار:

سأل داود النبي(عليه السلام) الله تعالى عن قرينه في الجنّة. فأوحى الله إليه أنه متى أبو يونس(عليه السلام)، فجاء مع سليمان لزيارته، فرأياه إذ أقبل وعلى رأسه وقر من حطب فباعه واشترى طعاماً ثم طحنه وعجنه وخبزه فأخذ لقمة وقال: بسم الله. فلمّا وضعه قال: الحمد لله يا ربّ من ذا الذي أنعمت عليه وأوليته مثل ما أوليتني قد صحّحت بصري وسمعي وبدني وقوّيتني حتى ذهبت إلى شجر لم أغرسه ولم أهتم لحفظه جعلته لي رزقاً وسقت إليّ من اشتراه مني فأشتريت بثمنه طعاماً لم أزرعه وسخّرت لي النار فأنضجته وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك فلك الحمد ثم بكى...

قال داود(عليه السلام): يا بني قم فانصرف بنا فإني لم أر عبداً قط أشكر من هذا...

طائفة منهم بعمل، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرّخام والمها أي الدرّ الأبيض الصّافي من معادنه، وأمر ببناء المدينة من الرخام والصّفاح وجعلها اثني عشر ربضاً وأنزل كل ربض منها سبطاً من الأسباط. ولما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد، فوجّه الشياطين فرقاً فرقة يستخرجون الذهب واليواقيت من معادنها وفرقة يقتلعون الجواهر والأحجار من أماكنها، وفرقة يأتون بالمسك والعنبر وسائر الطيب وفرقة يأتون بالدرّ من البحار، فأوتي من ذلك بشيء لا يحصيه إلّا الله.

ثم أحضر الصناع وأمرهم بخت تلك الأحجار حتى صيّروها ألواحاً. ومعالجة تلك الجواهر واللآلئ. قال وبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمده بأساطين المها الصافي وسقّفه بألواح الذهب وفصص سقوفه وحيطانه باللئالي واليواقيت والجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج... فلم يكن في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر.

فلمّا فرغ منه جمع إليه أخيار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً... إلى أن قال:

ففرغ له سليمان(عليه السلام) عشرة آلاف من قرّاء بني إسرائيل خمسة آلاف باللّيل وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من الليل ولا النهار إلّا ويعبد الله فيها...

ولم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان(عليه السلام) حتى غزا بخت[1] نصّر بني

---

(١) قال العلّامة الطريحي في مادة: بخت من المجمع:

بخت نصّر بالتشديد أصله بوخت ومعناه ابن ونصّر كبقّم اسم صنم لأنه كان وجد ملقى عند صنم واسم ذلك الصنم نصّر فنسب إليه لأنه لا يعرف له أب. =

إسرائيل فخرّب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضّة والدر واليواقيت والجواهر، فحملها إلى دار مملكته من أرض العراق[1].

وقد ذكر في تفسير التماثيل: أنّ ممّا عملته الشياطين لسليمان أن صوّروا له صورة أسدين أسفل كرسيه ونسرين فوق عمودي كرسيّه، فكان إذا أراد أن يصعد سليمان(عليه السلام) الكرسي بسط الأسدان ذراعيهما وإذا علا على الكرسي نشر النسران أجنحتهما فضلّلاه عن الشمس.

ويقال: إن ذلك مما لم يعرفه أحد من الناس.

فلمّا ملك بخت نصّر واستولى حاول الصّعود على الكرسي فلم يعرف كيف كان يصعد سليمان، فرفع الأسد ذراعيه فضرب ساقه فقدّها فوقع مغشياً عليه.

فهذا بعض ما يتعلّق ببيت المقدس تأسيساً وتأثيثاً وتشييداً. وهو وإن كان له أهميته العظمى وشأنه الأرفع بمؤسّسه وبنائه وبانيه إلّا أنه أين هو من البيت الحرام الذي قال الله تعالى فيه:

= وقال العلّامة القمي طاب ثراه في ص٦٠ من المجلّد الأول من سفينة البحار:

وكان ـ يعني بخت نصّر ـ مجوسياً أغلف أغار على بيت المقدس ودخله في ستمائة ألف...

وعن الرسول(صلى الله عليه وآله) قال: ملك بخت نصّر مائة سنة وسبعاً وثمانين سنة. وقتل من اليهود سبعين ألف مقاتل على دين يحيى بن زكريا(عليهما السلام) وخرّب بيت المقدس وتفرّق اليهود في البلدان.

وعن الإمام الصادق(عليه السلام): ملك الأرض كلّها أربعة، مؤمنان وكافران:

أمّا المؤمنان فسليمان وذو القرنين وأمّا الكافران فالنمرود وبخت نصّر.

(١) وقال في ص٤١٢ من سفينة البحار:

إنّ بيت المقدس لمّا خرّبه بخت نصّر لم يزل بعد ذلك خراباً حتى بناه عمر بن الخطاب.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾...

والذي قال فيه تعالى شأنه:

﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾.

والذي قال فيه سبحانه:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. إذ قد خصّه الله سبحانه بأولية الإيجاد المقتضية لأولوية الفضيلة، وجعله مباركاً مقتضياً للنمو والزيادة. أمّا زيادة الثواب في الطاعات فيه على الطاعات في غيره، كما قد ورد: إن الصلاة الواحدة فيه تعدل ألف ألف صلاة. وأمّا ثواب الحجّ فغفران الذنوب ودخول الجنة، كما قيل إنه قال(ﷺ): من حجّ ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه[1].

---

(١) قال في مادة: حجج من سفينة البحار ص٢١٣:

عن أبي حازم قلت: لأبي عبدالله(عليه السلام): ما يصنع الله بالحاج؟ قال: مغفور والله لهم لا أستثني.

وعنه(عليه السلام) قال: لو عطل الناس الحج لوجب على الإمام أن يجبرهم على الحج إن شاؤوا وإن أبوا لأن هذا البيت إنّما وضع للحج.

وعنه(عليه السلام) أنه قال: من مات ولم يحج حجّة الإسلام ولم يمنعه عن ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق الحج من أجله أو سلطان يمنعه فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً.

نادرة في الحج عن إمام العصر عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

قال في ص٢٢٠ من السفينة: روي أن أبا محمّد العجلي كان له ولدان وكان من خيار أصحابنا وكان قد سمع الأحاديث وكان أحد ولديه على الطريقة المستقيمة وهو أبو الحسن وكان يغسل الأموات، وولد آخر يسلك مسالك الأحداث في الإجرام، ودفع إلى أبي محمد حجّة يحجّ بها عن صاحب الزمان صلوات الله عليه، وكان ذلك عادة الشيعة وقتئذٍ، فدفع شيئاً =

وإنّ الحجّ المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة...

ومعلوم أنه لا أكثر بركة مما ينتج المغفرة والجنّة.

وأمّا زيادة الثمرات والخيرات التي ذكرها الله سبحانه بقوله: تجبى إليه ثمرات كل شيء، فيكون كقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

كما قد وصفه تعالى بكونه هدىً للعالمين، أي دلالة على الله تعالى شأنه باجتماع الظبي في حرمه مع الكلب والذئب وبتفرّق الجمار الذي لولاه لكان يجتمع هناك من الحجارة مثل الجبال لكثرة الرماة وبأن لا يعلوه طير أعظاماً له. إلى غير ذلك من الآيات والدلالات.

وكرّمه بالآية البيّنة والمعجزة الواضحة وهو مقام إبراهيم(عليه السلام) أي أثر قدمه المبارك في الحجر الأصم الصلد، إذ قد جعل الله تعالى شأنه ما تحت قدم إبراهيم(عليه السلام) من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين أو كالعجين حتى غاص فيه قدم إبراهيم(عليه السلام) وهذا مما لا يقدر عليه إلّا سبحانه ولا يظهر إلّا على أيدي الأنبياء(عليهم السلام). ثم لمّا رفع إبراهيم قدمه عنه خَلَقَ الله فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى. ثم أبقى تعالى شأنه ذلك الحجر على نحو الاستمرار...

= منها إلى ابنه المذكور بالفساد وخرج إلى الحج ... فلمّا عاد حكى أنه كان واقفاً بالموقف فرأى إلى جانبه شاباً حسن الوجه أسمر اللون بذؤابتين مقبلاً على شأنه في الابتهال والدعاء والتضرع وحسن العمل، فلمّا قرب نفر الناس التفت إليّ فقال يا شيخ: أمّا تستحي؟ فقلت: من أي شيء يا سيدي؟ قال: يدفع إليك حجّة عمّن تعلم فتدفع منها إلى فاسق يشرب الخمر يوشك أن تذهب عينك هذه، وأومأ إلى عيني، وأنا من ذلك إلى الآن على وَجَل ومخافة.

وسمع أبو عبدالله محمد بن يحيى بن النعمان ذلك... قال فما مضى عليه أربعون يوماً بعد مورده حتى خرج في عينه التي أومأ إليها قرحة فذهبت...

ومن الآيات التي خصّ الله تعالى بها بيته الحرام الحجر الأسود وهو الحجر الذي قد مرّ في أن رسول الله(ﷺ) وضعه بيده المباركة في محلّه لدى تشاجر قريش على وضعه كذلك عندما بنوا الكعبة المعظّمة.

قال العلامة[1] القمي أعلى الله مقامه: الروايات في فضل الحجر الأسود وأنه لولا ما طبع الله عليه من أرجاس الجاهلية وأنجاسها إذن لا ستشفى به من كلّ علّة... إلى أن قال: روى الصدوق في العلل عن بريد العجلي قال: قلت لأبي عبدالله(عليه السلام): كيف صار الناس يستلمون الحجر والركن اليماني ولا يستلمون الركنين الآخرين؟ قال(عليه السلام): إن الحجر الأسود والركن اليماني عن يمين العرش. وإنّما أمر الله تبارك وتعالى أن يستلم ما عن يمين عرشه قلت: فكيف صار مقام إبراهيم عن يساره؟ قال: لأنّ لإبراهيم(عليه السلام) مقاماً في القيامة ولمحمّد(ﷺ) وآله مقاماً. فمقام محمّد(ﷺ) عن يمين عرش ربّنا(عزّ وجلّ)، ومقام إبراهيم(عليه السلام) عن شمال عرشه. فمقام إبراهيم في مقامه يوم القيامة.

ثم قال: وعن الباقر(عليه السلام): نزلت ثلاثة أحجار من الجنّة مقام إبراهيم وحجر بني إسرائيل والحجر الأسود.

وقال أيضاً: أن علي بن الحسين(عليه السلام) نصب الحجر الأسود في مكانه زمن الحجّاج إلى غير ذلك مما ذكر في ذلك المقام فليلاحظ.

وممّا خصّ[2] الله سبحانه به البيت الحرام الحطيم وهو ما بين الباب والحجر الأسود وهو الموضع الذي تاب الله تعالى فيه على آدم(عليه السلام).

---

(١) ذكر ذلك في ص٢٢٥ من المجلّد الأول من سفينة البحار.

(٢) ذكر ذلك العلّامة الأجل القمي في ص٢١٧ من المجلّد الأول من سفينة البحار.

وإن تهيأ لك أن تصلي صلاتك كلها عند الحطيم فأفعل فإنه أفضل بقعة على وجه الأرض. وبعده الصلاة في الحجر وبعده ما بين الركن العراقي والبيت وهو الموضع الذي كان فيه المقام على عهد إبراهيم(عليه السلام) إلى عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وبعده خلف المقام الذي هو الساعة فيه. وما قرب من البيت فهو أفضل.

وعن الصادق(عليه السلام) في أن المقام كان ملاصقاً بالبيت وكان الناس يزدحمون عليه فرأى أهل الجاهلية أن يضعوه في هذا الموضع الذي هو فيه اليوم ليخلو المطاف لمن يطوف بالبيت، فلمّا بعث محمد(صلى الله عليه وآله) ردّه إلى الموضع الذي وضعه فيه إبراهيم(عليه السلام)، فما زال فيه إلى ولاية عمر فأمر به فردّ إلى الموضع الذي كان في الجاهلية وهو الموضع الذي كان فيه الساعة.

ومن آياته تعالى شأنه في تلك البقاع المكرّمة بئر زمزم.

فعن أبي عبدالله(عليه السلام) في حديث طويل منه[1]: أن إسماعيل(عليه السلام) شكا قلّة الماء إلى إبراهيم(عليه السلام). فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم(عليه السلام) أن احتفر بئراً يكون منها شرب الحاج، فنزل جبرئيل(عليه السلام) فاحتفر قليبهم يعني زمزم حتى ظهر ماؤها. ثم قال جبرئيل: انزل يا إبراهيم فنزل بعد جبرئيل فقال اضرب يا إبراهيم في أربع زوايا وقل بسم الله... ثم ذكر(عليه السلام) أنه ضرب في الزوايا الأربع وقال بسم الله فانفجرت من كل زاوية عيناً. فقال جبرئيل(عليه السلام): اشرب يا إبراهيم وادع لولدك فيها بالبركة... فخرج إبراهيم وجبرئيل جميعاً من البئر.

وعن الدرّ المنثور عن النبي(صلى الله عليه وآله):

ماء زمزم كماء من شربه لمرضه شفاه الله أو لجوع أشبعه الله أو لحاجة قضاها

---

(١) ذكر ذلك العلّامة الأجل القمي في ص٥٥٥ من المجلّد الأول من سفينة البحار.

الله. وعن[1] أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام:

الاطّلاع في بئر زمزم يذهب الدّاء فاشربوا من مائها مما يلي الركن الذي فيه الحجر الأسود. قال العلامة الطبرسي[2] رحمه الله: قال المفسّرون: ومن تلك الآيات مقام إبراهيم... إلى أن قال: وإذا كان الغيث من ناحية الركن اليماني كان الخصب باليمن وإذا كان من ناحية الركن الشامي كان الخصب بالشام وإذا عمّ البيت كان في جميع البلدان.

أقول: وسائر ما ذكرناه وغيره هي تلك الآيات البيّنات التي قد خصّ الله سبحانه البيت الحرام فزادته فضلاً إلى فضله وشرفاً إلى شرفه.

ومن مميّزات هذا البيت وما خصّه الله تعالى به مما يليق بحاله، من جعله مأمناً للّاجئين إليه(عَزَّوَجَلَّ) كما قال الله سبحانه: ومن دخله كان آمناً، الذي معناه أن الله سبحانه عطف قلوب العرب في الجاهلية على ترك التعرض لمن لاذ بالحرم والتجأ إليه وإن كثرت جريمته، ولم يزده الإسلام إلّا شدّة...

أو أن معناه كون من وجب عليه حدّ فلاذ بالحرم لا يبايع ولا يشارى ولا يعامل حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد. وهو المروي من الطريقين.

أو أن معناه من دخله عارفاً بجميع ما أوجبه الله عليه كان آمناً في الآخرة من العذاب الدائم.

وأجمعت الأمّة على أن من أصاب فيه ما يوجب الحدّ عليه أقيم عليه الحدّ فيه كما ذكره الطبرسي في مجمعه. ومن شريف قدره وجليل خطره أنه ما قصده من الجبّارين بسوء إلّا وصدّ عن ذلك.

---

(١) ذكره في ص٢١٨ من المجلّد الأول من سفينة البحار.

(٢) في المجلّد الأول من مجمع البيان ص٤٧٨.

إما بإبادة واستئصال وإما بعقوبة ونكال كأبرهة الأشرم صاحب الفيل الذي ذكره الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى شأنه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾.

وكتّبع الملك حيث نوى أن يقتل مقاتلة الكعبة، فسالت عيناه حتى وقعتا على خدّيه. فسأل عن سبب ذلك. فقالوا: ما نرى الذي أصابك إلّا مما نويت في هذا البيت لأن البلد حرم الله والبيت بيت الله. فسأل عن المخرج عن ذلك؟ قالوا: تحدّث نفسك بغير ذلك، فحدّث نفسه بخير، فرجعت حدقتاه حتى ثبتتا في مكانهما.

إلى غير ذلك من الخصائص والمزايا. ولو لم يكن من جهات عظمة هذا البيت وكبير شأنه إلّا فرضه الله سبحانه على السلطان والرعيّة والملك والسوقة من شدّ الرحال إليه والتذلل عنده والهرولة في صعيده وكون التخلّف عن حجّه لمستطيعه مساوقاً للكفر أو كونه فاعلاً فعلهم، لكان ذلك شيئاً كثيراً من بيان قدسه وعلو قدره...

مضافاً إلى ما ورد من الزجر والرّدع عن التخلّف عنه من تهديد وتوعيد ما تقشعّر له الأبدان وترتعد منه الجوارح، أمّا في القرآن الكريم فقد قال العلامة السيد الطباطبائي (قدس سره) في عروته الوثقى:

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]... ذاك الذي يسوّف الحج يعني حجّة الإسلام حتى يأتيه الموت، كما عن الصادق آل محمّد (عليه السلام).

---

(١) هذه الآية في سورة بني إسرائيل في الآية ٧٢... ص٤٢٨ من المجلّد ٣ من المجمع.

وقولـه تعـالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾(١).

وقوله تعـالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾...(٢).

---

(١) هذه الآية في سورة طه في الآية ١٢٤... ص٣٢ من المجلّد الرابع من مجمع البيان.
وقد ذكر العلّامة الطبرسي طاب ثراه ورود هذه في تارك الحجّ.

(٢) ذكر العلّامة الجزائري رحمه الله في ص١٢٥ من آيات أحكامه:
وفي رواية عن الكاظم(عليه السلام) في قوله تعالى: هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً:
يتمادون عن الحجّ ويسوّفونه. والآية المباركة في سورة الكهف الواقعة في ص٤٩٥ من المجلّد ٣ من المجمع.
وفي وصيّة النبي(صلى الله عليه وآله) لعليّ(عليه السلام):
يا عليّ: كفر بالله العظيم من هذه الأمّة عشرة:
١ـ القتّات(*) ٢ـ والسّاحر ٣ـ والديّوث(**) ٤ـ وناكح المرأة حراماً في دبرها ٥ـ وناكح البهيمة ٦ـ ومن نكح ذات محرم منه ٧ـ والساعي في الفتنة ٨ـ وبايع السلاح من أهل الحرب ٩ـ ومانع الزّكاة ١٠ـ ومن وجد سعة فمات ولم يحج...

(*) قال في مادة قتت من مجمع البحرين: في الحديث: الجنّة محرّمة على القتّات والمراد به النمّام المزوّر من قتّ الحديث نمّه وأشاعه بين الناس... إلى أن قال: وفيه: من بلغ بعض الناس ما سمع من بعض آخر منهم فهو القتّات. فلا ينبغي سماع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا تبليغ ذلك... إلى أن قال: وقوله(عليه السلام): الجنّة محرّمة على القتّاتين المشائين بنميمة هو بمنزلة التأكيد للعبارة الأولى... انتهى.

(**) قال في مادة: ديث من مجمع البحرين: =

فذلك كلّه فيمن يسوّف الحج ثم لا يوفّق له.

وأمّا ما ورد من الأحاديث: فعن الصادق(عليه السلام):

من مات ولم يحج حجّة الإسلام لم يمنعه مانع شرعي فليمت يهودياً أو نصرانياً.

وفي حديث آخر: من سوّف الحج حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً.

قال الشهيد(قدّس الله سرّه) في شرح اللّمعة في شرائط قبول الشهادة من كتاب: الشهادات:

ومنها العدالة... وفسّرها بالملكة الباعثة على ملازمة التقوى...

وأرجعها إلى ترك الكبائر، وفسّرها بأنّها ما توعّد عليها في الكتاب والسنّة النّار... وعدّ من مصاديقها أفعالاً منها:

تأخير الحج عن عام الاستطاعة اختياراً لا لعذر.

وأمّا ما ورد في فضله فهو أعظم من أن يقدّر وأجل من أن يحصر...

منه ما عن الصادق(عليه السلام):

الحاج والمعتمر وفد الله إن سألوه أعطاهم...

= في الحديث: لا يدخل الجنّة ديّوث. ولا يجد ريح الجنّة ديّوث.

قيل: يا رسول الله: وما الديّوث؟

قال(صلى الله عليه وآله): الذي تزني امرأته وهو يعلم بها.

والديّوث من لا غيرة له على أهله. ومثله الكشخان والقرنان.

إلى آخر ما ذكره طاب ثراه هناك.

وإن دعوه أجابهم...

وإن شفعوا شفعّهم...

وإن سكتوا ابتدأهم...

ويعوضون بالدرهم أضعافه.

وعنه(عليه السلام):

الحج والعمرة سوقان من أسواق الآخرة...

اللازم لهما في ضمان الله تعالى: إن أبقاه أدّاه إلى عياله.

وإن أماته أدخله الجنّة.

وفي آخر: إن أدرك ما أمّل غفر الله له.

وإن قصّر به أجله وقع أجره على الله.

إلى غير ذلك من الأحاديث في هذا الباب:

ويكفي منها ما عن الرسول[1](صلى الله عليه وآله):

---

(١) ذكر هذا الحديث آية الله العظمى البهائي في ص٩٢ من أربعينه بسند مسلسل ينتهي إلى معاوية بن عمار عن أمير المؤمنين(عليه السلام) قال: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) لقيه أعرابي فقال له يا رسول الله إني خرجت أريد الحج ففاتني وأنا رجل مميل، فمرني أن أصنع بمالي ما أبلغ به مثل أجر الحج. فألتفت إليه رسول الله(صلى الله عليه وآله) وقال له: أنظر إلى أبي قبيس، فلو أنّ أبا قبيس ذهبة حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت ما يبلغ الحاج. ثم قال(صلى الله عليه وآله): إنّ الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات. فإذا ركب بعيره لم يرفع خفّاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك. فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه. فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه. فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه. =

عن رجل مميل فاته الحج فأراد أن يتدارك... فقال له رسول الله(ﷺ):

لو أنّ لك مثل جبل أبي قبيس ذهبة حمراء فأنفقتها في سبيل الله ما وفى ذلك بأجر الحج.

وعن أبي عبدالله(عليه السلام) عن أبيه(عليه السلام) قال: قال رسول الله(ﷺ): للحاج والمعتمرين ثلاث خصال:

أمّا يقال له: قد غفر لك ما مضى وما بقي...

وأمّا أن يقال له: قد غفر لك ما مضى فاستأنف العمل...

وأمّا أن يقال له: حفظت في أهلك وولدك... وهي أخسّهن.

وروى أنه: حجّة مبرورة خير من الدنيا وما فيها.

وعن أبي عبدالله(عليه السلام): من أنفق درهماً في الحج كان خيراً له من مائة ألف درهم ينفقها في حق.

وروي أن درهماً في الحج أفضل من ألفي ألف درهم في سبيل الله.

وعن الصادق(عليه السلام) في سؤال موسى(عليه السلام) جبرئيل(عليه السلام) ما لمن حجّ هذا البيت بنية صادقة ونفقة طيبة... قال فرجع إلى الله سبحانه(عزّ وجلّ) فأوحى إليه قل له: اجعله في الرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

= فإذا وقف بالمشعر خرج من ذنوبه...

إلى آخر ما ذكره...

ولتعلم أنه لا مندوحة لك عن الرجوع إلى الكتاب المذكور ولتنظر ما فيه من الشرح للفقرات المذكورة المحتاجة إلى الشرح.

المحاضرة السادسة

في القرآن الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم قرآنه الشريف وجليل بيانه المنيف[١]:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ[٢] عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ

---

(١) الآية المباركة هي الآية ٢١ من سورة الحشر وموقعها ص٢٦٥ من المجلّد ٥ من مجمع البيان. وص١٨٢ من تفسير الرازي.

(٢) قال العلّامة الجزائري رحمه الله في ص٢٣ من آيات أحكامه: والقرآن هو جملة الكتاب وهو المقروء على الألسن. والمكتوب يسمّى مصحفاً.
قال في مختار الصحاح: المُصْحَف: بالضمّ والكسر والأصل الضمّ... إلخ.
وقال السيد العلّامة الأجل السيد علي خان المدني أعلى الله مقامه في ص٤٠١ من شرح الصحيفة:
القرآن اسم للكتاب المنزل على نبينا(ﷺ)، كما أنّ التوراة اسم للكتاب المنزل على موسى(عليه السلام) والإنجيل اسم للكتاب المنزل على عيسى(عليه السلام) والزبور اسم للكتاب المنزل على داود(عليه السلام)... وعرّف: بأنّه كلام منزل للإعجاز بسورة من مثله... أقول: وقد ذكروا في وجه تسميته قرآناً وجوهاً كثيرة يليق بموضوع كتابنا بيانها وشرحها.
فمن تلك الوجوه أنه وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع. ومنه قرأت الماءَ في الحوض إذا جمعته، وسمّي بذلك لجمعه السور. وقيل: لجمعه ثمرات الكتب السابقة وأنواع العلوم.. إلى غير ذلك ممّا ذكره السيد المتقدم هناك. =

= ثم قال(قدس): وفي المقام مسائل:
الأولى: قال الشيخ أبو جعفر ابن بابويه إن القرآن الذي أنزل الله تعالى على نبيّه محمّد(ﷺ) ما بين الدّفتين وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك... إلى أن قال: ومن نسب إلينا بأنا نقول أنه أكثر من ذلك فهو كاذب.
ثم قال: وقال أمين الإسلام الطبرسي: أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها.
وأمّا النقصان منه فقد روى بعض أصحابنا وقوم من الحشوية: أنّ في القرآن تغييراً ونقصاناً.
والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى وذكر أن القرآن كان على عهد رسول الله(ﷺ) مجموعاً مؤلفاً على ما هو الآن عليه... إلى آخر ما أفاده.
ثم قال السيد المتقدم رحمه الله: وقال بعض المتأخرين من أصحابنا إسقاط بعض القرآن وتحريفه ثبت من طرقنا بالتواتر معنىً كما يظهر لمن تأمّل في كتب الأحاديث من أولها إلى آخرها. ودلّت الأخبار على وجود مصحف غير هذا المشهور بين الناس وهو موجود عند أهله. والظاهر أنا مأمورون بقراءة ما في هذا القرآن ولا يجوز لنا الزيادة على ما فيه بما ورد في بعض الروايات أنه سقط منه... انتهى قال السيد رحمه الله: وأمّا أهل السنة والجماعة فرووا أخباراً كثيرة في وقوع النقصان من القرآن، وذكر رواية أبي عبيدة بسنده عن ابن عمر في ذلك، وبسنده عن عائشة من أنّ سورة الأحزاب على عهد رسول الله(ﷺ) كانت ٢٠٠ آية فلمّا كتب عثمان القرآن لم يقدر إلّا على ما هو الآن في السورة وهو ٧٣ آية... وقريب منها رواية ابن حبيش عن أبي ابن كعب وأنها كانت تعدل سورة البقرة.
ثم قال السيد الأجل المتقدم: قال السيوطي في الدرّ المنثور، ومنه نقلت:
قال أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنّا نقرأ على عهد رسول الله(ﷺ): يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك أنّ عليّاً مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته... الآية(هذه هي آية ٦٧ من سورة المائدة في ص٢٢٢ من المجلّد ٢ من المجمع).
والروايات من طرقهم في هذا المعنى كثيرة جدّاً لكنّهم أجمعوا على ما تضمّنته هذه المصاحف المشهورة بين الناس وترك ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال ما لمْ يثبت ثبوتاً مستفيضاً إنه في القرآن... والله أعلم.
أقول: قال العلّامة الحبر المتتبع القمي في ص٣٠٩ من الجزء الثاني من كتاب: الكنى =

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أقول: هذا تعظيم لشأن القرآن وتكريم له وإيضاح لعلوّ شأنه وقدره وجليل خطره ومزيد وقعه وتأثيره، لما ينطوي عليه من فنون القوارع وأنحاء الزواجر والروادع، المؤثرة في أعظم الأجسام شدّة وأشدّها استمساكاً كالجبال الرواسي لو كان ممّن يعقل الخطاب ويصلح للثواب والعقاب، ولكان على ما هو عليه من كونه علماً في القسوة متشققاً خاشعاً ومنحطاً متواضعاً خشية من الله العظيم.

= والألقاب: السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن ناصر الدين محمد السّيوطي الشافعي الفاضل المعروف صاحب المصنّفات المشهورة في فنون شتى. قيل إنها تزيد على ٥٠٠ مصنّفاً...

قال في روضات الجنّات في ترجمة السيوطي: وأما مذهبه ودينه فالظاهر أنه في الأصول سني أشعري وفي الفروع نحلة الشافعي المطلبي، إلا أن المنقول عن السيد الفقيه العالم المحدث الأمير بهاء الدين محمد الحسيني المختاري في حاشيته على كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي قال: سمعت السيد علي خان المدني أطال الله بقاءه في سنة ١١١٦ بأصفهان: أنّ السيوطي مصنّف الكتاب كان شافعياً لكنه رجع عن التسنّن واستبصر وقال بإمامة الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام).

قال السيد أطال الله عمره: رأيت كتاباً من مصنّفات السيوطي ذكر فيه رجوعه إلى الحق، واستدل على إمامة علي بن أبي طالب(عليه السلام) بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله) بلا فصل. رزقني الله الفوز به... انتهى كلام الناقل والمنقول عنه...

ولا يبعد أن يكون تأليفه مناقب أولى القربى، مشعراً بصحّة هذه النسبة الجليلة إليه مضافاً إلى ما نقلناه من كلامه المتين في تقوية حديث ردّ الشمس لأمير المؤمنين(عليه السلام) انتهى ما نلقناه عن الروضات... توفي السيوطي بالقاهرة سنة ٩١٠ وسيوط كثبوت أو أسيوط كاخدود قرية بصعيد مصر...

انتهى ما نقلناها عن الكنى والألقاب بإسقاط بعض كلمات لا تخلّ بالمقصود...

ولا شبهة في أنّ ما تألّف منه بناء الإنسان دون الجبل في الصلبة والاستمساك ولازمه أن يكون أكثر مطاوعة وأسرع تأثراً وإجابة، كما قال علي أمير المؤمنين(عليه السلام): الشوكة تدميه والعترة تؤلمه والرّمضاء تحرقه.

ومع هذا تراه أصعب انقياداً وأبعد استسلاماً وما ذلك إلّا أنه كما قال تعالى شأنه:

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] من عظيم الجرائم وموبقات الذنوب فإنّها مؤثرة في قسوة القلب، كما قال تعالى شأنه:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

وهذا البيان القرآني وإن اشتمل على جهة توبيخ للإنسان حيث أنه مع كونه من ذوي العقول والإدراك والوصول، وعلى ما هو عليه من ضعف البنية ووهن القوة، لم يتأثر كما يلزم بالقرآن الكريم، الذي هو في تلك المكانة من التأثير، إلّا أنّه مشتمل على إجلال القرآن وإعظامه وإكباره واحترامه.

ولعمري أن القرآن لأعظم شأناً وأجلّ قدراً من أن يحيط الإنسان بعظمته ويصل إلى رفيع درجته ومنزلته ما لم يكن ممن نزل القرآن في بيته.

---

(١) هذه الآية المباركة هي آية ١٤ من سورة المطففين وهي في ص٤٥٣ من المجلّد الخامس من المجمع.

(٢) هذه الآية المباركة هي آية ٧٤ من سورة البقرة الواقعة في ص٥٦٨ من المجلّد ١ من تفسير الرازي وفي ص١٣٨ من المجلّد الأول من المجمع.

نعم نقول فيه بمقدار ما تصل إليه عقولنا وتتعلّق به مداركنا من كونه مورداً للفضيلة الذاتية والفضيلة العرضية.

أمّا فضيلته بحسب الذات، فلما هو عليه من حسن الأسلوب والجزالة بالنحو الذي أبان الله تعالى شأنه بقوله:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

والقرآن الكريم وإن كان هو أحد الكتب السماوية النازلة بواسطة أمين الوحي على السفير المختار(صلى الله عليه وآله) من كافة البشر بين الحق وبين الخلق، إلّا أنه يمتاز عنها بإعجازه، إذ هو من أعظم معجزات الأنبياء(عليهم السلام) قدراً وأهمّها شأناً وخطراً.

فإنّ كل معجزة سواه محدودة، لها وقت محدود وأجل غير ممدود بل ينقطع بانقطاع وقته وانتهاء مدّته، فإذا انقضى أمده واختار الله سبحانه دار النعيم أو أي مقام كريم من ارتفاع إلى سماء أو انتقال من فناء إلى بقاء، انقطعت آياته وانتهت معجزاته، بخلاف هذه الآية الكريمة والمعجزة القويمة فإنّها باقية ببقاء الدهر على ما يقتضيه عموم البعثة إلى كافة الأجيال في كافة الأعصار وعلى كل حال، كما نطق بذلك القرآن في قوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

والقرآن كما هو أعظم معجزات الأنبياء، كذلك هو من أعظم آيات نبوّة المبعوث به وهو سيّد النبيّين وخاتم المرسلين(صلى الله عليه وآله).

وإن كانت صفاته(صلى الله عليه وآله) وسماته ومكارم أخلاقه(صلى الله عليه وآله) التي استعظمها الله

---

(١) هذه الآية هي الآية ٨٨ من سورة الإسراء الكائن في ص٤٣٦ من المجلّد ٣ من المجمع.

تعالى شأنه كافية في إثبات صدقه وتحقيق نبوّته(ﷺ)، لدى ذوي الألباب والعقول والإدراك والوصول، فإنّ من يحتاج إلى إثبات صدق الدعوة بالمعجزة وخارق العادة التي يعجز البشر من حيث هو، ليس هو مطلق البشر بل النوع الإنساني من حيث انقياده إلى الدين الذي لأجله كان بعث النبيّين، ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل: هم أهل الفراسة والكياسة والمتوافر فيهم العرفان وشؤون سلامة الجَنان، وهم لا يكتفون في مرحلة التصديق بصدق الدعوة أو الجزم بالخلاف بمحض النظر في أحوال مدّعي النبوّة، ومقابسة أحواله بعضها مع بعض وتطبيق أقواله على أفعاله والتأمّل في ما تبعثه ملكاته وحالاته إلى ما يناسبه من أعمال وأفعال. وهذا هو الصنف الراقي من البشر والقليل من الناس.

القسم الثاني: وهو الصنف الوسط في الإدراك والتعقل، وهو الملحوظ بإجراء المعجزات وخوارق العادات لإثبات مدّعيات الأنبياء(عليهم السلام).

القسم الثالث: وهو الصنف الداني أو الأدنى الذي لا يكون من ذوي التدبّر والوصول إلى مناسبات الحالات والمقامات، ولا ممّن ينتفع بالآيات والمعجزات. وهذا كما عبّر عنه بعض الحجج والآيات:

لا ينفع معه إلّا السيف والسّنان أو الأصفر الرنّان.

وكيف كان: فالقرآن الكريم يمتاز بإيجازه وإعجازه عن سائر الكتب السماوية، وفخامة المعنى وجزالة المؤدى وبعد المرمى، وبما اشتمل عليه من فنون العلوم العقلية التي تأخذ بالأعناق للاعتقاد بالمبدأ والمعاد وما بينهما من أطوار وشؤون.

كما في قوله تعالى في مقام إثبات التوحيد:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ

﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾(١) إلى آخر ما ذكره من الآية الثالثة والرابعة من آيات سورة الرعد.

وكقوله تعالى في مقام إثبات المعاد:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وكقوله تعالى في مقام إثبات النبوّة:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾(٣) كما يمتاز أيضاً بما اشتمل عليه من العلوم النقلية السمعية، مما يحتاج إليه البشر من علم الأخلاق وعلم الفلك وعلم الصحّة وعلم الملاحة وعلم البلاغة وعلم التاريخ ونحوها.

وما فيه من الأمثال التي تأخذ بمجامع القلوب وتستعبد المشاعر وتستولي على كافة الجوارح.

فمن علم الأخلاق قوله تعالى شأنه:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٤).

---

(١) هذه الآية هي الآية ٢ من سورة الرعد الواقعة في ص٢٧٤ من المجلّد ٣ من المجمع.

(٢) هذه الآية هي الآية ٥٧ من سورة الأعراف.

(٣) آخر آية من سورة الرعد.

(٤) هذه الآية هي الآية ٣٤ من سورة فصّلت.

وكقوله تعالى شأنه:

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(١).

ومن قوله تعالى شأنه في ما يرجع إلى علم الفلك:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وكقوله سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾(٣).

ومن قوله تعالى في علم الصّحة:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

وكقوله تعالى في علم الملاحة:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(٤).

وكقوله(عَزَّوَجَلَّ) في البلاغة:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا

---

(١) هذه الآية هي الآية ٤٦ من سورة فصّلت.

(٢) هذه الآية هي الآية ٥ من سورة يونس(عليه السلام).

(٣) هذه الآية هي الآية ٣١ من سورة الأعراف.

(٤) هذه الآية هي الآية ٣١ من سورة لقمان(عليه السلام).

تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[١].

ومن عجائب ما في القرآن الكريم الأمثال التي ضربها الله تعالى شأنه للاعتبار.

مثل قوله تعالى شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[٢] إلى غير ذلك مما يستولي على الشعور ويملك الألباب ممّا يتضمّن النصح والإرشاد.

كقوله تعالى شأنه:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[٣].

وقوله تعالى شأنه:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٤].

وقوله تعالى شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ

---

(١) هذه الآية هي الآية ٧ من سورة القصص.

(٢) آية ٧٣ سورة الحج.

(٣) هاتان الآيتان من سورة الكهف ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤) هذه هي الآية ٨٤ من سورة القصص.

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

وقوله تعالى شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

وقوله تعالى شأنه:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾(٣).

وقوله تعالى شأنه:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً

---

(١) هذه الآيات الأربع من سورة الصف آية ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣.

(٢) هاتان الآيتان هما آيتا ١١ ـ ١٢ من سورة الحجرات.

(٣) هذه الآية هي الآية ٣٢ من سورة المائدة.

فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[١].

إلى غير ذلك من الآيات الفرقانية التي لو قيست فائدة كل واحدة منها بـما في الفوائد الدنيوية كلّها لرجحت عليها.

ولما في القرآن الكريم من غزير علم وخطير حكمة وبليغ إرشاد وفصيح نصح، قد أومأ أمير المؤمنين صلوات الله عليه في بعض كلامه حيث يقول:

فإنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن فإنّه حبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيرُه مع أنّه ذهب المتذكرون وبقي الناسون أو المتناسون... إلى آخره[٢].

وقوله(عليه السلام) في مقام آخر[٣]:

واعلموا أنّ هذا القرآن هو النّاصح الذي لا يَغُش والهادي الذي لا يضل والمحدّث الذي لا يكذب... وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان زيادة في هدى ونقصانٍ من عمى... واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد بعد القرآن من غنى... فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم فإنّ الله شفاء من أكبر الدّاء وهو الكفر والنفاق والغي والضّلال... فاسألوا الله به وتوجّهوا إليه بحبّه ولا تسألوا به خلقه، إنّه ما توجّه العباد إلى الله

---

(١) هذه الآية هي آية ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٢) ذكر هذا شارح النهج المعتزلي في ص٥١٤ من المجلّد الثاني من شرحه.

(٣) ذكر هذا شارح النهج المعتزلي في ص٥١٠ من المجلّد ٢ من شرحه... وهذا أفضل كلام يتعلّق بالقرآن الكريم. وقد ذكر(عليه السلام) القرآن في مقامات مذكورة في ص٣٨٢ من المجلّد ٢ وفي ص٥٤٣ وص٥٦٧ منه وفي ص٤٠ من المجلّد الأول.

تعالى بمثله.

واعلموا لأنّه شافع ومشفّع وقائل مصدّق وإنّه من شَفَع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه، ومن محل[١] به القرآن يوم القيامة صدّق عليه فإنّه ينادي منادٍ يوم القيامة إلّا إنّ كلّ حارث مبتلى[٢] بحرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن... فكونوا من حرثته وأتباعه واستدلّوه على ربّكم واستنصحوه على أنفسكم واتّهموا عليه آراءكم واستغشّوا فيه أهوائكم...

إلى غير ذلك مما ذكره(عليه السلام) في وصف القرآن وفي فضل ذاته وكراماته وعلو مقاماته وكبر تأثيراته التي منها ما ورد: من أنّ القرآن هو الدّواء وأنّ فيه شفاء من كلّ داء. وأنّ من لم يستشف به فلا شفاه الله. ومن قرأ مائة آية من أيّ من آي القرآن شاء ثم قال سبع مرّات: يا الله، فلو دعا على الصخور لقلعها.

وعن أبي الحسن(عليه السلام): إذا خفت أمراً فاقرأ مائة آية من القرآن حيث شئت، ثم قل: اللهم أكشف عنّي البلاء، ثلاث مرّات[٣].

---

(١) قال شارح النهج المعتزلي في ص٤٩٠ من شرحه المجلّد الثاني:

ومحل به إلى السلطان: قال عنه ما يضّره كأنّه جعل القرآن يمحل يوم القيامة عند الله بقوم يقول عنهم شرّاً ويشفع عند الله لقوم أي يثني عليهم خيراً...

(٢) قال شارح النهج المعتزلي في ص٤٩٠ من المجلّد الثاني من شرحه:

والحارث المكتسب والحرث الكسب وحرثة القرآن: المتاجرون به الله.

وقال: واستنصحوه على أنفسكم: يعني إذا أشارت عليكم أنفسكم بأمر وأشار عليكم بخلافه فأقبلوا مشورته... وكذلك في الفقرتين الأخيرتين.

(٣) قال في ٧٠٩ من المجلّد الأول من سفينة البحار:

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): من علامات الشقاء جمود العين وقسوة القلب وشدّة الحرص في طلب الرزق والإصرار على الذنب... انتهى. =

في بيان فضيلة القرآن العرضية

وأمّا فضيلة القرآن العرضية، فهي أمّ الفضائل والكل في الكل من رفيع المنازل.

وهي كون القرآن الكريم كلام الله العظيم المنسوب إليه والمضاف إلى حضرة قدسه، الذي لا يكتسب شيء شيئاً من الفضل إلّا بالانتساب إليه. ولا يكون لشيء مقام من التكريم إلّا بالتعلّق به. وبتفاوت تلك الإضافات واختلاف تلك العلائق والارتباطات، تفاضلت رتب المنتسبين، وبتفاوتها صعوداً وهبوطاً تفاوتت درجات المتعلقين.

ولتلك النسبة وذلك التعلّق كان له مقامه الرفيع ومكانه المنيع.

قال في الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام)[1]:

إنّ القرآن يأتي يوم القيامة على أحسن صورة نظر إليها الخلائق، والناس إذ ذاك صفوف عشرون ومائة ألف صف، ثمانون ألف صف أمّة محمّد (صلى الله عليه وآله)، وأربعون ألف صف من سائر الأمم، فيأتي القرآن على تلك الصورة فلا يمرّ بملأ

= وقال المؤلف: في معالجة الشقاء: من قرأ التوحيد في الفريضة إن كان شقياً محي من ديوان الأشقياء وأثبت في ديوان السعداء.

وقال: وعن زرارة عن أبي عبدالله (عليه السلام):

إن الله تعالى يمجّد نفسه في كل يوم ثلاثمائة مرّة... فمن مجّد الله بما مجّد به نفسه ثم كان في حال شقوة حوّل إلى سعادة.

فقلت له: كيف هو التمجيد؟ قال تقول:

أنت الله لا إله إلّا أنت ربّ العالمين.

(١) ذكر ذلك في ص٤٤ من الكافي.

من ملأ البشر ولا بصنف من أصنافهم من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، ألّا تخيّلوا أنّه من سنخهم، لكنّه قد فاقهم بالفضيلة والرفعة، وهكـذا حتـى يجـوز على الملائكة المقرّبين فيتخيّلون مثل ذلك وأنّه منهم، لكنّه فاقهم بالكرامة والقرب حتى ينتهي فيقف بين يـدي الله سـبحانه. فيقـول الله تعـالى شـأنه: يـا حجّتـي في الأرض وكلامي الصادق الناطق: كيف رأيت عبـادي... فيقـول: رّبي مـنهم مـن صانني وحافظ عليّ ولم يضيّع شيئاً، ومنهم من ضيّعني واستخفّ بحقـي. فيقـول الله تعالى شأنه:

وعزّتي وجلالي وارتفـاعي في مكـاني لأثيـبنّ عليـك اليـوم أحـسن الثـواب ولأعاقبنّ عليك أليم العقاب(١).

وقد روي أيضاً: أنّ رسول الله(ﷺ) قد قال:

---

(١) قال العلّامة القمّي أعلى الله مقامه في ص٤٢ من المجلّد الثاني من سفينة البحار:

تحقيق من الطبرسي في قوله تعالى: إنّ الصلاة تنهـى عـن الفحـشاء والمنكـر... وتحقيـق مـن المجلسي ومجمله: إن الصلاة صورة ومثالاً يترتّب عليه وينشأ منـه آثـار الـصلاة... فكـذلك القرآن. ويحتمل أن يكون صورة القرآن في القيامـة أمـير المـؤمنين(عليه السلام)، فإنّـه حامـل علمـه والمتحلّي بأخلاقه، كما قال(عليه السلام): أنا كلام الله الناطق... فإنّ كل من كمل فيه صـفة عمـل أو حاله فكأنّه جسد لتلك الصفة وشخص لها. فـأمير المـؤمنين(عليه السلام) جـسد للقـرآن والـصلاة والزكاة ولذكر الله، لكمالها فيه، فيطلق عليه تلك الأسـامي في بطـن القـرآن... ويطلـق عـلى مخالفيه الفحشاء والمنكر والبغي والكفر والفسوق والعصيان لكمالها فيهم. فهم أجساد لتلك الصفات الذميمة... وبهذا التحقيق ينحل كثير من غوامض الأخبار.

أقول: وكان قبل وقوفي على هذا التحقيق يخطر في ذهني: أن تجسّد القـرآن الـذي يظهـر مـن الحديث المبارك ومن أي مقام بمعنى أن الله سبحانه يخلق خلقاً ويجعله وعـاءً للقـرآن. وهـو راجع إلى ذلك التحقيق غير أن هذا مجمله وذاك مفصله.

فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفع وما حل مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة ومن جعله خلفه ساقه إلى النّار[١].

أقول: ولا شكّ أنّ ما يدعو إليه القرآن من الغرض والمبدأ، وما يدعو إليه المرسل بالقرآن والمنزل عليه واحد، إذ أنّهما يرميان إلى هدف واحد وهو تحقيق معنى العبودية إلى الله(عَزَّوَجَلَّ) جلاله وتوحيده بالعبادة وعبادته بالإخلاص، لكن بنقل المعبد وهو بيت الله وحرمه إلى قلب الإنسان، لا بنقل الإنسان إلى المعبد كما أفاد ذلك بعض العارفين، حيث قال: فإنّه البيت الذي إن صلح كان أفضل البيوت وأليق بالعبادة والمعبود، ألا تسمع قول الله تعالى شأنه في حديثه القدسي:

ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن.

وإنى يكون موقع هذا البيت والحرم من ذلك المعبد الذي ليس إلّا مقداراً من الأرض في مقدار من الحجارة، لا روحانية فيه ولا حياة، وأين هو من الإنسان الحي وقلبه الذي هو ميزان الحياة ومناط الإنسانية. إذ القلب حقيقة هو الإنسان والإنسان هو القلب كما أومأ إلى ذلك العقل الأوّل وأوّل الموحّدين بعد الرسول الأمين(ﷺ) بقوله(عليه السلام):

---

(١) قال العلّامة الطبرسي في ص٤٠٥ من المجلّد ٥ من كتابه مجمع البيان:

في رواية السيد أبي الحمد مهدي بن نزار عن الرسول(ﷺ) في جملة ما قال: ولا يرغب في تعلّم القرآن إلّا السعداء ولا يتعاهد قراءته إلّا أولياء الرحمن.

وقد قال في الرواية المذكورة قبل الفقرة المزبورة:

إن أول سورة نزلت هي سورة إقرأ... وإن آخر سورة نزلت هي سورة التوبة. وفيها أيضاً: عدد سور القرآن ١١٤ سورة. ومقدار آياته ٦٢٣٦ آية ومقدار حروفه ٣٢١٢٥٠ حرفاً ثلاثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً.

إلا أنّ[١] في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب... وكما أنّ كلاً من القرآن والمبعوث به يدعو إلى كلمة التوحيد، كذلك كل منهما يدعو إلى توحيد الكلمة كقوله تعالى شأنه:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾... الآية في سورة آل عمران.

فإنّ وزان الأهمية في توحيد الكلمة وزان كلمة التوحيد في الأهمية والشأن، فالجري على ما تقتضيه الوحدة بين المسلمين جري على ما يقتضيه الكتاب والسنّة وعمل بهما. والعمل بما فيه الفرقة وتشتت الكلمة مما لم يرتضه دين ولا تقتضيه شريعة.

والاختلاف في غير الأصول من بعض الفروع فوزانه وزان اختلاف العلماء في المسائل الفرعية، الذي لا يخلو منه طائفة، ومرجعه إلى ما يقتضيه الاجتهاد المستدعي لاستحقاق المصيب عشر حسنات والمخطئ واحدة.

نعم ذلك بعد بذل الجهد واستفراغ تمام الوسع في مرحلة الاستنباط، وإلّا كان مقصّراً يستحق من العقوبة ما يستحقه المخالف العامد، بلا فرق في ذلك بين إمامي أو أشعري ولا بين شيعي ولا سني.

وأسوأ من ذلك العصبية الجاهلية التي ترجع إلى جحود باللسان واستيقان الجَنان.

عصمنا الله تعالى والمسلمين عن ذلك وأعاننا على أنفسنا بما يعين الصالحين على أنفسهم...

---

(١) أو: لأن... على ترديد مني.

المحاضرة السابعة

في الخمر والميسر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[1] أقول: خصّ الله سبحانه المؤمنين بالخطاب في هذه الآية مع عموم الأحكام للبشر، تكريماً لهم وتجليلاً لشأنهم وتنبيهاً على انحصار الأهلية فيهم والاقتصار في صلاحية الإرشاد عليهم، وتوفّر مقتضيات الفيض من الواهب الفياض فيهم، فإنّ الواجبات الشرعية ألطاف في الواجبات العقلية. ومعلوم أنّ اللّطف من اللطيف العطوف يحتاج إلى المحل القابل، ليكون من وضع الشيء في محلّه وإيصال الحق إلى أهله.

ومهما نظرنا في الألطاف الربانية، التي قد غمرت كل ذي صلاحية للطف، نجد الألطاف الإلهية بجعل النظم الشرعية والأسس النظامية فيما يحل ويحرم

(١) هذه الآية هي آية ٩٠ من سورة المائدة وموقعها ص٢٣٨ من المجلّد ٢ من المجمع وص٦٥٦ من المجلّد ٢ من الرازي.

ويصح ويفسد من أعظم الألطاف شأناً وأجلّها قدراً وأرفعها محلاً، إذ كلّ تلك الأحكام الباعثة نحو الفعل أو الزاجرة عن آخر، إنّما هي في مرحلة اللّب والتحليل إرشادات ومعالجات لما يحتاج إليه البشر، مما يرجع إلى إصلاح الروح أو البدن أو المعاش أو المعاد.

فهي فوق معالجات الأطباء التي تكون لحفظ صحّة البدن أو إعادتها، إذ أنّ بين الطبيبين بوناً شاسعاً. وذلك لإحاطة نظر الشرع بما يقصر عن نيله العقل والعقلاء بمراحل لا تتناهى، من جهة ولطرو الخطأ والغفلة والنسيان على طيب الأبدان دون الطبيب المطلق من جهة أخرى. لإحاطته لكل رقيق ودقيق من الأمور البعيدة والقريبة كما قال تعالى:﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾. ولا يخفي أنّ التكلم في الآيتين المباركتين يقع من جهتين:

الأولى: في تشريح موضوعات تلك الآيتين وبيان ما يتعلق بالآية المباركة من هذه الجهة.

الثانية: في حكم تلك الموضوعات بحسب ما يستفاد من الآيتين المباركتين.

أما الجهة الأولى...

في بيان معنى الخمر

فالخمر في اللغة ما أسكر من عصير العنب بالخصوص في قول، وعليه أكثر علماء الإمامية كما في آيات الأحكام. وعام لكل ما ثبت له وصف الإسكار في القول الآخر، فيشمل ما كان مأخوذاً من العسل والعنب والتمر والزبيب والحنطة والشعير والذرّة والسّلت. وبه وردت الرواية النبوية وأنّه ما أخذ من الأشياء المذكورة، كما في الآيات أيضاً.

وهي قوله(ﷺ): الخمر من التبع وهو العسل ومن العنب والزبيب ومن

التمر ومن الحنطة ومن الذّرة والشعير والسّلت.

لكن العلامة الطبرسي قال في مجمعه[١]:

الخمر: هي كل شراب مسكر مخالط للعقل مغطّ عليه وما أسكر كثيره فقليله خمر. هذا هو الظاهر في روايات أصحابنا، وهو مذهب الشافعي. وقيل: الخمر عصير العنب إذا اشتدّ وغلى وهو مذهب أبي حنيفة... هكذا في المجمع.

إلّا أنّ الموجود في متن: فقه المذاهب الأربعة[٢]:

والخمر: ما خامر العقل أي خالطه فأسكره وغيّبه. فكلّ ما غيّب العقل فهو خمر سواءً كان مأخوذاً من العنب المغلّى على النار أو من التمر أو من العسل أو الحنطة أو الشعير حتى لو كان مأخوذاً من اللبن أو الطعام أو أي شيء وصل إلى حدّ الإسكار. وقد بيّن النبي(ﷺ): أنّ كل ما أسكر كثيره فقليله حرام ولو لم يسكر، ولفظ الحديث: ما أسكر كثيره فقليله حرام. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.. انتهى موضع الحاجة.

وغير خفي أنّ ظاهر البيان هو اتفاق المذاهب على أنّ الخمر مطلق السكر، لكن الرازي عند تفسير هذه الآية صرّح بما نسبه مجمع البيان من التفصيل.

ثم قال في فقه المذاهب: إنه قد ثبت تحريمه بكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه(ﷺ) وإجماع المسلمين... وذكر من الكتاب العزيز آية: إنّما الخمر... ومن السنّة قوله(ﷺ): لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن.

---

(١) ذكر ذلك في ص٣١٩ من المجلّد الأول من المجمع عند تفسير قوله تعالى: يسألونك عن الخمر... الآية.

(٢) ذكر ذلك في ص٦ من المجلّد الثاني.

وذكر في ص٨ من الكتاب المذكور والجزء المزبور حرمة بيعها. وذكر الحديث المنسوب إلى رسول الله(ﷺ): لعن في الخمر عشرة: عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وبايعها وآكل ثمنها والمشتري والمشترى له. إلى أن قال: ويحرم التداوي بها على المعتمد لقول النبي(ﷺ): لمن قال له: إنها دواء، ليست بدواء وإنّما هي داء... رواه مسلم.

وهناك تخصيصات لبعض المذاهب فلتراجع.

وعلى كلّ فالخمر في أصل حقيقته وحاق معناه لا يخرج عن أحد المعنيين المذكورين من اختصاصه بما أخذ من العنب بالخصوص ويكون ما أسكر من غيره ملحقاً به حكماً وخارجاً عنه موضوعاً، ومن كونه عاماً لكل ما أسكر فتكون الموارد المذكورة داخلة فيه موضوعاً وحكماً.

في وجه تسمية الخمر خمرا

وقد قالوا في وجه تسمية الخمر خمراً: إنها لمخامرتها العقل. والتخمير التغطية، ومنه ركواً مخمراً أي مغطّاً[1].

في بيان تاريخ شجرة الكرم

وقد قيل[2] في تاريخ حدوث شجرة الكرم على ما عن مقامات النحّات:

إنّ آدم(عليه السلام) لما غرس الكرم جاء إبليس فذبح عندها طاووساً فشربت دمه. فلمّا طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه. فلمّا انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه...

---

(١) هكذا في مجمع البحرين في مادّة: خمر.

(٢) ذكر هذا في ص٣٢٩ من كتاب: وقائع الأيام المتعلّق بشهر الصيام.

فلهذا شارب الخمر تعتريه هذه الأوصاف الأربعة. أوّل ما يشربها وتدبّ في أعضائه يزهو لونه ويحس كما يحس الطاووس، وإذا جاءت مبادي السكر لعب وصفق كما يفعل القرد، وإذا قوي سكره جاء بصفة الأسد فيعبث ويقتل ويضرب ثم ينفعص كما ينفعص الخنزير ويطلب النوم وينحل عزم قوّته.

أول مستخرج الخمر

قيل[1]: أوّل مستخرج الخمر الملك جمشيد وكان قبل الطوفان.

روي أنه كان متوجهاً في صيد فورد إلى بعض الجبال، فرأى فيه من شجر الكرم ولم يكن معروفاً لديه ثمرها وما يترتب عليه من الآثار بل كان يتخيّل أنّ ما تحمله شجرة الكرم من السموم القتالة، فأمر بعض خدمه أن يقتطفوا من ثمرها ويعتصر في خابية فقاموا بما أمر ومضى على العصير مدّة فتخمّر. ثم إنّه جيء إلى الملك في بعض الأيام بشخص قد حكم عليه بالإعدام، ولما كان الملك يظنّ أنّ ذلك العصير من السمومات القتالة أمر أن يسقى ذلك الجاني من ذلك العصير، فأعطى منه شربة ليهلك، ولـمّا أن شرب ذلك الشخص الشربة واستقرّت في جوفه، عرضته حالة السّكارى من الخفّة والطرب وكان الملك يشاهد ذلك، فتعجّب من الوضع عجباً شديداً... وعندها أمر بغرس شجر الكرم في بلاده حتى انتشر وظهر أمره وفشا شربه في زمان ذلك الملك الضّال الجائر، كما أنّها فشت عبادة الأصنام في عصره حتى إنّه صار يتّخذ أصناماً على صورة حبّة العنب، فكان يلاعبها عند شربه الخمر...

وهذا قال(ﷺ): شارب الخمر كعابد الوثن.

---

(١) ذكر في ص٣٣٠ من كتاب: وقائع الأيام.

هذا كله في تحقيق معنى الخمر...

وأمّا معنى الميسر، فإنّه مطلق القمار[1] أو القمار كلّه.

وعن الشيخ عن جابر عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال:

لّما أنزل الله تعالى على رسوله(صلى الله عليه وآله) ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾... الآية. قيل: يا رسول الله ما الميسر؟ قال(صلى الله عليه وآله): كلّما يقمر به حتى الكعاب والجوز.

وقال في آيات الأحكام[2]: وأمّا الميسر فيدخل فيه سائر أنواع القمار، ويلزم من ذلك تحريم عمل آلته وحفظها وبيعها وإعارتها. ويدلّ على تحريم أثمانها ما ذكرنا...

والظاهر أن مراده ما سبق من قوله(عليه السلام): إذا حرّم الله شيئاً حرّم ثمنه.

ثم قال: بل ورد النهي عن الجلوس إلى مجلس يكون فيه ذلك وعن النظر إلى اللّاهي بذلك والسلام عليه.

---

(١) قال في ص٢٨٢ من مجمع البحرين:

القمار بالكسر المقامرة وتقامروا لعبوا بالقمار، واللعب بالآلات المعدّة له على اختلاف أنواعها نحو الشطرنج والنرد وغير ذلك. وأصل القمار الرهن على اللعب بشيء من هذه الأشياء، وربّما أطلق على اللعب بالخاتم وبالجوز.

وقال في ص٢٩٤ من مجمع البحرين:

الميسر القمار وقيل كل شيء يكون منه قمار فهو الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز الذي يتقامرون به، لأنّه يجزّئ أجزاء فإنه موضع التجزية وكل شيء جزأته فقد يسّرته. ويقال: سمّي ميسراً لتيسّر أخذ مال الغير فيه من غير تعب ومشقة... وفي حديث جابر عن أبي جعفر(عليه السلام) لّما أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ...﴾ الآية. قيل يا رسول الله(صلى الله عليه وآله) ما الميسر؟ فقال(صلى الله عليه وآله): كل ما تقومر به حتى الكعاب والجوز.

(٢) ذكر ذلك في ص١٩٦ من الكتاب المذكور.

ثم قال: ونقل عن ابن بابويه في الفقيه أنه سئل الصادق(عليه السلام) عن قول الله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

قال(عليه السلام): الرجس من الأوثان الشطرنج وقولُ الزّور الغناء، والنرد أشدّ من الشطرنج فإنّ اتخاذها كفر واللعب فيها شرك وتعليمها كبيرة موبقة، والسّلام على اللّاهي فيها معصية... إلى أن قال:

ومن بقي في بيته طنبور أربعين صباحاً فقد باء بغضب من الله(عزّ وجلّ).

في معنى الأنصاب

وأمّا معنى الأنصاب فإنّه[1] ما يذبح للأصنام تقرّباً إليها في الجاهلية، كما عن الرسول(صلى الله عليه وآله) حين قيل له: ما الأنصاب[2]؟ فقال(صلى الله عليه وآله): ما ذبح لآلهتهم. ومنه يُعلم شدّة وطأ التحريم للخمر والمقامرة، حيث قرنها القرآن بالنحر للأصنام عبادة لها وتقرّباً إليها وهو من أظهر مظاهر الشرك. وقد شرّك الله سبحانه بين الخمر والمقامرة وبين عبادة الأصنام بالحكم والأثر، كما قد ورد عن النبي الكريم بمثله حيث قال(صلى الله عليه وآله): شارب الخمر كعابد الوثن... فالآية الشريفة شرح للخبر أو الخبر شرح للآية.

---

(١) ذكر ذلك في ص١٩٦ من آيات الأحكام للجزائري رحمه الله تعالى.

(٢) قال في ص١٣٤ من مجمع البحرين:

ما ذبح على النُّصُب... بضمّتين: حجرٌ كانوا ينصبونه في الجاهلية يتّخذونه صنماً فيعبدونه. والجمع الأنصاب.

وقيل: هو حجر كانوا ينصبونه ويذبحون عليه فيحمر بالدّم... انتهى ما عن المجمع.

قول: ولعلّ الإطلاق على نفس ما يذبح، كما في الحديث النبوي الشريف، إنّما هو بعلّامة الحال والمحل ويكون ذلك مفسّراً للآية ومبيّناً لها فلاحظ.

في معنى الأزلام

وأمّا معنى الأزلام، فقد قال[1] العلامة الجزائري طاب ثراه:

قال علي بن إبراهيم في تفسيره عن الصادق(عليه السلام):

إنها عشرة[2] سهام، سبعة لها أنصباء وثلاثة أنصباء لها.

---

(١) ذكر هذا في ص٢١ من آيات الأحكام.

(٢) قال في ص٤٧٤ من مجمع البحرين:

قوله تعالى: وأن تستقسموا بالأزلام... الأزلام جمع زَلَم بفتح الزاء كجمل وضمّها كصُرد. وهي قداح لا ريش لها ولا نصل، كانوا يتفألون بها في أسفارهم وأعمالهم. قيل: مكتوب على بعضها: أمرني ربّي، وعلى بعضها: نهاني ربّي، وبعضها غفل لم يكتب عليه شيء. فإذا خرج ما ليس عليه شيء أعادها. والمراد بها في المشهور ودلالة الرواية عن النبي(صلى الله عليه وآله) هو أن الأزلام القداح العشرة المعروفة فيما بينهم في الجاهلية.

والقصة في ذلك: إنّه كان يجتمع العشرة من الرجال فيشترون بعيراً فيما بينهم وينحرونه ويقسّمونه عشرة أجزاء وكان لهم عشرة قداح لها أسماء... إلى آخره.

أقول: وهي الأسماء التي أشرنا إليها في المتن، وما أشرنا إليه في المتن من تقسيم الجزور إلى ٢٨ جزءاً أصحّ ممّا في المجمع من تقسيمه إلى عشرة أجزاء.

وكيف كان. فقد قال في المجمع بعد ذلك:

وكانوا يجعلون القداح في خريطة ويضعونها على يد من يثقون به فيحرّكها ويدخل يده في تلك الخريطة ويخرج بإسم كلٍّ قدحاً. فمن خرج له قدح من الأقداح التي لا أنصباء لها لم يأخذ شيئاً وألزم بأداء ثلث قيمة البعير، فلا يزال يخرج واحداً بعد واحد، حتى يأخذ أصحاب الأنصباء السبعة أنصباءهم، ويغرم الثلاثة الذين لا أنصباء لهم قيمة البعير...

وهو القمار الذي حرّمه الله تعالى فقال:

﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾، يعني حراماً.

ومعنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة ما يقسم لهم بها... انتهى.

فالتي لها أنصباء: ١ـ الفذ ٢ـ التوام ٣ـ المسبل ٤ـ النافس ٥ـ الحلس ٦ـ الرقيب ٧ـ المعلّى.

فالفذ له سهم ١ والتوام له ٢ والمسبل له ٣ والنافس له ٤ والحلس له ٥ والرقيب له ٦ والمعلى له ٧.

وأما التي لا أنصباء لها فثلاثة: ١ـ السفيح ٢ـ المنيح ٣ـ الوغد.

كيفية المقامرة بهذه السهام:

كيفية المقامرة بالأزلام: في أن تضرب السهام العشرة وتستخرج بعد الاختلاط وتوزّع على الشركاء في العمل، فمن خرج عنده السهم الذي له نصيب يأخذ نصيبه من جزور يذبح ويقسّم إلى ٢٨ سهماً، حسب ما تقتضيه السهام التي لها أنصباء. ومن خرج سهمه السفيح أو المنيح أو الوغد التي لا أنصباء لها، ليس له شيء منها وعليه غرامتها وثمنها. هذا بعض ما يتعلّق ببيان موضوعات الحكم المفاد في الآيتين المباركتين.

وأمّا ما أفادته الآيتان من أحكام تلك الموضوعات المشتركة بينهما:

الحكم الأول: فأول حكم أفادته في البين إنه رجس، والرجس بالكسر إمّا أن يكون بمعنى القذر أو بمعنى العقاب والغضب. فإن كان بمعنى القذر فالمراد منه القذر النجس، كما عن الشيخ رحمه الله في التهذيب من أن الرجس هو النجس بلا خلاف. وظاهر هذا القول إنه لا خلاف في كون الرجس بمعنى النجس مطلقاً أو في خصوص الآية. ولا ريب أن النجس مما يحرم استعماله مضافاً إلى ماله من الآثار الوضعية السيئة للإنتاج.

وإن كان بمعنى العقاب والغضب، كما عن الفرّاء فهو أظهر في إفادة

التحريم، لأنه لا يستدعي الغضب والعقاب إلا ارتكاب الحرام.

ولا يخفى ما في الآية من إفادة تمحّض ارتكاب هذه الموضوعات بالمفسدة الخالية عن شأنية المصلحة، على ما تقتضيه أداة الحصر إذ مفادها أنها ليست محكومة إلا بذلك الحكم، دفعاً لتوهم أنها وإن كانت واجدة لملاك التحريم من جهة إلا أنها واجدة لملاك الجواز من جهة أخرى.

ولا ينافي هذا الحصر ما أفادته الآية الأخرى من قوله تعالى شأنه:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[١] حيث أفادت ثبوت النفع للخمر والمقامرة مضافاً إلى ثبوت الإثم، فإن المراد من منفعة الخمر ما كانوا يأخذونه في أثمانها وما يحصل من اللذة والطرب والقوة بشربها، ومنفعة القمار هو ما يفوز به الرجل من مال صاحبه بلا كدّ ولا مشقّة. وهذا ليس من النفع حقيقة، وإنما سمّاه الله تعالى نفعاً بلحاظ ما يراه الجاهلون من أنّه النفع، وإلّا فهو محض الخيبة والخسران. وأي خسران أعظم من فقد العقل أو إعطاء المال الكثير بلا عوض أو أخذ المال الزارع للشحناء والبغضاء، مضافاً إلى ما ذكره سبحانه من الإثم المترتب على ذلك الاستعمال من سخط الله سبحانه الذي لا تقوم له السموات والأرض.

قال الرازي[٢] في مقام شرح الإثم الكبير:

إنّ عقل الإنسان أشرف صفاته، والخمر عدو العقل، وكل من كان عدو

---

(١) هذه الآية هي آية ٢١٩ من سورة البقرة الكائنة في ص٣١٩ من المجلّد الأول من مجمع البيان وفي ص٣٢٦ من المجلّد الثاني من تفسير الرازي.

(٢) ذكر ذلك في ص٣٣٢ من المجلّد الثاني من تفسيره.

الأشرف فهو أخس. فيلزم أن يكون شرب الخمر أخس الأمور.

وتقريره: إن العقل إنما سمّي عقلاً لأنه يجري مجرى عقال الناقة، فإن الإنسان إذا دعاه طبعه إلى فعل قبيح كان عقله مانعاً له من الإقدام عليه، فإذا شرب الخمر بقي الطبع الداعي إلى فعل القبائح خالياً عن العقل المانع. والتقريب بعد ذلك معلوم.

ثم قال: وعن العباس بن مرداس أنه قيل له في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في جرأتك، فقال: لا أرضى أن أصبح سيّد القوم وأمسي سفيههم... إلى أن قال الرازي: وإن من خواص هذه المعصية أنه كلما كان انشغال الإنسان بها أكثر كان الميل إليها أشد والمواظبة عليها أكثر، بخلاف سائر المعاصي فإن الزنا على خلاف ذلك فإنّه يوجب ضعف الرغبة في التكرار، فإذا واظب الإنسان على الشرب صار غريقاً في اللذات البدنية، معرضاً عن تذكر الآخرة والمعاد حتى يصير من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

الحكم الثاني: على تلك المواضيع الأربعة إن ارتكابها من أعمال الشيطان أي مما يدعو الشيطان إلى ارتكابه. ولا ريب أن الشيطان رجس نجس خبيث لأنّه كافر وكل كافر كذلك، وأن تفاوتت مراتب النجاسات ومراتب الكفار. ولا شبهة في أن الشيطان أكفر الكافرين وأخبث كل خبيث، والخبيث لا يدعو إلا إلى الخبيث، مضافاً إلى أن كل ما أضيف إلى الشيطان فالمراد من تلك الإضافة المبالغة في كمال قبحه.

الحكم الثالث: وجوب الاجتناب. ولا يجب الاجتناب إلا عن الحرام ولا حرمة إلا لما كان فيه مفسدة ملزمة بالترك يستحق فاعله العقوبة من المولى، والذم والتقبيح من العقل والعقلاء. ولو لم يكن في البين شيء يقتضي المنع عن ارتكاب

تلك الآثام إلا هذا الزجر الشرعي، لكان كافياً في وجوب الانزجار، لأن طاعة المولى فيما ينهى ويأمر حق من حقوقه، ومخالفته غصب وظلم وعدوان على سلطانه، يستحق مرتكبه الذم والعقاب.

الحكم الرابع: هو البعث إلى ما فيه الفلاح والنجاح المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ومعناه أن توقع الفلاح ورجائه إنما يكون مقروناً بالاجتناب لتلك الأمور، بحيث لا يتوقع ولا يرجى إلا مع الاجتناب وترك الارتكاب. وأي محرم أعظم من محرّم لا يرجى الفلاح على الإطلاق لمرتكبه.

ثم إنه تعالى شأنه أكّد جهة التحريم بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾... الآية ولا ريب إن ما لا غرض للشيطان من الدعوة إلا إيقاع مرتكبه في مفاسد الشحناء والعداوة والبغضاء بين الأخوين لا محالة أنه يكون من أسبابها القريبة التي لا تنفك عنها غالباً. كما لا ريب أن وقوع العداوة والبغضاء بين المؤمنين أو الأخوين من أعظم موارد الفساد الذي لا ينتظم معه أمر المعاش والمعاد. ثم أكّد تعالى شأنه جهة تحريم تلك الأمور ببيان أنها هي الوسيلة الوثيقة للشيطان في قطع علائق العبد مع ربّه...

فإنّ علا ئق العبد مع ربه إنما تكون بالصلاة له تعالى شأنه، فإن الصلاة من أوثق العلائق بين العبد وربّه. وبالذكر له تعالى شأنه، ومع صدّ الشيطان الإنسان عن الأمرين. لا تبقى علاقة بين المالك والمملوك، إذ يكون العبد حينئذ مورداً لما مرّ من قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.

ولا شيء أشد وبالاً ممن يؤول أمره إلى ذلك.

وبتقريب أصح لبيان جهات تحريم الخمر منفرداً أو مجتمعاً مع أقرانه، هو ما

ذكره الرازي في المقام حيث قال:

واعلم أن هذه الآلة دالّة على تحريم شرب الخمر من وجوه:

أحدها: تصدير للجملة بإنّما وذلك لأنّ هذه الكلمة للحصر فإنّه تعالى قال: لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلّا هذه الأربعة.

وثانيها: إنّه تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأوثان ومنه قوله(ﷺ): شارب الخمر كعابد الوثن.

وثالثها: إنّه تعالى أمر بالاجتناب، وظاهر الأمر الوجوب.

ورابعها: إنّه قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، جعل الاجتناب من الإفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة.

وخامسها: إنّه شرح أنواع المفاسد المتولّدة منها في الدنيا والدين، وهي وقوع التعادي والتباغض بين الخلق وحصول الإعراض عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، وهو من أبلغ ما ينتهي به. كأنّه قيل: قد تلي عليكم ما فيها من أنواع المفاسد والقبائح فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف أم أنتم على ما كنتم عليه حين لم توعظوا بهذه المواعظ.

وسابعها: إنّه تعالى قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾. فظاهره أنّ المراد: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فيما تقدم ذكره من أمرهما بالاجتناب عن الخمر والميسر. وقوله: واحذروا أي احذروا عن مخالفتهما في هذه التكاليف.

وثامنها: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. وهذا تهديد عظيم ووعيد شديد في حق من خالف في هذه التكاليف، وأعرض فيه عن

حكم الله. وبيانه يعني إنكم أن توليتم فالحجّة قد قامت عليكم والرسول قد خرج عن عهدة التبليغ والإعذار والإنذار، فأمّا ما وراء ذلك من عقاب من خالف هذا التكليف وأعرض عنه فذاك إلى الله تعالى. ولا شكّ أنّه تهديد شديد.

فصار كل واحد من هذه الوجوه الثمانية دليلاً قاهراً وبرهاناً باهراً في تحريم الخمر.

واعلم أنّ من أنصف وترك الاعتساف علم أن هذه الآية نص صريح في أنّ كل مسكر حرام... إلى آخر ما أفاده...

الخمر محرّم في الشرائع كلّها

هذا كلّه فيما يقتضيه القرآن الكريم.

وأمّا ما يقتضيه الحديث الشريف فهو تحريم الخمر في الشرائع كلّها.

فعن عيون[1] الأخبار عن الريّان بن الصّلت عن الإمام الرضا(عليه السلام):

إنه قال(عليه السلام): ما بعث الله(عزّ وجلّ) نبيّاً إلّا بتحريم الخمر.

وشرب الخمر يعلو كافّة الذّنوب:

فعن أبي جعفر(عليه السلام): أنّ شرب الخمر يدخل صاحبه في الزنا والسرقة وقتل النفس التي حرّم الله وفي الشرك بالله، وأفاعيل الخمر تعلو على كل ذنب كما تعلو شجرتها على كل شجرة. وعن رسول الله[2](صلى الله عليه وآله): الخمر جماع الإثم وأمّ الخبائث.

ومعناه: أنّ الرجل إذا ارتكب معصية فربّما اقتصر عليها ولم يتجاوز إلى

(١) قال في ص٣٣٤ من كتاب وقائع الأيام: قال في بحر الجواهر عن عيون الأخبار... إلخ.

(٢) ذكر ذلك في ص٣٢٣ من كتاب وقائع الأيام عند شرح الكلمات القصار للرسول(صلى الله عليه وآله).

غيرها سوى شرب الخمر فإنّه إذا شربه فسكر زال عقله، وإذا زال عقله ارتكب كل معصية عظيمة وأتى بكل كبيرة وجريمة ولا يستحي من كلّ رذيلة ذميمة.

وعنه(ﷺ) أيضاً:

جُعل الشرّ كلّه في بيت وجعل مفتاحه الخمر.

وعنه(ﷺ): لا ينال شفاعتي مستخفّ بصلاته ولا يرد عليّ الحوض لا والله، ولا ينال شفاعتي من شرب المسكر ولا يرد عليّ الحوض لا والله.

وعنه(ﷺ): إنّ من شرب الخمر بعد أن حرّمها الله تعالى على لساني، لا يزوّج إذا خطب ولا يصدق إذا حدّث ولا يشفّع ولا يؤتمن على أمانة فمن ائتمنه على أمانة فقد استهلكها وحق على الله أن لا يخلفها عليه[1].

وفي آيات الأحكام[2] عن ابن بابويه في الفقه عن الصادق(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) عن عليّ(عليه السلام) نهى رسول الله(ﷺ) عن بيع النرد وأن يشتري الخمر وأن

---

(١) وعنه(ﷺ) على ما ذكره في ص٤٤٥ من شرح الصحيفة المباركة أنه قال:

بنى الله الفردوس بيده وحظرها على كل مشرك ومدمن خمر سكّير.

وعنه(ﷺ): خلق الله تبارك وتعالى ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم(عليه السلام) بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده ثم قال تعالى شأنه:

وعزّتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر ولا الديّوث...

قالوا: قد عرفنا مدمن الخمر. فما الديّوث؟ قال: الذي يقرّ السوء بأهله.

قال: وعن ابن عطية مرفوعاً قال:

خلق الله جنّة الفردوس بيده فهو يفتحها كل يوم خميس فيقول:

ازدادي طيباً لأوليائي... ازدادي حسناً لأوليائي.

قال: ومعنى خلقها بيده أنّه تعالى تولّى خلقها وإيجادها من غير واسطة.

(٢) راجع آيات الأحكام للعلاّمة الجزائري ص١٩٥.

يسقي الخمر.

وقال صلى الله[1] عليه وآله: لعن الله الخمر وغارسها وعاصرها وشاربها وساقيها وبايعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه.

وقال[2] العلامة القمي رحمه الله:

فعن الصادق(عليه السلام): إنّ العبد لا يزال في فسحة من ربّه ما لم يشرب الخمر، فإذا شربها خرق الله سرباله[3] فكان وَلَدَه وأخاه وسمعَه وبصره ويده ورجله إبليس يسوقه إلى كل شرّ ويصرفه عن كل خير.

قال الرازي: ذكر ابن أبي الدّنيا[4]: إنّه مرّ على سكران وهو يبول بيده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضيّ وهو يقول: الحمد لله الذي جعل الإسلام نوراً والماء طهوراً...!

في سوء عاقبة شارب الخمر:

قال العلامة القمي طاب ثراه:

حكى عن تلميذ من تلامذة الفضيل[5] بن عيّاض لمّا حضرته الوفاة دخل

---

(١) لعن رسول الله(صلى الله عليه وآله) عشرة ممن يرتبط بصنع الخمر ونحوه، وهي المذكورة في الحديث الشريف.

(٢) ذكر ذلك في ص٣٢٧ من سفينة البحار في مادّة خمر.

(٣) قال في ص٤٤٠ من مجمع البحرين: والسربال القميص وكل ما يلبس كالدرع وغيره.

(٤) ابن أبي الدنيا من أهل القرن الثالث وهو من العلماء المؤلفين.

(٥) قال العلّامة القمّي رحمه الله في ص٣٦٩ من المجلّد الثاني من سفينة البحار:

الفضيل بن عياض الزاهد بصري أو كوفي ثقة، روى عن أبي عبدالله(عليه السلام) يرويها النجاشي، وكان من زهدة عصره، ذكر الصوفية له كرامات ومقامات. =

عليه الفضيل فجلس عنده وقرأ سورة يس... فقال: يا أستاذ لا تقرأ هذه، فسكت...

ثم لقنه فقال: قلّ لا إله إلّا الله. فقال: لا أقولها إنّي بريء منها...

فدخل الفضيل منزله ولم يخرج من منزله ثم رآه في النوم يسحب إلى جهنم. فقال: بأيّ شيء نزع الله المعرفة منك وكنت أعلم تلاميذي؟ فقال بثلاثة أشياء:

١ـ أولها: النميمة فإني قلت لأصحابي بخلاف ما قلت لك...

٢ـ وثانيها: بالحسد حيث كنت حسدت أصحابي...

٣ـ وثالثها: كان بي علّة فجئت إلى طبيب فسألته عنها. فقال: اشرب في كل سنة قدحاً من خمر فإن لم تفعل بقيت تلك العلّة. فكنت أشربها.

وقال الصفوري الشافعي(١):

= ويحكى أنه كان في أول أمره يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وعشق جارية فبينما يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو من القرآن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

فقال: يا ربّ قد آن... فرجع وأوى إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم لبعض نرتحل. وقال بعضهم حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق، فتاب الفضيل وآمنهم.

وحكى أنه جاور الحرم حتى مات وكانت وفاته يوم عاشوراء سنة ١٨٧ ... إلى أن قال:

وكان للفضيل ولد اسمه علي وكان أفضل من أبيه في الزهد والعبادة إلّا أنّه لم يتمتّع بحياته كثيراً.

وكان سبب وفاته أنه كان يوماً في المسجد الحرام واقفاً قريباً من ماء زمزم فسمع قارئاً يقرأ:

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ...﴾

فصعق ومات... إلى آخر ما ذكره المؤلف هناك. أقول: الآية الأولى الواردة في هذه الحكاية هي آية ١٦ من سورة الحديد والثانية هي آية ٤٩ من سورة إبراهيم(عليه السلام).

(١) ذكر ذلك في ص١٩٩ من المجلّد الأول من كتابه نزهة المجالس.

رأيت في الترغيب والترهيب عن بعض التابعين أنّه مرّ على حيّ فوجده مقبرة فانشقّ منها قبر بعد العصر فخرج منه رجل رأسه كرأس الحمار وبدنه بدن الآدمي. فنهق ثلاث مرّات ثم انطبق عليه القبر. فسألت امرأته عن ذلك. فقالت كان يشرب الخمر. فتقول له أمّه: اتق الله. فيقول لها: انهقي كما ينهق الحمار. فمات بعد العصر فهو كل يوم ينشق عنه القبر وينهق ثلاث مرّات.

وقال المؤلف المذكور في ص٢٠٣ من المجلّد المزبور:

قال مالك بن دينار: خرجت إلى الحج فرأيت الناس على عرفات. فقلت: ليت شعري من المقبول منهم فأهنّيه ومن المردود منهم فأعزّيه. فرأيت في المنام قائلاً يقول: قد غفر الله للقوم أجمعين إلّا محمّد بن هارون البلخي فقد ردّ الله عليه حجّه. فلمّا أصبحت أتيت ركب خراسان فقلت: أفيكم البلخيّون؟ قالوا: نعم. فأتيتهم فسألتهم عن محمّد بن هارون البلخي. فقالوا: سألت عن رجل زاهد عابد أطلبه في خرائب مكة، فأتيته فوجدته في خربة ويده في عنقه والقيد في رجليه وهو يصلي. فلمّا رآني قال: من أنت؟ فقلت: مالك بن دينار. قال: لعلّك رأيت في المنام. قلت: نعم. قال: في كل عام يرى رجل صالح مثل ما رأيت. فقلت له: ما السبب في ذلك؟ قال: كنت اشرب الخمر فشربته أول ليلة من رمضان فزجرتني أمّي فأخذتها ووضعتها في التنور. فلمّا أفقت من سكري أخبرتني زوجتي بذلك. فقطعت بنفسي وقيّدت رجلي. وفي كل عام أحج وأقول:

يا فارج الهم ويا كاشف الغم فرّج همّي واكشف غمّي وأرضِ عني أمّي...

واعتقت بعد ذلك عبداً و٢٦ جارية.

قال مالك: فقلت له: قد كدت تحرق الأرض ومن عليها بنارك...

فرأيت تلك الليلة في المنام النبي محمد(ﷺ) فقال: يا مالك لا تقنّط الناس من

رحمة الله تعالى. قد اطلع الله على محمد بن هارون واستجاب دعوته وأقال عثرته، فأخبره بأنّه يمكث في النار ثلاثة أيام من أيام الدنيا ثم يلقي الله الرحمة في قلب أمه فتستوهبه من الله تعالى فيهبه لها فيدخلان الجنّة جميعاً...

قال مالك: فأخبرته بذلك ففاضت روحه في الحال وصلّيت على جنازته.

وكيف كان: إنّ شرب الخمر أمره عظيم وخطره جسيم، ولذا ترى لمرتكبه أحكاماً مغلّظة.

قال العلامة كاشف الغطاء(تدّس) في رسالته سفينة النجاة في مقام بيان: حدّ شارب الخمر:

وأمّا الحدّ فهو ثمانون جلدة. ويستوي فيه الحر والعبد والمسلم والكافر إذا كان الكافر متظاهراً بشربه دون ما إذا كان متستّراً. وأمّا غير الكافر فيضرب مطلقاً ولو تكرر الحدّ قتل في الرابعة... إلى أن قال:

ومن شربها فإن كان عن فطرة قتل وإن كان عن ملّة استتيب فإن تاب حدّ وإلّا قتل.

ولو باعها مستحلاً استتيب عن فطرة كان أو ملّة فإن تاب حدّ وإلّا قتل. ولا يقتل إذا باع، ولو باعها غير مستحل عزّر.

أقول: غير خفي أنّ حرمة الخمر لما كانت من ضروريات الدين الإسلامي بكل طرائقه وفرقه كان استحلال ضربه محققاً للردّة، فلذا يجيء فيه ما أشير إليه في المتن من التفرقة بين كون الاستحلال عن فطرة أو عن ملّة.

وكيف كان فالخمرة حكمها شديد وقد ورد فيها عن سيّد البشر (ﷺ): ملعون من جلس على مائدة يشرب عليها الخمر...

وبمـضمون الحـديث مـن حيـث إفادتـه التحـريم أفتـى الـسيّد الكبـير الأصبهاني(قدّس سرّه) في وسيلته بأنّه:

يحرم الأكل على مائدة يشرب عليها شيء من الخمر وغيرها.

وكذا الفقّاع. بل ذهب بعض العلماء إلى حرمة كل طعام يعصى الله تعالى به أو عليه.

المحاضرة الثامنة

في بيان ميزان السعادة والشقاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] أقول: أخبر الله سبحانه عن اليوم المشهود، السابق الذكر في الآية السابقة، وهو اليوم المجموع له الناس أي يوم الجمع للحساب والجزاء، وهو المعبّر عنه بيوم التغابن في آية أخرى، وهو اليوم الذي مقداره عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون.

هو اليوم الذي تذهل فيه كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

وهو اليوم الذي تشهده الخلائق كلّها من ملك وإنسان وجان وشيطان ولا

---

(١) هذه الآيات من سورة هود وأول تلك الآيات هي الآية ١٠٤ وموقعها من مجمع البيان ص١٩١ من المجلّد ٣ وص١٣٢ من المجلّد ٥ من تفسير الرازي.

يوصف بهذه الصفة سواه.

وقد قسّم الله سبحانه الخلائق كلّها في وجه أو المكلّفين بالخصوص في وجه آخر، إلى شقي وسعيد. وحكم بما لكل من مثوبة وطاعة وانقياد وعقوبة وتمرّد وعناد... وحيث كان ميزان تلك المثوبة ومعيار هاتيك العقوبة، هو انتظام معرفة ذلك الميزان كي نزن به أنفسنا... فنتوسّل إلى الله سبحانه بحسن الإعانة والإرشاد ومزيد الرضوان والسّداد، حيث نعدّ في عداد الأتقياء، ونتضرع إليه تعالى في أن يمحونا من ديوان الأشقياء ويكتبنا في ديوان الصلحاء السعداء، فيما لو وجدنا أنفسنا من غير السعداء. فأعلم أن شيخنا الحجّة الكبرى وآية الله العظمى صاحب: الدين والإسلام، قد تطرّق في كتابه المتقدم الذكر، لتحقيق هذا الموضوع بما لم يسبقه سابق ولم يلحقه لاحق. فأوضحه بألفاظه الذهبية وشرحه بأفانينه التي تأخذ بالألباب وتستولي على المشاعر... ونحن حيث كانت طريقتنا في مقام الإلقاء أخذ المطالب وإلقائها بما يسنح لنا من القوالب عند الإلقاء، لذا نذكر هذا الموضوع المقتبس من ذلك البحر الزاخر بما يخطرنا من الألفاظ في مقام التأليف فيكون من قبيل النقل بالمعنى. والله سبحانه وهو المستعان في كل حال وأوان.

فنقول: إن شئت تعريف السعادة والشقاء تعريفاً صناعياً منطقياً فقل:

إنّ السعادة لكل موجود هو كونه كاملاً في وجوده والشقاء بخلافه...

وبهذا التعريف تنتظم كافة أفراد المحدود وتتكامل حدوده وقيوده، إلّا أن هذا التحديد إنّما ينتفع به أهل الدرجات الرفيعة. ونحن نريد أن نعرّف السعادة والشقاء تعريفاً تتساوى فيه الطبقات وهذا لا يتسنى إلّا ببيان أقسام السعادة على ما تقتضيه العجالة ونوكل الاستقصاء إلى وقته.

فنقول: إنّ السعادة على قسمين دنيوية وأخروية.

والسعادة الدنيوية هي السعادة المحدودة والسعادة الموقتة، لإضافتها إلى الدنيا المحدودة والموقتة، فإن المضاف إلى الموقّت موقّت والمضاف إلى المحدود محدود.

وهذه السعادة الدنيوية على قسمين:

١ـ بدنية: كسلامة قوى البدن من صحّة عين باصرة ووفور قوة سامعة وكمال قوة ذائقة أو شامّة أو لامسة، وكذا سائر القوى الأخرى ممّا به صحّة المزاج وتباعد البدن عن الكلل والعجز ممّا يقتضيه كمال وجوده.

٢ـ وخارجية: كنعمة الأولاد والمال وسعة الحال وكثرة العشيرة وشرف الآباء وعظيم العزّ والجاه والوسام حتى تنتهي إلى التاج والسرير والعرش الشامخ الخطير.

أمّا السعادة الأخروية فهي السعادة الدائمة وما تقتضيه الحياة الخالدة، لأنها منسوبة إلى الدار الباقية والراحة السرمدية، والمضاف إلى السرمدي سرمدي وإلى غير المحدود غير محدود.

وهذه السعادة الأخروية على قسمين أيضاً:

١ـ علمية: وهي ثقافة النفس وعرفانها فإنها كمالاتها الروحية وحياتها الحقيقية. وهذه المرتبة من السعادة ذات عرض عريض وطول متباعد الحدّين، إلّا أن أهم موارد تلك الثقافة وأعظم شأن تلك المعارف، علمان وهما:

١ـ علم الحكمة الإلهية المبحوث فيها عن أعيان الموجودات بقدر الطاقة البشرية، والذي نتيجته معرفة المعبود جلّت آلاؤه وما يجب له وما يمتنع عليه. وتندرج فيه مباحث الأصول الخمسة من التوحيد والعدل والنبوة والإمامة

والمعاد، وما لتلك المباحث من شؤون من إثبات ما يجب إثباته مما به الكمال له تعالى شأنه، وسلب ما به النقصان مما يجب تنزيهه عنه.

٢ـ وعلم الفقه المبحوث فيه عن أفعال المكلّفين من حيث تحل وتحرم وتصح وتفسد. وهذان العلمان في الحقيقة هما الأس والأساس لتلك السعادة الحقّة والحياة الخالدة، وما عداهما من العلوم الاثني عشر إنّما هي من المبادئ لهذين العلمين لتوقفهما عليها على تفاوت بين العلمين في التوقف لا يخفى. المقصود من العلوم الاثني عشر:

١ـ علم النحو الذي موضوعه الكلمة المحيّثة بحيثية الإعراب والبناء.

٢ـ وعلم الصرف الذي موضوعه الكلمة المحيّثة بحيثية الصحة والاعتلال.

٣ـ وعلم البلاغة المنقسم إلى علم المعاني الذي يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى المراد.

٤ـ وعلم البيان الذي يحترز به عن التعقيد المعنوي في الكلام.

٥ـ وعلم علم البديع الذي يعرف به وجوه تحسين اللفظ في المقام.

٦ـ وعلم المنطق الذي يبحث فيه عن المعرف والحجّة من حيث الإيصال إلى معلوم تصوري ومعلوم تصديقي.

٧ـ وعلم أصول الفقه الذي تعرف به القواعد التي يمكن أن تقع في طريق الاستنباط أو التي ينتهي إليها في مقام العمل.

٨ـ وعلم الحساب الذي موضوعه الكم المنفصل.

٩ـ وعلم الهندسة الذي موضوعه الكم المتصل.

١٠ـ وعلم الرجال الذي يبحث فيه من حيث التعديل والتعليل.

١١ـ وعلم التفسير الذي يبحث فيه من حيث بيان المعنى المراد.

١٢ـ وعلم الكلام المبحوث فيه عن أحوال المبدأ والمعاد.

فهذه العلوم كلّها مما يتوقف عليها علم الفقه في الجملة.

وأمّا علم الحكمة فله توقف على بعضها في الجملة كما لا يخفى.

فيكون لزوم تحصيل هذه العلوم منوطاً بلزوم تحصيل ما هو موقوف عليه من العلمين على حسب التوقف المفروض في البين...

وإن كان تحصيل سائر العلوم راجحاً في نفسه ولنفسه، لأنّها من أظهر كمالات النفس. والقسم الأول من السعادة الأخروية المتكفّل لتكميل النفس بالمعارف الحقّة التي تعود عليها بالمهم من المنافع، والتي تكون نتيجتها صحّة الأعمال وترتيب الآثار، إنّما هو علم أصول الدين وعلم الفقه.

والقسم الثاني من السعادة الأخروية إنّما هو العمل وتطبيق السير على سنن الشريعة المقدّسة، التي جاء بها الصادق الأمين(ﷺ) وأهل بيته الطاهرين. وهذه المرتبة الأخيرة هي الجزء الأخير من العلّة.

ولا يخفى أن الأقسام المذكورة للسعادة وإن لم تكن هي كلّ موارد السعادة، ولا التخلّي عنها بالإحاطة بمعاني السعادة الدنيوية والأخروية، تعرف معنى الشقاء بكلا قسميه وتشعّبه إلى ما تشعّب إليه ضدّه.

ولذا قيل لأمير المؤمنين(عليه السلام): عرّف لنا العلم...

فعرّفه لهم... فقالوا له: عرّف لنا الجهل...

فقال لهم: قد عرّفته لكم بتعريف العلم.

فالشقاء هو عدم تلك الكمالات الدنيوية والأخروية.

لكنّك لو دققت النظر في قسمي السعادة الدنيوية لوجدتهما من أظهر موارد الشقاء ما لم تنظم إليهما السعادة الأخروية.

فإنّ بين السعادتين كمال الملازمة... فالصحة المصروفة في غير المشروع شقاء محض. وكثرة البنين والأولاد ما لم ينتظموا بنظام الدين من أكبر البلاء. وهكذا المال المأخوذ من غير حلّه أو المصروف في غير محلّه. وأعظم من ذلك بلاءً الجاه والوسام والوظائف العظام حتى تنتهي إلى عرش المجلّل والتاج المكلل ما لم تصرف أو تستعمل في إقامة حق أو إزهاق باطل.

نعم صاحب العلم والعمل هو مصداق السعادة الحقّة والمعارج المحقّة. وإذا انضمّ إليها السعادة الدنيوية كان صاحبها ممّن جمع السعادتين وحظي بخير الدارين.

ولو فاتت السعادة الدنيوية كان في السعادة الأخروية كمال الكفاية.

اللهم إنا نسألك بحقّك وقدسك اللّذين لا يعرفهما غيرك وبأعظم صفاتك وأسمائك المخزونين المكنونين في علمك وبأحبّ أنبيائك وأوليائك أن تجعلنا من أهل طاعتك ومرضاتك وأن تخرجنا عن أهل سخطك ونقماتك.

وإن كنت قد كتبتنا في ديوان الأشقياء بجرائمنا فأمحنا من ذلك الديوان واكتبنا في ديوان السعداء...

بلطفك وعنايتك يا أرحم الراحمين.

فائدة

فائدة وهي تتعلق بضبط بعض ألفاظ دعاء جليل كما ستراه وتعرف معناه.

بيان

كم من كرب يضعُفُ عنه الفؤاد ويُخذلُ فيه الصديق ويشمت فيه العدو. قد فرجته وكشفته. فأنت مورد كل حاجة ومنتهى كل رغبة.

أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق من شيء.

اللهم عافني في يومي هذا حتى أمسي... اللهم إني أسألك بركة يومي هذا وما نزل فيه من عافية ومغفرة ورحمة ورضوان ورزق واسع حلال تبسطه عليّ وعلى ولدي وأهلي وعيالي وأهل حزانتي ومن أحببتُ وأحبّني وولدتُ وولدني... إلى آخره.

فائدة أخرى

وهي أن هذه الرموز تنفع لدفع الأسقام والكروب والسخط المرهوب.

منسوبة بما لها من الشرح إلى مولانا أمير المؤمنين عليه وعلى ابن عمه وأهله وأبنائه صلوات ربّ العالمين.

وهي هذه:

هـ هـ هـ هـ هـ = ٪٪ ءءءءءء وهـ ص م.

المحاضرة التاسعة

في صحة التجارة مع الحج ولو كان واجبا وصحة الإجارة للحج وجهات أخرى تتعلق بالموضوع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾(١).

قال العلامة الطبرسي رحمه الله عند بيان لغة الآية الشريفة:

الجناح الحرج في الدين وهو الميل عن الطريق المستقيم.

وقال الرازي عند تفسير الآية، وبمعناه في المجمع:

إعلم أنّ الشبهة كانت حاصلة في حرمة التجارة في الحج من وجوه:

١ـ أحدها: إنّه تعالى منع الجدال في الحج فيما قبل هذه الآية من قوله تعالى شأنه:

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾

---

(١) هذه الآية هي آية ١٩٨ من سورة البقرة وموقعها من مجمع البيان ص٢٩٤ من المجلّد الأول وص٢٥٤ من المجلّد الثاني من تفسير الرازي.

والتجارة كثيرة الإفضاء إلى المنازعة بسبب المنازعة في قلّة القيمة وكثرتها... فوجب أن تكون التجارة محرّمة.

٢ـ وثانيها: أن التجارة كانت محرّمة وقت الحج في دين الجاهلية.

فظاهر ذلك شيء مستحسن لأن المشتغل بالحج مشتغل بخدمة الله سبحانه، فوجب أن لا يتلطّخ هذا الفعل بالأطماع الدنيوية. ولذا كان الناس كما في رواية ابن عباس يحترزون من التجارة في أيام الحج. وإذا دخل العشر بالغوا في ترك البيع والشراء بالكلية وكانوا يسمون التاجر في الحج: الداج، ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج... ومعنى الداج المكتسب الملتقط وهو مشتق من الدجاج.

وبالغوا في الاحتراز عن الأعمال أن امتنعوا عن إغاثة الملهوف وإعانة الضعيف وإطعام الجائع...

فأزال الله سبحانه هذا الوهم وبيّن أنّه لا جناح في أن تبتغوا فضلاً من ربّكم بالتجارة والاكتساب وإنها جائزة غير ممنوعة.

وقال في المجمع[1] بعد ما ذكر ما بمعنى ما ذكره الرازي وذكر أنه مروي عن أئمتنا(عليهم السلام): وقيل كان في الحج إجراء ومكارون وكان الناس يقولون إنه لا حج لهم. فبيّن الله سبحانه أنّه لا إثم على الحاج في أن يكون أجيراً لغيره أو مكارياً.

قال العلامة الجزائري بعد ما ذكر ما حكيناه عن المجمع:

فظهر من ذلك أنّ الحج مع قصد التجارة صحيح وكذا الجمّال والمكاري والأجير وإن ذلك لا ينافي الإخلاص، وكذا الحج عن الغير والروايات الواردة في ذلك كثيرة.

---

(١) ذكر ذلك في ص٢٩٥ من المجلّد الأول.

ذكر عدّة منها في المقام... إلى أن قال:

وفي رواية عبدالله بن سنان قال: كنت عند أبي عبدالله(عليه السلام) إذ دخل عليه رجل فأعطاه ثلاثين ديناراً يحج بها عن إسماعيل، ولم يترك شيئاً من العمرة إلى الحج إلّا اشترط عليه حتى اشترط عليه أن يسعى في وادي محسر... ثم قال(عليه السلام):

يا هذا إذا أنت فعلت هذا كان لإسماعيل حجّة بما أنفق من ماله وكانت لك تسع بما أتعبت من بدنك.. وقال الرازي عند تفسير قوله تعالى:﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾:

الإفاضة الاندفاع في السير بكثرة وإفاضة الماء من الإناء لأنّه إذا صبّ تفرّق. والإفاضة في الحديث إنّما هي الاندفاع فيه بإكثار... إلى أن قال:

وعرفات جمع عرفة سمّيت بها بقعة واحدة، والتقدير إن كل قطعة من تلك الأرض عرفة فسمّي مجموع تلك القطع بعرفات. ومقتضى علميتها وتأنيثها منعها من الصرف، لكنّها لما كانت في الأصل موضوعة لقطع كثيرة أجريت في حال وضعها للمجموع على ما كانت قبل النقل... ثم قال:

إعلم أن اليوم الثامن من ذي الحجّة يسمى بيوم التروية، واليوم التاسع منه يسمى بيوم عرفة. وذلك الموضع المخصوص سميّ بعرفات.

وذكروا في تعليل هذه الأسماء وجوهاً:

أمّا يوم التروية فهو مأخوذ من الرويّة والتفكر أي إعمال فكرته ورويته.

وقد قيل في متعلّق ذلك التروي والتفكر أن آدم(عليه السلام) أمر ببناء البيت، فلمّا بناه تفكر. فقال: ربّ إن لكل عامل أجراً. فما أجري على هذا العمل؟

قال تعالى شأنه: إذا طفت به غفرت لك ذنوبك بأول شرط من طوافك.

قال: يا ربّ زدني. قال تعالى شأنه: اغفر لأولادك إذا طافوا به.

قال: زدني. قالا: اغفر لكل من استغفر له الطائفون من موحّدي أولادك.

قال(عليه السلام): حسبي يا ربي حسبي.

قال الرازي(١):

وأمّا فضل هذا اليوم فدل عليه قوله تعالى:﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾. عن ابن عباس إنّ الشفع التروية وعرفة والوتر يوم النحر.

وعن عبادة أنه(صلى الله عليه وآله) قال: صيام عشر الأضحى كل يوم كالشهر، ولمن يصوم يوم التروية سنة، ولمن يصوم عرفة سنتان... إلى أن قال الرازي: وأما يوم عرفة فله عشرة أسماء. خمسة منها مختصة به. وخمسة مشتركة بينه وبين غيره.

أمّا الخمسة الأولى فأحدها عرفة...

ثم ذكر ما مختصره: أنه كان مشتقاً من المعرفة... فمن معانيه: إنّ الله سبحانه يتعرف فيه إلى الحاج بالمغفرة والرحمة. وإن كان مشتقاً من الاعتراف كان معناه أن الحاج إذا وقفوا في عرفة اعترفوا للحق بالرّبوبية والجلال والصّمدية والاستغناء، ولأنفسهم بالفقر والذلّة والمسكنة والحاجة.

وقال في مجمع البيان عند شرح معنى: المشعر الحرام:

والمشعر الحرام هو المزدلفة سمّيت مشعراً لأنّه معلم للحج والصلاة والمقام والمبيت به والدعاء عنده، من أعمال الحج.

وإنّما سمّي المشعر الحرام مزدلفة لأنّ جبرئيل(عليه السلام) قال لإبراهيم(عليه السلام)

---

(١) ذكر ذلك في ص٢٥٧ من المجلّد الثالث.

بعرفات: ازدلفت إلى المشعر الحرام. فسمّي: المزدلفة.

وسمّي جمعاً لأنه يجمع به بين المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين.

وقال الرازي[1]:

وهذا الجمع يعني بين صلاتي الظهر والعصر في يوم عرفة. متفق عليه.

ويظهر منه مثله القول في الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء في المزدلفة. كما ذكر ذلك في أواخر ص٢٥٩.

وسمّيت مني لأنّ إبراهيم(عليه السلام) تمنّى هناك أن يجعل الله سبحانه مكان ابنه كبشاً يأمره بذبحه فدية له...

ثم قال تعالى شأنه:

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾.

قال العلامة الطبرسي:

ومعناه: واذكروه بالثناء والشكر على حسب نعمته عليكم بالهداية، فإنّ الشكر يجب أن يكون على حسب النعمة في عظم المنزلة، كما يجب أن يكون على مقدارها لو صغرت النعمة...

ولا يجوز التسوية بين من عظمت نعمته وبين من صغرت نعمته.

وقوله تعالى شأنه:

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ -أي من قبل الهدى- لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وقيل: من قبل محمد(صلى الله عليه وآله) لمن الضالين عن النبوة والشريعة فهداكم إليه...

---

(١) ذكر ذلك في ص٢٥٩ من الجزء الثاني.

المحاضرة العاشرة

في الصبر وعواقبه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾...[١].

وقريب منه قوله تعالى شأنه في آية أخرى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾...[٢].

قال العلامة الطبرسي في مجمع البيان عند بيان لغة الآية الأولى:

الصبر منع النفس عن محابّها وكفّها عن هواها. ومنه الصبر على المصيبة، لكفّ الصابر نفسه عن الجزع. ومنه ما جاء في الحديث: وهو شهر الصبر، لشهر رمضان لأنّ الصائم يصّبر نفسه ويكفّها عمّا يفسد الصيام. وقتل فلان صبراً وهو أن ينصب للقتل ويحبس عليه حتى يقتل... إلى أن قال:

---

(١) هذه الآية آية ٤٥ من سورة البقرة وهي واقعة في ص٩٩ من المجلّد الأول من تفسير مجمع البيان وفي ص٤٧٩ من المجلّد الأول من تفسير الرازي.
ولم يكن في شيء من الكتابين ما ينفع في تحليل الآية المباركة وشرحها.

(٢) وهذه الآية هي آية ١٥٣ من سورة البقرة الواقعة في ص٢٣٤ من المجلّد الأول من تفسير المجمع وفي ص١٥ من المجلّد الثاني من تفسير الرازي... ولا مهمّ فيه أيضاً.

وفي الحديث: اقتلوا القاتل واصبروا الصابر، وذلك فيمن أمسكه حتى قتله آخر فأمر بقتل القاتل وحبس الممسك... قال:

والخشوع والخضوع والتذلّل والإخبات نظائر، وضد الخشوع الاستكبار.

وخشع الرجل إذا رمى ببصره إلى الأرض. واختشع إذا طأطأ رأسه كالمتواضع.

والخشوع قريب المعنى من الخضوع إلّا أن الخضوع في البدن والإقرار بالاستخدام والخشوع في الصوت والبصر. قال الله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، أي سكنت وأصل الباب من اللين والسهولة. والخاشع والمتواضع المتذلّل والمستكين بمعنى. ثم قال في مقام بيان معنى الآية:

إنه بناءً على أن تكون خطاباً للمسلمين، المراد به: استعينوا على تنجّز ما وعدته لمن تبع النبي(ﷺ) أو على مشقة التكليف بالصّبر، أي احبس النفس على الطاعات وحبسها عن المعاصي والشهوات، وبالصلاة لما فيها من تلاوة القرآن والتدبّر لمعانيه والاتعاظ بمواعظه... ثم قال:

ووجه آخر إنّه ليس في أفعال القلوب أعظم من الصّبر ولا في أفعال الجوارح أعظم من الصلاة. فأمر بالاستعانة بهما.

وروي عن الصادق جعفر(عليه السلام) أنه قال:

ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدنيا أنم يتوضأ ثم يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو الله فيهما... أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾...

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾.

قيل في الضمير من ـ إنّها ـ وجوه:

أحدها: إنّها عائدة إلى الصلاة لأنّها الأغلب والأفضل. وهو قول أكثر المفسّرين.

وعلى هذا، ففي عود الضمير إلى واحد وقد تقدّم ذكر اثنين، قولان:

أحدهما: إنّ المراد به الصلاة دون غيرها، وخصّها بالذكر لقربها منه ولأنّها الأعمّ ولأنّها الأفضل، ولتأكيد حالها وتفخيم شأنها وعموم فرضها.

والآخر: إنّ المراد الاثنان وإن كان اللفظ واحداً. ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾...

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾...

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾...

وقال في المجمع[1] عند بيان معنى الآية الثانية وهي قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

قد مضى تفسير قوله: استعينوا بالصّبر والصلاة فيما مضى، يخاطب المؤمنين فيقول:

استعينوا بالصّبر أي بحبس النفس عمّا تشتهيه من المقبّحات وحملها على ما تتنفّر عنه من الطاعات. وإلى هذا أشار أمير المؤمنين(عليه السلام) في قوله: الصّبر صبران صبر على ما تكره وصبر عمّا تحبّ. وبالصلاة لما فيها من الذكر والخشوع لله وتلاوة القرآن الذي يتضمّن ذكر الوعد والوعيد والهدى والبيان. وما هذه صفته يدعو

---

(١) ذكر ذلك في ص٢٣٥ من المجلّد الأول.

إلى الحسنات ويزجر عن السيئات. واختلاف في أنّ الاستعانة بهما على ماذا؟ فقيل على جميع الطاعات. فإنه قال: استعينوا بهذا الضرب من الطّاعة على غيره من الطاعات وقيل على الجهاد في سبيل الله. وقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: إنّ معناه إنّه معهم بالمعونة والنصرة، كما يقال: السلطان معك فلا تبال بمن لقيت.

والآخر: إنّ المراد معهم بالتوفيق والتسديد أي يسهّل عليهم أداء العبادات والاجتناب عن المقبّحات. ونظيره قوله سبحانه ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾... ولا يجوز أن يكون مع هنا بمعنى الاجتماع في المكان لأنّ ذلك من صفات الأجسام تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وفي الآية دلالة على أنّ في الصلاة لطفاً للعبد لأنه سبحانه أمرنا بالاستعانة بها. ويؤيده قوله سبحانه:﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾. انتهى وقال العلامة[1] القمي رحمه الله:

قال الراغب في مفرداته: الصّبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه فالصّبر لفظ عام وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه.

فإن كان حبس النفس لمصيبة سميّ ذلك صبر لا غير ويضادّه الجزع.

وإن كان في محاربة سميّ شجاعة ويضادّه الجبن.

وإن كان نائبة مضجرة سميّ ذلك وجب الصدر ويضادّه الضجر.

---

(١) ذكر ذلك في ص٤ من المجلّد ٢ من سفينة البحار.

وإن كان في إمساك الكلام سميّ ذلك كتماناً ويضادّه المَذِل.

وقد سميّ الله تعالى كلّ ذلك ونبّه عليه بقوله:

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾.

إلى أن قال:

قال المحقق الطوسي: الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه وهو يمنع البطن عن الاضطراب واللسان عن الشكاية والأعضاء عن الحركات.

وقال[1]: عن أبي عبدالله(عليه السلام): إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبرّ مطل عليه ويتنحى الصّبر ناحية فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبرّ. دونكم صاحبكم فإن عجزتم فأنا دونه.

قال: وعن الأصبغ قال أمير المؤمنين(عليه السلام): الصّبر صبران صبر عند المصيبة حسن جميل وأحسن من ذلك الصبر عندما حرّم الله عليك... والذكر ذكران ذكر الله(عزّ وجلّ) عند المصيبة وأفضل من ذلك ذكر الله عمّا حرّم عليك فيكون حاضراً.

وسأله جابر عن الصبر الجميل. قال ذلك صبر ليس معه شكوى إلى الناس.

ومن الصابرين أيّوب(عليه السلام).

قال العلامة القمي[2] رحمه الله:

عن ابن عبّاس قال: إن امرأة أيّوب(عليه السلام) قالت له يوماً: لو دعوت الله أن يشفيك؟ فقال ويحك كنّا في النّعماء سبعين عاماً فهلّم نصبر في الضراء مثلها...

---

(١) ذكر ذلك في ص٥ من المجلّد ٢ من سفينة البحار.

(٢) ذكر ذلك في ص٥ من المجلّد ٢ من سفينة البحار.

فلم يمكث بعد ذلك إلّا يسيراً حتى عوفي(١).

وممّا ينسب إلى أمير المؤمنين(عليه السلام) الأبيات التالية:

إني وجدت وفي الأيام تجربة . للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقلّ من جدّ في أمر يطالبه فاستصحب الصّبر إلّا فاز بالظفر

ومما يحكى عن بعض الصابرين والصابرات:

قال العلّامة المتقدّم: وفي البحار حكاية العبد الصالح الذي كان في عريش مصر وذهبت عيناه واسترسلت يداه ورجلاه، وكان يحمد الله كثيراً وكان له ابن يتعاهده في أوقات الصلاة، ويطعمه عند إفطاره، فأفترسه السّبع. فلـمّا علم أبوه بذلك، قال: الحمد لله الذي لم يجعل في قلبي حسرة من الدنيا، ثم شهق شهقة فمات...

فرؤي في المنام على أحسن صورة وأجمل زي في روضة خضراء قائماً يتلو القرآن.

---

(١) قال الشافعي في ص٦٨ من الجزء الأول من كتاب النزهة:

قال في العقائق أوحى الله إلى أيوب(عليه السلام) أنّ سبعين نبيّاً لمّا أخبرتهم بثواب الصبر على هذا البلاء فكلّ منهم سألني أن يكون هو المبتلى فلم أعطهم وجعلته هديّة لك حتى تسمع الثناء عليك في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

إنّا وجدناه صابراً نعم العبدُ إنّه أوابٌ.

قال: وكان من أولاد العيص بن إسحاق(عليه السلام) بن إبراهيم(عليه السلام) وكان كثير المال والعبادة، فحسده إبليس لّما سمع الثناء عليه من الملائكة. فقال إبليس لعنه الله: لو كان فقيراً لما عبد الله ولو سلّطني عليه لم يكن مطيعاً. فسلّطه على ماله فأحرقه. وساق حديث أيوب(عليه السلام) وفعل إبليس(لعنه الله) إلى أن قال: وكان ـ يعني أيوب(عليه السلام)ـ في بلائه ثمان عشرة سنة.

وحكاية صبر أم عقيل، وهي امرأة كانت في البادية فنزل عليها ضيف وكان ولدها عقيل مع الإبل فأخبرت بأنّه ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر فهلك. فقالت المرأة للناعي انزل واقضي ذمام القوم ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه، وقرَّب إلى القوم الطعام. فجعلوا يأكلون ويتعجّبون من صبرها. قال الراوي: فلمّا فرغنا خرجت إلينا وقالت: يا قوم هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئاً. فقلت: نعم. فقالت: أقرأ عليّ آيات أتعزّى بها عن ولدي. فقرأت:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾...

فقالت: السلام عليكم. ثم صفّت قدميها وصلّت ركعات ثم قالت: اللّهم إنّي فعلت ما أمرتني فأنجز لي ما وعدتني به، ولو بقي أحد لأحد قال قلت في نفسي لبقي ابني لحاجتي إليه، فقالت: لبقي محمّد(ﷺ) لأمته[1].

قال بعض العارفين[2]:

إنّ الصّبر ثلاث درجات:

---

(١) ذكر في ص٧١ من الجزء الأول من نزهة المجالس للشافعي قال:
من بعضهم: رأيت امرأة مقطوعة اليدين والرجلين وهي تقول: الحمد لله الذي عافاني ممّا ابتلى منه كثيراً من خلقه. فقال لها قائل: أيّ شيء من البلاء عافاك الله منه؟ فقالت: أنّا خيرٌ ممّن لم يجد في قلبه معرفة ربّه.
قال أيضاً: رأيت في كتاب الفرج بعد الشدّة: إنّ امرأة ركضتها دابّة فكسرت رجلها فدخل إليها نسوة يعدنها. فقالت لهنّ: لولا هذه البلايا والمحن لجئنا يوم القيامة مفاليس.
قال: وعثرت امرأة أخرى فسقط ظفرها فضحكت. فقيل لها في ذلك. فقالت: لذّة ثوابه أزالت من قلبي مرارة ألمه.

(٢) ذكر ذلك الشافعي في نزهة المجالس في ص٦٥ من الجزء الأول.

١ـ الأولى ترك الشكوى ويسمّى الصبر الجميل وهي درجة التائبين.

٢ـ الثانية الرضا بالمقدور وهي درجة الزاهدين.

٣ـ الثالثة المحبّة لما يصنع به المولى وهي درجة الصديقين.

قال: وقال عبدالله بن سلام: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ:

ليقسم أهل الصبر... فيقوم ناس فيقال: انطلقوا إلى الجنّة. فتقول لهم الملائكة: إلى أين قالوا: إلى الجنّة. قالوا: قبل الحساب. قالوا: نعم. قالوا: من أنتم. قالوا: نحن أهل الصبر. قالوا: كيف صبرتم. قالوا: صبّرنا أنفسنا على طاعة الله وصبّرنا أنفسنا عن معاصي الله تعالى وصبّرناها على البلاء والمحن في الدنيا.

فتقول لهم الملائكة: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار.

قال: وقال موسى(عليه السلام):

يا إلهي أيّ منازل الجنّة أحبّ إليك؟ قال: حظيرة القدس. قال: ومن سكنها؟ قال: أصحاب المصائب. قال: يا ربّ من هم؟ قال:

الذين إذا ابتليتهم صبروا وإذا أنعمت عليهم شكروا وإذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قال: وقال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):

إذا مات ولد العبد. قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي. فيقولون: نعم. قال: فيقول: ماذا قال عبدي. فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول:

ابنوا لعبدي بيتاً في الجنّة وسمّوه: بيت الحمد.

وفي الكافي[1] عن أبي عبدالله (عليه السلام):

الصّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصّبر ذهب الإيمان.

وفيه[2] أيضاً عن أبي جعفر (عليه السلام):

الجنّة محفوفة بالمكاره والصبر فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنّة. وجهنم محفوفة باللّذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذّتها وشهوتها دخل النّار. إلى غير ذلك ممّا يتعلّق بالموضوع من الشيء الكثير الوارد في الكتاب الكريم والأحاديث المباركة. فراجع.

---

(١) ذكر ذلك في ص٢٦٧ من الكافي.

(٢) ذكر ذلك في ص٢٦٨ من أصول الكافي.

المحاضرة الحادية عشرة

في التوبة وشيء من شؤونها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[1].

قال العلّامة الطبرسي رحمه الله عند ذكر لغة الآية:

أصل الفاحشة الفحش وهو الخروج إلى عظيم القبح... إلى أن قال: وافحش فلان إذا أفصح بذكر الفحش. قال: والإصرار أصله الشدّ... إلى أن قال: فكأنّما هو ارتباط الذنب بالإقامة عليه.

وقيل: أصله الثبات عليه.

وقال رحمه الله عند بيان معنى الآية:

اختلفوا في الفاحشة وظلم النفس. فقيل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس سائر المعاصي، وقيل: الفاحشة الكبائر وظلم النفس الصغائر. وقيل: الفاحشة اسم

---

(١) هذه الآية هي آية ١٣٥ من سورة آل عمران، وموقعها من تفسير المجمع ص٥٠٥ من المجلّد الأول. وص٧٧ من المجلّد الثالث من تفسير الرازي.

لكلّ معصية ظاهرة وباطنة إلّا أنها لا تكاد تقع إلّا على الكبيرة. وقيل: فعلوا فاحشة فعلاً وظلموا أنفسهم قولاً.

وقال في معنى: ذكروا الله، أي ذكروا وعيده فانزجروا عن المعصية واستغفروا[١] لذنوبهم، فيكون من الذكر بعد النسيان[٢].

وقيل: ذكروا الله بأن قالوا اللّهم اغفر لنا ذنوبنا فإنّا تبنا نادمين عليها مقلعين عنها[٣]. وقوله: ومن يغفر الذنوب إلّا الله، من لطيف فضل الله تعالى وبليغ كرمه وجزيل مننه وهو الغاية في ترغيب العاصين في التوبة وطلب المغفرة والنهاية في تحسين الظّن للمذنبين وتقوية رجاء المجرمين.

وقوله: ولم يصّروا على ما فعلوا، أي لم يقيموا على المعصية ولم يواظبوا عليها... وقد روي عن النبي(ﷺ) أنّه قال: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

قوله: وهم يعلمون: معناه وهم يعلمون الخطيئة ذاكرين لها، أو هم يعلمون

---

(١) أي طلبوا الستر على الذنب. ولا يخفى ما للاستغفار من الشأن الكبير، كما يشير إلى ذلك قول أمير المؤمنين(عليه السلام) في النهج: كان في الأرض أمانان فارتفع أحدهما وهو رسول الله(ﷺ) وبقي الآخر وهو الاستغفار، لقوله تعالى شأنه:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

(٢) وهو من حقوقه تعالى شأنه، فإنّ من حقّه عظم فضله أن يذكر ولا ينسى ويطاع ولا يعصى وأن يشكر ولا يكفر.

(٣) فيكون الذكر بمعنى الدعاء له والثناء عليه. ولعله إلى مثله ينظر قوله تعالى:

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.

إلى فضل هذا الذكر يشير الحديث القدسي من قوله عمّ نيله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملائه...

أنّ الله يملك مغفرة ذنوبهم... إلى غير ذلك.

وقوله: أولئك، إشارة إلى من تقدم ذكرهم من المتقين الذين ينفقون في السرّاء والضراء... إلى آخر ما وصفوا به.

جزاؤهم: على أعمالهم وتوبتهم. مغفرة من ربّهم، أي ستر لذنوبهم، وجنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين.

كما ورد في الكافي[1] عن أبي عبدالله(عليه السلام):

إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة... فقلت: وكيف ستر عليه؟ قال(عليه السلام): ينسي ملَكَيْهِ ما كتبا عليه من الذنوب، ثم يوحي إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه. ويوحي إلى بقاع الأرض اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب. فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب. وقال في الكافي أيضاً:

إن الله(عزّ وجلّ) أعطى التائبين ثلاث خصال، لو أعطى خصلة منها جميع أهل السموات لنجوا بها:

١ـ قوله(عزّ وجلّ): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2].

---

(١) ذكر ذلك في ص٣٨١ من أصول الكافي.

(٢) هذه الآية هي آية ٢٢٢ من سورة البقرة وهي واقعة في ص٣١٨ من المجلّد الأول من مجمع البيان وص٣٤٤ من المجلّد الثاني من تفسير الرازي.

ومعنى الفقرة المباركة من الآية الشريفة: أمّا قوله: إنّ الله يحبّ التوابين. فقد مضى شرح محبّة الله سبحانه لعباده في المحاضرة المتعلّقة بالزكاة. وسوف يأتي في هذه المحاضرة بشرح حقيقة التوبة.

وأمّا معنى التوّاب: فهو من تكثّر منه فعل ما يسمّى توبة. والتوبة إنّما تحسن وتستحب لمن =

فمن أحبّه الله لم يعذّبه.

٢ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

= صدر منه الذنب لا مطلقاً كما هو ظاهر الآية، إلّا أنّ مقتضى التوبة بل تكرّره لمّا لم ينفك عنه أحد ولو من باب حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، كان الإطلاق حسناً جداً لإيمائه إلى هذا المعنى.

وسيأتي بعض الشرح لما يتعلّق بهذا السؤال والجواب في طي هذه الأبحاث الآتية.

وأمّا قوله سبحانه وتعالى: ويحبّ المتطّهرين، قال في مجمع البيان:

قيل معناه التطهير بالماء... قال: وقد رواه أصحابنا أيضاً:

وقال الرازي بعد ذكر هذا الوجه:

وقد قال تعالى: رجال يحبّون أن يتطهّروا والله يحبّ المطّهرين...

فقيل في التفسير: إنّهم كانوا يستنجون بالماء فأثنى الله عليهم.

أقول: وفي الآية إيماء إلى محبوبية المداومة على الطهارة... ولعلّه بنحو يشمل الطهارة في كل شيء حتى المأكل والمشرب والملبس فيكون شاملاً للطهارتين من الحدث والخبث.

(١) هذه الآية هي الآية ٧ من سورة المؤمن أو سورة غافر، الكائنة في ص٥١٤ من المجلّد الرابع من مجمع البيان وفي ص٢٩٤ من المجلّد السابع من تفسير الرازي.

قال في مجمع البيان:

الذين يحملون العرش: عبادة لله وامتثالاً لأمره. ومن حوله: يعني الملائكة المطيفين بالعرش وهم الكروبيون وسادة الملائكة.

وقال في مادة كرب من مجمع البحرين: =

= والكروبيون من الملائكة... قاله في الحديث. وجبرئيل هو رأس الكروبيين بتخفيف الراء، وهم سادة الملائكة والمقرّبون منهم.

قال الرازي: روى صاحب الكشاف أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم.

ولعل كل من ذكر شيئاً من ذلك قد أخذه من قول أمير المؤمنين(عليه السلام):

ثم فتق ما بين السموات العلى فملأهنّ أطواراً من ملائكته...

إلى آخر ما ذكر(عليه السلام) من تقسيم الملائكة الذي من ذلك قوله:

فمنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العليا أعناقهم والخارجة من الأقطار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم متلفّعون تحته بأجنحتهم مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزّة وأستار القدرة، لا يتوهمون ربّهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين ولا يحدّونه بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر...

وهذه الخطبة الكريمة التي هي من أبدع الخطب وأنفع ما سمع في هذا الموضوع، مذكورة في ص٣٠ من المجلّد الأول من شرح النهج الحديدي.

وقال الرازي في ص٢٩٥ من المجلد السابع:

وروي أن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة... إلى أن قال:

وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهلّلين مكبّرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الإيمان على الشمائل ما فيهم أحد إلّا ويسبّح بما لا يسبّح به الآخر...

قال الرازي: هذه الآثار نقلتها عن الكشاف. ثم قال في ص٢٩٨ من المجلّد ٧:

إعلم أن الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة أنواع من الصفات:

١ـ الربوبية ٢ـ والرحمة ٣ـ والعلم.

أما الربوبية فهي إشارة إلى الإيجاد والإبداع. وفيه لطيفة أخرى وهي: أن قولهم: ربّنا، =

٣ـ وقوله(عَزَّوَجَلَّ): ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

= إشارة إلى التربية. والتربية عبارة عن بقاء الشيء على أكمل أحواله وأحسن صفاته...

وهذا يدلّ على أن الممكنات كما أنها محتاجة حال حدوثها إلى أحداث الحق سبحانه وتعالى وإيجاده، فكذلك إنها محتاجة حال بقائها إلى إبقاء الله.

وأما الرحمة: فهي إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضرر وإنه تعالى إنما خلق الخلق للرحمة والخير لا للأضرار والشر... إلى أن قال:

وقوله: وسعت كل شيء رحمة وعلماً، يدلّ على كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليّات والجزئيات...

وأيضاً، فلولا ذلك لم يكن في الدعاء والتضرع فائدة لأنّه جاز أن يخرج عن علمه بعض الأشياء. فعلى هذا التقدير لا يعرف هذا الداعي أن الله سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه...

وعلى هذا التقدير لا يبقى في الدعاء فائدة البتة

(١) هذه هي آية ٦٨ من سورة الفرقان الواقعة في ص١٧٧ من المجلّد الرابع من مجمع البيان وفي ص٤٩٩ من المجلد السادس من تفسير الرازي.

قال في مجمع البيان عند تفسير النفس التي حرّم الله قتلها إلا بالحق:

والنفس المحرّم قتلها نفس المسلم والمعاهدة والمستثناة قتلها نفس الحربي ومن يجب قتلها على وجه القود والارتداد أو للزنا بعد الإحصان وللسعي في الأرض بالفساد...

ثم قال عند شرح قوله: ولا يزنون:

والزنا هو الفجور بالمرأة في الفرج. وفي هذا دلالة على أن أعظم الذنوب بعد الشرك القتل والزنا. وروى البخاري ومسلم في صحيحهما بالإسناد عن عبدالله بن مسعود قال: سألت رسول الله(ﷺ) أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خَلَقَك. قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك... =

أقول: وليس هذا الجزاء من الله الكريم ببعيد عمّن تاب وأقلع عن الذنب

= فأنزل الله تصديقها: والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر... إلى آخر الآية.

وذكر الرازي هذا الحديث بعينه بغير إسناده إلى الصحيحين وبإبدال تزاني حليلة جارك تزني حليلة جارك.

وقال في المجمع عند تفسير قوله تعالى: يلق آثاماً أي عقوبة وجزاءً لما فعل.

قال الفراء: أَثَمَهُ الله يأثمه أثماً وآثاماً أي جازاه جزاء الإثم.

وقال في تفسير: يضاعف الله العذاب يوم القيامة:

يريد سبحانه مضاعفة أجزاء العذاب لا مضاعفة الاستحقاق، لأنّه تعالى لا يجوز أن يعاقب بأكثر من الاستحقاق لأن ذلك ظلم وهو منفي.

وقال عند تفسير قوله: ويخلد فيه مهاناً:

وإنما قال ذلك لأنه عزّ اسمه قد يوصل الآلام إلى بعض المكلّفين لا على وجه الاستخفاف والإهانة فبيّن أنه يوصل العقاب إليهم على وجه الإهانة.

لكن الرازي عند بيان هذه الفقرة قال:

هذا... إشارة إلى ما ثبت أن العقاب هو المضرّة الخالصة المقرونة بالإذلال والإهانة كما أن الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم.

قال في المجمع ـ ومثله ما في تفسير الرازي ـ عند بيان معنى: إلا من تاب وعمل صالحاً...: أن معناه: أن يمحو السّيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة... إلى أن قال رحمه الله: واحتجّوا بالحديث الذي رواه مسلم في الصحيح مرفوعاً إلى أبي ذر ـ رضوان الله تعالى عليه ـ قال: قال رسول الله (ﷺ):

يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ونحّوا عنه كبارها. فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا أو كذا... وهو مقرّ لا ينكر وهو مشفق من الكبائر. فيقال: اعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة... فيقول أن لي ذنوباً ما أراها هاهنا... قال: ولقد رأيت رسول الله (ﷺ) ضحك حتى بدت نواجذه.

وقال طاب ثراه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

أي ساتراً لمعاصي عباده منعماً عليهم بالرحمة والفضل...

وأناب، لكن ذلك قد جعلته الآيات الفرقانية والأحاديث المباركة الزكية لمن أدّى واجب التوبة وقام بحقيقة الاستغفار.

وليست التوبة محض قول التوبة ولا حقيقة الاستغفار محض إجراء لفظه على اللّسان، بل التوبة والاستغفار، كما حدّدهما أمام المتقين وسيّد الوصيّين صلوات الله وسلامه عليه حيث قال[١] (عليه السلام) لقائل بحضرته استغفر الله:

أتدري ما الاستغفار... إنّ الاستغفار درجة العليّين وهو اسم واقع على ستّة معان:

أولها: الندم على ما مضى. والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً... والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتودّي حقّها. والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السّحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس: أن تذيق الجسم ألَمَ الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية. فعند ذلك تقول: أستغفر الله. هذا مع ما للذنوب والمعاصي من تبعات وآثار تقشعر لها الأبدان وتضطرب لها الجوارح[٢].

---

(١) ذكر ذلك العلامة القمي في ص١٢٧ من المجلّد الأول من سفينة البحار.

(٢) قال سيدنا العلامة الأجل السيد علي خان المدني(قدس سره) في ص١٢٣ عند شرح قوله(عليه السلام) في الصحيفة السجادية:

واجعل لنا في كل ساعة من ساعاته....

إشارة إلى ما ورد في الخبر: إنه يفتح للعبد يوم القيامة أربع وعشرون خزانة لساعات اليوم والليلة. فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة. فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار ما لو قسّم على أهل النار لألهاهم عن الإحساس بآلامها...

=

قال في نزهة المجالس: وقد رأيت في الأحياء: لا يكون العبد على حال إلّا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها. فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش. فربّما يرى نفسه في صورة معصية فيأخذه من الخوف ما لا يعلمه إلّا الله تعالى.

أقول: ولو كانت تلك الصورة مكشوفة لدى الملائكة ومرئية لهم على ما هي عليه حال المعصية، لكان ذلك هو الخطب الأفظع حيث يكون العبد مهتوك الستر لدى أهل الملأ الأعلى من الروحانيين والملائكة المقرّبين...

ولكن العطوف الرؤوف أبى فضله العميم وعطفه الجسيم أن يخرق على عبده الأثيم سرباله ويكشف عنه حجابه... إذ قد ورد على ما ذكره في النزهة قال:

رأيت في عقائق الحقائق إن كلّ عبد له صورة في قائمة العرش وعليها ستارة، فإذا عمل طاعة ارتفعت الستارة فتراه الملائكة. وإذا عمل معصية نزلت الستارة فلا تراه الملائكة. قال: ورأيت في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾:

إن الله تعالى يبدّل كاتب الحسنات كل يوم بغيره، وكاتب السيئات هو الحاضر لا يبدّله...

= وتفتح له خزانة أخرى فيراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها. فيناله من الهول والفزع ما لو قسّم على أهل الجنة لتنغصّ عليهم نعيمها. وتفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسوؤه ولا ما يسره وهي الساعة التي نام فيها أو غفل عن شيء من مباحات الدنيا فيتحسّر على خلوها ويناله من الغبن الفاحش ما ينال من قدر على ربح كثير ثم ضيّعه... وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ...﴾ الآية.

والإشارة في ذلك أنّ العبد يأتي يوم القيامة بشهود كثيرة للحسنات وكاتب السيئات واحد. فيقول الله تعالى: لا أقبل واحداً واترك جماعة.

ومن عميم فضله دعوته عباده المذنبين إليه وإقبالهم عليه وترغيبهم فيما لديه.

وذلك ما ذكره الصفوري الشافعي(١):

ما بال قلبك عن هوانا نازح ... هل أنت في دعوى المحبّة مازح
كم ذا تحنّ لغيرنا ولحبّنا ... في كلّ عضو منك نورٌ لائح
فارفع حجاب البعد عنك وعُد لنا ... ودع البعاد وخلّنا نتصالح
واسمح بنفسك إن أردت وصالنا ... ولئن حظيت بنا فإنّك رابح
وإذا خشيت إساءة قدّمتها ... زرنا فإنّا للمسيء نسامح

وقال أيضاً(٢):

تعرض عنّا والجناب فسيح ... وتهرب منّا إنّ ذا لقبيح
ويبدُلنا من نجوك الصدّ والجفا ... ومن نجونا ودّ لديك صحيح
وندعوك للحسنى ونمنحك الرضا ... وأنت لأسباب البعاد جموح
وكم مرّة جاءتك منّا رسائل ... وفيها خطاب لو سمعت فصيح
فيا أيّها الغصن الرطيب قوامه ... وفيه لنا سرّ يصان وروح
إليك أشرنا بالوداد فكلّما ... يعدّ قبيح فهو منك مليح

أقول: إن لنعماء الله سبحانه وفضله أبواباً كثيرة. ولكن أعظمها وأوسعها

---

(١) ذكر ذلك في ص٤٦ من المجلّد الأول من كتابه نزهة المجالس المطبوع في القاهرة.

(٢) ذكر هذه الأبيات الصفوري أيضاً في ص٤٩ من الجزء الثاني من النزهة.

باب التوبة. وكل باب من أبواب الجنّة تسدّ إلّا باب الجنّة المسمّاة بباب التوبة فإن حفظتها غير مأذونين بسدّها في كلّ أوقاتها، وذلك للتنبيه على أنّ التوبة تقبل حتى تصل الروح إلى ما لا قرار لها معه، كما ورد[1] عن النبي(ﷺ) في آخر خطبة خطبها:

من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه... ثم قال: وإنّ السنّة لكثرة من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه. ثم قال: وإن الشهر لكثير من تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه. ثم قال: وإن اليوم لكثير من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه. ثم قال: الساعة كثيرة من تاب وقد بلغت نفسه هذه وأهوى بيده إلى حلقه تاب الله عليه... انتهى وهذه هي النعمة البالغة الكبرى والرحمة الواسعة التي لا تستقصى. نعم لا بدّ من تحقيق التائب حقيقة التوبة، فإنها ليست محض القول باللسان، بل فيما لو كانت كذلك فربّما كانت ذنباً آخر يحتاج العبد إلى التوبة عنه والاستغفار منه كما لا يخفى. وقد عرفت فيما سبق ما عن أمير المؤمنين(عليه السلام) من رجوعه إلى الأمور السّتة.

لكنّ الظاهر أنّ ذلك معنى للتوبة ببعض مراتبها العالية أو أنّها ببعض الاعتبارات التي ترجع إلى الأعمّ ممّا يكون فعله مستتبعاً لاستحقاق العقوبة والنّار.

وقد قالوا في حقيقتها إنّها تنتظم من ثلاثة أمور طوليّة مرتّبة:

أولها العلم والمعرفة بضرر الذنوب وأنّها السّموم القتالة المؤدية لتفويت الحياة الحقّة، بانقطاع العبد عن ربّه وابتعاده عن السّعادة الأبدية...

---

(١) ذكر ذلك العلّامة القمي في ص١٢٧ من المجلد الأول من سفينة البحار.

وينبعث من هذا العلم الحاصل بعد فعل الذنب حال نفساني وهو انفعال النفس وتألّمها لما صدر منها من خلع ربقة الطاعة، وهي المعبّر عنها بالندم على فارط فعلها، المستلزم لإرادة ترك الذنب في الحال والعزم على تركه في الاستقبال...

ويلزمه حينئذ التلافي لما فات في الماضي بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر كقضاء الصلاة والصيام والزكاة ونحوها من حقوق الناس مثل ردّ المال إلى صاحبه أو وارثه وطلب إبراء الغيبة وتسليم النفس للقصاص إلى وليّه ليقتص منه أو ليعفو عنه، ولو لم يمكنه ذلك كان عليه أن يكثر من العبادة ليبقى له قدر الكفاية في القيامة بعد أخذ حقوقهم منها...

قالوا: والعلم الأول هو مطلع هذه الخيرات وهو عبارة عن الإيمان والتصديق بأنّ الذنوب سموم مهلكة. فإذا أشرف القلب ثار الندم الباعث على ما تقدّم.

ولكن كثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدّمة والترك كالثمرة ولذا قال النبي(ﷺ): الندم توبة.

إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه.

قال سيّدنا العلامة[1] السيد علي خان المدني بعد ذكر ما ذكرناه بنحو أبسط وأفضل:

وهذه الأمور مرتّبة في الحصول وترتّبها غير مختص بالتوبة بل انتظام الصبر

(١) ذكر هذه في ص٣١٨ من شرح الصحيفة السجادية على مؤلفها ألف الصلاة والسلام والتحية.

والشكر والتوكل والرضا. وغير ذلك من المقامات الدينية ينتظم من علم وحال وعمل. وهذه الأمور الثلاثة إذا قيس بعضها إلى بعض لاح للناظرين إلى الظواهر أن العلوم مطلقاً إنما تراد للأحوال والأحوال إنما تراد للأعمال. وأما أهل البصائر وأولو الألباب فالأمر عندهم على العكس، فإن الأعمال عندهم تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم، فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال، لأن كل مراد للغير يكون ذلك الغير لا محالة أفضل منه... ثم قال طاب مرقده:

وأما أوصاف التوبة المتمّمة لها فأربعة:

انتباه القلب عن رقدة الغفلة، والإصغاء إلى ما يهجس في الخاطر عن الصوارف والزواجر، وهجران إخوان السوء وأصحاب الشر، وملازمة إخوان الخير استضاءة بأنوارهم واستذراءً بظلالهم. وهي واجبة عقلاً وسمعاً.

أما عقلاً فلأن دفع الأضرار المهلكة القتالة المفوتة لحياة الجسد واجب...

ولا ريب أن أضرار الذنوب وتفويتها للحياة الحقة أشدّ وأعظم بما لا يتناهى من تفويت السموم للحياة الدنيوية على الجسد...

فيكون حكم العقل بوجوب دفع هذا الضرر ألزم وأوكد[1]...

وأما سمعاً: فمن الكتاب عدّة آيات بيّنات مثل:

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) قال سيدنا العلامة السيّد علي خان المدني رحمه الله ناقلاً عن الشيخ البهائي(ﺗﺘﺚ) أن نحو هذا الاستدلال للمعتزلة وهو لا يقتضي وجوب التوبة عن الصغائر ممّن يجتنب الكبائر لأنها تكفّر حينئذ، ولذا ذهب بعضهم إلى وجوبها سمعاً لا عقلاً.

ثم الاستدلال بأن الندم على القبيح من مقتضيات العقل الصحيح يعمّ القسمين.

وكقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية المباركة الآمرة بالتوبة والدّالة على الاستغفار والإنابة. وهي كثيرة جداً كما لا يخفى على كل مراجع للقرآن الكريم.

هذا كله في أصل وجوبها.

وأمّا فوريته فقد قال غير واحد من المحققين بأنّه لا ريب في وجوبها على الفور، فإنّ الذنوب بمنزلة السموم القتالة المضرّة بالبدن، وكما يجب على شارب السم المبادرة إلى الاستفراغ حفظاً لبدنه وإبقاءً عليه المشرف على الهلكة، كذلك يجب على صاحب الذنب المبادرة إلى تركه، إبقاءً لدينه المشرف على الاضمحلال.

وقد صرّح بفورية الوجوب جماعة المعتزلة، وقالوا: يلزم بتأخيرها ساعة إثم آخر تجب التوبة منه كما تجب عما قبله، حتى أن من أخّر التوبة عن الكبيرة ساعة واحدة فقد فعل كبيرتين وساعتين أربع كبائر الأوليان وترك التوبة عن كل منهما.

وهكذا قال[1] سيدنا العلامة السيد علي خان المدني طاب ثراه:

وأصحابنا يوافقونهم على الوجوب الفوري لكنّهم لم يذكروا هذا التفصيل فيما رأيته من كتبهم الكلامية.

أقول: حكى بعض المحققين عن بعض أرباب القلوب أن الناس في التوبة على أحوال:

---

(١) ذكر هذا في ص٣١٨ من شرح الصحيفة السجادية على صاحبها ألف صلاة وسلام وتحية.

١ـ رجل يسوّف بالتوبة مدافع لها اغترّ بطول الأمل ونسي هجوم الأجل. فهذا متى أدركه الموت أدركه على الإصرار فهو هالك.

٢ـ وآخر تائب ما لم يجد شهوة فإذا وجد ركب هواه وأضاع المحاسبة لنفسه. وهذا مستوجب للعقوبة من الله سبحانه.

٣ـ ورجل تائب بقلبه إلّا أن نفسه تدعوه إلى الشيء ممّا يكون. فهذا يحتاج إلى الأدب لنفسه وفائدته على قدر مجاهدته.

٤ـ ورجل مقدّم للحساب قد قام على ساق مقام الخصيم. فهذا مستوجب للعصمة من الله تعالى شأنه.

٥ـ ورجل قد هام به خوفه من ذنوبه ولم تبق فيه باقية. فهذا المتوحّد بولاية الله سبحانه.

قال سيّدنا العلامة الكبير السيد علي خان المدني(قدس سره):

قال شيخنا البهائي(قدس سره): من أهمل المبادرة إلى التوبة وسوّفها من وقت إلى وقت فهو بين خطرين عظيمين إن سلم من واحد فلعلّه لا يسلم من الآخر:

أحدهما: أن يعاجله الأجل فلا يتنبّه من غفلته إلا وقد حضره الموت وفات وقت التدارك وانسدّت أبواب التلافي وجاء الوقت الذي أشار إليه سبحانه بقوله:﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾.

وصار يطلب المهلة يوماً أو ساعة فلا يجاب إليها كما قال تعالى:

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾.

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: أن المحتضر يقول عند كشف الغطاء: يا مَلَكَ الموت أخّرني يوماً اعتذر فيه إلى ربّي وأتوب إليه وأتزوّد صالحاً.

فيقول: فنيت الأيام. فيقول: أخّرني ساعة. فيقول: فنيت الساعات. فيغلق عنه أبواب التوبة ويغرغر بروحه إلى النار ويتجرّع غصّة اليأس وحسرة الندامة على تضييع العمر، وربّما اضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال.

وثانيهما: أن تتراكم ظلم المعاصي على قلبه إلى أن تصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو... فإن كلّ معصية يفعلها الإنسان تحصل منها ظلمة في قلبه، كما تحصل من نفس الإنسان ظلمة في المرآة. فإذا تراكمت ظلمة الذنوب صارت ريناً كما يصير بخار النفس عند تراكمه على المرآة صدأ. وإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم بعضه فوق بعض، وطال مكثه وغاص في جرمها وأفسدها فصارت لا تقبل الصقل أبداً. وقد يعبّر عن هذا بالقلب المنكوس والقلب الأسود، كما روي عن الباقر(عليه السلام): ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته أن القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله. وعنه(عليه السلام): ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة البيضاء نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض. فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله(عزّ وجلّ):

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

فقوله(عليه السلام): لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً... يدلّ على أن صاحب هذا القلب لا يرجع عن المعاصي ولا يتوب منها أبداً... ولو قال بلسانه: تبت إلى الله يكون هذا القول منه مجرّد تحريك اللسان من دون موافقة القلب فلا أثر له أصلاً. كما أنّ قول الغسّال غسلت الثوب لا يُصيّر الثوب نقياً من الأوساخ.

وربّما يؤول صاحب هذا القلب إلى عدم المبالاة بأوامر الشريعة ونواهيها

فيسهل أمر الدين في نظره ويزول وقع الأحكام الإلهية من قلبه وينفر عن قبولها طبعه، وينجرّ ذلك إلى اختلال عقيدته وزوال إيمانه فيموت على غير الملّة، وهو المعبّر عنه بسوء الخاتمة نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا...

انتهى كلامه رفع في علّيّين مقامه.

ومن كلام بعضهم: اغتنموا التوبة قبل أن يصير القريب نائياً والمقيم ماضياً وقبل أن يكون المحصول ندماً والموجود عدماً وقبل أن يضرب الإدبار على المصرّين سرادق الخسار فلا إقالة عثار ولا توفيق إنابة واعتذار...

ذكر العطبي: إنه قيل لرجل عند الوفاة: قل لا إله إلا الله. فقال: آه ويلي على الشباب وفي أي زمان فقدت شرخ الشباب حين مات الغيور وارتخص المهر وغاب الحجاب عن كل باب وقيل لآخر وقد قرب خروج نفسه وانقطاع نَفَسِه: قل لا إله إلّا الله. فقال: لهف نفسي على الزمان وفي أي زمان دهتني الأزمان حين ولّى الشتاء واستقبل الصيف وطاب المرام والريحان.

واحتضر آخر فقيل له: قل لا إله إلا الله. فقال: برد الليل وطاب الماء ولذّ الشراب ومضى عنّا حزيران وتموز وآب... ثم قضى لوقته.

وقالت المرأة لرجل كان منزله قريباً من حمّام منجاب: يا رجل أين الطريق إلى حمّام منجاب؟ فأومأ إليها وأرشدها إلى طريق غيره في سكّة خراب لا منفذ لها وتبعها إليها ففجر بها. فلمّا حضرته الوفاة قيل له: قلّ لا إله إلا الله. فقال:

يا رب قائلة يوماً وقد لقيت ... أين الطريق إلى حمّام منجاب

ومات لوقته...

هكذا يدرك سوء الخاتمة وتهوي بالمخذولين مدرجة العاقبة. نعوذ بالله من

ذلك. ويكفي في الحث على التوبة حديث واحد حتى لو لم يكن سواه لكان كافياً في البعث عليها والمنع عن تسويفها، وذلك ما ذكره في ص٢٢٠ من المجلد الثاني من كتاب جامع السعادات فإنه قال: قال رسول الله(ﷺ): من مات غير تائب زفرت جهنم في وجهه ثلاث زفرات: فأولاها لا تبقى دمعة إلّا جرت في عينيه. والزفرة الثانية لا يبقى دم إلّا خرج من منخريه. والزفرة الثالثة لا يبقى قيح إلّا خرج من فمه...

فرحم الله من تاب ثم أرضى الخصماء فمن فعل فأنا كفيله بالجنّة.

قد عرفت وجوب التوبة وفوريتها غير إنها بالضرورة إنما تجب استغفاراً للذنب. فهي واجبة بالغير وللغير لا إنها واجبة لنفسها كسائر الواجبات النفسية.

ومقتضى هذا اختصاص وجوبها بأهل الذنوب، ولا تتعدّى إلى من تنزّه في ذاته عن المعصية كالأنبياء والأئمة المعصومين من الزلل المنزّهين عن الآثام. ولكن المروي عن الصادق(عليه السلام) أن رسول الله(ﷺ) وهو سيّد المعصومين كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة سبعين مرّة وفي حديث مائة مرّة... وهذا لا يندرج تحت ذلك القياس إلا أن يقال بعموم وجوب التوبة وإن كان وجوبها بالغير وللغير، نظراً إلى عدم خروج أحد عن مفهوم الحاجة إلى التوبة التي لا تجب إلّا عن ذنب حيث أن ماهية الذنوب من الماهيات المقولة بالتشكيك أو الحقائق ذوات الإضافة. وبهذا الاعتبار يصح طلب التوبة حتى من المعصوم فإنّ ما يصدر منهم مما يحتاج إلى الاستغفار منهم والإنابة، وإن لم يكن مما يستتبع التوبة لو صدر عن غيرهم، بل ربّما كان مستتبعاً للجزاء الحسن والمثوبة، إلّا أنه فيما إذا صدر عنهم ومنهم يكون ذنباً لمكان صفاء أنفسهم وعلو مقامهم...

وهذا معنى ما ورد من أنّ سيّئات الأبرار حسنات المقرّبين. ولذا قال بعض

المحقّقين: إعلم أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتّة كما قال تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وكل إنسان لا يخلو عن معصية إلا أن الأنبياء والأوصياء(عليهم السلام) ذنوبهم ليست كذنوب غيرهم وإنما هي ترك دوام الذكر والاشتغال بالمباحات... إلى أن قال:

إن الله يخصّ أولياءه بالمصائب ليؤجرهم عليها من غير ذنب، فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله. وهذا باب شريف ينفتح منه معنى اعتراف الأنبياء والأئمة(عليهم السلام) بذنوبهم وبكائهم وتضرّعهم، فلا نحتاج مع هذا البيان إلى التصرّف فيما ورد منهم من طلب المغفرة لأنفسهم والعفو عن تقصيرهم، بحمل ذلك على التعاليم لغيرهم مما يستلزم الحمل على خلاف الظاهر بل لأنهم صلوات الله عليهم لمّا كانت قلوبهم في نهاية الصفاء والنورانية فتتأثّر بالاشتغال بالمباحات والانفكاك عن الذكر والتوجه إلى غير عالم الملكوت، فيعدّ ذلك معصية بالنسبة إليهم تحتاج إلى الاستغفار عنها وإن لم تكن من سنخ المعصية المستوجبة للعقوبة والمؤاخذة بالنحو الذي يكون مرتباً على ارتكاب الخطايا والآثام بالنسبة إلى غيرهم[1]...

---

(١) ووجه آخر ذكر عن المجلسي رحمه الله في ص٢٠١ من المجلّد الثاني من سفينة البحار:

هو أنهم عليهم السلام لما كانوا في مقام الترقي في الكمالات والصعود على مدارج الترقيات في كلّ آن من الآنات في معرفة الربّ تعالى وما يتبعها من السعادات، فإذا نظروا إلى معرفتهم السابقة وعملهم معها، اعترفوا بالتقصير وتابوا منها. ويمكن أن ينزل عليه قول النبي(صلى الله عليه وآله): وإني لاستغفر الله كل يوم سبعين مرة.

ووجه آخر: إنهم عليهم السلام لما كانوا في غاية المعرفة لمعبودهم فكلّما أتوا به من الأعمال =

ثم قال طاب مرقده:

قال بعض أرباب القلوب التائبون المنيبون على أنواع:

١ـ تائب يتوب من الذنوب والسيئات.

٢ـ وتائب يتوب من الزلل والغفلات.

٣ـ وتائب يتوب من رؤية الحسنات ومشاهدة الطاعات.

وعلى هذا سئل بعضهم: أيّ الأعمال أرفع ثواباً... فأنشد:

إذا محاسني اللّاتي أدّل بها كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

كأنّه يشير إلى الحديث المشهور: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

قال سيّدنا[1] العلّامة الكبير السيد علي خان المدني(تتنّل):(تنبيه):

المراد بقبول التوبة إسقاط العقاب المترتب على الذنب الذي تاب منه... وسقوط العقاب بالتوبة مما أجمع عليه أهل الإسلام. وإنّما الخلاف في أنّه هل يجب على الله تعالى حتى لو عاقب بعد التوبة كان ظلماً أو هو تفضّل يفعله سبحانه كرماً منه ورحمة بعباده.

= بغاية عهدهم ثم نظروا إلى قصورها عن أن تليق بجناب ربّهم، عدّوا طاعتهم من المعاصي واستغفروا عنها كما يستغفر المذنب المعاصي...

ومن ذاق من كأس المحبّة جرعة شائقة لا يأبى عن قبول تلك الوجوه الرائقة. والعارف المحبّ الكامل إذا نظر إلى غير محبوبه وتوجّه إلى غير مطلوبه، يرى نفسه من أعظم الخاطئين...

رزقنا الله الوصول إلى درجات المحبّين... انتهى.

(١) ذكر ذلك في ص٣٣٧ من شرح الصحيفة السجادية المباركة.

المعتزلة على الأول، والأشاعرة على الثاني وإليه ذهب الشيخ أبو جعفر الطوسي في كتاب الاقتصاد والعلامة جمال الدين في بعض كتبه الكلامية وتوقّف المحقق الطوسي في التجريد، ومختار الشيخين هو الظاهر ودليل الوجوب مدخول... قاله العلامة البهائي في شرح الأربعين:

قال بعض الأكابر من السادة المحققين: التوبة تجب عندنا من جميع الكبائر والصغائر لعموم الآيات ولأنّ ترك التوبة من المعصية صغيرة كانت أو كبيرة إصرارٌ عليها وهو قبيح لا خلاص منه إلّا بالتوبة فهي واجبة في جميع المعاصي، ولأنّ التوبة عن القبيح إنّما تجب لكونه قبحاً وهو عام.

وذهب جماعة من المعتزلة إلى أنّها إنّما تجب من الكبائر المعلوم كونها كبائر والمظنون فيها ذلك. ولا تجب من الصغائر المعلوم كونها صغائر لأنّ التوبة إنّما تجب دفعاً للضرر، وهو غير حاصل في الصغيرة...

وردّ بأنّ وجه الوجوب هو اشتمال الصغيرة على القبح سواء اشتمل على ضرر أم لا... ثم قال: واختلف في أنّ التوبة هل تصحّ من قبيح دون قبيح وتسمّى التوبة المبعّضة أم لا...

فذهب أبو هاشم وجماعة إلى عدم الصحّة... ثم قال: وذهب الجمهور من الفريقين إلى الصّحة. إلى أن قال: قال المحقق الطوسي رحمه الله: وبه يتأوّل كلام أمير المؤمنين وأولاده(عليهم السلام) وإلّا لزم الحكم ببقاء الكفر على التائب منه المقيم على صغيرة...

وقال العلامة البهائي رحمه الله في شرح الأربعين:

الأصح صحّة المبعّضة وإلّا لما صحّت عن الكفر والإصرار على صغيرة.

وقال العلامة الحليّ (رحمه الله): ولأنّ اليهودي لو سرق درهماً ثم تاب عن اليهودية دون السرقة فإنه يكون مسلماً بالإجماع.

قال: واختلف في التوبة الموقتة مثل أن لا يذنب إلى سنة فذهب بعضهم إلى بطلانها، وبعضهم إلى صحّتها. والحق أنّ اشتراط العزم على عدم العود أبداً يقتضي بطلانها. فمن شرطه وهم الشيعة والمعتزلة قال بالبطلان. ومن لم يشترط وهم الأشاعرة قال بالصحّة. ولكن صرّح بعضهم أنّ النادم على المعصية لا يخلو من ذلك العزم البتّة على تقدير الخطور والاقتدار.

ثم قال: قال شيخنا البهائي في شرح الأربعين: العزم على عدم العود إلى الذنب فيما بقي من العمر لا بدّ منه في التوبة. وهل إمكان صدوره منه في بقيّة العمر شرط حتى لو زنا ثم جُب وعزم على أن يعود إلى الزنا على تقدير قدرته عليه لم تصحّ توبته أم ليس بشرط فتصح؟ الأكثر على الثاني بل نقل بعض المتكلّمين إجماع السلف عليه. وأولى من هذا بصحّة التوبة من تاب في مرض مخوف غلب على ظنّه الموت فيه. أمّا التوبة عند حضور الموت وتيقن الفوت وهو المعبّر عنه بالمعاينة عقد انعقد الاجماع على عدم صحّتها ونطق بذلك القرآن العزيز قال سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

وفي الحديث عن النبي(صلى الله عليه وآله): إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

والغرغرة: تردّد الماء وغيره من الأجسام المايعة. والمراد تردّد الروح وقت النزع.

وقد روى محدثو الإمامية عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) أحاديث مكثّرة في أنّه لا

تقبل التوبة عند حضور الموت وظهور علاماته ومشاهدة أهواله. وربّما علّل ذلك بأن الإيمان برهاني ومشاهدة تلك العلامات والأهوال في ذلك الوقت تصيّر الأمر عياناً فيسقط التكليف، كما أنّ أهل الآخرة لمّا صارت معارفهم ضرورية سقطت التكاليف عنهم.

قال بعض المفسرين: ومن لطف الله تعالى بالعباد أن أمر قابض الأرواح بالابتداء في نزعها من أصابع الرجلين ثم تصعد شيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى الصدر ثم تنتهي إلى الحلق. ليتمكّن في هذه المهلة من الإقبال على الله والوصية والتوبة ما لم يعاين والاستحلال وذكر الله سبحانه على لسانه فيرجى بذلك حسن خاتمته. رزقنا الله ذلك بمنّه وكرمه.

قال العلامة[1] الكبير السيّد علي خان المدني طاب ثراه:

اشترط المعتزلة في صحة التوبة ترك المعاودة لذلك الذنب الذي تاب منه أي ذنب كان.

ومنعه الأشاعرة لأنّ الشخص قد يندم على الأمر زماناً ثم يبدو له والله مقلّب القلوب.

قال الآمدي: التوبة مأمور بها فتكون عبادة وليس من شرط صحة العبادة المأتي بها في وقت عدم المعصية في وقت آخر بل غايته إذا ارتكب ذلك الذنب مرة أخرى وجب عليه توبة أخرى... انتهى.

ثم قال(ﺗﺘﺘﺘ): ذهب المعتزلة إلى أنّ المظالم شرط في صحة التوبة. فقالوا لا تصح التوبة عن مظلمة دون الخروج عن تلك المظلمة كردّ المال والاستبراء منه

---

(١) ذكر ذلك في ص٣٢٨ من شرح الصحيفة المباركة.

والاعتذار إلى المغتاب واسترضائه أن بلغه الغيبة ونحو ذلك.

وذهب أصحابنا الإمامية ووافقهم الأشعرية إلى أنّ ذلك واجب برأسه لا مدخل له في الندم على ذنب آخر.

قال الآمدي: إذا أتى بالمظلمة كالقتل والضرر مثلاً وجب عليه أمران:

التوبة والخروج عن المظلمة وهو تسليم نفسه مع الأركان ليقتص منه. ومن أتى بالتوبة فقد أتى بأحد الواجبين، ومن أتى بأحد الواجبين فلا تكون صحّة ما أتى به متوقفة على الإتيان بالواجب الآخر. كما لو وجب عليه صلاتان فأتى بأحداهما دون الأخرى.

وقال شيخنا البهائي: واعلم أنّ الإتيان بما تستتبعه الذنوب من قضاء الفوائت وأداء الحقوق والتمكين من القصاص والحدّ ونحو ذلك ليس شرطاً في صحة التوبة، بل هذه واجبات برأسها والتوبة صحيحة بدونها وبها تصير أكمل وأتمّ.

وقال العلامة الكبير السيد المتقدم:

ذهب أصحابنا: إنّ الذنب إذا لم يكن مستتبعاً لأمر آخر يلزم الإتيان به شرعاً كلبس الحرير وشرب الخمور وسماع الغناء، كفى النّدم عليه والعزم على عدم العود عليه ولا يجب سوى ذلك. وإن مستتبعاً لأمر آخر من حقوق الله أو من حقوق الناس مالياً أو غير مالي وجب مع التوبة الإتيان بها. وربّما كان المكلّف مخيراً بين الإتيان بذلك الأمر وبين الإتيان بالتوبة من الذنب المستتبع له. فحقوق الله المالية كالعتق في الكفارة مثلاً يجب الإتيان به مع القدرة. وغير المالية إن كان غير حدٍ كقضاء الفوائت وصوم الكفارة فكذلك. وإن كان حدّاً فالمكلّف مخيّر إن شاء أقرّ بالذنب عند الحاكم ليقام عليه الحدّ، وإن شاء ستره واكتفى بالتوبة فلا

حدّ عليه حينئذٍ إن تاب قبل قيام البيّنة به عند الحاكم.

وأمّا حقوق الناس المالية فيجب تبرئة الذّمة منها بقدر الإمكان. فإن مات صاحب الحق فورثته في كل طبقة قائمون مقامه، فمتى ردّه إليهم هو أو ورثته أو أجنبي متبرّع برئت ذمّته. وإن بقي إلى يوم القيامة فلفقهائنا رحمهم الله في مستحقه أقوال:

الأول: إنّه لصاحبه الأول. الثاني: إنه لآخر وارث ولو بالعموم كالإمام. الثالث: إنه ينتقل إلى الله سبحانه.

والأول هو الأصح كما دلّت عليه الرواية الصحيحة عن الصادق(عليه السلام).

وأما حقوقهم غير المالية فإن كان ضلالاً وجب الإرشاد وإن كان قصاصاً وجب إعلام المستحق له وتمكينه من استيفائه فيقول له: أنا الذي قتلت أباك فإن شئت القصاص فاقتص مني وإن أحببت العفو فأعف عني...

وإن كان حدّاً كما في القذف فإن بلغ المقذوف مثلاً وجب التمكين وإن لم يبلغه فهل يجب إعلامه به أم لا... وجهان من كونه حق آدمي فلا يسقط إلا بإسقاطه، ومن كون الأعلام تجديداً للأذى وتنبيهاً على ما يوجب البغضاء. ومثل هذا يجري في الغيبة أيضاً.

وكلام المحقق الطوسي وتلميذه العلامة طاب ثراهما يعطي عدم وجوب الأعلام.

إذا عرفت ذلك فسؤال الإمام السجاد(عليه السلام) ربّه سبحانه وتعالى أن يعوّضه من التبعات التي على النفس ويحط عنه وزرها، إنّما هي التبعات التي لا يمكن الخروج عنها إلى أصحابها إما لعجزه عن ذلك أو لنسيانه لها، كما صرح به وكذلك

ورد في الحديث:

إنّ من كانت عليه مظلمة ولم يمكنه ردّها على صاحبها والتحلل منه وسأل الله تعالى أن يقضيها عنه قضاها الله تعالى عنه وأرضى صاحبها عنه.

قال وروى ثقة الإسلام في حديث طويل منه: قال أبو عبدالله(عليه السلام):

إن الله أكرم وأعدل من أن يتقرّب إليه عبد، فيقوم في الليلة القرّة ويصوم في اليوم الحار أو يطوف بهذا البيت، ثم يسلبه ذلك[1] ويعطيه مكافآت لذي حق على ذلك المتقرب إليه. ولكنْ لله فضل كثير يكافي المؤمن.

قال العلامة المتقدم: وفي هذا الحديث دلالة ظاهرة على أنّ المكافأة والتعويض منه تعالى يكون من غير اقتصاص من حسنات العبد إذا عجز عن ردّ التبعات... والله أعلم.

قال سيدنا العلامة المتقدم رحمه الله:

يستفاد من قوله(عليه السلام): فاجعل توبتي هذه توبة لا أحتاج بعدها إلى توبة.

عدم وجوب تجديد التوبة عند تذكر الذنب خلافاً لمن ذهب إلى أنّ المتذكّر للذنب كالمقارف له فيجب عليه تجديد التوبة. قال الآمدي: يدل على بطلان ذلك أنّا نعلم بالضرورة أنّ الصحابة ومن أسلم بعد كفره كانوا يتذكّرون ما كانوا عليه في الجاهلية من الكفر ولم يجب عليهم تجديد الإسلام ولا أمروا بذلك. وكذلك في كل ذنب وقعت التوبة عنه... والله أعلم.

قال العلامة المتقدم(قدس سره): صرّح أكثر علمائنا باستحباب الغسل للتوبة بعدها سواءً كان عن كفر أو فسق وسواءً كان الفسق عن صغيرة أو كبيرة. بل صرّح

---

(١) لا يخفى أن هذه الجملة إلى قوله: المتقرب إليه... نقل بالمعنى.

الشهيد الثاني في شرح اللمعة باستحبابه للتوبة عن مطلق الذنب وإن لم يوجب الفسق كالصغيرة النادرة. وخصّه المفيد بالتوبة عن الكبائر...

قيل: ولعلّ ملحوظه أن الذنوب كلّها كبائر لاشتراكها بالخروج عن طاعة الله. وإنّما يطلق الكبر والصغر على الذنب بالإضافة إلى ما تحته وما فوقه، فالقبلة صغيرة بالنسبة إلى الزنا وكبيرة بالنسبة إلى النظر. وقد نسب الشيخ أبو علي الطبرسي رحمه الله القول بذلك إلى أصحابنا رضي الله عنهم.

أقول: وغير خفي ما فتح الله سبحانه على عباده بالتوبة من باب هي أوسع مما بين السماء والأرض بل هي أوسع أبواب رحمته التي لا يمكن تحديدها ولم يكن في الوسع توصيفها...

كيف لا... وهي الباب التي يتوسل بها إلى محو الذنوب وستر العيوب ومرضاة الرب ومسخطة العدو الألد. وهي المسلك إلى الجنان ومحل إشراق شموس المعارف الإلهية على ألواح النفوس ومورد نزول المواهب الربانية من الملك القدّوس.

قال العلامة الكبير السيد علي خان المدني: رُويَ عن أمير المؤمنين(عليه السلام) أنّه قال: «**لا شفيع أنجح من التوبة**».

هذا من ناحية كلّية فتح هذا الباب لعباده... وأما ما خصّ الله سبحانه هذه الأمة المرحومة تكريماً لنبيّه وسيّد رسله محمد(صلى الله عليه وآله) من التسهيل والتخفيف عنهم بما لم يجعله لغيرهم من الأمم. فإنّ سنّته تعالى شأنه قد جرت في التوبة عليهم بقتل أنفسهم وإراقة دمائهم لا الندم فقط، كما نطق به التنزيل في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قيل: روى أنّ موسى(عليه السلام) سأل ربّه التوبة على بني إسرائيل من عبادة العجل. فقال تعالى إلاّ أن يقتلوا أنفسهم فأمرهم موسى بالقتل فأجابوا. فأخذ عليهم المواثيق ليصبُرن على القتل. فأصبحوا مجتمعين وقد اغتسلوا ولبسوا أكفانهم كلّ قبيلة على حدّة وأتاهم هارون(عليه السلام) بالإثني عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل وبأيديهم السيوف. فتقدّم موسى(عليه السلام) وقال لهم: إنّ هؤلاء إخوانكم قد أتوكم شاهرين للسيوف فأجثوا بأفنية بيوتكم واتقوا الله واصبروا فلعن الله رجلاً حلّ حباءه أو قام من مجلسه أو مدّ إليهم طرفه أو اتقاهم بيد أو رجل، فيقولون: آمين.

وروى أن الرجل كان يبصر ولده وجاره وقريبه فلم يمكنه المضي لأمر الله فأرسل الله سبحانه ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها فجعلوا يقتلونهم إلى المساء. فقام موسى وهارون عليهما السلام يدعوان الله تعالى ويقولان: هلكت بنو إسرائيل البقية البقية يا إلهنا... فكشف الضبابة والسحابة وأوحى الله إليهما: قد غفرت ذنب من قتل وتبت على من لم يقتل...

قالوا: وكانت القتلى سبعين ألفاً.

أقول: وهكذا جرت عادته بمزيد التفضّل على هذه الأمّة المرحومة، لم يكلّفها إلّا دون وسعها ولم يحمّلها إلّا دون طاقتها، كما أعرب عن ذلك نبي الرحمة ومنقذ الأمّة بقوله(صلى الله عليه وآله): «**بعثت بالحنيفية السهلة السّمحة**»

حيث أنّه فرض على اليهود من الصلاة خمسين فريضة وأمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة، وأمرهم بقرض ما أصابته النجاسة من الثوب والجلد كالخف والفرو ولا يطهر بالغَسْل. وإذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان لهم حلالاً. قال تعالى:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾...

وحتم عليهم تعيين القصاص في العمد والخطأ من غير الدية وقطع الأعضاء الخاطئة وإحراق الغنائم وتحريم السبت. وكانوا إذا قاموا إلى الصلاة لبسوا المسوح وغلّوا أيديهم إلى أعناقهم. وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية لحبس نفسه على العبادة... إلى غير ذلك من أعباء التكاليف الثقيلة.

وقد عصم الله(عَزَّوَجَلَّ) بفضله ورحمته هذه الأمّة عن أمثال ذلك وأنزل فيهم:

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

فلذا قال(ﷺ): بعثت بالحنيفية السهلة السمحة.

تتمة مهمة

قد اشتهر وشاع وخرق الأسماع انقسام الذنوب إلى الكبائر والصغائر، وإن اختلفوا في كون انقسام الذنوب إلى القسمين هل هو بالاعتبار ولحاظ النسبة والإضافة أو أنّه بالحقيقة والذات. وقد أشرنا إلى هذا الاختلاف في طي بعض ما سلف من المقامات. والذي يخطر ببالي أنّ ما نسبه سيدنا العلامة الكبير السيد علي خان المدني طاب ثراه إلى الأصحاب هو كون القسمة المفروضة إنّما بالاعتبار والإضافة لا بالذات والحقيقة فراجع.

لكن كلام السيد العلم في العلم والعمل السيد عبدالله شبّر(قدس سره) في كتابه حق اليقين[1] ربّما يعطي خلاف ذلك. فإنّه قال(قدس سره):

وتنقسم الذنوب قسمة أخرى إلى كبائر وصغائر. ومن ذهب من الأصحاب إلى أنّ الذنوب كلّها كبائر وإنها إنّما تسمّى صغائر بالنسبة إلى ما هو أكبر منها، فهو بعيد عن الآيات والأخبار كما ستعرفه إن شاء الله.

وكيف كان فتحقيق هذا الأمر يحتاج إلى مزيد التأمّل في أدلّة الباب وفي كلمات الأعلام وما استفادوه في المقام من وحي السنة والكتاب.

والذي نحن بصدده الآن تعيين الكبائر من الذنوب كي تتعيّن الصغائر بتعيّنها فإنّ المقسم منحصر بحسب الفرض في القسمين:

قال السيّد المتبحّر في حقّ اليقين:

وقد اختلف العلماء والأخبار في تعيين الكبائر وعددها. وفي هذا الإبهام

---

(١) ذكر ذلك في ص٢٠١ من المجلد الثاني من كتابه حق اليقين في أصول الدين.

حكم لا تخفى.

١ـ فقيل: بأنّ الكبائر كلّ ذنب توعّد الله عليه العقاب في القرآن.

٢ـ وقيل: كل ذنب قرّر له الشارع حدّاً معيناً أو توعّد عليه بالعقاب.

٣ـ وقيل: كل ذنب يشعر بعدم اعتناء فاعله ومبالاته في الدين.

٤ـ وقيل: كل ذنب دلّ الدليل القطعي على حرمته.

٥ـ وقيل: كل ذنب توعّد الشارع عليه بالعقاب في الكتاب والسنّة.

وقيل: إنها سبع ١ـ الشرك بالله وجميع الاعتقادات الفاسدة المخلّة بالإيمان ٢ـ وقتل النفس المحرّمة ٣ـ ورمي المحصنة ٤ـ وأكل مال اليتيم ظلماً ٥ـ والزنا ٦ـ والفرار من الزحف ٧ـ وعقوق الوالدين.

قال: وزاد بعضهم على هذه ثلاثة عشر:

١ـ اللّواط ٢ـ والسحر ٣ـ والربا ٤ـ والغيبة ٥ـ واليمين الفاجرة ٦ـ وشهادة الزور ٧ـ وشرب المسكر ٨ـ والاستخفاف بالكعبة المعظمة ٩ـ والسرقة ١٠ـ ونقض البيعة ١١ـ والتعرّب بعد الهجرة ١٢ـ واليأس من رحمة الله ١٣ـ والأمن من عذاب الله.

قال: وزاد بعضهم على ذلك ١٤ أخرى:

١ـ أكل الميتة ٢ـ والدم ٣ـ ولحم الخنزير ٤ـ وأكل ما ذبح لغير الله من غير ضرورة ٥ـ وأخذ الرشا ٦ـ والقمار ٧ـ والبخس في الكيل والوزن ٨ـ وإعانة الظالمين على ظلمهم ٩ـ وحبس حقوق الناس من غير عذر ١٠ـ والإسراف في المال ١١ـ وصرفه في الحرام ١٢ـ والخيانة في أموال الناس ١٣ـ والاشتغال بالملاهي ١٤ـ والإصرار على المعاصي.

قال: وعن ابن عباس: إنها إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع.

الذي يظهر من أكثر الأخبار المعتبرة أن الكبيرة ما توعّد الله في القرآن على فاعلها بالنّار أو ما هدّد عليها تهديداً عظيماً وترك الفرائض المعلوم وجوبها من القرآن كالصلاة والصوم والحج والزكاة... وهذا هو الأظهر من أكثر الأخبار.

ثم إنه(ﵢ) ذكر الأخبار الواردة في المقام التي هي منشأ تشعّب الأقوال...

وحيث لا مجال لذكرها هاهنا فلتراجع لدى الحاجة.

نعم المهم بيان ما تعظم به الصغائر وتكون كبائر.

قال السيد العلامة الكبير السيد عبدالله شبّر في كتابه «حق اليقين»:

إعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

١ـ الإصرار والمواظبة.

ففي الكافي عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله(ﷺ) قال:

لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

وعن أبي بصير عنه(ﷺ) قال:

لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه.

وعن السكوني عن الصادق(ﷺ) قال: قال رسول الله(ﷺ):

من علامات الشقاء جمود العين وقسوة القلب وشدة الحرص في طلب الدنيا والإصرار على الذنب. وعن جابر عن أبي جعفر(ﷺ) في قوله تعالى:﴿**وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾: قال: الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بالتوبة فذلك الإصرار.

وقد مثلوا لذلك بالقطرات من الماء تقع على الحجر متوالية فتؤثّر فيه أكثر ممّا لو صبّ عليه ذلك الماء دفعة.

٢ـ أن يستصغر الذنب ويستحقره. فإنّ استعظام الذنب يصدر عن نفور الذنب عنه وكراهته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به. واستصغاره واستحقاره يصدر عن الألفة به، وذلك يوجب شدّة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسّيئات، ولذلك لا يوآخذ بما يجري عليه في الغفلة.

وقد روي أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره.

ففي الكافي عن زيد الشحام عن الصادق(عليه السلام) قال:

اتقوا المحقّرات من الذنوب فإنّها لا تغفر. قلت: وما المحقرات؟

قال: الرجل يذنب الذنب فيقول طوبى لي إن لم يكن لي غير ذلك.

وعن سماعة عن أبي الحسن(عليه السلام) قال:

لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلّوا قليل الذنوب فإنّ قليل الذنوب تجمع حتى تكون كثيرة.

وعن الصادق(عليه السلام) إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) نزل بأرض قرعاء. فقال لأصحابه أتوا بحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب. فقال(صلى الله عليه وآله): فليأت كل إنسان بما قدر عليه. فجاؤوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض.

فقال(صلى الله عليه وآله): هكذا تجمع الذنوب. ثم قال(صلى الله عليه وآله):

إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالباً إلا وأن طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم... وكل شيء أحصيناه في إمام مبين.

وعن أبي بصير عن الباقر (عليه السلام) قال:

اتقوا المحقرات من الذنوب فإنّ لها طالباً... الحديث.

وفي النهج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه.

وقال (عليه السلام): أشدّ الذنوب ما استخف به صاحبه.

٣ـ السرور بالصغيرة والفرح والتبجّج بها واعتداد التمكّن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة. وكلّما غلبت حلاوة الصغيرة كبرت وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى أن من المذنبين من يتمدّح بذنبه ويتبجّج ويقول المناظر في مناظراته: أما رأيتني كيف فضحته...

والذنوب مهلكات ينبغي أن يكون مرتكبها في حزن وتأسف بسبب غلبة عدوّه الشيطان عليه. والمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلّص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه. ففي عقاب الأعمال عن الصادق (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال:

من أذنب ذنباً وهو ضاحك دخل النار وهو باك.

٤ـ أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدري أنّه إنّما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً فيظن أن تمكّنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

٥ـ أن يأتي بالذنب ويظهره بعد أن يذكره بعد إتيانه، أو يأتي به في مشهد

غيره. فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي أسدله عليه وتحريك لرغبة الشرّ فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله. فهما جنايتان انضمّتا إلى جنايته فتغلّظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه وحمله عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر.

وذلك لأنّ من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السّتر...

فالإظهار كفران لهذه النعمة... وفي الكافي عن الإمام الرضا(عليه السلام) قال:

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة. والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له.

وقال الإمام الصادق(عليه السلام): «من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه، ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله عليه فنحّوه».

٦ـ أن يكون المذنب عالماً يُقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه. فلبس العالم الأبريسم والذهب وركونه إلى الظالمين وإطلاقه اللسان في الغيبة وإعراض الناس ونحو ذلك. فهذه ذنوب يُتّبع العالمُ فيها فيموت ويبقى شرّه مستطيراً في العالم مدداً متطاولة... فطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه. وفي الخبر: من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء...

وقال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ﴾...

قيل: الآثار ما تلحق الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل.

ولهذا قيل: مثل زلّة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها.

خاتمة فيها فوائد مهمة

من معالجات النفس لترغب في التوبة وتقبل على الإنابة لمحو الحوبة

قال السيد العلامة الكبير السيد عبدالله شبّر طاب مرقده في حق اليقين عند التعرض لهذا الفصل:

هي أربعة أمور:

الأول: أن ينظر إلى الآيات[1] والأخبار المخوّفة للمذنبين والعاصين وما فيهما

---

(١) أقول:

١ـ مثل آية ١٠٦ من سورة آل عمران وهو قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

٢ـ ومثل قوله تعالى في آية ٣٠ من آل عمران أيضاً:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

٣ـ وقوله تعالى في آية ٥٤ من سورة يونس (عليه السلام):

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

٤ـ وقوله تعالى في آية ٤٩ من سورة إبراهيم (عليه السلام):

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾

٥ـ وقوله تعالى في الآية الأولى من سورة الحج:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

من التهديد والوعيد على العقاب الشديد والعذاب الأكيد... ففي بعض الأخبار من طريق الجمهور عن النبي(ﷺ) قال: ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلّا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات:

يقول أحدهما: ياليت هذا الخلق لم يخلقوا.

ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا.

فيقول الآخر: ويا ليتهم إذا لم يعملوا بما علموا تابوا عما عملوا.

الثاني: حكايات المذنبين التائبين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم.

الثالث: أن يتصوّر المذنب أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقّع على الذنب، وإنّ كلّما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناية صدرت منه. قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾.

وقال الصادق(عليه السلام) في هذه الآية: ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدشة عود إلّا بذنب وذلك قول الله(عَزَّ وَجَلَّ) في كتابه: ـ

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾.

قال: وما يعفو الله عنه أكثر مما يوآخذ به.

وقال(عليه السلام): إنّ الرجل يذنب فَيُحرم صلاة الليل، وإن العمل السّيء أسرع في صاحبه من السكّين في اللّحم.

٤ـ الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا

والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد والحقد، وهو مما لا يمكن حصره... إلى أن قال: وفي الحديث: يقول الله تعالى أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي. وقال(عليه السلام): من همّ بالسيئة فلا يعملها فإنّه ربّما عمل العبد سيئة فيراه الرّب فيقول: وعزّتي وجلالي لا أغفرها لك بعد ذلك أبداً.

وقال الكاظم(عليه السلام): حقّ على الله أن لا يعصى في دار إلّا أضحاها للشمس حتّى يطهرّها. وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): إنّ العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وإنّه لينظر إلى أزواجه في الجنّة يتنعمّن.

أقول: وممّا ينفع في المقام بل يلزم فيه الاهتمام أمور أخرى.

أولها: الاجتهاد والمواظبة على مصاحبة الأخيار والتحري لكيفية سلوكهم مع الله سبحانه ومعاشرتهم ومعاملتهم مع الخلق، واستماع ما يحكى عنهم من نحو سلوكهم مع الخالق والخلق في السرّ والعلانية. واعتبار هذه الملاحظات كدروس قولية وفعلية.

واجتناب مصاحبة الأشرار والتباعد عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر منهم من مخالفة الله وغمط حقوق المخلوقين.

فإنّ للمعاشرة واستماع القصص والحكايات تأثيرات على النفس وتحريكات لقوى الخير والشر. وحيث أن قوى الشر وبواعثه في الإنسان أكثر من قوى الخير وبواعثه، يكون التباعد عن مصاحبة الأشرار واستماع حكاياتهم أحرى وأولى وأحق من التحري لمصاحبة الأخيار واستماع أحاديثهم وكيفية سلوكهم، لما عرفت من أن قوى الشر ثلاث وقوى الصلاح والخير واحدة وهي خصوص القوة العقلية الملكية.

وثانيها: الاهتمام بتثبيت تلك الملكات الصالحة إن كانت موجودة، ولإيداع

بذرتها في الأرض بعد إصلاحها إن لم تكن حاصلة بأعمال القوى في مثل ما تقتضيه تلك الملكات من تحرّي الإقدام على الأهوال وإرغام النفس على الاقتحام فيما يحمد الإقدام عليه ليكون ذلك ترسيخاً لصفة الشجاعة، فيما لو كانت وغرس بذرتها فيما لو لم تكن. وهكذا ملكة الجود والسخاء التي هي من لوازم العفّة ومقتضياتها. وهكذا الحال في ملكة العدالة وكل ملكة تكون على أن يكون ذلك كله تحت إشارات العقل وإرشاداته.

وثالثها: أن يستعمل التروي في كل فعل يريد أن يفعله أو ترك يتركه، فينظر أن ذلك الفعل هو من مقتضيات الملكات الحسنة فيلزم في شرع العقل فعله، أو من آثار الملكات السيّئة فيلزم تركه.

فإنّ التروي والتأمّل في ذلك كلّه واجب حذراً من أن يقع فيما يحرم فعله أو فيما يجب تركه. ولو غفل فصدر عنه ما لا يحسن صدوره وجب عليه أن يغضب على نفسه ويعنّفها ويعيّرها بل يكافيها على غفلتها فيكلّفها بما يشق عليها من تحمّل ما يأباه طبعها من نذر أو صيام أو صدقة، إطفاءً لثورتها وإرغاماً لشوكتها.

ومهما تساهل في شيء فلا يتساهلنّ في الجد والاجتهاد من مزاولة العلوم النافعة الموجبة لتشحيذ الذهن وتنوير الفكر، فإنّ الجهل من أعظم المهلكات والعلم من أهم المنجيات.

ورابعها: أن يحترز عمّا يثير الشهوة ويبعث الغضب رؤية وسماعاً وتخيّلاً فإن ذلك إثارة للكلب العقور... ولو ثار شيء من تلك القوى عفواً ومن قبل الصدفة والاتفاق، فليرتكب من الحلال بمقدار ما يرفع به تلك الفورة وتسكن به تلك الثورة.

وخامسها: أن يتحرى نواقص نفسه والتفتيش عن غوامض عيوبه، ولو كان

تحريه من ناحية اتخاذ محبّ صميم أو صديق حميم لا يخدعه ولا يكذبه، يجعله مرآة نفسه ويوكل إليه تحري نواقصه وعيوبه وأن ينبّهه على ما لا يحسن من مساويء الحالات وذميم الصفات، إذ حبّ النفس ربّما يعمي عن إدراك النقص من النفس...

وكذا يجعل عيوب غيره لدى الوقوف عليها كمنبّهات على تفتيش ما في نفسه من الصفات والحالات. فإن وجد شيئاً ممّا استعابه من غيره أو ممّا نبّهه عليه خلّه أو وَصَل إليه بأي وسيط كان، شمّر عن ساعد الجد وجد واجتهد في إزالة ذلك النقص وسدّ فراغه بما يشكر ويحمد.

وربّما يحصل له من العدو ما يدلّه على نقصه أكثر ممّا يحصل له من صديقه إذ الصديق ربّما يتحاشى عن إبداء نقص صديقه ولكن العدو لا يتحاشى.

فمن دلّه عدوه على نقص فيه كان حقيقاً به أن يحدث لله سبحانه شكراً حيث أنه هيّأ له طريقاً من طرق الخير، وفتح له باباً من أبواب السعادة حيث علم من نفسه النقص المؤدي إلى الهلكة، وأوصله إلى ما يرجى معه الوصول إلى ما به السعادة والنجاح.

وممّا ينفع في هذا المقام:

مراقبة النفس ومحاسبتها في كل منتهى يوم وليلة ليرى ما قد حصل له فيهما من خسارة أو ربح.

فإذا وَجَدَ ربحاً حمد الله سبحانه واستزاده في التوفيق لما هو أكثر ربحاً وأعم نفعاً.

وإن وجد خسارة فليعاتب نفسه على تفريطه وسوء صنيعه وتقصيره وتاب

إلى الله سبحانه من ذلك، وأكثر المراقبة والمعاتبة لئلا يصدر عنه مثله. واستعان على كل أموره بمولاه وربّه. ولا يخفى إن هذا نزر قليل ممّا يستعمل لمعالجة أمراض النفس. ومفصلات المعالجات وطرق المداواة بالنحو الشافي الوافي إنّما هو علم تهذيب النفس وهو علم الأخلاق المتكفل بتدوينه كتاب جامع السعادات للنراقي (تدّس) وأضرابه...

وفوق كل شيء الإخلاص لله سبحانه وصدق النية والانقطاع إليه في كل الأمور. فإنه ولي التوفيق والتسديد.

ملحق ومستدرك لموضوع التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

هاتان الآيتان الكريمتان مسوقتان للدعوة إلى التوبة والترغيب فيها والبعث إليها والحث عليها. وقد ذكر الله تعالى التوبة في فرقانه المجيد بحسب ما أحصيناه في سبعة وسبعين مورداً. وبالطبع أن مزيد الترديد لشيء يشعر بمزيد الأهميّة.

وقد ذكرت الآيتان صنفاً خاصاً من العباد ووصفتهم بصفات ووسمتهم بسمات وهي تلك السمات المذكورة فيها من كونهم لدى الغفلة والذهول عمّا يلزم الإنسان مراعاته من وظائف العبودية والوقوع في خلاف ما يجب، تذكّروا وتابوا واستغفروا وأنابوا ولم يصرّوا على ما ارتكبوا... وبالطبع إنه يقابل هذا الصنف

صنفان:

أحدهما وأولها: صنف لم تصدر منه المعصية ولا الظلم لنفسه ولا لغيره. وهذا الصنف هو الصنف الراقي من البشر وهم الرسل والأنبياء والأوصياء الأمناء صلوات الله وسلامه عليهم، الذين قد ثبتت لهم العصمة وتمركزت في نفوسهم الحكمة. وهؤلاء لعصمتهم لا يقترفون ذنباً ولا يحملون أصراً، لا لأنهم لا يستطيعون أن يعصوا فيكونوا كالمجبرين على الفعل أو الترك، فإن ذلك يمنع عن استحقاق المدح أو الذم إذ هما مرتبان على ما يكون فعله بالاختيار وتركه لا عَنْ اضطرار، وإنّما تركهم للمعصية لقوة نفوسهم ووفور عقليتهم فيقفون على ملاكات الأحكام من الحلال والحرام، فيرون الحرام الشرعي كالقذر العرفي الذي يتنفّر منه الطبع وتستقذره النفس. وهذا الصنف هو الذي تمركزت فيه القوة العقلية الملكية واستولت على القوى الثلاث الأخرى البهيمية والسبعية والشيطانية، فأثمرت بأوامرها وانزجرت بزواجرها وأحكمت فيها عدلها وإنصافها...

وإنك لو نظرت دقيقاً لعرفت أن مورد انطباق مفهوم الإنسان ومصداقه الحق إنّما هو هذا الصنف من الخلق... وأما من خرجت قواه المذكورة عن سلطان عقله وحكومته وعدله بل كان أمره على العكس من عزله العقل عن منصب العقد والحل، وجعل المحكم فيه إحدى تلك القوى الأخرى، فالأحرى فيه بل الأحق أن يكون مورد تطبيق عناوين تلك القوى من كونه سبعاً ضارياً أو كلباً عقوراً أو بهيمة سائبة أو شيطاناً متمرّداً عاتياً... فإنّ السّباع والبهائم وغيرهما لم يكونوا كذلك بأشكالهم المخصوصة وتكيّف أجسامهم بتلك الكيفيات المعروفة، وإنّما هم كذلك بنفسياتهم.

وعلى كل فالصنف الأول هو ذلك الصنف الذي عرفت أنه بصدق الإنسانية أحق وهي عليه أصدق وبه أليق.

ويقابل هذا الصنف مقابلة تامّة وهو من تصدر عنه الفحشاء والظلم بلا أن تتعقّب بتذكر أو تدبّر فأولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً.

والصنف الثالث هو مورد الآية المباركة الذي رغبته في التوبة ودعته إلى الإنابة والأوبة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾

إلماح إلى أنّ المعاصي تجمع بين القبح بالذات والقبح بالعرض. فإنّ الفاحشة من قبائح نفس الأفعال وذمائم ذات الأعمال، وهي أيضاً قبيحة بالعرض لأدائها إلى هلكة الفاعل وصدّه عن السبيل الموصل إلى السعادة الحقة والحياة الخالدة، وذلك من أظهر مراتب الظلم...

كما أنّ في إضافة الظلم إلى نفس مقترف الإثم إيماء إلى أنّ وبال اقتراف الذنب إنّما يكون عليه ولو كان ظلماً للغير أيضاً من سيد أو مالك أو غيرهما. فإنّ الظالم لغير الفاعل لا بدّ له من التدارك بأخذ الحق من الظالم للمظلوم. ولكن ظلم النفس هو الخسران الفاقد للتدارك والجبران بكلّ معاني الفقدان. كما أن هناك نكات أخرى في الآية المباركة يقف عليها المتأمّل:

من كون مورد الذم والقبح هو الفعل الصادر بالاختيار دون ما لا يكون كذلك.

ومن أنّ الذكر سواءً كان ما يقابل النسيان أو يكون بمعنى الدعاء والثناء، له شأنه الرفيع. فإن المولى من حقه أن يذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر ويطاع ولا يعصى. والحمد لله ربّ العالمين.

المحاضرة الثانية عشرة

في شيء من مقامات الرسول(ﷺ) وخصائصه وكراماته وفضل الصلاة عليه وعلى أهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(١)

أقول: عيسى هو روح الله وكلمته وهو من سادات النبيين وأفاضل المرسلين طبيب النفوس وحكيم الأبدان، الذي شاعت معجزاته وملأت الآفاق آياته يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله ويكلّم الناس في المهد ويخبر عن الغيب كهلاً... ومنه تبشيره برسالة سيّد النبيين(ﷺ) قبل ولادته بما ينوف على خمسة قرون. فإنّ ولادة عيسى(عليه السلام) تتقدم على ولادة النبي محمد(ﷺ) ٥٢٧ عاماً وعلى بعثته(ﷺ) ٥٦٧ عاماً وعلى هجرته(ﷺ) ٥٨٠ عاماً. فإن الأخبار عن حادث يقع على وفق المخبر به بعد قرون متطاولة من أعظم المعجزات المثبتة لصدق المخبر، إذ علم الغيب من

---

(١) هذه هي الآية ٦ من سورة الصف المذكورة في ص٢٧٩ من المجلد الخامس من مجمع البيان وفي ص١٩٦ من المجلد الثامن من تفسير الرازي.

خصائص عالم الربوبية الذي لم يطلع الله سبحانه عليه أحداً إلّا من ارتضى من رسول أو نحوه.

نعم وقع ما بشّر النبي عيسى(عليه السلام) من مجيء ذلك النبي الكريم(صلى الله عليه وآله) مصدّقاً بما جاء به عيسى(عليه السلام) ومن كان قبله من النبيين وما أنزل عليهم من صحيفة أو كتاب... وفي التبشير من الله سبحانه على لسان المسيح من التكريم والتعظيم للنبي محمد(صلى الله عليه وآله) ما يقصر عن أدائه القلم ويعجز عن بيانه اللسان[1]...

وفي تسميته الميمونة باسمه الميمون المنوّه عنه في الذكر الحكيم قديماً وحديثاً ما يُعرف لك عمّا تحمله نفسه الفذّة من أنواع الكمال وكرائم الأحوال بما لا يدانيها كامل ولا يطمع في إدراكها فاضل. كما قد أومأ إلى ذلك(صلى الله عليه وآله) في بعض كلماته حيث يقول(صلى الله عليه وآله):

---

(١) وفي التبشير أيضاً للأمة المسلمة بما أولاهم ربهم من نعمة تصغر لديها النعم وما خصّهم به من رحمة هي أعمّ وأتمّ وهي بعثة ذلك النبي العطوف والرسول الرحيم الرؤوف(صلى الله عليه وآله). ما يقصر البليغ عن بيانه ويعجز الكاتب عن الإفصاح عن عظيم شأنه.

وإليك حديثاً واحداً يكفيك عن أمثاله مما لا يحصى مما يتكفّل بيان ما ذكرناه من أنّه(صلى الله عليه وآله) أكمل رحمة وأعم وأفضل نعمة وأتم ما ذكره العلامة الكبير السيد علي خان المدني طاب ثراه في ص٩٢ من شرح الصحيفة.

وذلك ما روي عنه(صلى الله عليه وآله) إنه قال: جاءني جبرئيل وذاك عند تكذيب قومه له وإيذائهم له(صلى الله عليه وآله) بأشد وأعظم ما يستطيعون من الإيذاء بأنواعه المختلفة التي هي غير خفية على كل من راجع السير فقال:

يا محمد إن ربك يقرؤك السلام وهذا ملك الجبال قد أرسله معك وأمره أن لا يفعل شيئاً إلا بأمرك. فقال ملك الجبال إن شئت دمدمت عليهم الجبال وإن شئت رميتهم الحصباء وإن شئت خسفت بهم الأرض. قال(صلى الله عليه وآله): يا ملك الجبال فإني أدنى بهم لعلهم أن يخرج منهم ذرية يقولون: لا إله إلا الله. فقال ملك الجبال: كما سمّاك ربّك رؤوف رحيم.

إنّ لي مع الله سبحانه حالات لا يحتملها نبي مرسل ولا ملك مقرّب[١].

فإنّ ما يثبته له أفعل التفضيل المنقول عنه اسمه المبارك بمدلوله المطلق الخالي عن القيد والشرط من تقدّمه بالحمد لبارئ نفسه ومكوّن ذاته على كل حامد من نبيّ كريم أو ملك مقرّب عظيم، لمن أوضح الأدلة على أن المعنيّ به هو صاحب الكمال والحال الذي لا تدانيه الأقران والأمثال، للعلم القطعي بأن تلك الدرجة من الحمد لا تكون إلّا ممن بلغ مبلغاً من العلم والمعرفة، الذين هما كل الميزان في درجات القرب منه تعالى شأنه بحيث يصلح أن تتولد منه تلك الطاعة الفذّة وذلك الحمد المتفرّد...

هذا ما إذا اعتبرت الاسم الميمون مأخوذاً من المبالغة في الفاعل فإنه يكون المعنى على هذا التقدير هو الأكثر حمداً من كل ذي حمد للإطلاق بحذف المتعلّق.

وأيضاً هو صاحب تلك المنزلة الرفيعة وذلك المقام المحمود لو اعتبرته مبالغة في المفعول كما صرّح[٢] كلّ من الطبرسي والرازي باحتماله لكل من المعنيين... فإنه يكون معناه أن مسمّاه هو الأحق بالمدح والثناء من كل مستحق لهما. وإذا ما خرجنا عن الجزاف وجوّزنا وضع الشيء في غير محلّه كشف ذلك التفضيل عن أن مورده ومحلّه يجمع من الخلال وخصال الكمال ما لا يجمعها

---

(١) ذكر هذا المولى النراقي طاب ثراه في كتابه: جامع السعادات.

(٢) قال العلامة الطبرسي(قدس سره) عند شرح الآية المباركة في ص٢٧٩ من المجلد ٥ من المجمع: إن لهذا الاسم يعني أحمد معنيان:

أحدهما: أن يجعل أحمد مبالغة من الفاعل أي هو أكثر حمداً لله من غيره.

والآخر: أن يجعل مبالغة من المفعول أي يحمد بما فيه من الأخلاق والمحاسن أكثر مما يحمد غيره.

قد ذكر الرازي مثل ذلك عند ذكر الآية وشرحها في ص١٩٦ من المجلد ٨ من تفسيره.

غيره، إذ معناه أنّ مسمّاه هو الأحمد في كل صفاته وفي جميع أوقاته وحالاته.

وهذه الاستفادة من هذا المفهوم شبيهة بالاستفادة من القضايا الجليّة البيّنة. على أنك ستسمع إن شاء الله تعالى ما يذهب عنك الشك في أن ما ذكر، إنّما هو من مقتضيات تطابق الاسم والمسمّى وهو غير لازم غالباً في هذه المقامات فانتظر فأن هذا التشكيك يتجه فيما لا تكون التسمية من الله سبحانه.

ومّما شرحنا لك عمّا يقتضيه الاسم الكريم المصرّح به في الآية المباركة المتقدمة الذكر، تعرف أيضاً ما يتضمّنه اسمه الثاني الميمون المصرّح به في جملة آيات أخرى من الذكر الحكيم:

مثل قوله تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾[1]...

ومثل قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾[2]...

إلى غير ذلك من الآيات المباركة المصرّحة بهذا الاسم الكريم الذي قد أدخره الله سبحانه له في مكنون غيبه الذي لا يليق بغيره ولا يستحقّه بها له من مفهومه

---

(١) هذه الآية هي آية ٢٩ من سورة الفتح المحررة في ص١٢٤ من المجلد ٥ من مجمع البيان.

(٢) هذه الآية هي الآية الأولى من سورة محمد(ﷺ) أو سورة القتال المحررة في ص٩٥ من المجلد ٥ من مجمع البيان.

الواسع سواه، فإنّه يعرب عمّا يعرب عنه اسمه الأقدم من استحقاقه على جميع الأحوال وفي جميع الأوقات فأنّ معناه هو المحمود في الدنيا وهو المحمود في الآخرة.

ولقد أجاد سيدنا[1] العلامة الكبير حيث ذكر شرحاً وافياً في الموضوع عند بيان معنى قول سيّد الساجدين سلام الله عليه في صحيفته الغراء:

والحمد لله الذي منّ علينا بمحمّد دون الأمم الماضية والقرون السّالفة.

فقال(ﻧﺘﺌ): وفيه إشارة إلى قوله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قال: ومحمّد(ﷺ) علم منقول من الصفة التي معناها كثير الخصال المحمودة.

قال أهل اللغة: رجل محمّد أي كثير الخصال المحمودة.

قال ابن فارس: سمّي محمّد(ﷺ) محمّداً لكثرة خصاله المحمودة. معنى ألهم الله تعالى أهله تسميته بذلك لما علم من خصاله المحمودة.

أقول: ولعلّ المقصود أن الله سبحانه ألهم أهله تسميته، ليتوحّد الاسم المختار له من الله سبحانه المخزون له في علمه المدخر له في مكنون غيبه. إذ ليس مما فيه الريب أن تسمية نبيّنا(ﷺ) بهذا الاسم وكذا بالاسم المتقدم إنّما كانت من قبل الله تعالى شأنه فإنّها كانت له على رواية العسقلاني قبل خلق الخلق بألفي عام.

قال سيّدنا العلامة السيّد علي خان المدني(ﻧﺘﺌ) الشريف:

---

(١) وهو السيد علي خان المدني(ﻧﺘﺌ) في ص٦٨ من شرح الصحيفة السجادية الشريفة.

قال القسطلاني في المواهب: سماه الله تعالى بهذا الاسم قبل خلق الخلق بألفي عام. كما ورد من حديث أنس بن مالك من طريق أبي نعيم في مناجاة موسى (عليه السلام). قال السيد المتقدم طاب مرقده:

وقال السهيلي: في محمّد معنى المبالغة والتكرار. فالمحمّد هو الذي حمد مرّة بعد مرّة كما أن المكرّم من كرّم مرّة بعد أخرى، وكذلك الممدوح. واسم محمّد مطابق لمعناه والله تعالى سمّاه قبل أن يسمّى به وهو علم من أعلام نبوته أنْ كان اسمه صادقاً عليه. فهو (صلى الله عليه وآله) محمود في الدنيا بما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرر فيه معنى الحمد كما يقتضيه اللفظ... انتهى.

قال: ووردت أخبار كثيرة من طرق أهل البيت (عليهم السلام) أنه (صلى الله عليه وآله) قال:

سمّاني الله من فوق عرشه وشقّ لي اسماً من أسمائه فسمّاني محمّداً وهو محمود.

قال: وأخرج البخاري في تاريخه الصغير من طريق علي بن زيد. قال كان أبو طالب رضوان الله عليه يقول:

وشقّ له من اسمه ليجلّه   فذو العرش محمود وهذا محمّد

قال: وقال ابن قتيبة: ومن أعلام نبوّته (صلى الله عليه وآله) أنّه لم يسمّ أحد قبله باسم محمّد (صلى الله عليه وآله) صيانة من الله لهذا الاسم كما فعل بيحيى (عليه السلام) إذ لم يجعل له من قبل سميّاً... وذلك أنّه تعالى سمّاه في الكتب المتقدّمة وبشر به الأنبياء فلو جعلَ اسمه مشتركاً فيه لوقعت الشبهة. إلّا أنّه لمّا قرب زمانه وبشر أهل الكتاب بقربه سمّى قوم أولادهم بذلك رجاء أن يكون هو والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته. وكيف ما كان فالذي يظهر من روايات الفريقين أن التسمية كانت له (صلى الله عليه وآله) من قبل الله تعالى وهو الأليق بمقامه الشامخ وشأنه الرفيع. وفي ذلك من الكرامة له

والفضيلة ما لا يقبل التأمّل أو التشكيك.

أما الكرامة له(ﷺ) بذلك فسرّها واضح.

وأما الفضيلة فكذلك لما هو معلوم بيّن من أنّ طريقة العقلاء في مقام تسمية الآباء للأبناء على رعاية المناسبات بين الاسم والمسمّى، غير أنهم لّما لم يحيطوا خبراً بما يكون لذلك المولود من استعدادات وصلاحيات وطوالع وموفقيات فهم ينتخبون له اسماً من أسماء ذوي الشؤون والصلاحية ويجعلونه للمولود كتفأل بالخير ورجاء أن يطابق مسمّاه نحو مطابقة الاسم المستعار لمسمّاه المستعار منه الاسم... هذا إذا كانت التسمية ممّن تُستر عنه العيوب. أما إذا كانت التسمية من عليم لا يجهل وحكيم لا ينطق إلّا بالحق وخبير لا يتكلم إلّا بالصدق، كان مقتضى التناسب المرعي له هو التطابق بين الاسم والمسمّى مدلولاً ومفهوماً. وعلى هذا فحيث تكون التسمية لسيّد الأنبياء(ﷺ) من الله سبحانه بذلك الاسم المبارك الكريم محمّداً كان أو أحمد عرفنا بأنّه(ﷺ) هو المحمود على كلّ حال من أحواله والمستوجب للثناء والمدح على كل خصاله.

ويتقارب الاسمان المباركان فيما يحكيان عنه من خصائص المسمّى بناءً على اعتباره فعل تفضيل مبنيّاً للفاعل...

وأما لو كان مبنيّاً للمفعول فيكون بمعنى الأكثر حمداً وتقديراً لمستحق الحمد، كما لعله الأرجح في النظر، لا سيّما وكلا التسميتين من الله سبحانه ليكون هذا كاشفاً عن مقامه الرفيع في العبودية والطاعة، وذاك كاشفاً عن مقامه المنيع في الكمال ومكارم الأخلاق والخصال كما كان سيّد النبيين(ﷺ) كذلك.

إذ لا ريب أنّ من عرف مقامه الأمنع وشأنه الأرفع مما ذكره علماء الفريقين من المسلمين لا يستكثر ذلك في سيّد النبيين(ﷺ).

هذا وقد وشحنا المقال في بيان الحال للنبيين والمرسلين(عليهم السلام) أجمعين وتفوقهم على الملائكة المقربين في الجزء الثاني من هذا الكتاب في المحاضرة المعدّة لإثبات أفضلية الأنبياء على الملائكة الأمناء. واستنتجنا أفضلية الرسول(صلى الله عليه وآله) على كافة المخلوقين بالأقيسة الصحيحة البديهية الإنتاج. فليراجع ذلك المقام وليعطى حقّه من النظر. بل ليس التفضيل له(صلى الله عليه وآله) فحسب إذ قد يعمّ أهل بيته الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين الذين أذهب الله عنهم الرجس وحكم لهم بالتطهير في كتابه المبين. وكيف لا يكونون كذلك وهم الغاية من إيجاد الخلق ومنتهى الوسائل إلى الحق.

قال سيدنا[1] العلامة الكبير السيد علي خان المدني(قدس سره):

واعلم أن نعم الله سبحانه وإن كان إحصاؤها مستحيلاً كما قال تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي...

والأول قسمان: وهبي وكسبي... والوهبي أيضاً قسمان:

روحاني كنفخ الروح فيه وإمداده بالعقل وما يتبعه من القوى المدركة فإنّها مع كونها من قبيل الهدايات، نِعَم جليلة في نفسها.

وجسماني كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الأعضاء.

والكسبي كتخلية النفس عن الرذائل وتحليتها بالفضائل كالأخلاق السنية والملكات البهيّة وتزين البدن بالهيئات المطبوعة والحلي المرضية وحصول الجاه

(١) ذكر ذلك في ص٢٦ من شرح الصحيفة السجادية المباركة.

والمال.

والثاني مغفرة ما فرط منه والرضا عنه وتبويئه في أعلى عليّين مع الملائكة المقرّبين.

ولكل من الجنسين أصل... أصل الدنيوي الوجود والحياة المستتبعة لكل المنافع.

وأصل الأخروي الإيمان المستلزم لجميع الخيرات والسعادات.

إذا عرفت ذلك فمحمّد(ﷺ) وأهل بيته(عليهم السلام) سبب لكل واحد من هذين الأصلين...

أما الأخروي الذي هو الإيمان فظاهر.

وأما الدنيوي الذي هو الوجود فلأنهم السبب في وجود الخلق، لأن الأرض وما فيها إنّما خلقت لأجلهم وهم غاية ذاتية لخلقها كما ورد عنهم عليهم الصلاة والسلام إنه قال(ﷺ): لولا أنا وأنت يا علي ما خلق الله الخلق...

وبيان ذلك إجمالاً:

أنه تعالى جعل كل ما هو أشرف وأعلى في الموجودات سبباً كمالياً وعلّة غائية لما هو أخس وأدنى فخلق الأرض للنبات والنبات للحيوان والحيوان للإنسان، كما قال تعالى مخاطباً للإنسان: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾.

وآخر درجة الإنسان هو غاية هذه الأكوان هو الإنسان الكامل الذي هو سلطان العالم الأرضي وخليفة الله في الأرض وهو محمد(ﷺ) وبعده أهل بيته الأئمة المعصومين واحداً بعد واحد... ولذلك ورد عنهم(عليهم السلام):

«لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت».

لأنها إنما خلقت لأجله وكلما خلقت لأجل شيء فمتى لم يكن، لم يكن ذلك الشيء... فظهر أنّ محمداً(ﷺ) وأهل بيته صلوات الله عليهم نعمة الله التي لا يوازيها شيء من نعمه لأنها أصل لكل نعمة وسبب كل إحسان[1]...

أقول: وناهيك بسيد بلغ رفعة وشأناً إن السادة من الأنبياء والقادة من المرسلين يطلبون الفوز بمحبّته والحشر في زمرته وأن يكونوا من أمّته(ﷺ).

قال سيدنا العلامة الكبير المتقدم في جملة ما قال:

كان الأنبياء والمرسلون فضلاً عن أممهم يتمنّون بأن يكونوا من أمّته ويسألون

---

(١) وقريب من هذا ما حكاه(قدس سره) في ص٥٧ من شرح الصحيفة عن بعض المحققين قال (رحمه الله):

قال بعض العلماء: لما كان الغاية القصوى من إيجاد العالم والمقصد الأسنى من خلق بني آدم ليس إلا وجود خليفة الله في أرضه والعالم الرباني في عباده، وهو الثمرة العليا واللباب الأصفى من شجرة الكون المشتملة على الدنيا والعقبى ليس إلّا، وسائر الأكوان إنما خلق من فضالته حاجته إليها من ضرورات تعيشه بها واستخدامه إياها.

كما قال تعالى في الحديث القدسي مخاطباً صفوة خلقه(ﷺ):

خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي

وقال تعالى في حديثه القدسي: [لولاك ما خلقت الأفلاك]

وعنه(ﷺ):

«يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنّة ولا النّار ولا السماء ولا الأرض».

ولعل المخلوقات العالية والسافلة كلها مسخرة للإنسان مطيعة له، كما قال سبحانه:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾.

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أشار سبحانه إلى تسخيره لنا الكواكب والحيوانات والنباتات والجمادات، فكأنّ غير الإنسان خلق للإنسان، والإنسان للكامل، والكامل للأكمل. والأكمل لله سبحانه وتعالى.

الله أن يجعلهم منهم...

كما وردت الأخبار المستفيضة من طرق الشيعة الإمامية وأهل السنة والجماعة... فمن ذلك ما رواه رئيس المحدّثين في كتاب معاني الأخبار بإسناده عن أبي عبدالله(عليه السلام) أنه كان فيما ناجى الله تعالى به موسى(عليه السلام) أن قال له:

يا موسى لا أقبل الصلاة إلا ممن تواضع لعظمتي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري ولم يبت مصرّاً على الخطيئة وعرف حق أوليائي وأحبّائي.

فقال: يا ربّ تعني بأحبّائك وأوليائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب...(عليهم السلام).

فقال تعالى: هم كذلك يا موسى إلّا أني أردت مَنْ مِنْ أجله خلقت آدم وحواء ومَن مِن أجله خلقت الجنة والنار... فقال موسى(عليه السلام): ومن هو يا رب؟ قال تعالى:

محمّد أحمد شققت اسمه من اسمي لأني أنا المحمود.

فقال يا رب اجعلني من أمته... قال تعالى: يا موسى أنت من أمّته إذا أنت عرفته وعرفت منزلته ومنزلة أهل بيته.

والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

وأما من طريق العامة:

قال: واخرج أبو نعيم في الحلية عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال:

إن موسى لما نزلت عليه التوراة وقرأها وجد فيها ذكر هذه الأمة. فقال يا ربي إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون فاجعلها أمّتي...

قال الله تعالى: تلك أمة محمد...(صلى الله عليه وآله).

قال: يا رب أني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها ظاهراً

فاجعلها أمّتي...

قال تعالى: تلك أمة محمد...(ﷺ).

قال: يا رب إني وجدت في الألواح أمة يأكلون الفيء فاجعلها أمّتي...

قال تعالى: تلك أمة أحمد...(ﷺ).

قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بالحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجلها أمتي...

قال تعالى: تلك أمة أحمد...(ﷺ).

قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت سيئة واحدة. فاجعلها أمتي.

قال تعالى: تلك أمة أحمد...(ﷺ).

قال: يا رب إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والآخر، ويقتلون الدجّال لعنه الله. فاجعلها أمتي.

قال تعالى: تلك أمّة أحمد...(ﷺ).

قال: يا رب اجعلني من أمة أحمد...(ﷺ)... فأعطي عند ذلك خصلتين.

فقال تعالى:(يا موسى إني أصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)... قال: قد رضيت يا رب.

قال: والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً.

أقول: ولا ريب أن في هذا من التكريم والتجلّة لهذه الأمة مما لا يحيط به البيان، غير أن هذا كله ببركات سيّد النبيين(ﷺ) ومن تكريمات سيد

المرسلين(ﷺ)، وإلا فالأمة لو أريد منها المعنى الظاهر فهي من حيث هي لا يُظَن في أنها تقصر في التخلّف عن الطاعة والتفسخ في الأخلاق، وعدم الانتظام في الأعمال والأفعال عمّا كانت عليه الأمم السابقة، من التمرّد وخلع ربقة العبودية الحقّة عن الأعناق، ما لم نقل بأنّها قد تجاوزت عن ذلك بدرجات. لا سيّما في مثل هذه العصور التي هي في تعبير أهل الغرور عصور النور، التي الأحق والأليق بها أن تسمى بعصور الاستهتار والفجور... وأظهر عصر لانطباق قوله تعالى شأنه:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾.

كيف وقد أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، يستهان بالصلاة والزكاة والآمرين بهما والفاعلين لهما، ويستهجنون النكير والإنكار على مرتكب الخمر والقمار وغيرهما من جرائم الأعمال.

نعم درجاته(ﷺ) العالية ومقامه المحمود الذي لم يصل إليه ملك كريم ولا نبي عظيم، أوصل الأمّة إلى تلك الفيوض التي تقاصرت عنها الأمم السابقة وأتباع الرسل الأقدمين... هذا لو كان الأمر كما أومأنا إليه آنفاً مراداً به ما هو الظاهر منه على علّاته وأخذ مفهوم الأمة على إطلاقه.

أما لو قلنا بوجوب تقييده، كما ليس ببعيد، فيختص ذلك التكريم بمستحقّيه ممّن جرى مجرى الرسول(ﷺ) وآله(ﷺ) وجرى على منواله، كما ربّما يقتضيه قوله تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾... حيث أفادت تلك الآية الكريمة وجه الخيرية لها، وهي كانت مضافاً إلى إيمانها آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، بعد أن يكون ذلك شرطاً لكل فرد من أفراد الأمة. إذ الأمة إنما تتكون من الفرد ولازمه أن لا خير في أي فرد منها لم يكن آمراً بالمعروف ومؤتمراً به وناهياً عن المنكر ومنتهياً عنه. وعلى هذا

فيخرج في الغربال خلق كثير.

وكيف ما كان فلا ريب في أن الله سبحانه خصّ نبيّه محمداً(ﷺ) بتكريمات لم تعرف لأحد من الأنبياء(عليهم السلام). ومنها ما اقتضاه قوله عزّ اسمه في قرآنه الكريم وفرقانه الحكيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا...﴾ من التكريم والتجلّة والتعظيم ما يقصر عنه سجود الملائكة كلهم أجمعين لأبي البشر خليفة الله في الأرض تكريماً له وتعظيماً... فإن سجود الملائكة جميعاً وفيهم سادتهم المكرّمون كجبرئيل وميكائيل والكروبيين من حملة العرش ومن حوله، فيه من إظهار الشرف والفضل ما يقصر العقل عن الإحاطة به والانتهاء إلى منتهاه...

لكن أين هو من هذا التعظيم والتكريم الذي كان بفعل الله سبحانه وفعل ملائكته وفعل صالح المؤمنين. فإنّ معنى الآية إن الله سبحانه يعتني بإظهار شرف نبيّه(ﷺ)، والملائكة تعتني بإظهار فضله وأن المؤمنين من البشر وهم خيرة أهل الأرض مأمورون بالاعتناء بإظهار شرف النبوة والإعلان عن رفيع شأن الرسالة.

ولعمرك هذا شيء عظيم يعجز الواصف عن توصيفه وأهل البيان عن تحديده والإفصاح عنه.

وبهذا المضمون من التفضيل ما ذكر عن الاحتجاج عن موسى بن جعفر عن آبائه(عليهم السلام) أن يهودياً سأل أمير المؤمنين(عليه السلام) عن معجزات النبي(ﷺ) في مقابلة معجزات الأنبياء. فقال: هذا آدم أسجد الله له ملائكته فهل فعل بمحمّد شيئاً من هذا؟ فقال علي: لقد كان ذلك. ولكن اسجد الله لآدم ملائكته... فإنّ سجودهم لم يكن سجود طاعة، إنّهم ما عبدوا آدم من دون الله عز وجل، ولكن اعترافاً لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له... ومحمد(ﷺ)ـ أعطي ما هو أفضل من هذا، إن الله

جلّ وعلا صلّى عليه في جبروته والملائكة بأجمعها وتعبّد المؤمنين بالصلاة عليه. فهذه زيادة له يا يهودي. ذكرت هذه الرواية في ص١٢٦ من المجلّد الأول من كتاب: الميزان في تفسير القرآن... ومن التكريمات المختصّة به والتي لا تعرف لغيره، ما جعله الله سبحانه من اللطف والكرامة التي لا يحيط بها الوهم ولا يدركها الخيال، لمن أظهر شرف ذلك النبي الكريم بالصلاة عليه(ﷺ) والتسليم لديه. وذلك ما ورد في فضل الصلاة عليه(ﷺ). ففي الخبر الصحيح أنه من صلّى على النبي(ﷺ)ـ صلاة واحدة صلى الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة، ولم يبق شيء ممّا خلقه الله إلا صلى على العبد لصلاة الله وصلاة ملائكته، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته.

كما أنه قد ورد أيضاً أنه ما من شيء أثقل في ميزان الحسنات من الصلاة على محمد. فإنه قال أحد الصادقين الباقرين(عليهما السلام):

إن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج(ﷺ) الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فترجح. وفي هذا الحديث إيماء إلى نقطة مهمة وهي أن الصلاة عليه(ﷺ) مدّخرة عنده. ومقتضاها إنها تعرض عليه وتؤدي إليه فتكون مخزونة عنده(ﷺ). وناهيك في ذلك فضلاً.

والصلاة عليه(ﷺ) وإن كان معناها طلب تعظيمه من الله سبحانه في الدنيا بإعلاء كلمته وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتضعيف مثوبته والزيادة في رفع درجته، إلّا أنّ غاية الدعاء بذلك عائدة إلى المصلي، لأن الله تعالى قد أعطاه(ﷺ) من إعلاء الكلمة وعلوّ الدرجة ورفع المنزلة، ما لا يؤثر فيه صلاة مصلّ ولا دعاء داع... فرسول الله(ﷺ) على هذا في الدرجة التي ليس فوقها درجة، والمنزلة التي لا يمكن أن تفوقها منزلة. وهذا وإن كان صحيحاً من حيث إنه ليس فوق منزلته

منزلة تكون لأحد سواه[١] لكن مزيد الخيرات التي تكون عند الله ليس لها حدّ محدود كي يمتنع تأثير الدعاء في حقّه(ﷺ)، ومعه لا مانع من أن تكون الغاية في الدعاء له(ﷺ) طلب زيادة كماله وقربه من الله. فإن مراتب النعم وموارد التكريم من الله جلّ شأنه غير محصورة ولا متناهية.

وأيّاً ما كان فضلها ومهما كانت غايتها، اشتركت بينه(ﷺ) وبين المصلّي أو اختصت، فإن أمرها عظيم وشأنها جسيم. كيف وقد جعلت جزءاً لأفضل الطاعات وأهم الواجبات وهي الصلاة المكتوبة، التي هي عمود الدين وعماد الأعمال التي إن قبلت قبل ما سواها وإن ردّت ردّ ما سواها، والتي من استخفّ بها عملاً لا قولاً وجحوداً أَوْشَكَ أن يموت على غير دين المسلمين، كما ذكر ذلك سيد المرسلين(ﷺ) عندما نظر أعرابياً خفّ في صلاته ولم يترو في ركوعه وسجوده. فقال(ﷺ):

لأن مات هذا وهذه صلاته ليموتن على غير ديني.

فإن الصلاة عليه(ﷺ) أخذت في التشهد الصلاتي جزءاً واجباً عندنا في التشهّدين، وعند الشافعي واجب في الثاني ومستحب في الأول. وإلى إيجابه في

---

(١) قال الصفوري الشافعي في ص٨٨ من المجلد الثاني من نزهته:

ذكر ابن الجوزي أن الله تعالى أوحى إلى محمد(ﷺ) بأن كل أحد يطلب رضاي وأنا أطلب رضاك.

قال النسفي: قال موسى(عليه السلام): يا ربّ أنا كليمك ومحمد حبيبك. فما الفرق بين الكليم والحبيب؟...

فقال تعالى شأنه: الكليم يعمل برضا مولاه والحبيب يعمل مولاه برضاه. والكليم يحب الله والحبيب يحبّه الله. والكليم يأتي طور سيناء ثم يناجي والحبيب ينام على فراشه فيأتي به طرفة عين إلى مكان لم يبلغه أحد من المخلوقين...

الصلاة يشير بقوله:

يا آل بيت رسول الله حُبّكم فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

ومستحب فيهما عند مالك وأبي حنيفة.

وهذا الخلاف في الإيجاب والاستحباب بالنسبة إلى الصلاة عليه(ﷺ) في خلال الصلاة... وأما عند ذكره(ﷺ) فالطحاوي من أهل السنّة والجماعة والمقداد وابن بابويه من الشيعة الإماميّة على وجوبها. وعن الزمخشري إن ذلك مورد الاحتياط. وفي قول آخر أنها تجب في كل مجلس مرة. وفي قول ثالث أنها تجب في العمر مرة.

والمستند لأصل المسألة أخبار:

مثل قوله(ﷺ):

من ذكرت عنده ولم يصلّ عليّ دخل النار.

ومن ذكرت عنده فنسي الصلاة عليّ خطئ به طريق الجنة.

ومن ذكرت عنده ولم يصل عليّ فدخل النار فأبعده الله.

ومثل ما رواه في الكافي في باب بدء الآذان والإقامة بإسناده إلى أبي جعفر(عليه السلام): قال إذا أذّنت فأفصح بالألف والهاء، وصلّ على النبي(ﷺ) كلما ذكرته أو ذكره ذاكر في الآذان وغيره.

وقول الصادق(عليه السلام): إذا ذكر النبي(ﷺ) فأكثروا الصلاة عليه... إلى غير ذلك مما يقف عليه المتتبع.

هذا فيما إذا ذكر(ﷺ)...

وأما أصل الصلاة عليه(ﷺ) فمستحبة عند جميع أهل الإسلام بلا خلاف، إلا الكرخي فإنّه نسب القول إليه بالوجوب في العمر مرة...

ولكن لا يذهب عليك تفاوت درجات الاستحباب واختلاف أثره زيادة وشدّة.

وظاهر بعض ما أسلفناه من الأخبار كون الصلاة عليه(ﷺ) في أعلى درجات الاستحباب. وماذا يقول القائل في فضل فعل يستتبع الصلاة على فاعله من الله سبحانه في ألف صف من الملائكة. ويتبعه صلاة كافة المخلوقات عليه كما صرّحت بذلك رواية الكافي المارّة التي نصّها أنّه:

من صلّى على النبي(ﷺ) صلاة واحدة صلى الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة. ولم يبق شيء مما خلقه الله إلا صلّى على العبد لصلاة الله وصلاة ملائكته...

فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته.

هذا ولا يفوتن عليك ما للصلاة عليه(ﷺ) من الخير الكثير والتأثير في نجح المطالب وحصول الرغائب المسؤولة من الله سبحانه للنشأتين. لما ورد عن أبي عبدالله(عليه السلام) أن رجلاً دخل المسجد فصلى ركعتين ثم سأل الله عز وجل. فقال رسول الله(ﷺ): عجّل العبد ربّه وجاء آخر فصلى ركعتين ثم أثنى على الله عز وجل وصلى على النبي(ﷺ). فقال رسول الله(ﷺ): سل تعط.

وعنه(عليه السلام) إن في كتاب علي(عليه السلام) الثناء على الله والصلاة على رسوله(ﷺ) قبل المسألة.

وعن ثقة الإسلام في الكافي عن أبي عبدالله(عليه السلام): لا يزال الدعاء محجوباً

حتى يصلي على محمد وآل محمد.

وعنه(عليه السلام): من دعا ولم يذكر النبي(صلى الله عليه وآله) رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبي(صلى الله عليه وآله) رفع الدعاء.

وعن أمير المؤمنين(عليه السلام) في نهج البلاغة:

إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على النبي(صلى الله عليه وآله) ثم اسأل حاجتك. فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي أحدهما ويمنع الأخرى.

قال سيدنا العلامة الكبير السيّد علي خان المدني(١):

قال العلماء: والسر في قبول الدعاء إذا اقترن بالصلاة أمران:

الأول: إن النبي(صلى الله عليه وآله) وآله(عليهم السلام) وسائط من قبل الله سبحانه وبين عباده في قضاء حوائجهم ونجاح مطالبهم. وهم أبواب معرفته عز وجل، فلا بدّ من التوسّل بذكرهم في عرض الدعاء عليه وقبوله لديه، وذلك كما إذا أراد أحد من الرعية إظهار حاجته على السلطان توسّل بمن يعظّمه ولا يرد قوله.

الثاني: إذا ضمّ العبد الصلاة مع دعائه وعرض المجموع على الله تعالى. والصلاة غير محجوبة فالدعاء غير محجوب، لأنه تعالى أكرم من أن يقبل الصلاة ويردّ الدعاء فيكون قد قبل الصحيح وردّ المعيب.

أقول: وهذا الأخير مأخوذ مما ذكرناه آنفاً عن مولانا أمير المؤمنين(عليه السلام) ونقلناه عن محكي النهج. وهذا كلّه قليل من كثير مما يتعلّق بسيد النبيين بل سيّد الخلائق أجمعين. صلوات الله وصلوات وملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين

---

(١) ذكر ذلك في ص٦٧ من شرح الصحيفة السجادية الشريفة.

وعباده الصالحين وكافة أهل السموات والأرضين عليه وعلى آله الهداة المهديين[١]...

ولسيدنا العلامة الكبير المتقدم ترجمة تعلّق بسيّد النبيين(ﷺ) منذ ولادته إلى يوم وفاته(ﷺ). وهي ترجمة قليلة الألفاظ كثيرة الفوائد. ها نحن نذكرها هاهنا

---

(١) فائدة

ذكر سيدنا العلامة الأكبر السيد علي خان المدني في ص٨٦ من شرح الصحيفة وجه الاكتفاء في عطف الآل على محمد(ﷺ) من دون إعادة الجار في مقام الصلاة عليه وآله كان يقول:(ﷺ)، ولا يقول: وعلى آله... فقال طاب ضريحه:

إن العطف على الضمير المجرور من دون إعادة الخافض، مبني على مذهب الكوفيين ويونس والأخفش من البصريين. واختاره الشلوبين وصححه ابن مالك وأبو حيّان، وجرى عليه ابن هشام في شرح الشذور والتوضيح لثبوت ذلك في فصيح الكلام، كقراءة حمزة: واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، بخفض الأرحام عطفاً على الضمير المخفوض بالباء.

وحكاية قطرب: ما فيها غيره وفرسه. بخفض الفرس عطفاً على الهاء المخفوضة بإضافة غير إليها. وقول الشاعر:

فاذهب فما بك والأيام من عجب

بخفض الأيام عطفاً على الكاف المخفوضة بالباء.

وإلى ذلك أشار ابن مالك بقوله في الخلاصة:

وعود خافض لدى عطف على ... ضمير خفض لازماً قد جعلا

وليس عندي لازماً إذ قد أتى ... في النثر والنظم الصحيح مثبتا

وأما ما زعمه بعضهم من أن الشيعة تلتزم عدم إعادة الخافض وهو على في مثل هذه العبارة حديث يأثرونه وهو: من فصل بيني وبين أهل بيتي بعلى فقد جفاني... فزعم محض لا عين له ولا أثر. إذ لا يعرف الشيعة هذا الخبر ولم ترد به رواية من طرقهم، ولم يذكروه منقطعاً في شيء من كتبهم. كيف لا والأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام مشحونة بإعادة الخافض في مثل ذلك. كما ستقف عليه مكرراً في الصحيفة. انتهى

بألفاظها أو بما لا يخل في المعنى المقصود، تتميماً للفائدة.

قال(ﺗﺪﺱ ﺳﺮﻩ):

وهو أبو القاسم محمد(ﷺ) بن عبدالله بن عبدالمطلب خاتم النبيين وسيّد المرسلين(ﷺ). حملت به أمّه في أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى ليلة الجمعة. وهي آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة. ولد(ﷺ)ـ بمكّة يوم الجمعة عند طلوع الشمس السابع عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل[1].

وعند جمهور أهل السنّة والجماعة أنه(ﷺ) ولد يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ثم اختلفوا:

١ـ فقيل: لليلتين خلتا منه.

٢ـ وقيل: لثمان خلون منه.

٣ـ وقيل: لعشر.

٤ـ وقيل: لاثني عشر ليلة. وعليه أهل مكة في زيارتهم موضع مولده(ﷺ) في هذا الوقت ووافقهم على ذلك من أصحابنا ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني في الكافي.

٥ـ وقيل: لسبعة عشر وفاقاً لما عليه جمهور الشيعة.

٦ـ وقيل: ولد يوم عاشوراء.

٧ـ وقيل: في صفر.

---

(١) قال في مجمع البحرين: وعام الفيل قبل مبعث النبي(ﷺ) بأربعين سنة.

٨ـ وقيل: في ربيع الآخر.

٩ـ وقيل: في رجب.

١٠ـ وقيل: في شهر رمضان...

وروى عن ابن عباس بإسناد لا يصح. وهو موافق للقول بأنّ أمه(ﷺ) حملت به في أيام التشريق[1]...

وأما على المشهور بأنه ولد في ربيع الأول فيلزم منه الإشكال المشهور: وهو أنّه يلزم مدّة حمله ثلاثة أشهر أو سنة وثلاثة أشهر...

وهذا مخالف لما اتفق عليه الأصحاب من أن مدّة الحمل لا تزيد عن سنة... ولم ينقل عن أحد أنّ ذلك من خصائصه(ﷺ).

والجواب: إن المراد بأيام التشريق الأيام المعلومة من شهر جمادى الأول وقع فيه حج المشركين في عام الفيل، باعتبار النسيء حيث كانوا يؤخرون الحج من ذي الحجة فيحجّون سنتين في محرّم وسنتين في صفر وهكذا إلى أن يتم الدّور ثم يستأنفونه. وعلى القول بأنّ مولده(ﷺ) كان في ثاني عشر ربيع الأول تكون مدّة الحمل عشرة أشهر بلا زيادة ولا نقصان إذا فرض أنّ حمله(ﷺ) كان في ثاني عشر من شهر جمادى الأولى والله أعلم.

---

(١) قال في ص٤٠٢ من مجمع البحرين العلامة الطريحي رحمه الله:

وأيام التشريق أيام منى وهي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر بعد يوم النحر.

أقول: ومن هنا يعرف وجه الإشكال المومأ إليه في المتن بناءً على كون ولادته(ﷺ) في ربيع الأول إلا بالتصرف والتأويل.

في بيان ما قيل في: طالعه الميمون

ونقل عن أبي معشر البلخي وهو من مهرة علم النجوم أنه استخرج طالع النبي(ﷺ) فكان عشرين درجة من الجدي حين كان زحل والمشتري في ثالث درجة من العقرب مقترنين في درجة وسط السماء والمرّيخ في بيته في الحمل والشمس أيضاً في الحمل في الشرف والزهرة في الحوت في الشرف وعطارد أيضاً في الحوت والقمر في أول الميزان والراس في الجوزاء في الشرف والذنب في القوس في الشرف في بيت الأعباء. ذكر ذلك في روضة الأحباب.

ومات أبوه عبدالله بن عبدالمطلب وهو ابن شهرين أو سبعة أشهر.

ولما بلغ أربعاً أو ستاً من السنين ماتت أمه.

وكان في حجر جدّه عبدالمطلب ثمان سنين وشهرين وعشرة أيام.

فتوفي عبدالمطلب ووليه عمّه أبو طالب(عليه السلام)، وذهب به إلى الشام بعدما تم له اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام. ورجع من بصرى وخرج إلى الشام مرة أخرى مع ميسرة غلام خديجة في تجارة لها قبل أن يتزوجها.

ثم تزوجها بعدما بلغ خمساً وعشرين سنة وبقيت معه ثمان عشرة سنة.

ولمّا بلغ خمساً وثلاثين شهد بناء الكعبة.

ولمّا بلغ(ﷺ) أربعين سنة. بعثه الله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، يوم الاثنين لثمان خلون أو ثلاث بقين من شهر ربيع الأول.

فما من شجر ولا حجر إلّا وسلّم عليه قائلاً:

السلام عليك يا رسول الله.

وفرض عليه التبليغ وقراءة القرآن.

ولمّا تمّت له إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر أسري به فدنا فتدلّى فكان قوب قوسين أو أدنى. وفرض عليه خمس صلوات.

ولمّا بلغ ثلاثاً وخمسين هاجر إلى المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول ودخلها ضحى الاثنين.

وأذن له في الجهاد في السنة الثانية لمن ابتدأه في غير الأشهر الحرم. ثم أبيح له ابتداءهم فيها أيضاً. وفيها فرض صوم شهر رمضان.

واختلفوا في الزكاة هل فرضت معه أو بعده.

وفرض الحج في الخامسة والسادسة. وفي الخامسة كانت بيعة الرضوان(1)...

وفي الثامنة فتح مكّة وأظلّت عليه حمامها يومئذٍ فدعا لها يومئذٍ بالبركة.

وفي العاشرة حجّة الوداع وكانت وقفة عرفة فيها يوم الجمعة بالإجماع.

ولم يحجّ(ﷺ) إلّا إيّاها وقبلها لم يضبط واعتمر أربعاً.

وكانت غزواته سبعاً وعشرين وسراياه ستاً وخمسين. وقيل غير ذلك.

وتزوج إحدى وعشرين امرأة. طلق ستاً وماتت عنده خمس.

وتوفي(ﷺ) عن عشر، واحدة منهن لم يدخل بها.

---

(١) قال في ص٣٤٥ من كتاب: مجمع البحرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾

قال المفسّر: المراد بيعة الحديبية. وهي بيعة الرضوان بايعوا رسول الله(ﷺ) على الموت. وقال في ص١٠٥: وقد تكرر في الحديث ذكر الحديبية بالتخفيف عند الأكثر. وهي بئر بقرب مكة على طريق جدّة دون مرحلة. ثم أطلق على الموضع. يقال: نصفه في الحل ونصفه في الحرم.

وأولاده(ﷺ) ستة، ذَكَران وهما القاسم وإبراهيم. وأربع بنات وهنّ فاطمة سلام الله عليها وزينب ورقية وأم كلثوم. وكلّهم من خديجة إلّا إبراهيم فمن مارية القبطية.

هذا المتفق عليه واختلف فيما سوى هؤلاء.

ولمّا بلغ(ﷺ) ثلاثاً وستين. وقيل: خمساً وستين، اختار الرفيق الأعلى يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة. وقيل: اثنتي عشرة خلت من أول ربيعي السنة المذكورة.

ودفن(ﷺ) ليلة الثلاثاء أو الأربعاء في حجرته التي قبض فيها.

هذه نبذة مما ذكره أرباب السير.

وفي كون وفاته(ﷺ) يوم الاثنين ثاني عشر أول الربيعين مع كون وقفة عرفة يوم الجمعة في السنة العاشرة... أشكال يعرف بالتأمّل.

انتهى ما أفاده(تدّس) من الترجمة المومأ إليها.

والحمد لمالك الحمد ووليه. والصلاة على نبيه والعترة الطاهرة من ذريته(ﷺ).

المحاضرة الثالثة عشرة

في التذكير والإرشاد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أقول: يتحمّل العقد الأول من السورة المباركة أن تكون مسوقاً للتوبيخ والتقريع على ما ربّما يكون من الإنسان من الاشتغال بما لا يعنيه ولا يعود عليه بما ينفع بل يعود عليه بخلافه، لأنّ الاشتغال بعمل مفوّت للاشتغال بعمل آخر.

فالله سبحانه البار بعباده العطوف بهم ينبّههم على ما فيه خيرهم ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم من المواظبة على ما ينفعهم والمجانبة عمّا لا يعنيهم أو لا يجديهم.

وحيث أن التكاثر في الآية وهو التفاخر إنّما يكون بما يؤدي إلى السعادة لنفسه. وأنواع ما به السعادة قد يكون متعلّقاً بالنفس وقد يكون متعلّقاً بالبدن وقد يكون متعلّقاً بما يكون خارجاً عن النفس والبدن. ولكنّه مرتبط بهما نحو ارتباط الأعراض بمعروضاتها.

١ـ أمّا ما به السعادة المرتبط بالنفس فإنّما هو العلم النافع والأخلاق الفاضلة. فإنّهما هما المؤدّيان إلى السعادة الحقة والفوز بالحياة السعيدة الخالدة المؤبّدة.

إذ أنهما لا ينفكّان عن الدين ولا ينفك الدين عنهما.

٢ـ وأمّا ما به السعادة البدنية فهو تكامل قوى البدن والصحة وحسن الصورة والهيئة. وما جرى مجرى ذلك من كمالات البدن.

٣ـ وأمّا ما به السعادة الخارجة عن النفس والبدن المرتبطة بهما بنحو من الارتباط فكثرة المال والأولاد وسعة العشيرة ووفور الأصدقاء وكبرة الجاه.

ولا ريب أن المرتبة الثالثة إنّما تكون مرادة لأجل النفس والبدن. ولولاهما لم يكن لها شأن في نفسها. ولذا تراه يجعل تلك الجهات المذكورة فداءً للنفس والبدن عند الحاجة والدوران.

كما أنّه لا ريب أن المرتبة الثانية إنّما يطلبها العقلاء والفضلاء، ليتوصلوا بها إلى السعادة النفسية. فإنه ما لم يكن صحيح البدن لا يستطيع الوصول إلى ما به السعادة النفسية.

فإن هذا هو الذي يقتضيه العقل وتقتضيه الحكمة.

قال بعضهم: مرّ الاسكندر على قرية فخرج ينظر في قبور أهلها. فرأى قبراً مشيداً فنظر في تاريخ وفاته. فإذا مكتوب على صخرة القبر: إن هذا الميت قد عمّر شهرين في الدنيا. فاستغرب ذلك وهو كون ابن شهرين يهتم في أمره وتشييد قبره. فتركه ونظر في تاريخ قبر آخر فإذا هو لا يتفاوت عن ذلك العمر إلّا بيسير، فازداد عجبه. ولم يزل يستقصي قبراً فقبراً. فيراه على ذلك المنوال بتفاوت يسير فاستغرب

ذلك جداً وفكر في نفسه كيف يكون أهل هذه البلاد هذه أعمارهم. وإن كانت كذلك فما معنى هذا الاهتمام بقبورهم. فلم يجد بدّاً من السؤال عن ذلك. فسأل بعض السكان عن ذلك. فقالوا: نعم نحن لا نعدّ عمر الإنسان إلّا العمر الذي يصرف فيما يعود على المجتمع الإنساني بفائدة. وأمّا ما يصرفه الإنسان من عمره في فوائده الشخصية وعلى الأخص الدنيوية لا نعدّه من عمره. فلذا ترى الأعمار قصيرة بهذا الاعتبار. وهذا هو الحق الذي ينبغي إليه أن يصار.

وكيف كان. فالعقد الأول من السورة المباركة ينذر بمثل ذلك، أعني أن يفني الإنسان عمره فيما لا فائدة فيه. ويذمّ التارك للسعي فيما يعنيه ويعود عليه بالعوائد ومهم الفوائد حتى تنتهي أيامه ويأتيه حمامه، ويصل إلى المحل الذي لا عمل فيه يرفع ولا دعاء يسمع. الذي أول تلك المواطن هي تلك الأماكن الضيقة.

وهذه السورة المباركة وإن كانت بلسانها الظاهر واردة مورد الذّم والتنديد والوعيد والتهديد، إلّا أن ذلك كلّه بداع النصح والإرشاد ما دام الإنسان في فسحة من المجال وسعة من إصلاح الأعمال، حيث التوبة تنفع والعمل يرفع والدعاء يسمع.

ولا شبهة في أن هذا النصح والإرشاد له أهميته وعظمته فيما لو صادف أسماعاً صاغية وقلوباً واعية.

ذكر بعضهم عن بعض الصالحين أنه رأى صبياً على باب مدرسة يبكي. فسأله عن ذلك. فقال: كتب لي المعلّم في اللوح سطراً أبكاني. فقلت له: ما هو؟ قال:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد بعد تهديد وتخويف بعد تخويف يخوّف عباده.

فقلت له: أخّر بكاءك إلى غد. فإنّه يكتب لك أبلغ من هذا، هو قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

فاضطرب الصبي الطالب وسقط ميّتاً.

فوثب إليه من في المدرسة من طلّاب ومعلّمين. وقالوا لي: أنت قتلته. ثم أخبروا أهله فرفعوني إلى الخليفة. فقصصت عليه القصّة. فقال الخليفة:

لقد أسرع الصبي الصالح إلى منازل السعداء.

أقول: هكذا تؤثر الإرشادات والنصائح في القلوب الصالحة الزكية النقيّة، لا سيّما في قلوب الشباب التي بعد لم تتلوّث بأجرام المعاصي. فإنها بعد صحائف نقية بيضاء. لم تصم أسماعها ولم تعم عيونها بالآثام وعظائم الموبقات.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

فأنظر هذا القلب الطاهر الزكي، كيف تأثّر بموعظة الله سبحانه وكيف صعق عند ذكر الجحيم الذي تكفلته تلك الآيات المباركة.

أمّا نحن وقد ارتطمنا في الذنوب ثم ارتطمنا، فلذا لا نتأثر بإرشادات القرآن الكريم ونصائحه. ولا بتهديدات المرشدين ولا بنصائحهم ولا بتخويفهم من ذلك العذاب الذي لا تقوم له السموات والأرض.

هذا المرشد العظيم بعد القرآن الكريم علي أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه يقول في ضمن ما يقول في بعض إنذاراته وعظاته:

واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار فارحموا نفوسكم فإنكم قد جرّبتموها في مصائب الدنيا.

أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء تحرقه. فكيف إذا كان بين طابقين من نار ضجيع حجر وقرين شيطان.

واعلموا أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطّم بعضها بعضاً لغضبه.

وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته.

أيها اليفين[1] الكبير الذي قد لهزه القتير[2] كيف أنت إذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق ونشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد.

فالله الله معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السُقم وفي الفسحة قبل الضيق...

إلى آخر ما ذكره(عليه السلام).

---

(١) اليفين: الشيخ الكبير.

(٢) القتير: الشيب.

المحاضرة الرابعة عشرة

فيما أعد للمحسنين من الإحسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

ظاهر قوله تعالى: للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة، أخبار عنه تعالى شأنه بمكافآت المحسنين بالإحسان. والتكفل بإثابة المطيعين بما فيه الرحمة والرضوان. وأنّه لا يقتصّر في المثوبة على صرف ما يقتضيه العمل بل يكون الأجر مضاعفاً. فتكون الحُسنى من الله سبحانه بمقابلة الإحسان من العبد. والزيادة منه تعالى شأنه تفضّلاً.

ولعلّ الآية المباركة بهذا الاعتبار تكون بمفاد قوله تعالى شأنه:

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

وكقوله تعالى:

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾.

وبالجملة إن الآية المباركة اشتملت على ألفاظ يحتاج بعضها إلى الشرح

---

(١) هذه الآية هي الآية ٢٦ من سورة ١٠ المسماة سورة يونس.

والبيان.

أمّا قوله: للذين أحسنوا: فمعناه لفاعلي الإحسان. ومن الواضح: أن لفظ الحسن يتناول كل ما يحسن ويستحسن. ولا ريب أنّ أظهر موارده فعل الطاعات وترك المنهيّات. بل منحصر في ذلك. إذ ما من شيء مستحسن من فعل أو ترك إلّا وهو داخل تحت الأمر به، أو النهي عنه الذي معناه إرادة تركه. فإذن لا غرو في أن يفسّر قوله تعالى: للذين أحسنوا بالذين امتثلوا أوامر الله سبحانه واجتنبوا منهياته جل وعلا.

ولا يلزم من هذا الإطلاق خروج من اقتصر على فعل الواجب وترك الحرام، نظراً إلى تفسير الفعل الحسن بموافقة الأمر والنهي المتناولين للمستحب والمكروه، لكون الفعل الحسن من الماهيّات المقولة بالتشكيك فتكون متناولة أيضاً لمن اقتصر على فعل الواجب وترك الحرام باعتبار أنّه مرتبة من مراتب الفعل الحسن المنسوب إلى فاعله.

وأمّا قوله: الحسنى...

فقد قال الرازي عند ذكر الآية المباركة:

الحُسنى تأنيث الأحسن. والعرب توقع هذه اللفظة على الحالة المحبوبة والخصلة المرغوبة فيها ثم قال: وقال صاحب الكشاف: المراد المثوبة الحُسنى.

وقال في مجمع البيان:

للذين أحسنوا الحُسنى: ومعناه للذين أحسنوا العمل وأطاعوا الله تعالى في الدنيا جزاءً لهم على ذلك، الحالة الحُسنى والمنزلة الحُسنى وهي الحالة الجامعة للّذات والنعيم على أكمل ما يكون وأفضل ما يمكن وهو تأنيث الأحسن.

قال: وزيادة... ذكر في ذلك وجوه:

أحدها: أن الحُسنى الثواب المستحق. والزيادة التفضل على قدر المستحق على طاعتهم من الثواب. وهي المضاعفة المذكورة في قوله: فله عشر أمثالها... كما ذكرنا ذلك في أول المطالب.

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾:

أي لا يلحق وجوههم سواد... ثم قال:

وروى الفضيل بن يسار عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): ما من عين ترقرقت بمائها إلّا حرّم الله ذلك الجسد على النّار فإن فاضت من خشية الله لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلّة.

فقد جعل هذا الحديث المبارك سلامة الوجه من السواد يوم المحشر وخلوصه عن الذلّة، من آثار البكاء خشية من الله ووجلاً منه وخوفاً من سخطه. وإن كان ربّما يفترق الخوف عن الخشية في المعنى ببعض الاعتبارات.

قال العلامة الطريحي طاب مرقده في مادة خشى:

وفي بعض مؤلفات المحقق الطوسي رحمه الله ما حاصله: إن الخشية والخوف وإن كانا في اللغة بمعنى واحد إلّا أن بين خوف الله وخشيته في عرف أرباب القلوب فرقاً: وهو أنّ الخوف تألم النفس من العقاب المتوقع بسبب ارتكاب المنهيات والتقصير في الطاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق وإن كانت مراتبه متفاوتة جدّاً. والمرتبة العليا منه لا تحصل إلّا للقليل. والخشية حالة تحصل عند الشعور بعظمة الحق وهيبته وخوف الحجب عنه. وهذه حالة لا تحصل إلّا لمن اطلع على خال الكبرياء وذاق لذّة القرب. ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

فالخشية خوف خاص. وقد يطلقون عليها الخوف أيضاً... انتهى.

ثم إنّ الله سبحانه بفضله ولطفه لمّا بيّن ما صان عنه وجوه أهل الطاعة من الذل والهوان وقبح المنقلب. وما أعدّ لهم من الخير الكثير الذي يكون فوق حدّ الاستحقاق. بيّن في أنّ ذلك الخير المعدّ لهم الذي لا يحيط به الوصف ولا يدركه الوهم، ليس مما يعتريه الانقطاع أو يعرضه الخراب. فقال تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وفي هذا البيان أعظم تبشير للمطيعين. حيث أعلمهم بأنّ نعيمهم متصل غير منقطع. وهذا العلم الحاصل من هذا التبشير أفضل من نفس دخول الجنّة، لأن التنعّم في الجنّة مع احتمال انقطاع نعيمها عنه، من أكبر المنغصّات بخلاف ما إذا علم بأنّه لا ينقطع من نعيمها ولا ينقطع نعيمها عنه. فإنّ ذلك من أعظم المريحات.

والأمر بالعكس على العاصين كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين(عليه السلام) في بعض كلماته. وعلى كل لم يزل القرآن الكريم يدعو إلى الجنّة ونعيمها. ويعرّف ما فيها من الخيرات. وكذلك أولياء الله المعربون عنه الداعون إليه سبحانه... هذا أمير المؤمنين(عليه السلام) خطبُهُ مشحونة في الدعوة إلى الجنّة والترغيب فيها وإليها. ومن ذلك قوله في بعض خطبه القيمة: سبحانك خالقاً معبوداً بحسن بلائك عند خلقك. خلقت داراً وجعلت فيها مأدبة مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصوراً وأنهاراً وزروعاً وثماراً.

ثم أرسلت داعياً يدعو إليها فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغّبت إليه رغبوا ولا

فيما شوّقت إليه اشتاقوا. أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبّها. ومن عشق شيئاً أغشى بصره وأمرض قلبه. فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة. قد خرقت الشهوات عقله. وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه. فهو عبد لها ولمن في يده شيء منها. حيث ما زالت زال إليها، وحيث ما أقبلت أقبل عليها. ولا ينزجر من الله بزاجر ولا يتعظ منه بواعظ. وهو يرى المأخوذين على الغرّة، حيث لا إقالة ولا رجعة. كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون. وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون. فغير موصوف ما نزل بهم. اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت...

إلى آخر ما ذكره صلوات الله عليه وعلى أبنائه الطاهرين. من فقرات الخطبة التي يقصر اليراع عن وصفها ويعجز البلغاء عن أن يؤدوا ما تستحق من الثناء.

ومنها ومن أمثالها تعرف عظمة أمير المؤمنين(عليه السلام) وعلمه الفذ الذي فاق علم الأولين والآخرين غير ابن عمه سيد المرسلين بل سيد الخلائق أجمعين(صلى الله عليه وآله). إذ لم يعهد من أحد قبله من الأنبياء الصالحين والعباد المخلصين ما يساوي هذا العلم الغزير الذي تحتار فيه العقول وتذهل منه الألباب. كيف لا. وهل تعهد من أحد هذه المعرفة التي هي فوق علم الملائكة المقرّبين...

ألا تنظر إلى ما صدّره في أول هذه الخطبة المباركة من قوله صلوات الله وسلامه عليه:

من ملائكة أسكنتهم سمواتك ورفعتهم عن أرضك. هم أعلم خلقك بك وأخوفهم لك وأقربهم منك. لم يسكنوا الأصلاب ولم يضمّنوا الأرحام ولم يخلقوا من ماء مهين. ولم يشعّبهم ريب المنون. وأنهم على مكانهم منك ومنزلتهم عندك

واستجماع أهوائهم فيك وكثرة طاعتهم لك وقلة غفلتهم عن أمرك. لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقّروا أعمالهم ولرزوا على أنفسهم ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك ولم يطيعوك حق طاعتك... إلى آخر ما ذكرناه من الخطبة.

وهل ترى أن هذا القول يعقل أن يكون صادراً عمّن هو دون أولئك الموصوفين بالقصور عن إدراك عظمة بارئهم أو أنّه يساويهم وهو يقول: لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقّروا أعمالهم... إلى آخر ما ذكره(عليه السلام) مما يتعلق بالمقام.

وكيف لا يكون أمير المؤمنين(عليه السلام) كذلك. وهو صاحب الكلمة التي لم تصدر عن غيره. وهي قوله: لو انكشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً.

التي معناها أنه في منتهى درجات الإيمان التي لا تقبل التفاضل.

ونحن وإن خرجنا عن الموضوع غير أن كلام أمير المؤمنين(عليه السلام) ما ترك مجالاً للخروج عنه من دون التنبيه على عظمته وعظمة منشأه صلوات الله عليه وعلى أبنائه الطاهرين.

وكيف كان فقد أشارت الآية المباركة إلى ما أعدّه الله سبحانه للمطيعين. وما التزمه بوعده الصادق للمحسنين من الزيادة على ما يستحقون. بما لا يحيط بعلمه إلا من أعلمه الله سبحانه ذلك. فإن كلّما يسمعه أو يتصوره من خيرات الجنّة ونعيمها يكون دون واقع الأمر بدرجات. كما أشار أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى ذلك في بعض المقامات.

المحاضرة الخامسة عشرة

في الموت وبعض شؤونه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه مخاطباً لنبيّه وسيد رسله(ﷺ): ﴿وَمَا[1] جَعَلْنَا لِبَشَرٍ[2] مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3].

---

(١) هذه الآية هي آية ٣٤ من سورة الأنبياء وموقعها من تفسير مجمع البيان ص٤٥ من الجزء ٤ وص١٥٠ من الجزء السادس من تفسير الرازي... وهي السورة ٢١ من القرآن الكريم. وعن فضائل القرآن وآثاره: إن من قرأ سورة الأنبياء حباً لها كان ممن يرافق أجمعين في جنات النعيم وكان مهيباً في أعين الناس في الحياة الدنيا... هذا ملخص ما هناك. وأول السورة المباركة بعد البسملة: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾... وإنما اقترب لأن بعثة النبي(ﷺ) من أشراط الساعة. وتحقق شرط الشيء مقرب لتحقق المشروط... وحسابهم المقترب عن نعمائه هل شكرت وعن أوامره هل امتثلت وعن منهياته هل تركت...

(٢) قال في مادة: بشر من مجمع البحرين:

البشر الإنسان الواحد والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء. وقد يثنّى وبه جاء التنزيل: بشرين مثلنا... والجمع البشر. وسمي البشر بشراً لظهورهم.

(٣) قال في ص١٤٣ من مجمع البحرين:

وقد تكرّر الميّت والميت بالتشديد وعدمه. وفرق بينهما بعضهم فقال: يقال في الحي ميّت =

أقول: الظاهر أن الجعل المنفي هاهنا هو الجعل بمعنى القضاء والتقدير. وهو ما قضاه الله سبحانه وقدّره بمقتضى علمه وحكمته. المبني عليها قضاؤه وتقديره للأشياء، الذي أثبته في اللوح المحفوظ الذي قد دلّت عليه الآثار. وأنّه ما من شيء كائن إلّا وهو موجود في ذلك اللوح.

وليس هذا ما يستغرب من علم الله وإحاطته. فإنّ علمه تعالى شأنه وإحاطته في كافّة الأشياء الكائن منها وما سوف يكون علم حضور وإحاطة شهود. فهو العالم بعدد الأنفاس وما تضمره الحواس ويعلم ما في البرّ والبحر ولا تسقط ورقة إلّا بعلمه ولا تنقلب ظهراً لبطن إلّا في قبضته.

ثم إن في الآية المباركة إيماءين آخرين:

أحدهما: التلميح إلى أن أحداً لو قدّر له الخلود في الدنيا تكريماً واحتراماً وتعظيماً لكنت يعني الرسول محمّداً(ﷺ) أنت ذلك الواحد. فلو قدّر الخلود لأحد لكنت يا محمد أنت أول من قدّر له ذلك، إذ إنك الأحق بالتكريم والأليق بالتعظيم. وهو كذلك بعد أن كان(ﷺ) الغاية من إيجاد الخلق والمقصد من تكوين الكون.

= بالتشديد لا غير. واستشهد بقوله تعالى: إنك ميت وإنهم ميتون. أي سيموتون. وقد جمعها قول القائل:

ليس من مات واستراح بميت ... إنّما الميّت ميّت الأحياء

الموت ضد الحياة. يقال: مات الإنسان يموت موتاً. ويقال: مات يمات من خاف... إلى أن قال: والموت والحياة خلقان من خلق الله تعالى. فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان لم يدخل في شيء إلا وخرجت منه الحياة. فروي أن الملائكة يموتون بعد موت الإنس بأسرهم. والخلود هو دوام البقاء يقال خلد الرجل يخلد خلوداً خلده الله وأخلد بالمكان أقام به وخلد أيضاً وبابه قعد ومنه جنة الخلد أي دار الإقامة.

كما أعرب عنه الحديث القدسي الموجّه إليه(ﷺ) من قوله تعالى شأنه:

خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي.

وقوله تعالت عظمته: لولاك لما خلقت الأفلاك.

وقوله(ﷺ):

يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم وحواء ولا الجنّة ولا النّار ولا السماء ولا الأرض[1].

وإذا لم يقدر البقاء ولم يقض بالخلود لمن كان منشأ الإيجاد كان عدم تقدير ذلك لمن دونه أخرى.

وثانيها: التلويح إلى ما هو صريح آيات لا تحصى وأحاديث لا تستقصى، من أن الدنيا دار فناء وزوال وتحول وانتقال. دار عبور وممّر لا دار بقاء ومقر. كما نصّ عليه سيد الوصيّين وإمام الموحّدين بعد سيّد النبيين والمرسلين صلى الله عليهما وآلهما.

ولذا يجب الاعتقاد والإقرار بأنّ كل حي سوى الله سبحانه يموت. كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

وكما في قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

وإن الموت زينة للبشر كما أومأ إلى ذلك الشهيد الأول والسبط الثاني الإمام الحسين(عليه السلام) بقوله: خط الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة.

---

(١) ذكر هذه الأحاديث الثلاثة العلامة الكبير السيد علي خان المدني(قدس سره) في ص٢٧ من شرح الصحيفة المباركة.

وإنه على مقتضى الحكمة. فإن الدنيا لا تصلح أن تكون دار مجازاة للمطيعين ولا دار مكافأة للعابدين. لأن راحتها مشوبة بالتعب ونعيمها محفوف بالنصب. وإنّما دار النعيم المقيم هي الدار الأخرى. وأنها محل الحياة الحقّة والسعادة الكبرى الصادقة. وهي التي اختارها لأوليائه وأهل طاعته وأحبائه. التي وصفها لهم بأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ولكن لا يتوصل إليها بالكسب بل بالتشمير والجد في العمل فإنه الزاد ليوم المعاد.

وما بين الإنسان والجنان بل والنيران إلّا الموت[1]. فإنه أمّا أن يأتي بخير لا شرّ معه أبداً وأمّا بشرّ لا خير معه أبداً. إذ أنّه قنطرة أهل النعيم إلى نعيمهم وجسر أهل الجحيم إلى جحيمهم.

كما يقول الرسول الأمين(ﷺ) وقول سبطه الكريم لأصحابه وخيرة أحبابه:

ما الموت إلّا قنطرة يعبر بكم من البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائم. فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر. وما هو لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر إلى سجن.

وهذا الموت هو أول العقبات لبعض كما هو أول الخيرات لبعض آخر، على

---

(١) قال العلامة القمي رحمه الله في ص٢٥ من الجزء الأول من كتاب: الكنى والألقاب:

من كلام علي بن الحسين(عليه السلام): مسكين ابن آدم له في كل يوم ثلاث مصائب لا يعتبر بواحدة منهن. ولو اعتبرها لهانت عليه المصائب وأمر الدنيا.

أما المصيبة الأولى: فاليوم الذي ينقص من عمره. قال: وإن ناله نقصان من ماله اغتم به. الدرهم يخلف عنه والعمر لا يرده شيء.

والثانية: إنه يستوفي رزقه. فإن كان حلالاً حوسب عليه وإن كان حراماً عوقب عليه.

والثالثة: أعظم من ذلك. قيل وما هي؟ قال(عليه السلام):

ما من يوم يمسي إلا وقد دنا من الآخرة مرحلة. لا يدري على الجنة أم على النار.

ما وردت به الرواية من أهل الدراية. فعن صادق آل محمّد سلام الله عليهم حين قال له قائل: صف لنا الموت. فقال:

هو للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فينعش لطيبه فينقطع التعب والألم كله عنه. وللكافر كلذع الأفاعي وكلسع العقارب وأشدّ...

ومثل قول أبي ذر رضوان الله عليه المغترف من بحرهم والمرتوي من عذب مائهم(عليه السلام) حين قال له قائل: ما لنا نكره الموت؟ فقال رحمه الله برحمته الواسعة:

لأنكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة. فتكرهون أن تنتقلوا عن عمران إلى خراب. فقيل له: كيف ترى قدومنا على الله...؟ قال: أمّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله. وأمّا المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. قيل: فكيف حالنا عند الله؟ قال عليه الرحمة: اعرضوا أعمالكم على الكتاب. إن الله(عزّ وجلّ) يقول: أن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم. قال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال: إن رحمة الله قريب من المحسنين.

والمستفاد من المروي عن أمير المؤمنين(عليه السلام) كما في حق اليقين:

إن من كان من أهل الطاعة تولّت قبض روحه ملائكة الرحمة. ومن كان من أهل المعصية تولّى قبض روحه ملائكة العذاب والنقمة. فإن الفريقين أعوان ملك الموت وكلّهم يأتمرون بأمر الله سبحانه وبقوله يعملون[1].

---

(١) فائدة في بيان انتفاع ما يهدى إلى الأموات من الصلاة والصيام وغيرهما.

فمما ينبغي أن يعلم ما ذكره العلامة القمي طاب ثراه في ص١٦٩ من المجلد الأول من سفينة البحار قال(رحمه الله): قال السيد ابن طاووس في كتابه المسمى بغياث سلطان الورى لسكّان الثرى. الثاني عشر ما رواه الحسن بن محبوب في كتاب المشيخة عن الصادق(عليه السلام) إنه قال: يدخل على الميت في قبره الصلاة والصيام والحج والصدقة والبر والدعاء. قال: ويكتب أجره للذي يفعله وللميت. =

وقال في الكتاب المذكور أن إبراهيم(عليه السلام) قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض فيها روح الفاجر. قال: لا تطيق ذلك. قال(عليه السلام): بلى. قال: فاعرض عني فاعرض عنه ثم إلتفت، فإذا هو برجل أسود قاتم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فمه ومناخره لهب النّار والدخان. فغشي على إبراهيم(عليه السلام) ثم أفاق. فقال:

لو لم يلق الفاجر عند موته إلا صورة وجهك لكان حسبه.

ويكفي المتفكر المعتبر قول صاحب النهج السوي في نهجه صلوات الله عليه وعلى أبنائه الطاهرين: فإنكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم وسمعتم وأطعتم. ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا وقريب ما يطرح الحجاب. ولقد بصّرتم إن أبصرتم وأسمعتم إن سمعتم وهديتم إن اهتديتم.

وبحق أقول لكم لقد جاهرتكم العبر وزجرتم بما فيه مزدجر. وما يبلّغ عن الله بعد رسل السماء إلّا البشر. قال شارح النهج المعتزلي في ص٩٩ من المجلّد الأول من شرحه عند شرح هذه الكلمات:

= وقال العلامة القمي المتقدم: وهذا الحسن بن محبوب يروي عن ستين رجلاً من أصحاب أبي عبدالله(عليه السلام). وروى عن الرضا(عليه السلام). وقد دعا له الرضا(عليه السلام) وأثنى عليه. فقال فيما كتبه: إن الله قد أيّدك بحكمة وأنطقها على لسانك. قد أحسنت وأصبت أصاب الله بك الرشادويسّرك للخير ووفقك لطاعته.

وقال العلامة المتقدم قبل ما ذكرنا عنه في ترجمة الحسن بن محبوب:

كان جليل القدر يعد في الأركان الأربعة في عصره. له كتب كثيرة:

١ـ منها كتاب المشيخة ٢ـ وكتاب الحدود ٣ـ وكتاب الديات ٤ـ وكتاب الفرائض ٥ـ وكتاب النكاح ٦ـ وكتاب الطلاق ٧ـ وكتاب النوادر نحو ألف ورقة. إلى أن قال: ومات الحسن سنة ٢٢٤ وكان من أبناء خمس وسبعين سنة... إلخ.

الوهل الخوف. وهل الرجل يوهل. وما: في قوله: ما يطرح، مصدرية تقديره: وقريب طرح الحجاب يعني رفعه بالموت... وهذا الكلام يدل على صحة القول بعذاب القبر. وأصحابنا كلهم يذهبون إليه وإن شنع عليهم آخرون من الأشعرية وغيرهم بجحده.

وذكر قاضي القضاة: أنّه لا يعرف معتزلياً ينفي عذاب القبر لا من متقدّميهم ولا من متأخريهم... إلى أن قال: ويمكن أن يقول قائل: هذا الكلام لا يدلّ على صحّة القول بعذاب القبر. لجواز أن يعني(عليه السلام) بمعاينة من قد مات ما يشاهده المحتضر من الحالة الدالة على السعادة أو الشقاء. فقد جاء في الخبر: لا يموت امرؤ حتى يعلم مصيره هل هو إلى جنّة أو إلى نار.

ويمكن أن يعني(عليه السلام) به ما يعانيه المحتضر من ملك الموت وهول قدومه.

ويمكن أن يعني به ما كان يقوله(عليه السلام) عن نفسه: إنه لا يموت ميت حتى يشاهده(عليه السلام) حاضراً عنده. والشيعة تذهب إلى هذا القول وتعتقده وتروي عنه شعراً قاله للحارث الأعور الهمداني:

يا حار همدان من يمت يرني ... من مؤمن أو منافق قبلا
يعرفني طرفه وأعرفه ... بعينه واسمه وما فعلا
أقول للنّار وهي توقد للعرض ... ذريه لا تقربي الرجلا
ذريه لا تقربيه أن له ... حبلاً بحبل الوصي متصلا

قال شارح النهج: وليس هذا بمنكر إن صح أنه(عليه السلام) قاله عن نفسه. ففي الكتاب العزيز ما يدل على أن أهل الكتاب لا يموت منهم ميت حتى يصدق بعيسى بن مريم(عليه السلام) وذلك قوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ ... قال كثير من المفسّرين: معنى ذلك أن كل ميت من اليهود وغيرهم من أهل الكتب السالفة إذا احتضر رأى المسيح عنده فيصدّق به من لم يكن في أوقات التكليف مصدّقاً به. أقول: أمّا ثبوت هذا الأمر أعني حضور علي(عليه السلام) عند المحتضر بل رسول الله(صلى الله عليه وآله) عند أصحابنا يكاد أن يكون من المسلّمات.

قال شيخنا البهائي أعلى الله مقامه في ص٢٠٦ من أربعينه:

ونقل المحدثون من أصحابنا أحاديث متكثرة صريحة في أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين(عليه السلام) يحضران عند كل محتضر ويبشّرانه بما يؤول إليه حاله من سعادة أو شقاء.

والأبيات عن أمير المؤمنين(عليه السلام) في هذا المضمون في مخاطبته الحارث الهمداني مشهورة، وفي كثير من كتب السير مسطورة. رزقنا الله البشارة بالسعادة ومنّ علينا جميعاً بالحسنى وزيادة إنّه جواد كريم رؤوف رحيم. انتهى.

وغرضه من الأبيات المنسوبة لأمير المؤمنين(عليه السلام) هي ما ذكرناها آنفاً... لكن الأبيات المذكورة الموجودة في تحفة العالم أكثر مما نقلناه عن شارح النهج. وفيمن اشترك في نقله نحو اختلاف في الألفاظ أيضاً. وها نحن نذكر ما ذكره في التحفة لتعلم موارد الاختلاف والزيادة والنقصان.

قال العلامة السيد جعفر بحر العلوم طاب ثراه في ص١٢٩ من الجزء الأول من التحفة.

وكان ذلك يعني قول علي(عليه السلام) الأبيات بعد أن قال له الحارث وهو في مرض موته. وكان أمير المؤمنين(عليه السلام) قد عاده: يا مولاي إني في أول يوم من أيام

الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا. وإني أخاف من الفزع الأكبر ولا أدري ما يفعل بي وأخاف من النزع والعبور على الصراط...

أقول: ومقتضى هذا أنه هنا قال أمير المؤمنين(عليه السلام) الأبيات الموماً إليها وهي:

يا حار همدان من يمت يرني ... من مؤمن أو منافق قبلا
يعرفني بشخصه وأعرفه ... بعينه واسمه وما فعلا
وأنت عند الصراط معترضي ... فلا تخف عثرة ولا زللا
أقول للنّار حين توقف للـ ... ـعرض ذريه لا تقربي الرجلا
ذريه لا تقربيه إنّ له ... حبلاً بحبل الوصي متّصلا
أسقيك من بارد على ظمأ ... تخاله في الحلاوة العسلا

قيل: فبكى الحارث. وقال: الحمد لله الذي جعلني من شيعتك يا أمير المؤمنين. ثم انصرف وفارق الحارث الدنيا.

وقال السيد الأجل صاحب التحفة بعد ذكر هذا المقال:

المنقول عن السيد المرتضى رحمه الله أنه أنكر حضور أمير المؤمنين(عليه السلام) حين سؤال النكيرين. نظراً منه إلى القواعد الكلامية. فاعترض بأنه إذا مات ألف مؤمن في لحظة واحدة فكيف السبيل...

وقال: معنى أن المحتضر يرى علياً(عليه السلام) أنه يعلم صحّة ولايته ويتحقق وجوب إمامته علماً ضرورياً. والرؤية هنا معنى العلم كقوله: ألم تر كيف فعل ربّك أي ألم تعلم. انتهى ما نقل.

ولا بدّ من التعرض لذكر ما يزيل هذه الشبهة والارتياب ويرفع لك الستر والحجاب.

فأقول: إنّ من المسلم عند الرياضيين تحديد سرعة الفلك الأعلى بمقدار ما يقول أحد واحد، يتحرك ألفاً وسبعمائة وثلاثين فرسخاً من مقعّره. أو ألفين وأربعمائة فرسخ على الخلاف. والله أعلم بما يتحرّك محدّبه. فالقادر على تحريك مثل هذا الجسم العظيم بهذه السرعة لقطع هذه المسافة هو القادر على تسيير إنسان واحد في آنٍ واحد من المشرق إلى المغرب.

وإن المتشرعة تقول: إن المَلَك ليسير في طرفة عين ألف سنة.

وقال الدميري في حياة الحيوان في البراق أعني الدابة التي ركبها سيد المرسلين(ﷺ) ليلة المعراج: الصحيح أنّه دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يضع خطوة عند أقصى طرفه. ويؤخذ من هذا أنه إذا أخذ من إلى الأرض إلى السماء في خطوة وإلى السموات في سبع خطوات[1] قال: وبه يرد على من استبعد من المتكلّمين إحضار عرش بلقيس في لحظة واحدة.

وقال: إنه أعدم ثم أوجد وعلل بأن المسافة البعيدة لا يمكن قطعها في هذه اللحظة.

وهذا أوضح دليل في الردّ عليه.

وروى الكليني والصدوق(قدس سرهما) وغيرهما في أخبار كادت أن تكون متواترة عن الأئمة الأطهار(عليهم السلام): أنه ما من مؤمن يموت إلّا ويحضره رسول الله(ﷺ) وعلي(عليه السلام). فإذا رآهما استبشر... إلى أن قال:

---

(١) قلت: وقد قالوا أن سير القوة الكهربائية في الثانية الواحدة يبلغ ١٨٦٠٠٠ مائة ألف وستة وثمانين ألف ميلاً... وهي وإن عظم شأنها لكنها أين هي من سرعة سير البراق وما جرى مجراها من مصنوعات الله سبحانه السريعة في السير.

وفي الخرائج عن أبي الحسن موسى بن جعفر(عليه السلام) قال:

أعظم الناس ذنباً وأكثر إثماً على لسان محمّد(صلى الله عليه وآله) الطاعن على علم آل محمّد(صلى الله عليه وآله) والمكذّب ناطقهم والجاحد معجزاتهم... ثم قال:

إنّ من أنكر المعجزات لعلي(عليه السلام) وأولاده الأحد عشر(عليهم السلام). ومع إثباته للنبي(صلى الله عليه وآله) فإنه جاهل بالقرآن.

وقد أخبرنا الله سبحانه عن آصف بن برخيا وصي سليمان عمّا أتى به من المعجزات من عرش ملكة اليمن. وكان سليمان يومئذٍ ببيت المقدس. فقال وصيه: هذا أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. وارتداد الطرف لا يتوهم فيه ذهاب زمان ولا قطع مسافة. وبين بيت المقدس والموضع الذي فيه العرش باليمن مسير خمسمائة فرسخ ذاهباً وخمسمائة فرسخ راجعاً. فأتاه به من هذه المسافة قبل ارتداد الطرف.

فإذا كان آصف وصي سليمان عليهما السلام بهذه المنزلة، مع أنه ما كان يعلم إلّا اسماً واحداً من الأسماء العظام. فكيف بأمير المؤمنين(عليه السلام) الذي هو وصي محمد خاتم النبيين(صلى الله عليه وآله). وكان يعلم اثنين وسبعين اسماً من الأسماء العظام بل هو الاسم الأعظم.

أقول: وقد ساق المؤلف المذكور عدة قضايا تتضمّن حضور الأئمة صلوات الله عليهم، في حال حياتهم وبعد موتهم عند المرضى وعند الموتى. وتصرّفهم في الأمور تصرّف مخوّل من الله سبحانه بالمعنى الصحيح من التخويل لا كما يقوله المفوّضة من إيكال خلق الدنيا وما فيها إلى محمّد(صلى الله عليه وآله) وآله(عليهم السلام)... فراجع.

وقد ذكر شيخنا البهائي أعلى الله مقامه في ص٢٠٣ من أربعينه ما يقرب مما أفاده ذلك السيد الجليل رحمه الله في تحفته فقال:

وبالسند المتصل إلى الشيخ الجليل محمّد بن يعقوب عن علي بن محمّد بن بندار عن إبراهيم بن إسحاق عن ابن عبدالله بن عبدالله بن عمّار عن علي بن أبي حمزة قال: كان لي صديق من كتّاب بني أميّة. فقال إستأذن لي على أبي عبدالله(عليه السلام) جعفر بن محمّد الصادق، فاستأذنت له. فأذن له. فلما دخل وسلّم وجلس ثم قال: جعلت فداك. إني كنت في ديوان هؤلاء القوم. فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه.

فقال أبو عبدالله(عليه السلام): لولا أنّ بني أميّة وجدوا من يكتب لهم ويجبى لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا. ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلّا ما وقع في أيديهم.

فقال الفتى: فداك. فهل لي مخرج منه. فقال(عليه السلام): إن قلت لك تفعل.

قال: أفعل. قال(عليه السلام): فاخرج من جميع ما كسبت في ديوانهم. فمن عرفت منهم رددت عليه ماله ومن لم تعرفه تصدقت به. وأضمن لك على الله الجنّة. فأطرق الفتى طويلاً ثم قال: قد فعلت جعلت فداك.

قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة. فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلّا خرج منه حتى ثيابه التي على بدنه. قال: فقسمنا له قسمة وشربنا له ثياباً وبعثنا إليه بنفقة. قال: فما أتى عليه إلّا أشهر قلائل حتى مرض فكنا نعوده. قال: فدخلت عليه يوماً وهو في السوق. قال: ففتح عينيه ثم قال: يا عليّ وفى لي والله صاحبك. قال ثم مات وتولّينا أمره. فخرجت حتى دخلت على أبي عبدالله(عليه السلام). فلمّا نظر إليّ. قال لي: يا عليّ وفينا والله لصاحبك. قال: فقلت: صدقت جعلت فداك. هكذا قال لي والله عند موته.

ثم قال العلامة الكبير البهائي(قدس سره) بعد هذا الحديث:

ما تضمّنه هذا الحديث من قول ذلك الرجل عند حضور موته: وفى لي والله صاحبك. يدل على أنه ينكشف للإنسان عند الاحتضار بعض أحوال تلك النشأة. ويظهر عليه أنه من أهل السعادة والشقاء. كما ظهر لهذا الرجل وفاء الصادق(عليه السلام) بما ضمنه له من الجنّة. وقد ورد في هذا المعنى أحاديث متكثرة.

فقد روى عن النبي(صلى الله عليه وآله) أنه قال: لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنّة أو النّار.

وقال: روى الشيخ الجليل ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني في كتاب الجنائز من الكافي في باب ما يعاين المؤمن والكافر:

عن عليّ بن عقبة عن أبيه في حديث طويل قال: قال لي أبو عبدالله(عليه السلام) جعفر بن محمّد الصادق: يا عقبة لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلّا هذا الأمر الذي أنتم عليه...

وما بين أحد وبين أن يرى ما تقرّبه عينه إلّا أن تبلغ نفسه إلى هذه ثم أهوى بيده إلى الوريد. أقول: وقد ذكر السيد الأجل(قدس سره) في ص٦٢ وفيما قبلها من كتابه حق اليقين الجزء الثاني أخباراً كثيرة في حضور النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام) المؤمن وغيره عند الاحتضار. ونقل في ص٦٣ من الكتاب المذكور كلمات العلامة المجلسي (رحمه الله) في الموضوع فقال ما نصّه:

إعلم أنّ حضور النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام) عند الموت. مما قد وردت به الأخبار المستفيضة وقد اشتهر بين الشيعة. وإنكار مثل ذلك لمحض استبعاد الأوهام ليس من طريقة الأخيار...

وأمّا نحو حضورهم وكيفيته فلا يلزم الفحص عنها... إلى آخر ما ذكره طاب مرقده.

نبذة فيما يتعلق بالموت والموتى:

قال السيد العلامة الأجل السيد علي خان المدني طاب ثـراه في ص٣٩٧ مـن شرح الصحيفة:

قال بعض العلماء: الناس في محبّة الموت ثلاثة أضرب:

الأول: رجل حكيم يعلم أن الحياة تسترقه والمـوت يعتقـه. وأن الإنـسان في هذا الحال كمبعوث إلى ثغر يحوطه وبلد يسوسه. فلا يتألم من خروجه عـن الـدنيا إلّا بمقدار ما يفوته من خدمة ربّه والازدياد من قربه.

وبهذا المعنى وردت بعض الأخبار في مدح الدنيا والنهي عن تمنّي الموت.

الثاني: رجل أنس بهذا العالم فألفه. وإن كرهه فـسبيله سـبيل مـن ألـف بيتـاً مظلماً. فهو يكره الخروج منه وإن كره الدخول فيه. وهذا متـى خـرج مـن الـدنيا واطلع على ما أعدّ للصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلـب بشر سُرّ بخلاصه.

كما حكى سبحانه عمّن استقر لهم القرار في جنات النعيم:

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

الثالث: رجل أعمى البصيرة متلطخ السريرة بما ارتكبه مـن أنـواع الجريـرة. رضي بالحياة الدنيا واطمأنّ إليها. ويئس من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور.

فإذا خرج منها إلى دار الخلود أضرّ ذلك به. فإذا خرج من قاذورات الـدنيا لم توافقه العليا ومصاحبة الملأ الأعلى. كما قال سبحانه:

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

قال شارح النهج في ص٥٣ من المجلّد ٣:

مرّ الاسكندر بمدينة ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا.

فسأل: هل بقي من نسلهم أحد؟

قالوا: بقي واحد وهو يلزم المقابر.

فدعا به فسأله: لم تلزم المقابر؟

قال: أردت أن أميّز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدتها سواء.

قال: هل لك أن تلزمني حتى أنيلك بغيتك؟

قال: لو علمت أنك تقدر على ذلك للزمتك.

قال: وما بغيتك؟

قال: حياة لا موت معها.

قال: لن أقدر على ذلك.

قال: فدعني أطلبه ممن يقدر عليه.

قال: وقال النبي(ﷺ): ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه.

وقال الشارح المتقدم: قال الحسن وقد نظر رجلاً يجود بنفسه:

أن أمراً لهذا آخره لجدير أن يزهد في أوله. وأن أمراً لهذا أوله لجدير أن يخاف من آخره.

وقال الشارح المتقدم:

سمع أبو الدرداء رجلاً يقول في جنازة: من هذا؟ فقال: أنت فإن كرهت

فأنا.

وقال: سمع الحسن(عليه السلام) امرأة تبكي خلف جنازة وتقول:

يا أبتاه مثل يومك لم أرَ. فقال(عليه السلام): بل أبوك مثل يومه لم يَر.

وقال في ص١٩٦ من المجلد الثاني من مروج الذهب:

خرج عمر بن عبدالعزيز مع جماعة من أصحابه إلى المقبرة. فقال: قفوا حتى آتي قبور الأحبّة فأسلّم عليهم. فلما توسطها وقف وسلّم وتكلّم وانصرف إلى أصحابه.

فقال: ألا تسألوني ماذا قلت لهم وما قيل لي. فقالوا: وماذا قلت يا أمير المؤمنين وما قيل لك. قال: مررت بقبور الأحبة فسلمت فلم يردّوا. ودعوت فلم يجيبوا. فبينما أنا كذلك إذ نوديت يا عمر أتعرفني. أنا الذي غيّرت محاسن وجوههم ومزقت الأكفان من جلودهم وقطعت أيديهم وأنبت أكفّهم من سواعدهم...

ثم بكى حتى كادت نفسه أن تطفأ... فوالله ما مضى بعد ذلك إلا أيام حتى لحق بهم.

وقال في الكتاب المتقدم:

قال بعض الملوك: ولم أعجب من هذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربّه على رأس صومعته. ولكن عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب.

إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً.

المحاضرة السادسة عشرة

فيما يتعلق بليلة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

أقول: ابتدأ الله سبحانه هذه السورة المباركة باسمه المبارك الميمون المختص به. والعلم الخاص بذات قدسه وتوصيف نفسه بصفته اللائقة بجنابه. وهي صفة الرحمن التي معناها قيام موصوفها بالمهم من الهبات والخطير من المهمّات. كما هو شأن الذات المقدّسة. فإن الملائم لشأن المعطي العظيم إعطاء الشيء العظيم.

ذكر الرازي في النكت المستخرجة من البسملة: إن سائلاً وقف على باب دار رفيع. فسأل شيئاً فأعطي قليلاً. فجاء في اليوم الثاني بفاس وأخذ يخرّب الباب. فقيل له: ولم تفعل ذلك؟ قال: إما أن يجعل الباب لائقاً بالعطية أو العطية لائقة بالباب.

كما أنه قد وصف نفسه المباركة ثانية بالصفة الثانية الميمونة. وهي صفة الرحيم التي معناها معطي القليل والكثير. إيماءً منه تعالى شأنه إلى أنه المرجع في حوائج عباده الخطير منها والحقير والجزيل منها والقليل. لطفاً منه وعطفاً لئلا يحتاج العبد إلى غيره في شيء من أموره...

ولولا وصفه تعالى نفسه المقدسة بذلك، لما ساغ لعبده سؤاله الشيء الحقير.

لأن العظيم لا يسأل إلا عظيماً. لكن فضله العميم أبى أن يكون عبده موكولاً إلى نفسه أو إلى أحد من خلقه في كل ما يحتاج إليه من الضئيل والجسيم. كما قد ورد فيما يحكى عن خطابه لكليمه الكريم موسى (عليه السلام): أنْ يا موسى سلني حتى عن ملح قدرك.

تبارك وتعالى ما أعظم لطفه وأكثر عطفه.

ثم قال تعالى شأنه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

وقد حكي إجماع المفسرين على أن المراد: إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر. وترك التصريح بالذكر لأن هذا التركيب يدل على كون القرآن عظيماً من ثلاثة وجوه:

الأول: إنه تعالى أسند إنزاله إليه وجعله من فعل نفسه المقدّسة.

وفي هذا من التعظيم والتفخيم ما لا يخفى.

الثاني: إنه جلّ ذكره ذَكره بضميره دون اسمه الصريح. شهادة منه سبحانه للقرآن بالنباهة والاستغناء عن التصريح. وهذا وجه من وجوه العقل البليغ.

الثالث: تعظيمه لعظمة الوقت الذي أنزل فيه.

ولا يخفى أن هذا التفخيم والتعظيم وبيان علو الشأن ومورد الاهتمام، وإن كان هو للقرآن، ولكن يستفاد من ذلك بالتبع عظمة ليلة القدر. لأنها إحدى جهات فضله وسمو محله. ويكون هذا على العكس مما أفيد بقوله عز قوله:

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.

حيث أفادت الآية الشريفة الفضيلة العرضية للشهر المبارك لكونه محلاً وموردا لنزول القرآن الكريم.

ولا يخفى أن الآية المباركة لم تستفصل كيفية النزول. لكن الأحاديث النبوية

الواصلة بواسطة العترة الطاهرة(عليهم السلام) أوضحت الحال وبسطت المقال.

فعن أبي عبدالله(عليه السلام) كما في آيات الأحكام[١] في رواية حفص بن غياث أنه: نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان ثم نزل في عشرين سنة.

إلى غير ذلك. وقد بسطنا الكلام في هذه الجهة وغيرها في المحاضرة المتكفلة لشيء من البيان في القرآن. وكيف كان: إن الآية الأولى من سورة القدر تومئ إيماءً واضحاً إلى أهمية ليلة القدر حيث أنها كانت مورداً لنزول القرآن الكريم. كما أن بعض الروايات من الطريقين تومئ إلى أهميّة ليال أخرى من الشهر المبارك الميمون.

قال الرازي[٢] روى وهب أن صحف إبراهيم(عليه السلام) أنزلت في الليلة الأولى من شهر رمضان. والتوراة لست ليال مضين من رمضان بعد صحف إبراهيم ٧٠٠ سنة. وأنزل الزبور على داود(عليه السلام) لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان بعد التوراة ٥٠٠ سنة. وأنزل الإنجيل على عيسى(عليه السلام) لثمان ليال خلت من رمضان بعد الزبور ٦٢٠ سنة.

وكان القرآن ينزل على النبي(صلى الله عليه وآله) في كل ليلة قدر من السنة إلى السنة. كان جبرئيل(عليه السلام) ينزل به من بيت العزّة من السماء السابعة إلى سماء الدنيا.

فأنزل الله تعالى القرآن في عشرين شهراً في عشرين سنة[٣].

وأما قوله تعالى:﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

---

(١) ذكر هذا العلامة الجزائري في ص١١٦ من آيات أحكامه عن الكافي.

(٢) ذكر هذا في ص٦٢٩ من المجلد ٨ من تفسيره.

(٣) لكن العلامة الطريحي ذكر في مجمعه عن ابن عباس أن الله سبحانه أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثم كان ينزله جبرئيل(عليه السلام) نجوماً. وكان من أوله إلى الآخر ثلاث وعشرون سنة.

فالمقصود منها الليلة التي يمضي الله سبحانه فيها الأمور. كما قال تعالى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾

قال الرازي: القدر مصدر قدرت أقدر قدراً. والقدر والقدَر واحد إلا أنه بالتسكين مصدر وبالفتح اسم.

قال الواحدي: القدر في اللغة بمعنى التقدير. وهو جعل الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان.

قال: وفي وجه تسمية الليلة المباركة بليلة القدر وجوه:

أحدها: أنها ليلة تقدير الأمور والأحكام(١).

---

(١) قال العلامة القمي رحمه الله في مادة: قدر:

عن أبي جعفر الثاني(عليه السلام) قال: قال أبو عبدالله(عليه السلام) قال علي(عليه السلام): في صبح أول ليلة القدر التي كانت بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله): فاسألوني فوالله لأخبرنكم بما يكون إلى ثلاثمائة وستين يوماً من الذرّ فما دونها فما فوقها. ثم لا أخبرنّكم من شيء من ذلك بتكلّف ولا برأي ولا بادّعاء في علم إلّا من علم الله وتعاليمه. وإنه لا يسألني أهل التوراة ولا أهل الإنجيل ولا أهل الزبور ولا أهل الفرقان، إلا فرقت بين كل أهل كتاب بحكم ما في كتابهم. وقال العلامة المتقدم: في التوقيع في جواب الحميري:

إذا ترك سورة مما فيها الثواب وقرأ قل هو الله أحد، أو أنا أنزلناه لفضلها. أعطي ثواب ما قرأ أو ثواب السورة التي ترك.

وقال: قال العلامة الطباطبائي(قدس سره) في الدرة:

القدر والتوحيد في الفرائض	أفضل ما يتلى لغير عارض
تزكو الصلاة بهما وتقبل	والدين من أيهما يستكمل
يحوز من إليهما قد عدلا	أجر التي همّ بها وما تلى

ثم قال رحمه الله تعالى: وعن أبي جعفر(عليه السلام): من قرأ سورة القدر سبع مرات بعد عشاء الآخرة كان في ضمان الله تعالى حتى يصبح.

قال عطا عن ابن عباس أن الله قدّر ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة. إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية...

ونظيره قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾.

ثم قال: واعلم أن تقدير الله لا يحدث في تلك الليلة. فإنه تعالى قدّر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل. بل المراد إظهار تلك المقادير للملائكة في تلك الليلة بأن يكتبها في اللوح المحفوظ... وهذا القول اختيار عامّة العلماء.

أقول: وبهذا المضمون ورد عن أئمتنا علماء أهل البيت(عليهم السلام)[1].

قال في وقائع الأيام[2]: في الإقبال عن زرارة عن أبي عبدالله(عليه السلام):

التقدير في ليلة تسع عشرة والإبرام في ليلة إحدى وعشرين والإقضاء في ليلة ثلاث وعشرين.

وفي رواية أخرى عنه(عليه السلام): في ليلة التاسع عشر يلتقى الجمعان. وليلة

(١) لكن العلامة الطريحي في مجمعه بعد أن ذكر الوجه المتقدم ذكره عن الرازي قال: وفي الخبر عن ابن عباس أنه قال: يقضي القضايا في ليلة النصف من شعبان ثم يسلمها إلى أربابها في ليلة القدر. أي ليلة الشرف والخطر وعظم الشأن. من قولهم: رجل له قدر عند الناس أي منزلة وشرف. ومنه: وما قدروا الله حق قدره: أي ما عظموه حق عظمته.
وقيل: لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً.
وقيل: سميت ليلة القدر. لأنه أنزل فيها كتاب ذو قدر إلى رسول ذي قدر لأجل أمة ذات قدر على يد ملك ذي قدر.
وقيل: لأن الله سبحانه قدّر فيها إنزال القرآن.
قيل: سميت بذلك لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة من قوله: ومن قُدِرَ عليه رزقه...

(٢) ذكر ذلك صاحب كتاب الوقائع في ص٤٦٠ منه.

الواحد والعشرين يفرق كل أمر حكيم. وليلة الثالث والعشرين يمضي ما أراد الله جل جلاله ذلك. وهي ليلة القدر التي قال الله تعالى:﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾.

قال: وسألته عن معنى يلتقي الجمعان. قال(عليه السلام): يجمع الله فيها ما أراد من تقديمه وتأخيره وإراداته وقضائه.

قلت: ومعنى يمضيه في ليلة ثلاث وعشرين. قال: في ليلة إحدى وعشرين يقرر الله سبحانه الأمور منوطة ومشروطة. وفي الليلة الثالثة والعشرين يمضيها ويقررها بنحو الحتم والأحكام.

وأمّا تعيينها: فقد ذكر العلامة الطبرسي أحاديث كثيرة مختلفة في تعيين ليلة القدر. لكن الكثير منها مما عن الصادقين(عليهما السلام) إنها مردّدة بين الواحد والعشرين والثالث والعشرين. وفي رواية أو روايتين: وبين التاسع عشر. ورواية واحدة تعيّن أنها الثالثة والعشرون... والمركوز في أذهان المتشرعة من الإمامية هو هذا. أعني الأخير. وعليه عملهم غالباً. وإن احتاطوا في الليالي الثلاث بالجمع بينها في أعمال ليلة القدر. ولكن عن الحسن السبط(عليه السلام) كما في مادة: قدر من سفينة البحار:

فتطلب من ليلة ثلاث وعشرين إلى ليلة سبع وعشرين.

وقال الصفوري الشافعي: وأقوى الروايات عندي أنها في الحادي والعشرين.

وأما المترجح لدى غيره من أهل السنة المصرح به في كلمات بعضهم. كما صرح به الرازي أنها ليلة السابع والعشرين وعليه عملهم. وفيها بعض الروايات عن ابن عباس وغيره.

أقول: وليس ببعيد أن إخفائها كان مقصوداً. وإن الغرض الشرعي اقتضى عدم تعيينها في ليلة مخصوصة. وبهذا صرح أمام الكونين أمير المؤمنين(عليه السلام). قال في مادة: قدر من سفينة البحار:

قيل لأمير المؤمنين(عليه السلام): أخبرنا عن ليلة القدر. قال(عليه السلام):

ما أخلو من أن أكون أعلمها. ولست أشك أن الله إنما يسترها عنكم نظراً لكم لأنكم لو أعلمكموها عملتم فيها وتركتم غيرها. وأرجو أن لا تخطئكم إن شاء الله.

وقال الفخر الرازي: إنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه:

أحدها: إنه تعالى أخفاها كما أخفى سائر الأشياء.

١ـ فإنه أخفى رضاه في الطاعات حتى يرغبوا في الكل.

٢ـ وأخفى غضبه في المعاصي ليحترزوا عن الكل.

٣ـ وأخفى وليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل.

٤ـ وأخفى إجابته في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات.

٥ـ وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء.

٦ـ وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على كل الصلوات.

٧ـ وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلّف على جميع أقسام التوبة.

٨ـ وأخفى وقت الموت ليخاف المكلّف في كل الأوقات.

فكذا أخفى هذه الليلة ليعظّموا جميع ليالي شهر رمضان.

قال الله تبارك وتعالى في الآية الثانية من السورة المباركة:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

قال المفسّر: فكأنه قال تعالى: وما أدراك يا محمد ما ليلة القدر. أي ما قدرها وما خطرها وحرمتها. وهذا حث على العبادة وبعث وتشويق إليها.

ثم أبان سبحانه منزلتها وشرف محلّها وشأنها فقال: ليلة القدر خير من ألف شهر. بمعنى أن قيام تلك الليلة والعمل فيها يكون خيراً من القيام والعمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وإن شئت قلت: إن الطاعة فيها أي طاعة كانت. تعدل في المثوبة ثلاثين ألف طاعة مثلها. وذلك لأن الأوقات إنما يتفاضل بعض على بعض باعتبار ما في المفضّل من مزيد الخير والنفع. ولما أن جعل الله الخير الكثير في ليلة القدر بما لا يكون في غيرها. كان اللازم بحسب الطبع إن غيرها لا يساويها في الفضل.

قال الفخر الرازي[1]:

روى القاسم بن فضل عيسى بن مازن قال: قلت للحسن بن علي(عليهما السلام): يا مسوّد وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له يعني معاوية.

فقال(عليه السلام): إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) رأى في منامه بني أمية يطأون منبره واحداً بعد واحد. وفي رواية: ينزون على منبره نزو القردة. فشق ذلك عليه. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾... إلى قوله: ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾. يعني ملك بني أمية.

قال القاسم: فحسبنا ملك بني أمية فإذا هو ألف شهر.

أقول: وفي حديث المتوكل بن هارون الثقفي البلخي، الذي يروي أدعية

---

(١) ذكر ذلك في ص٦٣٠ من المجلد ٨ من التفسير.

الصحيفة السجادية عن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(عليه السلام) الذي من جملته. قال لي أبو عبدالله(عليه السلام) يعني جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام) :

إنّ أبي حدثني عن أبيه عن جدّه عن علي(عليه السلام) أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) أخذته نعسة وهو على منبره. فرأى في منامه رجالاً ينزون على منبره نزو القردة. يردّون الناس على أعقابهم القهقرى. فاستوى رسول الله(صلى الله عليه وآله) جالساً والحزن يعرف في وجهه... إلى أن قال(عليه السلام): وأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. فاطلع الله تعالى نبيه(صلى الله عليه وآله) أن بني أمية تملك سلطان هذه الأمة. وملكها طول هذه المدة.

قال[1] سيدنا العلامة الأجل السيد علي خان المدني(قدس سره) الشريف عند شرح هذه الفقرة من هذا الحديث المبارك:

مضمون هذا الحديث ورد من طريق أهل السنّة والجماعة أيضاً. قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير: روى القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن... وساق الحديث الذي ذكرناه عن الرازي حرفياً. ثم قال رحمه الله: وقال ابن الأثير في جامع الأصول: قد جاء في متن الحديث مدة ولاية بني أمية كانت ألف شهر. وإنما هي التي أراد الله تعالى بقوله:﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾... هي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر. وقد كان أول استقلال بني أمية وانفرادهم بالأمر منذ بيعة الحسن بن علي عليهما السلام لمعاوية بن أبي سفيان. وذلك على رأس أربعين سنة من

---

(١) ذكر هذا في ص٢٤ من شرح الصحيفة السجادية على صاحبها آلاف الصلاة والتحية.

الهجرة. وكان انقضاء دولتهم على يد أبي مسلم الخراساني في سنة اثنين وثلاثين ومائة. وذلك اثنتان وتسعون سنة. تسقط منها خلافة عبدالله بن الزبير وهي ثمان سنين وثمانية أشهر. تبقى ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر. وهي ألف شهر. وكذلك قال في الحديث: فحسبناها فلم تزد ولم تنقص.

وقد قال العلامة السيد المتقدم عند شرح فقرة الحديث السابقة على الفقرة التي ذكرناها وذكرنا شرحها. وهي قوله(عليه السلام) أعني قول الصادق(عليه السلام):

فأتاه جبرئيل ـ يعني أتى جبرئيل النبي(صلى الله عليه وآله) ـ بعدما رأى(صلى الله عليه وآله) رجالاً ينزون على منبره نزو القردة، بهذه الآية:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾[1].

اتفق المسلمون على أن الرؤيا التي يراها النبي(صلى الله عليه وآله) بعد النبوة، نوع من أنواع الوحي.

قيل: وهي أربعة عشر نوعاً:

الأول: الرؤيا. ومنه قول ابن إبراهيم(عليه السلام): ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾... في جواب قوله(عليه السلام): ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

الثاني: النفث في الروع. ومنه قوله(صلى الله عليه وآله): إن الروح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها. فاتقوا الله وأجملوا في طلب الرزق.

الثالث: ما يأتيه كصلصلة الجرس وهو أشدّ عليه. وكان كذلك ليستجمع

---

(١) هذه آية ٦٠ من سورة الإسراء أو بني إسرائيل الواقعة في ص٤٢٢ من المجلد الثالث من مجمع البيان.

عند تلك الحالة فيكون أوعى لما يسمع.

الرابع: أن يتمثل له الملك رجلاً. كما كان يأتيه في صورة دحية الكلبي. وكان دحية حسن الهيئة والجمال.

الخامس: أن يتراءى له جبرئيل(عليه السلام) في صورته التي خلق عليها. له ستمائة جناح ينتثر منها اللؤلؤ والياقوت.

السادس: بمثال أحياناً يسمع الصوت ويرى الضوء.

السابع: أن يكشف له عن حقيقة من الحقائق فيراها بروحه.

الثامن: أن يسمع كلام الملك ولا يرى شيئاً.

التاسع: أن يكلّمه الله من وراء حجاب في اليقظة. كما وقع في ليلة الإسراء.

العاشر: أن يلقى في قلبه معنى من المعاني.

كما قال تعالى:﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾: أي إلهاماً.

الحادي عشر: أن يسمع كدويّ النحل. كما جاء في الرواية ويفهم المراد منه.

الثاني عشر: أن يكون على سبيل الاستنشاق. وهو تنسّم النفحات الإلهية وتنشق روائح الربوبية. ومنه قوله(صلى الله عليه وآله): إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن.

الثالث عشر: أن يكون على سبيل الملامسة وهو بالاتصال بين النورين. كما روي عن ابن عباس أنه قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): وضع الله كفّه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السموات وما في الأرض. ثم تلا هذه الآية:

﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ** ﴾.

الرابع عشر: ما نقل إنه كان وكّل به إسرافيل(عليه السلام) ثلاث سنين. ويأتيه

بالكلمة من الوحي والشيء. ثم وكل به جبرئيل(عليه السلام) فجاءه بالقرآن.

وهذا الحصر استقرائي. قال بعضهم: يحتمل أن تكون طرق الوحي سبعين مما وقفنا عليه ومما لم نقف عليه. ويحمل عليه الحديث المشهور:

الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزء من ذلك العدد من أجزاء الوحي.

إلى أن قال(قدس سره): واعلم أن هذا الحديث ثابت الصحة متواتر النقل بين الفريقين. ومقصوده من الحديث، وهو ما ذكره الإمام الصادق(عليه السلام) للمتوكل من أنه(صلى الله عليه وآله) رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة...

قال(قدس سره): أما من طريق أهل البيت(عليهم السلام). فقد ثبت عند الخاصة من طرق كثيرة. وأما من طريق الجمهور. فقال الرازي في تفسيره الكبير: قال سعيد بن المسيّب رأى رسول الله(صلى الله عليه وآله) بني أمية ينزون على منبره نزو القردة. فساءه ذلك. وقال البيضاوي في تفسير الرؤيا: قيل رأى قوماً من بني أمية يرقون منبره وينزون عليه نزو القردة. فقال هذا حظّهم من الدنيا، يعطونه بإسلامهم. وعلى هذا كان المراد بقوله: إلّا فتنة للناس: ما حدث في أيامهم. انتهى.

وروى الحاكم في المستدرك عن مسلم الربعي عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة: قال قال النبي(صلى الله عليه وآله): رأيت في منامي كأنّ بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة. فما رؤي النبي(صلى الله عليه وآله) مستجمعاً ضاحكاً حتى مات(صلى الله عليه وآله). ثم قال: صحيح الإسناد على شرط مسلم... ذكر ذلك الدميري في حياة الحيوان.

وقال الرازي في تفسير[1] الشجرة الملعونة:

---

(١) هذا الذي ذكره الرازي في ص٦٠٩ من المجلد ٧ من أواخر الصحيفة المذكورة.

قال ابن عباس: الشجرة الملعونة في القرآن. المراد بها بنو أميّة[1] الحكم بن أبي العاص وولده. قال: رأى رسول الله(ﷺ) في المنام، إن ولد مروان يتداولون منبره. فقصّ رؤياه على أبي بكر وعمر وقد دخلا في بيته معه. فلما تفرقوا سمع رسول الله(ﷺ) الحكم يخبر برؤيا رسول الله(ﷺ). فاشتدّ ذلك عليه. ثم ظهر أن الحكم كان يستمع إليهم. فنفاه رسول الله(ﷺ).

قال: ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان:

لعن الله أباك وأنت في صلبه. فأنت بعض من لعنه الله.

وقال النيسابوري: عن ابن عباس: الشجرة الملعونة بنو أمية.

وفي الكتاب الذي كتبه المعتضد بالله العباسي حين عزم على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر في سنة ٢٨٤، وذكر فيه بني أمية. فقال ثم أنزل الله تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله(ﷺ) يذكر فيه شأنهم. وهو قوله تعالى: والشجرة الملعونة في القرآن. ولا خلاف بين أحد إنه تبارك وتعالى أراد بها بني أميّة... انتهى.

ثم ذكر السيد العلامة الأجل المتقدم الفقرة الأخرى من الحديث المقرونة بقراءة جبرئيل(عليه السلام) آية: والشجرة الملعونة في القرآن: على الرسول(ﷺ). وهي قول رسول الله(ﷺ) لجبرئيل(عليه السلام): يا جبرئيل أعلى عهدي يكونون وفي ذمّتي... قال(عليه السلام): لا ولكن تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشراً. ثم تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمساً. ثم لا بدّ من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها ثم ملك الفراعنة.

---

(١) إنّ المقصودين قطعاً هم من استأثروا بالحكم من بني أميّة فاستبدوا وظلموا ونكّلوا بالعباد وخربوا البلاد... وإلا ففي بني أميّة الأبرار الأخيار من أمثال الصحابي الجليل خالد بن سعيد بن العاص والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز(رض). (د. المدني)

وقال(قدس سره) في شرح ألفاظ الحديث الشريف. في جملة ما قال:

والمراد:ـ أي من دوران رحى الإسلام ـ قوام أمر الإسلام وثباته على سنن الاستقامة والبعد عن إحداثات الظلمة... ثم قال: قوله: من مهاجرك بفتح الجيم على صيغة اسم المفعول اسم زمان أي وقت هجرتك. ويرد بمعنى اسم المكان أيضاً. لكن الأول هو المراد هنا. ومن ابتدائية أي من ابتداء وقت هجرتك.

ثم قال: قوله فتلبث بذلك عشراً. والإشارة بذلك إلى(تدور...).

وإن المفهوم من قوله: تدور رحى الإسلام. والباء للملابسة أي متلبسة بذلك عشراً أي عشر سنين. هي مدة حياته بعد هجرته(صلى الله عليه وآله)ـ من مكة إلى المدينة. إلى أن قال: ولا شكّ أن رحى الإسلام لم تزل تدور في زمنه ومدّة حياته في دار هجرته. ولم يحدث في الإسلام حدث. بل أظهره الله تعالى على الدين كله ولو كره المشركون.

وقال(قدس سره): قوله: ثم تدور رحى الإسلام. المعطوف عليه محذوف، والتقدير: فتقف ثم تدور، وحذف المعطوف عليه ليس بعزيز. فقد قيل: في قوله تعالى: ان اضرب بعصاك الحجر فانفجرت: إن التقدير فضرب فانفجرت... إلى أن قال:

قوله: على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك. أي خمس وثلاثين سنة هي مدة كونه(صلى الله عليه وآله) بالمدينة وهي عشر سنين. كما مرّ.

قال(قدس سره): قوله: فتلبث بذلك خمساً. هي مدّة خلافة أمير المؤمنين(عليه السلام)، حيث رجع الحق إلى نصابه واستقر الأمر في مستقرّه واستوت رحى الإسلام على قطبها. ثم قال رحمه الله: قوله: ثم لا بدّ من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها... هذا إشارة إلى ملك بني أمية الذين أولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم مروان بن

محمد بن مروان الملقب بالحمار. وكانوا أربعة عشر رجلاً.

وإليهم أشار أمير المؤمنين(عليه السلام) بقوله: والله لا يزالون حتى لا يَدَعوا لله محرّماً إلا استحلّوه ولا عقداً إلّا أحلّوه. وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم. وحتى يقوم الباكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه.

وقال(قدس سره): قوله: ثم ملك الفراعنة. جمع فرعون وهو أعجمي. قيل: وزنه فعلول. وقيل: فعلون. وهو اسم التمساح بلغة القبط. ولقب به ثلاثة من ملوك مصر وهم فرعون الخليل واسمه سنان، وفرعون يوسف واسمه الريّان بن الوليد، وفرعون موسى واسمه الوليد بن مصعب. وقيل: هو لقب كل من ملك مصر. ويلقب به كل عات متمرّد. ويقال: تفرعن إذا تخلّق بأخلاق بني العباس الذين أولهم عبدالله السفاح بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس. وآخرهم أبو أحمد عبدالله المستعصم بن أبي جعفر منصور المستنصر. وكانت عدّتهم سبعة وثلاثين رجلاً. ومدّتهم خمسمائة وأربعاً وعشرين سنة. كان انقضاء دولتهم سنة ست وخمسين وستمائة. وإنما لقّبوهم الفراعنة لما كانوا عليه من العتو والتمرّد والتفرعن...

قال: روى أن سفيان الثوري قال يوماً لجعفر وزير الرشيد: يا هامان. فسمعها الرشيد فقال لجعفر: والله ما جعلك هامان حتى جعلني فرعون...

وكيف كان فليلة القدر ليلة ذات أهمية وشأن. ويكفي في شأنها وعظيم قدرها ما يستفاد من قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾: الذي معناه التعجيز عن الإحاطة خبراً بفضلها ورفيع قدرها. وإنها خير من ألف شهر ليس فيه ليلة القدر.

كما أن في الأحاديث المباركة ما يباري الآية في بيان شأنها وعظيم خطرها.

مثل ما ورد في أن الله تعالى شأنه قد اختار من الساعات ساعات الصلاة. ومن الأيام يوم الجمعة. ومن الليالي ليلة القدر. ومن الشهور شهر رمضان... فالصلاة تكفّر ما بينها وبين الصلاة الأخرى. والجمعة تكفّر ما بينها وبين الجمعة الأخرى. وشهر رمضان يكفّر ما بينه وبين شهر رمضان الآخر.

ومن فضلها الرفيع وشأنها المنيع أنها تكون مورداً لهبوط الملائكة المقرّبين كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾... إذ قد ورد عن النبي(ﷺ) كما عن كتاب وقائع الأيام: أن جبرئيل(عليه السلام) ينزل إلى الأرض حيث يأمره الله تعالى بالنزول ليلة القدر، ومعه من الملائكة خلق كثير ومعهم علم أخضر فينصبونه على ظهر الكعبة. ويأمر جبرئيل(عليه السلام) الملائكة الذين هم في كافة أطراف الأرض شرقها وغربها أن يسلّموا على كل جالس في تلك الليلة قائماً أو قاعداً مصلياً أو ذاكراً. ويأمرهم بالمصافحة معهم. وإذا دعا ذلك الذاكر أو المصلي أمّنت الملائكة على دعائه إلى أن يطلع الفجر. فإذا طلع الفجر نادى جبرئيل(عليه السلام) بالملائكة الرحيل. فتقول عند ذلك الملائكة لجبرئيل: ما فعل ربّنا بحوائج خلقه وعباده الداعين له. فيقول لهم جبرئيل(عليه السلام): إنه قد نظر إليهم وغفر لهم ذنوبهم إلّا أربعة: ١ـ مدمن الخمر ٢ـ وعاق الوالدين[1] ٣ـ وقاطع الرحم[1] ٤ـ ومن

---

(١) ذكر في مادة: عقق من سفينة البحار ما مضمونه:

إنّ شاباً عق والده الشيخ الكبير. ولم يعنه من ماله الكثير فطمست أمواله وصار فقيراً لا يهتدي إلى قوت يومه وسقم بدنه... فقال النبي(ﷺ): يا أيها العاقون للآباء والأمهات اعتبروا واعلموا أنه كما طمس في الدنيا على أمواله فكذلك جعل بدل ما كان أعدّ له في الجنة من الدرجات معداً له في النار من الدركات. انتهى.

وأما وجوب طاعة الأبوين في غير ترك واجب أو فعل حرام، فكأنّه من المسلّمات فكذلك برّهما. فراجعه في مادة ولد من سفينة البحار. وكذلك العقوق. =

يلقي العداوة بين المؤمنين(٢).

= فعن أبي عبدالله(عليه السلام): إن من العقوق أن ينظر الرجل إلى ولديه فيحدّ النظر إليهما.
وعن أبي جعفر(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): إياكم وعقوق الوالدين فإنّ ريح الجنّة توجد من مسيرة ألف عام ولا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زانٍ ولا جارّ إزاره خيلاء. إنما الكبرياء لله رب العالمين.
وعن الصادق(عليه السلام): من أراد أن يخفّف الله عز وجل عنه سكرات الموت فليكن لقرابته وصولاً وبوالديه باراً. فإذا كان كذلك هوّن الله عليه سكرات الموت ولم يصبه في حياته فقر أبداً.
وهذه فائدة تناسب المقام: عن الصادق(عليه السلام) كما في مادة ولد من سفينة البحار ـ دع ابنك يلعب سبع سنين ويؤدب سبع سنين وألزمه نفسك سبع سنين. فإن أفلح وإلّا فإنه لا خير فيه.
وعن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: الولد سيد سبع سنين وعبد سبع سنين ووزير سبع سنين. فإن رضيت خلائقه إحدى وعشرين وإلا فاضرب على جنبه. فقد أعذرت إلى الله تعالى.

(١) ويكفي في صلة الرحم مدحاً ما عن سيد النبيّين(صلى الله عليه وآله) على ما في ص٤ من الجزء الأول من كتاب الكنى والألقاب للعلامة القمي(رحمه الله) حيث قال(صلى الله عليه وآله):
أدلكم على خير أخلاق الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك. وذكر هنا بيتين نسبهما للفيروزآبادي الذي ينتسب إليه صاحب القاموس. وهما:

سألت الناس عن خلّ وفيّ ... فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسّك إن ظفرت بودّ حرّ ... فإنّ الحرّ في الدنيا قليل

(٢) قال في مادة: نمم من سفينة البحار:
عن الصادق(عليه السلام): أربعة لا يدخلون الجنة الكاهن والمنافق ومدمن الخمر والقتات. وهو النمّام. وفي حديث آخر: حرّم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار... يعني النمام.
وعن الرسول(صلى الله عليه وآله): إنه لما أسري بي رأيت امرأة رأسها رأس خنزير وبدنها بدن حمار وعليها ألف ألف لون من العذاب. فسئل ما كان عملها؟ فقال: إنها كانت نمّامة كذّابة. وقال: واعلم أن النميمة نقل قول الغير إلى القول فيه. كما تقول: تكلم فلان فيك بكذا وكذا. فإن تضمّن ذلك نقصاً أو عيباً كان مع ذلك غيبة فيجمع بين معصيتين... إلى أن قال: =

أعمال ليلة القدر

أما أعمال هذه الليلة فموردها وإن كان ما دوّن للأعمال من الكتب التي هي فوق حدّ الإحصاء. التي لم تترك حاجة لمحتاج إلّا ذكرتها... غير أنا نذكر هنا شيئاً قليلاً مما تمسّ إليه الحاجة من بعض الأعمال المختصة بالليلة المباركة:

١ـ منها إحياؤها. كما عن الرسول الصادق الأمين(ﷺ):

من أحيى ليلة القدر حوّل عنه العذاب إلى السنة القابلة.

ذكر ذلك كتاب وقائع الأيام ص٤٦٠.

وفيه أيضاً: قال موسى(عليه السلام): إلهي أريد قربك. قال تعالى: قربي لمن استيقظ ليلة القدر قال(عليه السلام): إلهي أريد رحمتك. قال تعالى: رحمتي لمن رحم المساكين ليلة القدر.

قال(عليه السلام): إلهي أريد الجواز على الصراط. قال تعالى: ذلك لمن تصدّق بصدقة ليلة القدر.

قال(عليه السلام): إلهي أريد شجرة من أشجار الجنّة وثمارها. قال تعالى: ذلك لمن

= وينبغي لكل من حملت إليه النميمة ستة أمور:

١ـ أن لا يصدّقه لأنه فاسق مردود الشهادة بآية النبأ.

٢ـ أن ينهاه ويقبح فعله لقوله ـ تعالى : وأمر بالمعروف وانه عن المنكر.

٣ـ أن يبغضه في الله فإنه بغيض عند الله.

٤ـ أن لا تظن بأخيك السوء بمجرد قوله. لقوله تعالى : واجتنبوا كثيراً من الظن.

٥ـ أن لا يحملك ما حكي لك على التجسّس والبحث للتحقق. لقوله تعالى: ولا تجسسوا.

٦ـ أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه فلا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا. فتكون به نماماً ومغتاباً...

انتهى ما عن السفينة. وقد حصل بعض التصرف في أثناء النقل بما لا يخل بالمقصود.

سبّح تسبحية ليلة القدر.

قال(عليه السلام): إلهي أريد النجاة من النّار. قال: ذلك لمن استغفر ليلة القدر.

وفيه أيضاً عن زاد المعاد بسند معتبر عن أبي جعفر(عليه السلام):

من أحيى ليلة القدر غفرت ذنوبه ولو كانت بعدد نجوم السماء وثقل الجبال وكيل البحار.

وقال مؤلف الكتاب المذكور: وفوائد العبادة في ليلة القدر كثيرة.

١ـ منها أن العبادة فيها بنص القرآن تعدل ألف عبادة.

٢ـ ومنها: أن إمام العصر روحي له الفداء في ليلة القدر مورد لهبوط الملائكة عليه وأنها ترد عليه فوجاً فوجاً. يسلّمون عليه ويعرضون عليه ما هو مقدّر له في تلك السنة، ولكافة البشر... ومن المستحسن جداً أن يكون الإنسان متأسياً بإمام عصره في الأحياء ولا يحسن منه لغفلة والتضييع لمثل ذلك الوقت.

ومن المستحبات في تلك الليلة الغسل وأفضله أن يكون مقارناً للغروب كي تكون صلاة المغرب فيه ومعه...

ومنها زيارة الحسين(عليه السلام). فعن الإقبال عن أبي الصباح الكناني عن الصادق(عليه السلام) قال: إذا كان ليلة القدر يفرق الله(عزّ وجلّ) كل أمر حكيم. نادى منادى السماء السابعة من بطنان العرش:

إن الله قد غفر لمن أتى قبر الحسين.

ومنها صلاة ركعتين. فقد روي عن الرسول(صلى الله عليه وآله) أن يصلي ركعتين بعد الحمد ٧ مرّات التوحيد في كل ركعة. وبعد الفراغ من الصلاة يستغفر الله تعالى سبعين مرة بأن يقول أستغفر الله وأتوب إليه ولذلك فضل عظيم.

ومنها صلاة مائة ركعة ركعتين ركعتين في كل ركعة بعد الحمد ١٠ مرّات

سورة التوحيد.

ومنها نشر المصحف الشريف قال: قال في الإقبال: تأخذ المصحف في ثلاث لالٍ من شهر رمضان وتنشره وتضعه بين يديك وتقول:

اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه وفيه اسمك الأكبر وأسماؤك الحسنى وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النّار... ثم تطلب حوائجك ما شئت.

ومنها عن زاد المعاد عن الصادق(عليه السلام): أن تضع المصحف على رأسك وتقول[1]:

اللهم بحق هذا القرآن وبحق من أرسلته به وبحق كل مؤمن مدحته فيه وبحقك عليهم فلا أحد أعرف بحقك منك... ثم تقول عشراً... بك يا الله، وبمحمد ١٠ وبعلي ١٠ وبفاطمة ١٠ بالحسن ١٠ بالحسين ١٠ بعلي بن الحسين ١٠ بمحمّد بن علي ١٠ بجعفر بن محمد ١٠ بموسى بن جعفر ١٠ بعلي بن موسى ١٠ بمحمّد بن عليّ ١٠ بعلي بن محمد ١٠ بالحسن بن علي ١٠ بالحجّة ١٠.

ومنها ما يستحب مؤكداً في الليلة المذكورة نفسها.

قال في وقائع الأيام: يستحب غسل آخر في آخر الليل. فيكون في هذه الليلة غسلان أول الليل وآخره.

وقراءة سورة العنكبوت والروم وحم الدخان.

ومنها قراءة: إنا أنزلناه في ليلة القدر. يقرأ تمام السورة ألف مرة.

وهناك أدعية أخرى غير خفية على الخبير المتتبع.

---

(١) قال العلامة القمي(رحمه الله) في ص٤١٤ من المجلد الثاني من سفينة البحار. باب في كيفية التوسّل بالقرآن. قال في: تعليم الصادق(عليه السلام) رجلاً لقضاء دينه وكفاية ظلم سلطانه أن يصلي ركعتين... إلى آخر ما ذكره وقد تقدم بيانه منّا هذا الجزء فراجع إن شئت.

المحاضرة السابعة عشرة

فيما يتعلق بعيد الفطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى في محكم قرآنه المجيد وشريف بيانه الحميد:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

قلت: أول هذه الآيات الكريمة هي الآية ١٥ من سورة الأعلى. التي قال في مجمع البيان عند التعرض لها أن رسول[1] الله(ﷺ) كان يحبّها. وأنّ أول من قال: سبحان ربي الأعلى ميكائيل. إلى أن قال: وعن أبي بصير عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال: من قرأ سبّح اسم ربّك الأعلى في فريضة أو نافلة قيل له يوم القيامة: ادخل من أي أبواب الجنّة شئت.

(١) قال روى ذلك عن علي بن أبي طالب(عليه السلام). ذكر ذلك في ص٤٧٢ من المجلد ٥ من المجمع.
وقال الرازي في ص٥٤٠ من المجلد ٨ من تفسيره عند ذكر السورة المباركة:
هذه السورة من أوائل السور التي نزلت في مكة. وفيها من الأخبار بالغيب المعجز مما لا يخفى. فإن الله سبحانه أخبر نبيّه(ﷺ) أنه سيقرأه القرآن على طوله وأنه سوف يحفظه على التفصيل بدقة ولا ينسى منه شيئاً. وقد وقع المخبر به على وفق الخبر. والاستثناء في الآية على بعض مشتملاته أنه للتبرك وإنه تعالى لم يشأ أن ينسى(ﷺ) منه شيئاً.

إلى آخر ما ذكره هناك....

قال في مجمع البحرين عند قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

قيل هو كلام يقال لكل من عقل وحزم وتكاملت فيه خلال الخير. قال: وأفلح الرجل فاز وظفر.

قلت: وكل آية تكفّلت الإخبار بالفلاح لمرتكب فعل محبوب شرعاً من صلاة أو زكاة أو غيرهما. تكون متضمّنة للتبشير بعاقبة ذلك الفعل وحسن إنتاجه من الفوز بالأماني والظفر بالمطلوب مما أعدّه الله سبحانه بوعده الذي لا يخلف لفاعل تلك الطاعة.

وقال في المجمع أيضاً: والفلح ــ محركة ــ الفوز والنجاة والبقاء في الخير والفلاح مثله. وهو ضربان دنيوي وأخروي. فالأول الظفر بما تطيب به الحياة الدنيا. والثاني ما يفوز به الرجل في دار الآخرة. وقد قيل: إنه أربعة أشياء بقاء بلا فناء وغنًى بلا فقر وعزّ بلا ذل وعلم بلا جهل.

وقال الزمخشري في الكشاف عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾

وعن ابن مسعود: رحم الله امرءاً تصدق وصلّى. وعن علي (رضي الله عنه) أنّه التصدّق بصدقة الفطر. وقال: لا أبالي أن لا أجد في كتابي غيرها لقوله: قد أفلح من تزكّى: أي أعطى زكاة الفطر فتوجه إلى المصلّى صلاة العيد وذكر اسم ربه فكبّر تكبيرة الافتتاح.

قلت: وفي الآية المباركة ـ بناءً على ورودها هذا المورد ـ نحو إشعار بما عليه فتوى الإمامية من تقديم إعطاء الفطرة لمن يصلي العيد قبل الصلاة. وهو قول جماعة من المفسّرين.

قال الرازي في أواخر شرح الآية: قال قوم من المفسّرين: قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾: يعني من تصدّق قبل مروره إلى العيد. وذكر اسم ربّه فصلّى يعني ثم صلّى صلاة بعد ذلك مع الإمام. وهذا قول عكرمة وأبي الغالية وابن سيرين وابن عمر وروى ذلك مرفوعاً إلى النبي (ﷺ). قلت: وقد استشكل الرازي في هذا الوجه نظراً إلى أن السورة مكية بالإجماع. ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر... لكنه قال: أجاب عن ذلك الواحدي بأنه لا يمتنع أن يقال: لما كان في معلوم الله تعالى أن ذلك سيكون أثنى على من فعل ذلك.

وفي مجمع البيان بعد أن ذكر هذا القول عمّن ذكره الرازي قال: وروي ذلك مرفوعاً عن أبي عبدالله (عليه السلام). قال: ومتى قيل على هذا القول: كيف يصح ذلك والسورة مكية ولم يكن هناك صلاة عيد ولا زكاة ولا فطرة. قلنا: يحتمل أن يكون نزلت أوائلها بمكة وختمت بالمدينة.

قلت: ويحتمل أن تكون قد نزلت مرّتين كما ربّما يذكرون مثل ذلك في بعض السور.

هذا وقد ذكر كل من مجمع البيان والكشاف والرازي القول بأن المراد من قوله تعالى شأنه في سورة الكوثر: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾: أن المراد من الصلاة في هذه الآية هي صلاة عيد الأضحى. وأن المراد من النحر إنّما هو نحر الأضحية. وعلى ما ذكرنا يكون القرآن الكريم قد أشار إلى عيدي المسلمين الفطر والأضحى. كما أنه قد أشار إلى عيدين آخرين لم يكونا للمسلمين بل لبني إسرائيل:

أحدهما يوم اجتماع السحرة وهو يوم الموعد الذي كان بينهم وبين موسى (عليه السلام). وهو المشار إليه بقوله تعالى: قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر

الناس ضحى.

فإن المراد من يوم الزينة يوم العيد.

قال في سفينة البحار في مادة عود: إنّ ميقات اجتماع السحرة وموسى(عليه السلام) كان يوم النيروز وكان يوم عيد لهم يجتمع إليه الناس من الآفاق. قال تعالى: موعدكم يوم الزينة. يتزينون فيه ويزينون الأسواق.

والعيد الرابع هو يوم عيد المائدة. الذي طلب من الله سبحانه عيسى(عليه السلام) إنزال المائدة من السماء على أمته. حيث نطق بذلك القرآن الكريم حاكياً عن عيسى(عليه السلام) قوله:

﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

ولكن الذي يظهر أن هناك أعياداً آخر غير ما ذكره القرآن الكريم.

قال العلامة القمي في سفينة البحار عقيب ما ذكرناه عنه آنفاً:

كان لأصحاب الرس عيد في كل سنة يجتمعون عند شجرة الصنوبر ويقربون القربان ويشعلون النيران فيحرك أغصان الشجرة الشيطان ويصيح من ساقها صياح الصبي: إني قد رضيت عنكم عبادي. فطيبوا نفساً وقرّوا عيناً. فيرفعون رؤوسهم عن السجود ويشربون الخمر ويضربون بالمعازف ويأخذون الدستبند.

وقال العلامة المتقدم في مادة عود من سفينة البحار:

ولعل أول الأعياد ما روي من أنّ آدم(عليه السلام) لما ذكر نوحاً(عليه السلام) قال: إنّ الله تعالى باعث نبيّ اسمه نوح. وإنّه يدعو إلى الله تعالى فيكذبونه فيقتلهم الله بالطوفان. وأوصى آدم إلى هبة الله وهو شيث(عليه السلام): أنّ من أدركه منكم فليؤمن

به وليتبعه وليصدق به فإنّه ينجو من الغرق.

وقد كان آدم(عليه السلام) أوصى هبة الله أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة فيكون يوم عيد لهم. وقد وفّق الله ذريّة هبة الله للقيام بتلك الوصية.

قال في مجمع البيان:(١).

لما بعث الله(عزوجل) نوحاً دعا قومه علانية. فلمّا سمع عقب هبة الله ابن آدم(عليه السلام) من نوح تصديق ما في أيديهم من العلم، وعرفوا أن العلم الذي في أيديهم هو العلم الذي جاء به نوح(عليه السلام) صدّقوه وسلّموا له... فأمّا ولد قابيل فكذّبوه وقالوا: إن الجن كانوا قبلنا فبعث الله إليهم ملكاً. فلو أراد لَبَعث إلينا ملكاً من الملائكة.

وكيف كان فقد عرفت أن الأعياد الإسلامية العامة التي لم يختلف فيها قوم وقوم، أحدها عيد الفطر. وبطبيعة الحال إنّ شرعيته تتبع شرعية صوم شهر رمضان(٢).

---

(١) ذكر ذلك في ص٤٣٤ من المجلد الثاني.

(٢) قال المجلد الأول ص٢٦٠ من فقه المذاهب الأربعة:

إن صلاة العيد شرعت في السنة الأولى من الهجرة وهناك رواية تذكر ذلك. وقيل في السنة الثانية. لكن قال في ص٤٢٧ من المجلد المذكور: وكانت فريضته ـ يعني صوم شهر رمضان ـ في شعبان من السنة الثانية من الهجرة. غير أنه قال في ص٥٠٨ من المجلد المفروض: أمر(صلى الله عليه وآله) بها ـ يعني زكاة الفطرة ـ في السنة التي فرض فيها شهر رمضان قبل الزكاة يعني زكاة الأموال.

وقال في ص٤٧١ من المجلد المزبور: وفرضت ـ يعني زكاة الأموال ــ في السنة الثانية من الهجرة.

قال في ص٥٩٣ من المجلد المتقدم: شرعت الأضحية في السنة الثانية من الهجرة كالعيدين وزكاة المال وزكاة الفطرة. =

وقد قال بعضهم: إن تشريعه كان في شعبان في السنة الأولى من الهجرة. وكذلك كانت زكاة الفطرة. فهي أسبق من زكاة الأموال في التشريع بسنة، حيث أنها شرّعت في السنة الثانية من الهجرة. وإن كان هناك قول لأهل السنّة والجماعة أيضاً بأنّ تشريع الصوم في السنة الثانية من الهجرة أيضاً.

ويوم العيد سواء كان يوم عيد الفطر أو الأضحى، من الأيام المباركة الكريمة التي وردت فيه أحاديث التكريم والتعظيم. واعتبرت فيه أدعية وأعمال غير خفية على المراجع لكتب الأدعية والأعمال. إلّا أن مولانا أمير المؤمنين(عليه السلام) على ما ذكره شارح النهج المعتزلي يقول: إنّما هو عيد لمن قبل الله صيامه وقبل قيامه. وكل يوم لا يعصى الله فيه فهو يوم عيد.

وقال بعض من نظم في هذا الموضوع كما في شرح النهج :

قالوا أتى العيد والأيام مشرقة ... وأنت باك وكل الناس مسرور
فقلت إن واصل الأحباب كان لنا ... عيداً وإلا فهذا اليوم عاشور

وقال شارح النهج أيضاً ناسباً ما سيذكر بالواسطة إلى الغزالي:

قالوا أتى العيد قلت أهلاً ... إن جاد بالوصل فهو عيد
من ظفرت بالمنى يداه ... فكلّ أيامه سعود

وكيف ما كان فعيد الفطر من أعياد المسلمين الذي لا ريب فيه لأحد. ولليلته

= قلت: ولا يخفى ما في هذه التوقيتات من الاضطراب.

وقد قال في ص٢٢٦ من المجلد المنوه عنه: شرع الأذان في السنة الأولى من الهجرة...
أما الإقامة فلم يذكر لها ثمة توقيت تشريع لا عند التكلم في الأذان ولا عند التكلم في الإقامة... وأما الصلاة فقد قال أن مشروعية الصلاة كانت ليلة الإسراء في مكة قبل الهجرة بسنة. وكان الظهر أول ما فرض.

ويومه من الليالي والأيام الفاضلة التي يتضاعف فيها ثواب الأعمال.

قال العلامة القمي رحمه الله في مفاتيح الجنان ما ترجمته: إن الليلة الأولى من شوال من جملة الليالي الشريفة. وفي فضيلة العبادة فيها وإحيائها وردت الأحاديث الكثيرة. بل قد وردت الرواية في أن الليلة المذكورة ليست أقل ثواباً من ليلة القدر. وقد ذكر لهذه الليلة أعمال وأدعية كالغسل عند الغروب وإحيائها بالصلاة والدعاء والاستغفار والمبيت في المسجد والتكبير المعروف عقيب صلاة المغرب والعشاء والصبح وعقيب صلاة العيد وهو قول:

الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد الحمد لله على ما هدانا وله الشكر على ما أولانا.

إلى آخر ما ذكره من أوراد وأدعية مما ينبغي مراجعتها هناك. التي منها زيارة الإمام الشهيد بل أبى الأئمة وسيد الشهداء الحسين صلوات الله وسلامه عليه. فإن فيها الفضل الكثير والثواب الخطير.

وأمّا يوم العيد فهو اليوم المشهود، الذي عظم شأنه عن التحديد وجلّ قدره عن التوصيف والتقييد. وهو يوم العبادة والطاعة والأذكار والأدعية. من مسنوناته الغسل ما بين طلوع الفجر ووقت أداء صلاة العيد...

وينبيك عن فضل هذا اليوم المبارك وعظمته، الدعاء المأثور في قنوت صلاة العيد الذي يقول فيه: أسئلك بحق هذا اليوم الذي جعلته للمسلمين عيداً ولمحمّد(ﷺ) ذخراً وشرفاً وكرامةً ومزيداً... إلى آخر ما يذكر في الدعاء الشريف.

ومن أعماله إخراج زكاة الفطرة. على النهج المفصّل في كتب الفقهاء رفع الله قدرهم وشرف محلهم، مما لا يخفى على المتتبع. ثم قال تعالى شأنه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

وفيه من التقريع والتعريض بالمؤمنين ما لا يخفى. فإنّه تعالى لما بيّن بأنّ الفلاح والوصول إلى البغية والمقصد بالزكاة والصلاة، أفاد في هذه الجملة بما مرجعه إلى أنّ عمل أهل الدنيا عمل غير المتيقن بذلك، فلذا لا تفعلون ما به الفلاح والنجاح فتختارون ما يعود عليكم بالنفع العاجل وإن كان نزراً قليلاً، وتتركون الخير الأجل وإن كان خطيراً جزيلاً.

قال في كل من مجمع البيان وتفسير الرازي:

قال عبدالله بن مسعود إن الدنيا أحضرت لنا وعجّل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذّاتها وبهجتها. وأن الآخرة نعتت لنا وزويت عنا. فأخذنا العاجل وتركنا الآجل.

ثم إنّه تعالى شأنه شوق إلى الآخرة ورغّب فيها وأشار إلى أهميتها وعظمتها، لما فيها من السعادة الخالدة والحياة الدائمة. والنعيم المقيم الذي لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على بال.

فقال تعالى شأنه: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

ثم قال تعالى شأنه:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

قال في مجمع البيان:

يعني هذا الذي ذكر من قوله: قد أفلح... إلى أربع آيات، لفي الكتب الأولى التي أنزلت قبل القرآن. ذكر فيها فلاح المصلّي والمتزكي وإيثار الخلق الدنيا على الآخرة وإن الآخرة خير... إلى أن قال:

ثم بيّن سبحانه أنّ الصحف الأولى ما هي. فقال: صحف إبراهيم وموسى...(عليهما السلام). ثم قال:

وروى عن أبي ذر(رضي الله عنه) أنّه قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء...؟ فقال(صلى الله عليه وآله) مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً.

قلت: يا رسول الله كم المرسلون منهم...؟

قال(صلى الله عليه وآله): ثلاثمائة وثلاثة عشر، وبقيّتهم أنبياء.

قلت: كان آدم(عليه السلام) نبياً.

قال(صلى الله عليه وآله): نعم كلّمه الله وخلقه بيده. يا أبا ذر أربعة من الأنبياء عرب هود وصالح وشعيب ونبيّك(صلى الله عليه وآله).

قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب...؟

قال(صلى الله عليه وآله) مائة وأربعة كتب. أنزل الله منها على آدم عشر صحف. وعلى شيث خمسين صحيفة. وعلى أخنوخ ـ وهو إدريس ـ ثلاثين صحيفة وهو أول من خطّ بالقلم. وعلى إبراهيم عشر صحائف. والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

وقد ذكر هذا الحديث علماؤنا الأعلام في كتبهم الكلامية. وذكره باختصار كل من الرازي والزمخشري. وأشار إلى اختصاره صاحب التعليق على الكشاف فقال:

هو مختصر من حديث طويل. أخرجه ابن حيان والحاكم... وقد تقدّمت الإشارة إليه في الحج.

وقال في كل من المجمع وتفسير الرازي والكشاف:

وفي الحديث إنّه كان في صحف إبراهيم(عليه السلام):

ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه.

وقال في المجمع:

وقيل: إن كتب الله كلّها أنزلت في شهر رمضان.

المحاضرة الثامنة عشرة

السلام تحية المسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في سورة يونس وهي السورة العاشرة والآية العاشرة منها أيضاً:

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قال في مجمع البيان عند تفسير الآية:

دعواهم أي دعاء المؤمنين في الجنّة وذكرهم فيها أن يقولوا: سبحانك اللّهم. يقولون ذلك لا على وجه العبادة لأنّه ليس هناك تكليف بل يتلذّذون بالتسبيح.

وقيل: إنهم إذا مرّ بهم الطير في الهواء يشتهونه. قالوا: سبحانك اللّهم. فيأتيهم الطير فيقع مشوياً بين أيديهم. وإذا قضوا منه الشهوة قالوا: الحمد لله رب العالمين. فيطير الطير حيّاً كما كان... فيكون مفتتح كلامهم في كل شيء التسبيح ومختتم كلامهم التحميد. فيكون التسبيح في الجنّة بدل التسمية في الدنيا... عن ابن جريج.

وتحيتهم فيها سلام: أي تحيتهم من الله سبحانه في الجنّة سلام.

وقيل: معناه تحية بعضهم لبعض فيها، أو تحية الملائكة لهم فيها سلام.

يقولون: سلام عليك، أي سلِمْتُم من الآفات والمكاره التي ابتلي بها أهل النّار.

قلت: وينبغي أن يعرف الإنسان المسلم ما أكرمه به من مشروع السلام، إذ جعله تحية المسلم للمسلم. بأن جعل ما كرّم الله به أهل طاعته وسكان جنّته من المؤمنين في دار النعيم، جعله تحيّة لهم في هذه النشأة.

ولعظيم شأن هذا السلام قال رسول الله(ﷺ): «على ما في ذهني»:

أحبّ من دنياكم ثلاث: إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة في الليل والناس نيام.

أما نحن فقد زهدنا في هذا التكريم واستبدلنا عنه بما يشبه تحية اليهود والنصارى وما يشبه تحية أهل الجاهلية كصباح الخير ومساء الخير فإنّها قريبة المعنى من قولهم: أنعم صباحاً.

ولا يخفى أن لفظة اللّهم في الآية وحيث ما وردت في القرآن الكريم أو الأدعية المأثورة معناها: يا الله. وذلك لأنّ عندهم ـ أعني علماء العربية ـ لمّا كان لا تجتمع أدوات النداء مع الميم، فهم إما أن يحذفوا أداة النداء ويعوضوا عنها الميم فيقولون: اللهم بضم اللام الثانية. وإما أن يأتوا بأدوات النداء فيحذفون الميم فيقولون: يا الله. ثم ليعلم أن مفتتح دعاء الافتتاح الذي قيل بأنه مروى عن الإمام الحجّة المنتظر(عجل الله فرجه)، الذي قوله(عليه السلام): اللهم: جار هذا المجرى. وقوله(عليه السلام): إني افتتح الثناء: معناه إنني أفتتح ثنائي عليك بحمدي لك.

وهذا من بديع البيان وجليل الثناء، لأن الحمد أرفع في الثناء من الثناء وحده.

قال في مجمع البحرين في مادة: ثنا:

الثناء بالمد هو الذكر الحسن والقول الجميل... وقال في مادة: حمد: والحمد هو الثناء الجميل على قصد التعظيم والتبجيل للممدوح سواء النعمة وغيرها... وقال: والشكر فعل ينبيء عن تعظيم المنعم بكونه منعماً، سواء كان باللسان أو بالجنان أو بالأركان... وعليه قول القائل:

أفادتك النعماء مني ثلاثةٌ　　　يدي ولساني والضمير المحجّبا

والحمد أعم من جهة المتعلّق وأخص من حيث المورد. والشكر بالعكس.

والحمد لله ربّ العالمين.

فيوض الرحمن

في محاضرات شهر رمضان

الإمام السيّد
عبد الكريم آل السيّد علي خان المدني (قدس سره)

التدقيق والتعليق والمراجعة
الأستاذ الدكتور السيّد عبد الحليم المدني

طُبع بنفقة ومتابعة الأستاذ السيّد محمد السيّد عبد الكريم المدني
الأمين العام لمؤسسة الإمام المدني الإسلامية

الجزء الثاني

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

مقدمة الجزء الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة الكتاب

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّد الأولّين والآخرين والشفيع في يوم الدين الصادق الأمين وعلى آله الطاهرين الهداة المهديين.

وبعد:

فيقول العبد الأثيم عبد الكريم آل السيد علي خان المدني عامله الله بلطفه الجسيم:

لما كان بعض ليالي شهر الله الأعظم شهر رمضان المبارك، له نحو تعلق بسيّد الوصيين وإمام المتّقين ويعسوب الدين، حيث كان معراجاً لروحه المقدّسة وهي روح الإيمان والحق إلى أعلى علّيّين والالتحاق بسيّد النبيين(ﷺ)، ومورد الفاجعة المسلمين بإمامهم والمؤمنين بأميرهم، بل فاجعة الدين بأبي السبطين والريحانتين عليّ بن أبي طالب(عليه الصلاة والسلام). تلك الفاجعة التي قامت بها تلك الكفّ اليهودية وهي كفّ ابن ملجم المرادي الخارجي فأردت ذلك السيّد الكريم صريعاً في محرابه مخضوباً بدمائه.

فلذا خصّصنا جملة من المحاضرات في تلك الليالي بذكره الميمون خدمة للحق وإعلاناً بكلمة الصدق. وأخذنا على أنفسنا غالباً أن لا نتعدّى في مرحلة

إثبات فضيلة له(عليه السلام)، عما هو مرويّ من طرق أخواننا أهل السنة والجماعـة، فـإن ذلك أعمَّ نفعاً. فإن كل ما هو مرويّ من طرقهم مرويّ مـن طرقنـا غالبـاً فتكـون الفائدة إذ ذاك أتمّ والمنفعة أعظم.

وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المحاضرة الأولى

في الولاية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[1].

أقول: قال المبرد[2]:

أصل الوليّ الذي هو أولى أي أحق، ومثله المولى.

وقال الطبرسي (رحمه الله) في مجمعه:

الوليّ هو الذي يلي النصرة والمعونة. والوليّ هو الذي يلي تدبير الأمر. يقال: فلان وليّ المرأة، إذا كان يملك تدبير نكاحها. ووليّ الدم: من كان إليه المطالبة بالقود والسلطان وليّ أمر الرعيّة. ويقال لمن يرشحه لخلافته عليهم بعده: وليّ عهد المسلمين. والمتعيّن في الآية المباركة هو المعنى الثاني، وهو الأَوْلى بتدبير الأمر ووجوب الطاعة. لأنّ أداة الحصر تقتضي قصر الحكم على مدخولها ونفيه عمّا عداه. وهذا المعنى هو الصالح للقصر دون غيره من المعاني الأخرى. فإن المحبّة

---

(١) هذه الآية ٥٥ من السورة ٥ وهي سورة المائدة. ومحل ذكرها ص٢٠٩ من المجلد ٢ من مجمع البيان؛ وص٦١٧ من المجلد الثالث من تفسير الرازي الكبير.

(٢) ذكر هذا في ص٢١١ من مجمع البيان.

والموالاة في الدين والنصرة وغير ذلك مما قالوا أنه معنى للوليّ، لا تخصيص لمؤمن فيه دون مؤمن. كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ هذه الآية الشريفة من آيات عليّ أمير المؤمنين(عليه السلام) وأدلّة إمامته.

ذكرنا في كتابنا المدوّن لبيان ما لعليّ(عليه السلام) من المكانة عند الله تعالى وعظيم المنزلة من طريق القرآن الكريم والأحاديث النبوية، أنّه قد ذكر غير واحد دعوى الاتفاق على أن الآية المباركة من آيات عليّ(عليه السلام). النازلة في إظهار فضله وجليل قدره.

قال العلاّمة شرف الدين(طاب ثراه) في ص١٤٣ من مراجعاته: إن نزولها في عليّ(عليه السلام) ممّا أجمع المفسّرون عليه. وقد نقل إجماعهم هذا غير واحد من أعلام السنّة كالإمام القوشجي في مبحث الإمامة من شرح التجريد. وفي الباب ١٨ من غاية المرام ٢٤ حديثاً من طريق الجمهور في نزولها في عليّ(عليه السلام).

وقال العلاّمة الأكبر السيد عبد الله شبّر(قدس سره) في ص١٤٤ من المجلد الأول من حق اليقين: فقد اتفق المفسّرون والمحدّثون من الشيعة وأهل السنة أنها نزلت في عليّ(عليه السلام)، لمّا تصدَّق بخاتمه على المسكين في صلاته. وهو مذكور في كتب الصحاح. ثم ذكر(رحمه الله) ٢٦ علماً من علماء التفسير والحديث ممن روى نزول الآية في عليّ(عليه السلام). وقال البحّاثة الجليل الشيخ الأميني(طاب ثراه) في ص١٤١ من المجلّد ٣ من كتاب الغدير: أنه قد روى نزول الآية المباركة في عليّ(عليه السلام) ٦٥ حافظاً من حفّاظ العلم وأهل الضبط من أعلام أهل السنة والجماعة المجانبين لطريق الاعتساف العاكفين على سبيل الإنصاف أمناء الأمّة على نقل الأصول والفروع. إلى غير ذلك مما ذكر في المقام فراجع. ومما ورد من الطريقين في شأن نزول الآية ما ذكره الطبرسي(طاب ثراه) في مجمعه. والمحكي عن الثعلبي في تفسيره بإسناد واحد بدون زيادة ولا نقصان.

قال الطبرسي(قدس سره) في ص ٢١٠ من مجمعه:(ومثله الثعلبي في تفسيره) حدّثنا السيّد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني القاني، قال: حدّثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني، قال: حدّثنا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه الصيدلاني، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الشعراني، قال: حدثنا أبو علي أحمد بن علي بن رزين البياشاني، قال: حدثنا المظفّر بن الحسين الأنصاري، قال: حدثنا السدي بن علي الوراق، قال: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن عباية بن ربعي، قال: بينا عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله)، إذ أقبل رجل متعمّم بعمامة. فجعل ابن عباس لا يقول قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) إلا قال الرجل: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله). فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت...؟ فكشف العمامة عن وجهه، وقال: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي. أنا جندب بن جنادة البدري[1] أبو ذر الغفاري سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) بهاتين وإلاّ فصُمّتا ورأيته بهاتين وإلا عميتا، يقول: عليّ قائد البررة[2] وقاتل الكفرة منصورٌ من نصره ومخذولٌ من خذله...

أمّا إني صليت مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) يوماً من الأيام صلاة الظهر. فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً. فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللّهمَّ اشهد أني سألت في مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله) فلم يعطني أحد شيئاً! وكان عليّ راكعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليه وكان يتختّم فيها. فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من

(١) قال في مجمع البحرين، ص٢٣٠؛ بدر اسم موضع بين مكّة والمدينة وهو إليها أقرب. يذكّر ويؤنّث. وفيها كانت وقعة النبيّ(صلى الله عليه وآله) مع المشركين. وعن الشعبي بدر اسم بئر هناك. قال: وسمّيت بدراً، لأن الماء كان لرجل من جهته اسمه بدر.

(٢) قال في مجمع البحرين، ص٢٣١، عند تفسيره قوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾. البررة: جمع بار وهو فاعل البرّ أي الخير. وجمع البَرابرار. وكثيراً ما يخص الأولياء والزهّاد والعبّاد. والكرام البررة هم الملائكة المطيعون المطهرون من الذنوب والمآثم.

خنصره، وذلك بعين رسول الله(ﷺ). فلما فرغ النبيّ(ﷺ) من صلاته. رفع رأسه إلى السماء وقال: «**اللّهمَّ إن أخي موسى سألك فقال: رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري**» فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾.

«**اللّهمَّ وأنا محمد نبيّك وصفيّك اللّهمَّ فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً اشدد به ظهري...**».

قال أبو ذر: فوالله ما استتمّ رسول الله(ﷺ) الكلمة، حتى نزل عليه الأمين جبرائيل(عليه السلام) من عند الله(عزّوجلّ) فقال: يا محمّد اقرأ. قال(ﷺ): وما أقرأ؟ قال(عليه السلام): اقرأ:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟..﴾ الآية.

قال العلاّمة الطبرسي(طاب مرقده) بعد ذكر هذا الحديث:

وروى أبو بكر الرازي في كتاب أحكام القرآن - على ما حكاه المغربي عنه والرّماني والطبري - أنها نزلت في عليّ(عليه السلام) حين تصدّق[1] بخاتمه وهو راكع.

---

(١) يوم التصدّق بالخاتم هو اليوم ٢٤ من شهر ذي الحجّة الحرام. وهو يوم نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية. وهو يوم المباهلة مع نصارى نجران. وهو يوم وضع رسول الله(ﷺ) رداءه على عليّ وفاطمة والحسنين(عليهم السلام) وتلا قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الآية [الأحزاب: ٣٣]. وأما اليوم الخامس والعشرون من الشهر المفروض هو يوم نزول، قوله تعالى في أهل بيت النبوّة لدى تصدّقهم على المسكين: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨] وما سبقها وما لحقها من آيات المدح والثناء.

وهو قول مجاهد والسدي والمروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله(عليهما السلام) وجميع علماء أهل البيت.

في مفاد الآية الشريفة

وقد أفادت هذه الآية المباركة أمراً خطيراً وشأناً كبيراً، يصغر لديه كل كبير ويهون بالقياس إليه كل خطير. وذلك ما أثبته تعالى شانه لنبيّه(صلى الله عليه وآله) ووليّه(عليه السلام) من الولاية العامّة والسلطة المطلقة، بنحو ولايته تعالى شأنه. إذ لا ريب أن الخالق الباري المتوحّد في الخلق والصنع، له الولاية المطلقة والسلطة العامة. إذ أنّها من مقتضيات الربوبية ولوازمها الذاتية. وقد جعلها سبحانه لنبيّه(صلى الله عليه وآله) بالنحو الذي تكون له جلّت آلاؤه إلاّ ما خصّصه العقل أو الشرع.

كما قد جعلها تعالى ذكره لوليّه ووصيّ نبيّه وأبي سبطيه(صلوات الله وسلامه عليهما وآلهما). المشار إليه بواجد تلك الصفات وحامل تلك السمات. الذي لم يكن في شرق الأرض وغربها لدى نزول الآية واجداً لها سواه وموصوفاً بها غيره. كما أنبأك عن ذلك ما أسلفنا ذكره في شأن النزول.

فعليّ(عليه السلام) بحكم الآية الفرقانية له الولاية على الخلق والتصرّف المطلق بالنحو الذي يكون لنبيّه(صلى الله عليه وآله)، المبيّن في الآية ٦ من سورة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ...﴾ والتي استشهد بها الرسول(صلى الله عليه وآله) على ذلك الجمع الغفير في يوم الغدير واعترف له بها ذلك الحشد الكبير. ثم رفع(صلى الله عليه وآله) عليّاً(عليه السلام) بكلتا يديه حتى بان بياض أبطيهما. فقال(صلى الله عليه وآله):

«**ألا من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه...**» إلى آخر ما ذكر هناك.

ولا ريب أن هذه الآية المباركة أحدى آيات إمامة أمير المؤمنين(عليه السلام) ونصوص خلافته للرسول الأمين(صلى الله عليه وآله) التي جلّت عن الإحصاء واستعصت عن

الاستقصاء. فإنه قد جمع منها مؤلف واحد في مؤلَّف واحد أَلفي حديث. وهو الكتاب المسمّى الألفين لآية الله العلاّمة أعلى الله تعالى مقامه. وقد قال أهل العلم: إنه ورد في عليّ(عليه السلام) وحده من القرآن ثلاثمائة آية وقال آخر: إنه ورد فيه(عليه السلام) وحده ثلث القرآن.

فالآية المباركة من آياته(عليه السلام) الآخذة بالأعناق إلى وجوب القول بإمامته وفرض طاعته(عليه السلام). فلذا ترى الإمامية يجعلون الآية الشريفة من جملة النصوص على إمامته. حيث أنهم يرون كما يقتضيه البرهان: أن الإمامة لا بدّ وأن تكون بالنص الجليّ الربوبيّ أو النبويّ. ولا يكفي فيها الاختيار والانتخاب. لأن مناطها مناط النبوّة التي لا معنى للاختيار والانتخاب فيها قطعاً. حيث أنّها مبنيّة على خصائص نفسية وعصمة ذاتية، لا يحيط بها خبراً إلاّ المطّلع على السرائر والواقف على الضمائر.

وقد اتفقت الأمّة على أنه لا نص على خلافة غيره. وأن غيره ممّن تقدّمه كانت خلافته مبنيّة على كفاية الانتخاب والاختيار أو ثبوت الإجماع الذي عرفت أنه لا مجال له في أمثال المقام. مضافاً إلى أن تصحيح خلافة من تقدّمه على رأي المصحّحين لا يقتضي تأخّر عليّ(عليه السلام) بالفضيلة عنهم. حيث إنّ التفضيل منوط بكون المفضّل أجمع للمزايا المحمودة وأوسع في استحقاق المثوبة.

ولذا ترى شارح النهج المعتزلي[1] بعد أن ذكر اتفاق أهل السنّة على شرعية

---

(١) قال العلاّمة القمّي(رحمه الله) في ص١٨٥ من الجزء الاول من كتاب: الكنى والألقاب في ترجمة شارح النهج المعتزلي:

وعزّ الدين عبد الحميد بن أبي الحديد بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني. الفاضل الأديب المؤرّخ الحكيم الشاعر شارح النهج المكرّم صاحب القصائد السبع =

خلافة أبي بكر قال: وأما التفضيل فاختلفوا فيه. فقال قدماء البصريين: أن أبا بكر أفضل من عليّ. وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة. وقال البغداديون قاطبة قدماؤهم ومتأخروهم: أن علياً أفضل من أبي بكر... وإلى هذا المذهب ذهب أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي أخيراً وجملة من البصريين ذكرهم شارح النهج في الصحيفة المذكورة بأسمائهم... ثم قال:

وذهب كثير من الشيوخ إلى التوقف فيهما. وهو قول أبي حذيفة واصل بن عطاء وأبي الهذيل محمد بن الهذيل العلاف من المتقدّمين. وهما وإن ذهبا إلى الوقف بينه(عليه السلام) وبين أبي بكر وعمر، قاطعان على تفضيله على عثمان... إلى أن قال: وأما نحن فنذهب إلى ما ذهب إليه شيوخنا البغداديون من تفضيله(عليه السلام). وقد ذكرنا في كتبنا الكلامية: ما معنى الأفضل. وهل المراد به الأكثر ثواباً أم الأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة. وبيّنّا أنه(عليه السلام) أفضل على التفسيرين معاً.

= المشهور. كان مذهبه الاعتزال كما شهد لنفسه في بعض قصائده في مدح أمير المؤمنين(عليه السلام) بقوله:

ورأيت دين الاعتزال وإنني ... أهوى لأجلك كل من يتشيَّع

كان مولده غرّه ذي الحجّة سنة ٥٨٦ وتوفي ببغداد سنة ٦٥٥.

يروي آية الله العلاّمة الحلّي (قدس سره)عن أبيه عنه. والمدائني نسبة إلى المدائن. ويأتي ما يتعلق به في المدائني. وقال طاب ثراه هناك في ص١٣٩ من الجزء الثالث من كتابه المذكور: والمدائن نسبة إلى المدائن. وهي كما عن تلخيص الآثار وغيره: عبارة عن مدن سبع كانت من بناء أكاسرة العجم على طرف دجلة بغداد.

يسكنها ملوك بني ساسان إلى زمن عمر بن الخطاب. فلما ملك العرب ديار الفرس واختطت البصرة والكوفة انتقل الناس إليهما.

قال صاحب التلخيص: وأما الآن فهي شبه قرية في الجانب الغربي من دجلة. أهلها فلاّحون. من عادتهم أنّ نساءهم لا يخرجن نهاراً أصلاً. وفي الجانب الغربي مشهد سلمان الفارسي أعلى الله مقامه.

وليس هذا الكتاب موضوعاً لذكر الحجّاج في ذلك أو في غيره من المباحث الكلامية لنذكره. ولهذا موضع هو أليق به.

وسيأتي في المحاضرة الثانية بيان في الموضوع أوسع من هذا البيان. فلينتظر.

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة الثانية

في المباهلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1].

أقول: إنَّ...

لتأكيد نسبة المحمول للموضوع... والمَثَل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الآخر.

وقيل: إن المقصود من ضرب الأمثال أنّها تؤثّر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه. وذلك لأنّ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجليّ والغائب الشاهد. فيتأكّد الوقوف على ماهيته، ويصير المحسوس مطابقاً للمعقول. وذلك في نهاية الإيضاح. ولهذا أكثر الله تعالى شأنه في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله.

(١) هذه الآية هي الآية ٥٩ من سورة آل عمران وموقعها ص٤٥١ من الجزء الأول من مجمع البيان وص٦٩٧ من المجلد الثاني من تفسير الرازي.

وفي الإنجيل سورة الأمثال.

وهو واقع في كلمات العرب كثيراً. مثل: عند الصباح يحمد القوم السرى. ومثل: ما هكذا نورد يا سعد الإبل. والمثل الذي ضربه رسول الله(ﷺ) لاجتماع الحسنات والسيئات حيث نزل(ﷺ) بأرض قرعاء[1].

قال العلاّمة القمي(رحمه الله):

قال الراغب في الذريعة: واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الإخبار، فليس بكذب في الحقيقة، ولهذا لا يتحاشى المتحرّزون عن الكذب عن التحدث به. كقولهم في الحثّ على مداراة العدو والتلطّف في خدمة الملوك: أن سبعاً وذئباً وثعلباً اجتمعوا. فقالوا: نشترك فيما نتصيّد. فصادوا عيراً[2] وظبياً وأرنباً. فقال السبع للذئب: اقسم. فقال: هو مقسوم، العير لك والظبي لي

(١) ففي مادة ذنب من سفينة البحار للعلاّمة القمّي(رحمه الله): عن أبي عبد الله(عليه السلام) أن رسول الله(ﷺ) نزل بأرض قرعاء، فقال(ﷺ) لأصحابه: أأتونا بحطب. فقالوا: يا رسول الله إنّا بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال(ﷺ): فليأت كل إنسان بما قدر عليه، فجاؤا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض. فقال رسول الله(ﷺ): هكذا تجتمع الذنوب، ثم قال(ﷺ): إيّاكم والمحقّرات من الذنوب، فإنّ لكل طالباً ألا وإنّ طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين.

ثم قال(قدس سره) في الكتاب المتقدّم في المادة المتقدمة:

ويناسب هنا ما حكاه شيخنا البهائي(رحمه الله) قال: كان توبة بن الصمة محاسباً لنفسه في أكثر أوقات ليله ونهاره، فحسب يوماً ما مضى من عمره فإذا هو ستون سنة فحسب أيامها فكانت واحداً وعشرين ألف يوم وخمسمائة يوم، قال: يا ويلتي ألقى مالكاً بواحد وعشرين ألف ذنب. ثم صعق صعقة كانت فيها نفسه.

(٢) قال في مادة:(ع ي ر) من مختار الصحاح: العَير الحمار الوحشي والأهلي أيضاً. والأنثى عيرة.. إلى أن قال: والعِير بالكسر: الإبل التي تحمل الميرة.

والأرنب للثعلب، فوثب السبع فأدماه... ثم قال للثعلب: اقسم. فقال: هو مقسوم، العير لغذائك، والظبي لمقيلك، والأرنب لعشائك. فقال السبع: من علّمك هذه القسمة؟ قال: علّمني الثوب الأرجواني الذي على الذئب...

وكيف كان... فقد قال الرازي:

أجمع المفسّرون على أنّ هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران(1) على الرسول(ﷺ).

أقول: ومراده من إجماع المفسّرين إجماعهم على هذه الآية وما بعدها من آيتي الحقّ والحاجّة لا خصوص هذه الآية فقط، لشواهد في كلامه يقف عليها الناظر فيه. وكيف كان. فقد أفاد بأنه يروى أنّه لمّا أورد(ﷺ) الدلائل على نصارى نجران، ثم أنّهم أصرّوا على جهلهم، فقال(ﷺ): إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجّة أن أباهلكم. فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك. فلما رجعوا، قالوا للعقاب – وكان ذا رأيهم -: يا عبد المسيح ما ترى؟

فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمّداً نبي مرسل لقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم. والله ما باهل قوم نبياً قطّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لكان الاستئصال. فإن أبيتم إلاّ الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم...

وكان رسول الله(ﷺ) خرج وعليه مرط من شعر أسود. وكان(ﷺ) قد احتضن الحسين(عليه السلام) وأخذ بيد الحسن(عليه السلام) وفاطمة(عليها السلام) تمشي خلفه

---

(١) قال في ص٢٨٧ من مجمع البحرين: ونجران بلدة من بلاد همدان من اليمن. سمّيت باسم بانيها نجران. موضع معروف بين الحجاز واليمن. وفي الحديث: شرّ النصارى نصارى نجران.

وعليّ(عليه السلام) يمشي خلفها. وهو يقول: «**وإذا دعوت فأمّنوا**».

أقول: لكن ذكر العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان، كيفية خروج الرسول(صلى الله عليه وآله) بنحو يختلف نحو اختلاف.

قال: فلمّا كان الغد جاء النبي(صلى الله عليه وآله) آخذاً بيد عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) والحسن والحسين(عليهما السلام) بين يديه يمشيان وفاطمة(عليها السلام) تمشي خلفه(صلى الله عليه وآله).

وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم... فلمّا رأى النبيّ(صلى الله عليه وآله) قد أقبل بمن معه. سأل عنهم. فقيل: هذا ابن عمّه وزوج ابنته وأحبّ الخلق إليه. وهذان ابنا بنته من عليّ. وهذه الجارية بنته فاطمة أعزّ الناس عليه وأقربهم إلى قلبه...(صلى الله عليه وآله).

وتقدّم رسول الله(صلى الله عليه وآله) فجثا على ركبتيه(صلى الله عليه وآله).

قال أبو حارثة الأسقف: جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة. فرجع ولم يقدم على المباهلة.

وفي تعبير الرازي المتصل بكلامه السابق:

فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه، لأزاله بها. فلا تباهلوا[1] فتهلكوا ولا يبقى على وجه

---

(١) قال العلاّمة الطريحي(أعلى الله مقامه) في مادة: بهل، من مجمع البحرين:

قوله تعالى: نبتهل أي نلعن أي ندعو الله على الظالمين. يقال: بهله الله من باب نَفَعَ: لعنه. وقد مرّت قصة المباهلة في حجج... إلى أن قال: وصفة المباهلة أن تشبك أصابعك في أصابع من تباهله وتقول: اللهم إن كان فلان جحد الحق وكَفَرَ به فأنزل عليه حسباناً من السماء وعذاباً أليماً... كذا في الحديث.

وقال(رحمه الله): والوقت ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

وقال(طاب ثراه) في مادة: حسب: قوله حسباناً من السماء بضم الحاء يعني عذاباً. وقيل: ناراً. وقيل: برداً. وأحدها: حسبانه.

الأرض نصراني إلى يوم القيامة... ثم قالوا: يا أبا القاسم، رأينا أن لا نباهلك، وأن نقرّك على دينك. فقال(ﷺ): فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم. فأبوا. فقال(ﷺ): فإنّي أناجزكم القتال. فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردّنا عن ديننا، على أن نؤدّي إليك كل عام ألفي حلّة[1] ألفاً في صفر، وألفاً في رجب، وثلاثين درعاً عاديّاً من حديد...

فصالحهم(ﷺ) على ذلك... وقال:

والذي نفس محمّد بيده إنّ الهلاك تدلّى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم.

قال الرازي: وروي أنّه لما خرج في المرط الأسود[2] فجاء الحسن(رضي الله عنه) فأدخله.

ثم جاء الحسين(رضي الله عنه) فأدخله ثم فاطمة ثم عليّ(رضي الله عنهما).

---

(١) قال في مادة:(ح ل ل) من مختار الصحاح: الحلل برود اليمن. والحُلّة: أزار ورداء. ولا تسمّى حلّة حتى تكون ثوبين.

(٢) قال في مادة: مرط، من مجمع البحرين:

في الحديث: كان يصلي في مروط. هي جمع مرط كحمل وحمول. والمرط: كساء من صوف أو خز كان يؤتزر به.

وقال في مادة: كسا: أهل الكساء الخمسة الأشباح الذين نزلت فيهم آية التطهير. والكساء بالكسر والمد. واحد الأكسية. أصله: كساو لأنّه من كسوت. يقال: كسوته ثوباً فاكتسى. والكسوة بالكسر والضم: اللباس. والجمع: كسى كمدى.

ثم قال(ﷺ): ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

واعلم أنّ هذه الرواية كالمتّفق على صحّتها بين أهل التفسير والحديث.

قلت: ومن هذا يعلم أنّ الآية المباركة أعني آية التطهير مختصّة بهؤلاء لا يشركهم فيها غيرهم من نساء أو غيرهن. كما هو واضح لمن تدبّر لا سيما على رواية المفاتيح[1]. ثمّ لا يخفى على ذي شعور ما في الآية الشريفة من ضروب الدلالات على فضيلة أهل بيت العصمة والكرامة والرحمة، من اختصاصهم بالدعوة واجتبائهم لتلك المنزلة والرفعة، وارتضائهم أعلاماً لدينه وحججاً على خصومه في دحض الشرك واستئصال جرثومة الكفر، ورفع أعلام الإيمان وإقامة دعائم الحق.

ضع الآية المباركة في موضع التشريح ودقّق النظر[2] في مشتملاتها وما

---

(١) قال العلاّمة القمّي(طاب مرقده) في مزاره: مفاتيح الجنان في أعمال يوم المباهلة ص٢٨١: اليوم الرابع والعشرون: هو يوم المباهلة على الأشهر. باهل فيه رسول الله(ﷺ) نصارى نجران. وقد اكتسى بعباءة وأدخل معه تحت الكساء علياً وفاطمة والحسن والحسين(عليهم السلام) وقال: «اللهمّ إنه قد كان لكل نبي من الأنبياء أهل بيت. هم أخصّ الخلق إليه. اللهمّ وهؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً...».

فهبط جبرائيل(عليه السلام) بآية التطهير في شأنهم. ثم خرج النبي(ﷺ) بهم(عليهم السلام) للمباهلة... إلى آخره.

(٢) ودقّق النظر في مفردات الآية لنعرف المحصّل من مركبّها:

أمّا: إنّ... فهي المشبهة وأحدى أدوات التأكيد... ومثل: هو قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره ويدني المتوهّم من المشاهد. وعيسى: هو النبي المرسل المعروف وصاحب الإنجيل والمعبّر عنه بالروح مرة وبالكلمة أخرى. وعند =

= الله: يعنى في خلق الله إياه من غيراب. وكمثل آدم: أي يشبه خلق آدم. وهو أبو البشر والنبي الأول المكرم. أي مثله في خلق الله آدم(عليه السلام) من غير أب ولا أم. فليس عيسى(عليه السلام) بأبدع ولا أعجب من خلق آدم. بل الأمر بالعكس فكيف أقروا بهذا وأنكروا ذلك. وخلقه من تراب: يعني جعل مادة خلقه الأول هو التراب. ولم يخلق أحداً قبله من هذه المادة. وقد خلق عيسى من الريح ولم يخلق قبله أحداً كذلك. ثم قال له: أي لآدم(عليه السلام). وقيل: لعيسى(عليه السلام).... كن فيكون: أي فكان. ومعناه: أنه قال له أحدث فحدث. لأنّ حدث من باب قَعَد. فيأتي امرها: أقعد.

قالوا: وكان هذه تامة. وهي كذلك لأنها الطلب الموجود.

قال في مجمع البحرين في مادة: كون.

قال في الكشاف: وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول ثَمَّ. وإنّما المعنى أنّ ما قضاه من الأمور فأراد كونه، فإنّما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كالمأمور المطيع.

وقد ذكر في ص١٩٤ من المجلد الأول من مجمع البيان عند تفسير هذه الكلمة أنّه: اختلف فيه على وجوه:

أحدها: انه بمنزلة التمثيل. لأنّ المعدوم لا يصح أن يخاطب ولا يؤمر. وحقيقة معناه: أن منزلة الفعل في تسهّله وتيسّره عليه وانتفاء التعذّر منه، كمنزلة ما يقال له: كن فيكون. كما يقال: قال فلان برأسه أو بيده كذا: إذا حرّك رأسه أو أومأ بيده ولم يقل شيئاً على الحقيقة.

قلت: والظاهر أن هذا هو ما ذكرناه عن مجمع البحرين عن الكشاف.

وقد ذكر له شواهد في الصحيفة المذكورة من الشعر العربي.

ثم قال رحمه الله تعالى شأنه:

وثانيها: أنه علامة جعلها الله للملائكة إذا سمعوها أنّه أحدث أمراً. وهذا هو المحكي عن أبي الهذيل.

ثالثها: ما قاله بعضهم: إن الأشياء المعدومة لما كانت معلومة عند الله تعالى صارت كالموجود. فصحّ أن يخاطبها ويقول لما شاء منها: كن... ثم قال(طاب ثراه): والأصح من الأقوال الأول. وهو الأشبه بكلام العرب. ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾... إلى آخر ما ذكره(قدّس سرّه). =

= قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾. وهو الأمر الثابت. أي هذا هو الثابت عند ربّك. لأنه من ربّك. ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾: أي من الشاكّين. لأنّ الامتراء في الشيء والتماري هو الشّك. قيل: الخطاب لغيره(ﷺ).

وقيل: له(ﷺ) من باب شرح الصدر وزيادة اليقين والاطمئنان مثل: ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾.

فمن حاجّك: أي خاصمك. أي في أمر عيسى(عليه السلام). أو: في الحق، الذي في قوله: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾... ومَنْ: موصول اسمي مبني على السكون دائماً. وهو من الموصولات المشتركة التي يراد بها المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع.

وحاجّك: فعل ماضي. الظاهر: أنّه يراد به المستقبل.

من بعد ما جاءك من العلم: أي بعد ذلك الدليل والبرهان الحاسم لمادّة السؤال.

وحاجّك: فعل موصول بضمير المفرد المخاطب، وهو الرسول(ﷺ) وحده.

ومن بعد: حرف وظرف زمان... وما: موصول اسمي بمعنى الذي...

وجاء: فعل ماض مقرون بضمير المفرد المخاطب وهو الرسول(ﷺ).

فقل: فعل أمر مبني على السكون. وفاعله مستتر فيه تقديره: أنت يعني الرسول(ﷺ).

وتعالوا: أمر على أصح القولين. وهو مفتوح اللام أبداً. وربّما ضمّت مع جمع المذكر السالم لمجانسة الواو. وكسرت مع جمع المؤنث.

قال في مجمع البحرين:

قال بعض اللغويين: تعالَ: فعل أمر من الارتفاع. وأصله: أنّ الرجل العالي كأن ينادي السافل فيقول: تعال. ثم كثر في كلامهم حتى استعمل بمعنى عام سواءً كان المدعو أعلى وأسفل أو مساوياً... وتتصل به الضمائر باقياً على فتحه.

وقال في مجمع البيان:

أنّه اشتهر استعماله بمعنى: هلموا... يعني سلخ منه معنى تفاوت الرتبة بين الداعي والمدعو.

وندع: مضارع مبدوء بنون المضارعة، الظاهرة في إرادة المتكلم نفسه مع غيره. وهو معتل بالواو لأنّ أصله: ندعو. وهو مجزوم بالطلب من: تعالوا. وصحّ الجزم لواجديته لشرطه =

= وهو تقدم الطلب . ومجيء المضارع بعده مجرّداً من الفاء مع كونه مقصوداً به الجزاء. بمعنى كون الفعل مسبّباً عن الطلب. إذ المعنى: تعالوا فإن تأتوا ندع. فالدعوة مسبّبة عن مجيئهم. فلذا جزم وعلامة جزمه حذف حرف العلّة وهو الواو في المقام.

وأما إعراب: تعالوا ندع.

فتعال: فعل أمر مبني على حذف النون. لأن أصله: تعالون. والواو ضمير الجمع يعود على المخاطبين. فاعل مبني على السكون في محل رفع.

وندع: فعل مضارع مجزوم في جواب الطلب والأمر. وعلامة جزمه حذف حرف العلّة... كما مرّ وقوله تعالى شأنه: أبناءنا. المراد منهم الذكور من الأولاد الصلبيين إن لم تقم قرينة على الادعاء والتنزيل.

ونساءنا: جماعة النساء المقترنة بخصائص الإضافة والانتساب كالبنات والزوجات.

والأنفس: جمع نفس. ومعناه: ندع أنفسنا وتدعون أنفسكم. ولكن لمّا لم يكن معنىً محصّلاً لدعوة النفس، كان لا محالة: ندع من هو في الوثوق والاعتماد من هو بمنزلة النفس. حيث المراد أنّ المحاجة والمخاصمة لما كانت بين الرسول(ﷺ) وبين رؤساء الفريق الآخر، فيكون المخاطبين للرسول(ﷺ) بقوله تعالوا: إنما هم الرؤساء.

ومحصّل المعنى حيئنذٍ: هلمّوا فادع ثقاتكم من رجالكم ومن يكون بمنزلة أنفسكم في الاعتماد والقرب والصدق.. وادعو من رجالي من يكون كنفسي في ذلك. ثم نبتهل: أي نتحاكم إلى الله سبحانه في أن يأخذ المبطل من الفريقين والكاذب في دعواه منهما. ويبعده عن رحمته وينزل به عذابه ونقمته.

هذا محصّل بيان مفردات الآية الكريمة.

وأما محصّل مجموعها ومركبّها، أو محصّل المفاد التركيبي للآية الشريفة فهو: فمن حاجّك يا محمد(ﷺ) في أمر عيسى(عليه السلام) بعد أن أفلجته الحجّة. فقل لمن خاصمك هلمّوا إلى الملاعنة. بأن تدعوا أبناءكم وأدعو أبنائي وتدعون نساءكم وأدعو نسائي. وتدعون من هو بمنزلة أنفسكم من رجالكم وأدعو من هو بمنزلة نفسي من رجالي ونطلب فصل الخصومة من الله سبحانه العليم القدير ليأخذ الكاذب من الفريقين هذا وقد عرفت التسالم على أن رسول الله(ﷺ) لم يدع ممن عبّرت عنه الآية بالأبناء سوى الحسنين ومن النساء سوى فاطمة ومن =

تضمّنته من حقيقة الحال... فإن دقّقت النظر فيها ترى أنّ ضمير الجمع من ندعُ غير مراد منه مجموع فريقي النبي(ﷺ) وفريق المحاجّين. وإلاّ لَغى تَكرار الأبناء والنساء والأنفس، بل المقصود من الدعوة هي دعوة كل فريق أبناءهم ونساءهم

= الأنفس سوى عليّ أمير المؤمنين(صلوات الله عليهم أجمعين).

وذلك هو الفضل المبين للمدعو بين الذي لا يساويه فضل.

ولا يخفى أن اللعن لغير المستحق غير جائز حتى لغير الإنسان.

قال في مجمع البيان في لغة الآية المباركة:

فالبهل كاللعن. وهو المباعدة عن رحمة الله عقاباً على معصيته. ولذلك لا يجوز أن يلعن من ليس بعاص من طفل أو بهيمة أو نحوهما. ومن هنا: تستطيع أن تعرف مقدار ما اقترفه أهل الشام من جرم لا يغتفر من تشريعهم سبّ عليّ أمير المؤمنين(صلوات الله وسلامه عليه)، الذي عرفت أنه نفس رسول الله(ﷺ) بنص الآية الشريفة... فقد لعنه بنو أميّة سبعين عاماً. وهي مدة خلافتهم.

هذا مع ما ورد من أن سبّه(عليه السلام) سبٌّ لرسول الله(ﷺ)، وسبّ الله سبحانه وتعالى. فراجع الأحاديث الواردة في هذا المعنى وهي كثيرة. ولا تغفل عن حديث عبد الله بن عباس عندما سمع جماعة يسبّون علياً(عليه السلام). فقال لهم: أيّكم السابّ لله... إلى آخره.

ثم انظر في حال السابّ لله عزّوجلّ ولرسوله(ﷺ). وأنّه هل يجتمع مع إسلامه...؟ وتفطّن جيداً.

قال في مجمع البحرين في مادة: سبب.

السبّ: الشتم. ومثله السّباب بالكسر وخفة الموحدة.

ومنه: سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر.

أي شتمه وقطيعته فسوق. واستحلال مقاتلته وحربه كفر.

ثم قال: أو محمول على التغليظ لا الحقيقة.

قال: ومنه حديث معاوية لرجل: ما منعك أن تسبّ أبا تراب... يعني علياً. انتهى.

وفي المقام أحاديث تعرب أن السبّ لعليّ(عليه السلام) سبّ لله عزّوجلّ ولرسوله(ﷺ). فراجع.

وأنفسهم، على معنى قل تعالوا ندع أبناءنا وتدعون أبناءكم... إلى آخر الآية.

والضمير في: ندع، وإن كان ظاهره إرادة الجمع على معنى: إنّ جماعة المسلمين ورجالهم يدعون ولو بعناية دعوى الرسول(ﷺ)، من باب الأمر بالأمر، لكونه(ﷺ) ممثّلاً للمسلمين. إلاّ أن فعله(ﷺ) في مقام تطبيق الدعوة، يرفع هذا الظهور لعدم تحقق الدعوة من غيره(ﷺ) ولا منه(ﷺ) لغير أهل بيته(عليهم السلام). وفي حمل الضمير على إرادة الجمع، مع الاقتصار في مرحلة تطبيق الدعوة على خصوص ذويه، من الاستهجان ما لا يخفى.

وعلى هذا يكون المعنى بحسب المآل: قل تعالوا أدعو أبنائي وأنتم تدعون أبناءكم... إلى آخر الآية. ولا ريب أن اختصاص الدعوة بالمنسوبين إلى الشخص بتلك النسبة الخاصة، لا بدّ من أن يكون باعتبار أنّهم أقرب الناس إليه وأحبّهم له وأعزّهم عليه. وإنّ تعرّضهم للمخاطر مع تعريضه نفسه كذلك يكون من باب تعريض الشخص لكل ما لديه من نفس ونفيس. ولا أخال يحصل الشك لأحد في إرادة هذا المعنى بعد التأمّل في الآية المباركة وخصوصيّاتها... ومن هذا الباب تنفتح لك أبواب من العلم.

١ – منها: أن المعصومين الأربعة(عليهم السلام)، هم الأحبّ والأقرب إلى الله سبحانه ورسوله(ﷺ). والأحق بمقامات العناية والتقدير والتكريم والتوقير، من جميع الأقرباء من الرجال والنساء، وهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين(عليهم السلام)، لاختصاصهم بالدعوة إلى الحق وتشريكهم مع رسول الله(ﷺ) في إقامة الدين وتثبيت عرشه. بل اختصاصهم بذلك والإعراب عن أهليتهم لتلك المقامات، يعطي أفضليتهم على كل من سواهم من الأقرباء والأصحاب، فترك تشريك غيرهم معهم يعطي الاستغناء بهم عن غيرهم، مهما كان ذلك الغير من الأرحام

والأصحاب. فتثبت بذلك أفضليتهم على كل من سواهم. إذ لو كان في البين من هو أفضل منهم بل من يساويهم في الفضل لعمّتهم الآية المباركة، ولما ترك إحضارهم في ذلك المقام الكريم، الذي هو مظهر الفضيلة وعلو المقام.

هذا مع العلم القطعيّ أنه لا توجد بقعة من بقاع الأرض تحتوي على ذوي فضل وفضيلة، مثل تلك البقعة التي فيها رسول الله(ﷺ)، فإنّها مجمع لكل من يحتمل في حقّه فضل أو فضيلة. فيستنتج من هذا أن المخصوصين بالدعوة هم الخيرة المنتخبة من كافة أهل الأرض والمنتجبون من عامة البشر.

ولا يتفاوت الحال في الكشف عن عظيم تلك الرتبة واختصاص أولئك بعظيم المنزلة، بين أن يكون تعيينهم للمباهلة من قبل الوحي من الله سبحانه – كما هو الأقرب مع عموم الآية بحسب المفهوم –، وبين أن يكون التعيين من قبل الرسول الأمين(ﷺ)، بعد أن كان(ﷺ) لا ينطق عن الهوى، ولا يفعل إلاّ الأحبّ والأرضى لله تعالى.

٢ – ومنها: ما فيه من الدلالة على الفضل الذي لا يدانيه فضل، والشرف الذي لا يماثله شرف، من نسبة الحسنين(عليهما السلام) إلى الرسول الأمين(ﷺ)، بالبنوة المشعرة بالوحدة لما بين الآباء والأبناء من وحدة جمعية عرضها التكثّر والتفرّق، كما يشير إلى ذلك الحديث المعروف عنه(ﷺ): «**حسني منّي وأنا من حسين**».

وبالنسبة الحقيقية. قال بعضهم: فعن أبي بكر الرازي أنّه قال: هذا – يعني تعبير الآية بالأبناء – يدل على أنّ الحسن والحسين أبناء رسول الله(ﷺ)، وأن ولد الابنة ابن في الحقيقة. وحكاية يحيى بن يعمر فقيه خراسان مع الحجّاج مشهورة.

قال الرازي حاكياً عن الشعبي أنه قال: كنت عند الحجّاج فأتى بيحيى بن يعمر فقيه خراسان، مكبّلاً بالحديد. فقال الحجّاج: أنت زعمت أنّ الحسن

والحسين من ذريّة رسول الله(ﷺ)؟ قال: بلى. فقال الحجّاج: لتأتيني بها واضحة بيّنة من كتاب الله أو لأقطعنّك عضواً عضواً. فقال: آتيك بها واضحة بيّنة من كتاب الله يا حجّاج. فتعجّب من جرأته بقوله يا حجّاج. فقال: ولا تأتني بهذه الآية: ندع أبناءنا وأبناءكم. فقال: آتيك بها واضحة من كتاب الله وهو قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾... فمن كان أبو عيسى وقد ألحق بذريّة نوح؟ قال: فأطرق برأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله. خلّوا وثاقه وأعطوه من المال كذا(١).

---

(١) ويشهد لهذه الدعوى ما ذكره العلاّمة القمّي (طاب ثراه) في مادة عشر من سفينة البحار، حيث قال: روى المنصور عن أبيه محمد بن علي عن جدّه علي بن عبد الله بن العباس قال: كنت أنا وأبي العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنهم) جالسين عند رسول الله(ﷺ) إذ دخل عليّ بن أبي طالب(عليه السلام) فسلّم. فردّ عليه رسول الله(ﷺ) وبشّ أو بشّر به (نسخة بدل) وقام إليه واعتنقه وقبّل بين عينيه وأجلسه عن يمينه. فقال أبي: أتحبّ هذا يا رسول الله؟ قال(ﷺ): يا عمّ رسول الله والله، اللهُ اشدّ حبّاً له مني إن الله جعل ذريّة كل نبي في صلبه وجعل ذريّتي في صلب هذا... انتهى.

ومن الجدير بالذكر وما يوضح عظيم حبّ النبي(ﷺ) لعليّ(عليه السلام) ما عن السيرة للدماميلي على ما عن السيرة الحلبية ص٢٨ من الجزء الثاني منها:

إنّ الرسول(ﷺ) قال لعليّ(عليه السلام) عندما أمره بالمبيت على فراشه ليلة الهجرة: وارتدِ بردائي هذا الأحمر والحضرمي... إلى أن قال له: ثم إني أخبرك أن الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه. فأشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل. وقد امتحنك الله يابن العم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن خليله إبراهيم والذبيح إسماعيل. فصبراً صبراً فإنّ رحمة الله قريب من المحسنين. انتهى.

قلت: تأمّل في هذا التشبيه جيداً واعرف ما اشتمل عليه من خصائص ومزايا فإنّ فيه من ذلك شيئاً عظيماً.

وكيف كان فلو لم تكن النسبة على الحقيقة بل كانت بالادّعاء والتنزيل، لكانت كافية في عظيم القدر ورفيع الشأن. فإن هذا التنزيل الذي يكون من الله سبحانه في فرقانه وفي مقام الاحتجاج مع خصومه، لا يقصر في الفضيلة عن النسبة الحقيقية. ولذلك أولهذا اشتهرت كنيتهما بأنّهما(عليهما السلام) ابنا رسول الله(صلى الله عليه وآله). كما قد صرّح بذلك الرسول(صلى الله عليه وآله) أيضاً في بعض المقامات مثل قوله(صلى الله عليه وآله): **«ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا»**[1].

---

(١) ذكر العلاّمة القمّي(رحمه الله) في ص٢٥٧، من الجزء الأول من سفينة البحار، فقال: جامع الترمذي وفضائل أحمد وشرف المصطفى وفضائل السمعاني وآمالي ابن شريح وأبان ابن بطّة: أن النبيّ(صلى الله عليه وآله) أخذ بيد الحسن والحسين(عليهما السلام) فقال(صلى الله عليه وآله): من أحبّني وأحبّ هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي في الجنة يوم القيامة.

وقد نظمه ابو الحسين في نظم الأخبار فقال:

أخذ النبي بيدَ الحسين وصنوه ... يوماً وقال وصحبه في مجمع
من ودّني يا قوم أو هذين أو ... أبويهما فالخلد مسكنه معي

وقال العلاّمة المتقدّم(طاب مرقده) في الصحيفة المذكورة: النبوي.

ألا وإن الحسين باب من أبواب الجنّة من عانده حرّم الله عليه ريح الجنّة.

وعنه(صلى الله عليه وآله): والذي بعثني بالحق نبيّاً أن الحسين بن عليّ في السماء أكبر منه في الأرض. وأنه مكتوب عن يمين عرش الله: مصباح هدى وسفينة نجاة.

وقال العلاّمة المتقدم(أعلى الله مقامه) في ص٢٥٨ من المجلد المذكور:

عن أبي هريرة قال: كنت عند النبي(صلى الله عليه وآله) وأبو بكر وعمر والفضل بن العباس وزيد بن حارثة وعبد الله بن مسعود، إذ دخل الحسين بن عليّ(عليهما السلام) فأخذه النبي(صلى الله عليه وآله) وقبّله. ثم قال(صلى الله عليه وآله): «حزقة حزقة ترق عين بقّة». ووضع فمه على فمه، وقال: «اللهمّ إنّي أحبُّه فأحبّه وأحبَّ من يحبّه. يا حسين أنت الإمام ابن الإمام أبو الأئمّة. تسعة من وُلدك أئمة أبرار».

انتهى.

٣- ومنها: ما تفيده الآية المباركة أيضاً من عظيم منزلة السبطين والريحانتين(عليهما السلام) حيث أنهما قد دعيا إلى ذلك المقام الذي لم يدع إليه إلاّ الأفذاذ وذوي المكانات من الرجالات.

قال الطبرسي(طاب ثراه): عن ابن أبي علان وهو أحد أئمة المعتزلة: هذا يدلّ على أنّ الحسنين كانا مكلّفين في تلك الحال، لأنّ المباهلة لا تجوز إلاّ مع البالغين.

لكن الطبرسي(رحمه الله) في مجمعه عند ذكر الآية قال:

وقال أصحابنا: إنّ صغر السن ونقصانها عن حدّ بلوغ الحلم، لا ينافي كمال العقل. وإنّما جعل بلوغ الحلم حداً لتعلق الأحكام الشرعية. وقد كان سنّهما في تلك الحال سنّاً لا يَمْتنِعُ معه إن يكونا كاملي العقل. على أن عندنا يجوز أن يخرق الله تعالى العادات للأئمة(عليهم السلام) - ويخصّهم بما لا يشركهم فيه غيرهم، فلو صحّ أن كمال العقل غير معتاد في تلك السن لجاز ذلك فيهم إبانة لهم عمّن سواهم ودلالة على مكانهم من الله تعالى واختصاصهم بمقام الشرف والرفعة...

كيف وقد شركهما الله سبحانه مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) في تثبيت الدين وإقامة أركان الحق، مع كونهما في سن يقتضي الاحتضان، كما بيّن ذلك في كيفية خروج الرسول(صلى الله عليه وآله) في هذه الواقعة للمباهلة، من كونه(صلى الله عليه وآله) محتضناً للحسين(عليه السلام) آخذاً بيد الحسن(عليه السلام)[1].

---

(١) ولا يخفى أنّ مرجع قوله تعالى شأنه: {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ...} إلخ، بعد خروج النبي(صلى الله عليه وآله) بمن معه من أهل بيته(عليهم السلام)، إلى مخاطبة النبيّ المكرّم(صلى الله عليه وآله) بأن أخرج للمباهلة وأخرج معك عليّاً وفاطمة والحسنين(عليهم السلام)... ولا ينبغي أن يرتاب ذو مسكة بأنّ هذا من أدلّ الأدلّة وأوضح البراهين وأصحها على علو مقام المعصومين الأربعة. حيث اختارهم =

نعم هذا هو الفضل الكبير والشرف الخطير، ولِمَ لا يكونان كذلك، وهما مجمع منقسم نور محمّد النبيّ الأمين(ﷺ) وعليّ أمير المؤمنين(عليه السلام) المجتمع في فاطمة الصدّيقة سيدة نساء العالمين(صلوات الله وسلامه عليها)، الذي خلقه الله سبحانه وجعله في عرشه قبل خلق كافة الخلق بألفي عام، على ما أثبتته الأحاديث الشريفة من الفريقين.

٤ – ومنها: أعني ما أفادته الآية الكريمة من خصائص التبجيل وجزيل الحباء والتفضيل. وهو ما كان لسيدة النساء والبضعة العذراء(سلام الله عليها) من مشاركتها لأبيها سيّد النبيّين(ﷺ) وبعلها سيّد الوصيّين(عليه السلام) وشبليها سيّدي شباب أهل الجنة من الخلق أجمعين(عليهما السلام)... حيث أقامها الله تعالى تلك المقامات السامية وأهّلها لتلك المكانة المتعالية. فاختصها بذلك المقام الرفيع من بين ذوات السن من الأزواج على كثرتهن وسائر بنات الرسول الكريم(ﷺ) ونساء أعمامه وقراباته. وهل ذلك إلاّ لإبداء عظيم الشرف ورفيع المقام... وكيف لا تختص

= الله سبحانه وانتخبهم من بين كل كريم عليه وعظيم عنده. ولو دققت النظر أكثر من ذلك، تجد أن المقصود لله سبحانه من تعيينهم للمباهلة ليس إلاّ بيان قدرهم عنده ورفيع منزلتهم لديه. وذلك بعد الالتفات إلى ما هو من اليقين أو حق اليقين أو عينه من علمه تعالى شأنه، بعدم وصول الأمر في الواقعة إل وقوع الابتهال، وانحلال المسألة بموادعة الخصم وتنازلهم عما كانوا جاؤوا له، ورضوخهم إلى إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون.

فلم يبق بعد ذلك إلاّ إرادة بيان الميزة لأهل بيت الوحي(عليهم السلام) عمن سواهم من بين كل رحم أو صاحب.

وهذا هو الشأن العظيم والمقام الكريم.

نعم. هذه المنزلة التي تتقاصر عنها المنازل لا سيما بالنسبة إلى السبطين والريحانتين(عليهما السلام)، مع ما عرفت من أنّهما(سلام الله عليهما) في سنّ الحضانة أو فوقه بيسير.

الزهراء(عليها السلام) بهذا المقام، الذي لم يؤهّل له إلاّ أهل العصمة، وهي والدة الأئمة(عليهم السلام)، ومن تمّت بهم النعمة على الأمّة... التي يقول فيها(عليها السلام) أبوها(صلى الله عليه وآله)(الذي لا ينطق عن الهوى): «**فاطمة بضعة منّي يريبني ما رابها**».

ويقول(صلى الله عليه وآله): «إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها».

وقال بعضهم(1): وقد صحّ عن حذيفة أنّه قال: سمعت النبي(صلى الله عليه وآله) يقول: «**أتاني ملك فبشرني: إنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة**».

قال: وعن الشعبي عن مسروق عن عائشة قال: أسرّ النبيّ إلى فاطمة فضحكت. فسألتها. فقالت: قال لي: «**ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمّة ونساء المؤمنين**». فضحكت. قلت: «**بل هي سيّدة نساء العالمين**»(صلوات الله عليها) – على ما في روايات الفريقين.

٥ – **ومنها**: ما أثبتته الآية المباركة من الفضل الذي لا يوصف وعظيم القدر الذي لا يحدّ من تسوية عليّ أمير المؤمنين(عليه السلام) مع خاتم النبيّين وسيّد الأوّلين والآخرين(صلى الله عليه وآله). حيث أنها جعلت نفسه نفس النبيّ(صلى الله عليه وآله)، التي هي النفس المختارة من أنفس الخلائق أجمعين، وبذلك يثبت لعليّ(عليه السلام) ما يثبت للرسول(صلى الله عليه وآله)، من علوّ المقام والكرامة والولاية العامة والزعامة بحكم الكتاب المبين والفرقان الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يفترق عنه إلاّ فيما اقتضته خصوصيات النبوّة. كما دلّت على ذلك أخبار الفريقين من حديث المنزلة وغيره... فإن المراد من النفس المدلول عليها تعظيماً بالأنفس المضافة إلى الرسول(صلى الله عليه وآله)، إنما هي نفس عليّ(عليه السلام) قطعاً، لأنها ولا سواها كانت

(١) ذكر ذلك الطبرسي في مجمع البيان عند تفسير الآية الشريفة.

مورداً لدعوة الرسول الكريم(ﷺ)، مضافاً إلى امتناع أن يكون(ﷺ) داعياً لنفسه، لأنّ الدعوة من شخص إنما تكون لشخص آخر، ولا يعقل أن تكون منه لنفسه.

وحيث أنّ هذا منذ ورود الآية المباركة كان مفهوماً أو معلوماً، فقد طفحت بمضمونه أخبار الفريقين.

منها ما ذكره الطبرسي(تدّس) قال: صحّ عن النبي(ﷺ) أنه سُئل عن بعض أصحابه. فقال له قائل: فعليّ...؟ قال(ﷺ): سألتني عن الناس ولم تسألني عن نفسي. وقوله(ﷺ) لبريدة الأسلمي: «**يا بريدة لا تبغض علياً فإنّه منّي وأنا منه. إن الناس خلقوا من شجر شتّى وخلقت أنا وعليّ من شجرة واحدة**».

وقوله(ﷺ) بأُحُد وقد ظهرت نكايته في المشركين ووقايته إيّاه بنفسه حتى قال جبرائيل(عليه السلام): أنّ هذه لهي المواساة. فقال(ﷺ): يا جبرائيل: إنّه منّي وأنا منه. فقال جبرائيل: وأنا منكما.

ومما يعضد معنى الآية من إرادة تنزيل علي(عليه السلام) منزلة النبيّ(ﷺ)، ما عن ابن حجر في صواعقه عند ذكر الآية: وهي الآية التاسعة من الآيات النازلة في أهل البيت عن الدارقطني: إنّ علياً(عليه السلام) يوم الشورى احتجّ على أهلها. فقال لهم: أنشدكم الله هل فيكم أقرب إلى رسول الله(ﷺ) في الرحم منّي ومن جعله نفسه وأبناءه أبناءه ونساءه نساءه غيري؟ قالوا: اللهمّ لا...

ومن هذا كلّه تعرف: إن طعن البعض في الآية، كما في كتاب: الفتح المقتطف من كتاب السيد عبد الله السويدي المتوفى سنة ١١٧٤، من أنّ أنفس جمع قلّة مضافاً إلى(نا) الدالة على الجمع، ومقابلة الجمع بالجمع يقتضي تقسيم الآحاد، كما في مثل قولنا: ركب القوم دوابهم: أي ركب كل واحد دابّته... مبني على الجهل أو التجاهل، لما عرفت من عدم صحة دعوة كل واحد منهما نفسه لأنّ دعوة شخص

لا تشمل نفسه، ونداء شخص لا يعمّ شخصه. ولأنّ الدعوة كانت متمّحضة من النبي(ﷺ) مضافاً إلى ما عرفت من الشواهد الكثيرة الداخلية والخارجية على أنّ المراد من الأنفس في الآية، هي نفس عليّ(عليه السلام)، ومثل تلك المجازفة ما في كتاب الفضل بن روزبهان: من كون المراد بالأنفس الرجال لما عرفت في تحليل الآية من ابتناء مفادها ومرادها من أول الأمر على دعوته(ﷺ) لأحبائه وأقرب الناس إليه وأخصّهم به من البنين والبنات، ومن هو بمنزلة النفس من الأقرباء. مؤيّداً ذلك بتصريح روايات الفريقين بإرادة هذا المعنى منها. وبهذا يظهر لك تعصّبه في قبال سيّد الموحّدين(عليه السلام) حيث يرد قول العلاّمة(أعلى الله مقامه) بالمساواة بين الرسول(ﷺ) وبين أخيه(عليه السلام) إلاّ فيما اقتضته النبوّة: بأنّ دعوى المساواة خروج عن الدين. وكيف يكون ذلك خروجاً عن الدين، وقد رووا – كما عن كنز العمال – عن ابن أبي عاصم وابن جرير وصحّحه الطبراني في الأوسط وابن شاهين في السنّة:

إنّ النبيّ(ﷺ) قال: «ما سألت الله تعالى شيئاً إلاّ سألت لك مثله – يعني عليّاً(عليه السلام) – ولا سألت الله شيئاً إلا أعطانيه، غير أنّه قيل لي: إنّه لا نبيّ بعدك».

ولذا نرى الرازي مع غزارة علمه وتعصبه في قبال عليّ(عليه السلام)، لم يستطع المناقشة فيما أفادته الآية المباركة من حديث النفس، المقتضي لتفضيل عليّ(عليه السلام) على كافة الأنبياء، إلاّ بدعوى الانعقاد الإجماع: على أنّ من لا يكون نبيّاً لا يكون أفضل ممّن كان نبيّاً... وإن كانت هذه الدعوى فيها ما فيها، كما لا يخفى على العارف.

وأما في إفادتها أفضليّته(عليه السلام) على كافة الصحابة، فلم يناقش فيه بكلمة.

وهذا إمام المعتزلة شارح النهج يقرّر عن المعتزلة الذين هم أئمة العلم من

أهل السنّة: مساواة عليّ(عليه السلام) لرسول الله(صلى الله عليه وآله) خلا خصوصية النبوّة. وأنّه قال في ص٥١٩ من المجلّد الرابع من الشرح، عند قول عليّ(عليه السلام): «**يُهلك فيّ رجلان محبّ مفرط وباهت مفتر**».

وخاصة هذا القول: إنّ الهالك فيه(عليه السلام) المفرط والمفتر.

أما المفرّط فالغلاة ومن قال بتكفير أعيان الصحابة ونفاقهم وكفرهم. وأما المفتر فمن استنقص به وأبغضه أو حاربه أو أضمر له غلاً.

ولهذا كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز في هذه المسألة، لأنّهم سلكوا طريقاً مقتصدة. قالوا: هو أفضل الخلق في الآخرة وأعلاهم منزلة في الجنّة وأفضل الخلق في الدنيا وأكثرهم مزايا وخصائص ومناقب، وكل من عاداه وأبغضه أو حاربه، فإنّه عدوّ لله سبحانه، وخالد في النار مع الكفّار والمنافقين، إلاّ أن يكون ثبّتت توبته ومات على تولّيه وحبّه...

فأمّا الأفضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله، فلو أنّه أنكر إمامتهم وغضب عليهم وسخط فعلهم، فضلاً عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو إلى نفسه لقلنا أنّهم من الهالكين. كما لو غضب عليهم رسول الله(صلى الله عليه وآله)، لأنّه قد ثبت: إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**حربك حربي وسلمك سلمي**».

وأنّه(صلى الله عليه وآله) قال:

«**اللهمّ وال من والاه وعادِ من عاداه. ولا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق**».

ولكنّا رأيناه(عليه السلام) رضي إمامتهم وبايعهم وصلّى خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم. فلم يكن لنا أن نتعدّى فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه.

ألا ترى أنّه لما برئ من معاوية تبرّأنا منه ولمّا لعنه لعنّاه. ولما حكم بضلالة أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم.

والحاصل: أنّا لم نجعل بينه وبين النبي(ﷺ) إلاّ رتبة النبوّة. وأعطيناه كلّما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه... إلى آخر ما ذكره الشارح.

وهذه العبارة هي المقصودة في المقام.

فانظر كيف نسب إلى أصحابه التسوية بينهما خلا خصوصية اقتضت النبوّة.

وبعد هذا:

فما قيمة القول:

إنّ التسوية بينهما خروج عن الدين؟

نعم. هو خروج عن دين من لا يدين بالحق ويتبع هوى النفس ويسلك غير طريق المؤمنين.

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة الثالثة

في المودة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1].

أقول: الأجر هو جزاء العمل. يقال: أجَرَه الله من باب ضرب وقتل. وآجره الله بالمدّ لغة ثالثة: أثابه.

وفي حديث عليّ(عليه السلام) في علّة اعتلّها بعض أصحابه: جعل الله شكواك حطّاً لسيّئاتك فإنّ المرض لا أجر فيه ولكن يحطّ السيئات ويحتّها حتّ الأوراق. وإنّما الأجر في القول باللسان والعمل بالأيدي والأقدام. وإن الله تعالى يدخل بصدق النيّة والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنّة... ذكر هذا كلّه في مادة: أجر من مجمع البحرين.

وقال العلاّمة القمّي(رحمه الله) في المادة المذكورة من سفينة البحار بعد ذكر الحديث المبارك بألفاظه: قال السيّد[2]: وأقول صدق(عليه السلام): إنّ المرض لا أجر فيه،

---

(١) هذه هي الآية ٢٣ من سورة الشورى، وهي السورة ٤٢ التي موقعها ص٢٨ من المجلّد الخامس من مجمع البيان، وص٤٠١ من المجلّد السابع من تفسير الرازي.

(٢) الظاهر أن مراده(رحمه الله): السيد المرتضى علم الهدى أعلى الله مقامه.

لأنّه من قبيل ما يستحق عليه العوض. لأنّ العوض لا يستحق على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك. والأجر والثواب يستحقان على ما كان في مقابلة فعل العبد. فبينهما فرق قد بيّنه(عليه السلام) كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب. انتهى.

وفي ملحق هذا الكلام من هذا الكتاب: وقال(صلى الله عليه وآله): «من ظلم أجيراً أجره أحبط[1] الله عمله وحرّم عليه ريح الجنّة وإنّ ريحها لتوجد مسيرة خمسمائة عام».

---

(١) قال في مجمع البحرين:

وحبط العمل يحبط من باب تعب ومن باب ضرب. لغة قرأ بها في الشواذ. وقال أيضاً: قال بعض المحققين: استحقاق الثواب مشروط بالموافاة لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾... إلى أن قال طاب ثراه:

فمن كان من أهل الموافاة ولم يلبس أيمانه بظلم، كان ممن يستحق الثواب الدائم مطلقاً. ومن كان من أهل الكفر ومات على ذلك يستحق العقاب الدائم مطلقاً. ومن كان ممّن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، فإن وافى بالتوبة استحق الثواب مطلقاً، وإن لم يواف بها، فإمّا أن يستحق ثواب إيمانه أو لا. والثاني باطل لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ فتعيّن الأول.

فأما أن يثاب ثم يعاقب، فهو باطل بالإجماع، لأنّ من يدخل الجنّة لا يخرج منها. فحينئذٍ يلزم بطلان العقاب، أو يعاقب ثم يثاب وهو المطلوب. ولقوله(عليه السلام) في حق هؤلاء: يخرجون من النار كالحمم أو كالفحم فيراهم أهل الجنّة فيقولون: هؤلاء جهنميّون. فيؤمر بهم فيغمسون في عين الحيوان فيخرجون وأحدهم كالبدر ليلة تمامه.

وبما قرّرناه يتبيّن: أن الإحباط والموازنة باطلان. وذلك أن الوعيدية، وهم الذين يجوزون العفو عن الكبيرة اختلفوا على قولين: أحدهما: قول ابي علي وهو: أن الاستحقاق الزائد يسقط الناقص ويبقى بكماله كما لو كان أحد الاستحقاقين خمسة والآخر عشرة فإنّ الخمسة تسقط وتبقى العشرة ويسمّى الإحباط. وثانيهما: قول أبي هاشم ابنه وهو: أن يسقط من =

وفيه أيضاً عن الرضا(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) عن النبيّ(صلى الله عليه وآله) قال: «**إن الله تعالى غافر كل ذنب الاّ من جحد مهراً أو غصب أجيراً أجره أو باع رجلاً حرّاً**».

والمودّة: اسم مصدر.

قال في المجمع في مادّة: ودد.

وددت الرجل: من باب تعب: أودّ ودّاً: إذا أحببته. والاسم المودّة، وتودّد إليه: تحبّب إليه. وهو ودود أي محبّ، يستوي فيه الذكر والأنثى. والوجود من أسمائه تعالى. وهو فعول بمعنى مفعول من الودّ والمحبّة. فالله تعالى مودودٌ أي محبوب في قلوب أوليائه. أو هو فعول بمعنى فاعل أي الله تعالى يحبّ عباده الصالحين، بمعنى يرضى عنهم.

وفي البحار، باب في أنّ مودّة آل محمّد (عليهم السلام) أجر الرسالة. وفيه أيضاً:

خطب الحسن بن علي(عليهما السلام) في صبيحة الليلة التي قبض فيها أمير المؤمنين(عليه السلام) وقال(عليه السلام) في خطبته:

«أنا من أهل بيت فرض الله مودّتهم في كتابه». فقال تعالى:

﴿**قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا** ...﴾ الآية. فالحسنة مودّتنا أهل البيت.

وقال الفخر الرازي في شرح الآية المباركة: روى الكلبي عن ابن عباس(رحمه الله)، قال: إن النبي(صلى الله عليه وآله) لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق،

= الزائد ما قابل الناقص ويبقى الباقي. ففي المثال المذكور يسقط خمسة ويبقى خمسة ويسمّى بالموازنة... وقد أبطلهما المحققون من المتكلّمين... إلى أن قال(ره): ولو قيل ببطلان الإحباط والموازنة، والقول بالتكفير من باب العفو والتفضل لم يكن بعيداً. وظواهر الأدلّة تؤيّده. انتهى.

وليس في يده سعة. فقال الأنصار: إن هذا الرجل هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم، فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا. ثم أتوه به فردّه عليهم، فنزّل تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا حُجَّتُنَآ ..﴾ أي على الإيمان إلاّ أن تودّوا أقاربي. فحثّهم على مودّة أقاربه.

وذكر قريباً من هذا الطبرسي (طاب مرقده) في مجمع البيان.

وفي تفسير القربى وإن كان خلاف وأقوال.

ثانيها: التوادد والتحاب فيما يقرّب إلى الله تعالى من العمل الصالح والطاعة.

وثالثها: مودّته(ﷺ) لقرابته منهم... إلاّ أن الأظهر والأشهر هو الأول. لتوافر روايته من الطريقين. ولعلّه هو المسلّم في روايات علماء أهل البيت والراجح في روايات غيرهم.

قال الطبرسي(رحمه الله) في مجمعه عند بيان معنى الآية الشريفة:

وأخبرنا السيد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني قال: أخبرنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: حدّثني القاضي أبو بكر الحميري قال: أخبرنا أبو العباس الضبعي قال: أخبرنا الحسن بن علي بن زياد السري قال: أخبرنا يحيى بن عبد الحميد الحماني قال: حدّثنا حسين الأشتر قال: أخبرنا قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن بن عباس قال: لما نزلت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا حُجَّتُنَآ ..﴾ الآية، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودّتهم؟ قال(ﷺ): عليّ وفاطمة وولدهما.

قال: وأخبرنا السيد أبو الحمد قال: أخبرنا الحاكم أبو القاسم... بالإسناد المذكور في كتاب: شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، مرفوعاً إلى أبي أمامة الباهلي

قال: قال رسول الله(ﷺ): «**إنّ الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتّى وخلقت أنا وعليّ من شجرة واحدة. فأنا أصلها وعليّ فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها وأشياعنا أوراقها. فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجى ومن زاغ عنها هوى. ولو أنّ عبداً عَبَدَ الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن[1] البالي، ثم لم يدرك محبّتنا أكبّه الله على منخريه في النار**» ثم تلا: ﴿**قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ**﴾.

قال: وروى زاذان عن عليّ(عليه السلام) قال: «**فينا في آل (حم) آية لا يحفظ مودّتنا إلاّ كل مؤمن**»، ثم قرأ هذه الآية... وإلى هذا أشار الكميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية ... تأوّلها منّا تقى ومعرب

قلت: وإلى تمثيله(ﷺ) لنفسه وأهل بيته الكرام(عليهم السلام) بالشجرة وشؤونها يشير القائل بقوله:

---

(١) قال الطريحي(رحمه الله) في مادة: شنن من مجمعه:

الشن: القربة الخلق. والشنّة كأنّها للقربة الصغيرة. والجمع شنان.

أقول: وشن: اسم رجل من دهاة العرب وعقلائهم. وهو الذي ضرب في الأرض لتحصيل زوجة تماثله في فهمه وذكاءه. وقد عثر عليها وهي التي تسمّى: طبقة. وهما مورد المثل المعروف: وافق شن طبقه الذي طبّقه أمير المؤمنين(عليه السلام) في بعض كلماته الشريفة على عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان حيث أنّه(عليه السلام) كتب إليه:

من عبد الله أمير المؤمنين إلى الأبتر بن الأبتر عمرو بن العاص شانئي محمّد وآل محمّد(عليهم السلام) في الجاهلية والإسلام. سلام على من اتّبع الهدى. أما بعد: فإنّك تركت مروّتك لامرئ فاسق مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويسفّه الحليم بخلطته. فصار قلبك لقلبه تبعاً كما وافق شنّ طبقه فسلبك دينك وأمانتك ودنياك وآخرتك.

يـا حبّـذا دوحـة في الخلـد نابتـة ما مثلها نبتت في الخلد من شـجر
المصطفى أصلها والفـرع فاطمـة ثـم اللقـاح عـليّ سـيّد البـشر
والهاشـميان سـبطاه لهـا ثمـر والـشيعة الـورق الملتـف بـالثمر

قال الرازي: وروى صاحب الكشاف أنّه لما نزلت هـذه الآيـة – يعني آية المودّة – قيل: من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مـودّتهم؟ فقـال(ﷺ): «**علي وفاطمة وابناهما!**».

وقال الرازي: وأنا أقول: آل محمّد هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشـد وأكمـل كـانوا هـم الآل. ولا شـك أن فاطمـة وعليـاً والحـسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقـل المتواتر. فوجب أن يكونوا الآل... إلى أن قال ناقلاً عن الكشاف: وإذا ثبـت هـذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم.

ويدل عليه وجوه:

الأول: قوله: ﴿**إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ**﴾ ووجه الاستدلال به ما سبق.

الثاني: أن النبي(ﷺ) كان يحبّ فاطمة. قال(ﷺ): «**فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما يؤذيها**». وثبت بالنقل المتواتر عن محمّد(ﷺ) أنّه(ﷺ) كان يحبّ علياً والحسن والحسين. وإذ ثبت ذلك وجـب عـلى كـل الأمّـة مثلـه، لقولـه تعـالى: ﴿**وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾، ولقولــه تعــالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ**﴾، ولقولـه تعـالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾، ولقوله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾.

الثالث: إن الدعاء للآل منصب عظيم. ولـذلك جعـل هـذا الـدعاء خاتمـة

التشهّد في الصلاة. وهو قوله: اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد وارحم محمّداً وآل محمّد. وهذا تعظيم لم يوجد في حق غير الآل. فكل ذلك يدل على أنّ حب آل محمّد واجب. وقال الشافعي (رحمه الله):

يا راكباً قف بالمحصّب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبّ آل محمّد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وقال الرازي: ونقل صاحب الكشاف عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) أنه قال:

«من مات على حبّ آل[1] محمد مات شهيداً. ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات مغفوراً له.

---

(١) قال شيخنا آية الله المظفّر (طاب ثراه) في ص٧ من المجلد الثاني من كتابه: دلائل الصدق في مقام بيان أنّ الإمامة من أصول الدين لا أنّها من فروعه. واستدلّ (قدس سره) على ذلك بوجوه. قال (رحمه الله):

ومنها: الأخبار الكثيرة التي أناطت الإيمان بحبّ آل محمّد (صلى الله عليه وآله)، والكفر ببغضهم. فإنها كناية عن الاعتراف بإمامتهم وإنكارها. للملازمة عادة بين حبّهم الحقيقي والاعتراف بفضلهم، وبغضهم وإنكاره. ولا يراد الحب والبغض بنفسيهما، إذ لا دخل لهما بماهيّة الإيمان والكفر. فلا بدّ أن يكون كناية عن ذلك. فلا بد أن تكون الإمامة أصلاً.

ومن هذه الأخبار ما رواه الكشاف في تفسير قوله تعالى شأنه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) في حديث طويل، قال فيه:

«ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات مؤمناً.

ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة والجماعة.

ألا ومن مات على بغض آل محمّد مات كافراً...».

ومثله في تفسير الثعلبي... إلى آخره.

ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات نائباً.

ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات مؤمناً مستكمل الإيمان.

ألا ومن مات على حبّ آل محمّد بشّره ملك الموت بالجنّة ثم منكر ونكير.

ألا ومن مات على حبّ آل محمّد يزفّ إلى الجنّة كما تزفّ العروس إلى بيت زوجها.

ألا ومن مات على حبّ آل محمّد فتح له في قبره بابان إلى الجنّة.

ألا ومن مات على حبّ آل محمّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة.

ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة والجماعة.

ألا ومن مات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله.

ألا ومن مات على بغض آل محمّد مات كافراً.

ألا ومن مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحة الجنّة».

قلت: كيف لا يكون آل محمّد(صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) كذلك، وهم خلاصة الخلق ونخبة الوجود. إذ لا ريب أنّ محمّداً(ﷺ) هو كذلك. وقد صحّ عنه(ﷺ) من الطريقين: بأنّ فاطمة(عليها السلام) بضعة منه. وأنّ الحسنين(عليهما السلام) هما منه وهو(ﷺ) منهما. وأنّ عليّاً(عليه السلام) أخوه وشقيق نبعته أباً وأمّاً. حيث أنّه لم يختلف(عليه السلام) مع رسول الله(ﷺ) نسباً إلاّ في أب واحد. فإنّ رسول الله(ﷺ) بن عبد الله بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب[1] (أو عبد مناف) بن عبد المطلّب.

---

(١) وأبو طالب هذا وما أدراك من أبو طالب.

قال شيخنا العلاّمة القمّي(طاب ثراه) في كتابه: الكنى والألقاب: =

= أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف والد مولانا أمير المؤمنين(عليه السلام).

قيل: اسمه عبد مناف. وقيل: عمران. وقيل: اسمه كنيته. والأول أظهر لقول والده:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بموحد بعد أبيه فرد

إلى أن قال(رحمه الله):

كان أبو طالب(رض) سيّد البطحاء وشيخ قريش ورئيس مكّة. وكان(رحمه الله) شيخاً جسيماً وسيماً. عليه بهاء الملوك ووقار الحكماء. قيل لأكثم ابن صيفي حكيم العرب: ممّن تعلّمت الحكمة والرياسة والحلم والسيادة؟ قال: من حليف الحلم والأدب وسيد العجم والعرب أبو طالب بن عبد مناف... إلى أن قال المؤلف المذكور: وفي روايات كثيرة: كان(رض) يكتم إيمانه مخافة على بني هاشم. وإن مثله مثل أصحاب الكهف. وأنه كان مستودعاً للوصايا فدفعها إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله). وإن نوره يوم القيامة يطفي أنوار الخلائق إلاّ خمسة أنوار وأنه لو وضع إيمانه في كفّة ميزان وإيمان هذا الخلق في كفّة ميزان لرجح إيمانه على إيمانهم.

وقال الحافظ السبط ابن الجوزي في ص٥ من كتابه: تذكرة الخواص بعد ذكر جملة من محاماته لرسول الله(صلى الله عليه وآله) ومقاومته لقريش في سبيله، وأبياته المعروفة عنه التي أولها:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسّد في التراب رهينا

قال: وكان أبو طالب يذب عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) من سنة ثمان من مولده إلى السنة العاشرة من النبوّة. وذلك اثنان وأربعون سنة... إلى أن قال: ومات أبو طالب وهو ابن بضع وثمانين سنة ودفن بالحجون عند عبد المطلب.

وقال صاحب الكنى: توفى رحمه الله في ٢٦ رجب في آخر السنة العاشرة من البعثة.

وقال ابن الحديد في محاماته(ره) ومحاماة ولده أمير المؤمنين(عليه السلام) لرسول الله(صلى الله عليه وآله):

ولولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخص فقاما
فذاك بمكّة أوى وحامى وذاك بيثرب خاض الحماما
فللّه ذا فاتحاً للهدى ولله ذا للمعالي ختاما

وقد أبّنه أمير المؤمنين(عليه السلام) فقال: =

وأمّا من حيث الأمّهات. فمحمّد(ﷺ) بن آمنة بنت وهب بن عبد مناف. فيكون عبد الله أبو النبي(ﷺ) ابن ابن عم آمنة. وعليّ(عليه السلام) ابن فاطمة بنت أسد ابن هاشم بن عبد مناف. فهي بنت عم أبي طالب. ويكون رسول الله(ﷺ) ابن ابن عمّها. وتكون نسبة فاطمة إلى آمنة كنسبة فاطمة إلى رسول الله(ﷺ). وفاطمة هذه أول هاشمية وَلدت هاشمياً. وكان عليّ(عليه السلام) أصغر بنيها. وجعفر أسن منه بعشر سنين. وعقيل أسن منه بعشر سنين. وطالب أسن منه بعشر سنين.

وقد ذكر في مروج الذهب: أنّ طالباً هذا قد أخرجه المشركون معهم يوم بدر كرهاً، ولم يعلم بعد خروجه من نبأه شيء سوى بيتين يشير فيهما إلى إكراهه على الخروج ويدعو الله على المشركين في أن يكونوا مغلوبين لا غالبين. وهما قوله:

يا ربّ أما خرجوا بطالب ... في مقنب من تلكم المقانب
فاجعلهم المغلوب غير الغالب ... والرجل المسلوب غير السالب

وكان رسول الله(ﷺ) يكرّم فاطمة بنت أسد ويعظّمها ويدعوها: أمّي.

وكانت (رضوان الله تعالى عليها) أول امرأة بايعت الرسول(ﷺ) من النساء. وأوصت إليه(ﷺ) حين حضرتها الوفاة. فقبل وصيّتها وألبسها قميصه

= أبا طالب عصمة المستجير ... وغيث المحول ونور الظلم
لقد هدّ فقدك أهل الحفاظ ... فصلى عليك ولي النعم
ولقاك ربّك رضوانه ... فقد كنت للطهر خير حسم

ويكفيه فضلاً ما جاء في الخبر: أنّه لمّا توفى أبو طالب أوحى الله تعالى إلى نبيّه(ﷺ): أن اخرج من مكّة فقد مات ناصرك.

قال العلاّمة القمّي(رحمه الله) في كتابه الكنى متّصلاً بما ذكرناه:

ولقد ألّفت كتب كثيرة في إثبات إيمان أبي طالب وفضله وجلالته ونصرته للدين.

ونزل(ﷺ) في لحدها واضطجع معها في قبرها. فقال له أصحابه: إنّا ما رأيناك يا رسول الله صنعت بأحد ما صنعت بها. فقال(ﷺ): «**إنّه لم يكن بعد أبي طالب أبرّ بي منها. وإنّما ألبستها قيمصي لتكسى حلل الجنّة واضطجعت معها لتهون عليها ضغطة القبر**».

قلت: وكفاها فضلاً وشرفاً مضافاً إلى ما هي عليه من الفضل الذاتي والشرف الأصيل، أنّها والدة الوصيّ الكرار(عليه السلام) في البيت ذي الأستار.

قال الصفوري الشافعي في ص٢٠٥ من المجلّد الثاني من كتابه: نزهة المجالس، ناقلاً ذلك عن الفصول المهمّة للمالكي:

إنّ عليّاً(رضي الله عنه) ولدته أمّه بجوف الكعبة شرّفها الله. وهي فضيلة خصّه الله تعالى بها. وذلك أن فاطمة بنت أسد(رضي الله عنه) أصابها الطلق. فأدخلها أبو طالب إلى الكعبة فطلقت طلقة واحدة. فولدته يوم الجمعة في رجب سنة ثلاثين من عام الفيل بعد أن تزوّج النبي(ﷺ) بخديجة(رضي الله عنه) بثلاث سنين... إلى أن قال:

وأمّ عليّ(عليه السلام) أول هاشمية ولدت هاشمياً. أسلمت وهاجرت. وماتت في حياة النبي(ﷺ) ونزل(ﷺ) في قبرها. انتهى.

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة الرابعة

آية النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

قال في مادة: وحي من مجمع البحرين عند ذكر الآية وهي قوله تعالى:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾: أي ألهمها وقذف في قلوبها وعلّمها على وجه لا سبيل لأحد على الوقوف عليه أن اتخذي وأنْ هذه هي المفسّرة. لأن الإيحاء فيه معنى القول وقرئ بيوتاً بكسر الباء في جميع القرآن.

وقال العلاّمة القمّي (رحمه الله) في المادة المذكورة من سفينة البحار عند ذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾[2] الآيات

(١) هذه هي الآية ٦٨ من سورة النحل الكائنة في ص٣٦٩ من المجلد ٣ من المجمع، وص٤٨٥ من المجلّد ٥ من تفسير الرازي.

(٢) آية ٥١ من سورة حمعسق، وتسمى سورة الشورى، وموقعها ص٣٦ من المجلد الخامس من المجمع. تتمّة الآية: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

التفسير: أي لا يصح له أن يكلّمه الله تعالى إلاّ إلهاماً وقذفاً في القلوب أو إلقـاءً في المنام أو من وراء حجاب، كما كلّم موسى(عليه السلام) بخلق الـصوت في الطـور، وكـما كلّمـه نبيّنـا(صلى الله عليه وآله) في المعـراج، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾: أي ملكـاً ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾.

فظهر أنّ وحيه تعالى منحصر في أقسام ثلاثة: إما بالإلهام والإلقاء في المنـام أو بخلق الصوت أو بإرسال ملك.

وعلم الملك أيضاً يكون على هذه الوجوه. والملك الأول لا يكـون علمـه إلا بوجهين منها. وقد يكون بأن يطالع في اللوح... ثم قال(قدس سره):

الاعتقاد في نزول الوحي من عند الله عزّوجـل بـالأمر والنهـي. اعتقادنـا في ذلك أنّ بين عيني إسرافيل لوحاً. فـإذا أراد الله تعـالى أن يـتكلم بـالوحي، ضرب اللوح جبين إسرافيل فينظر فيه فيقرأ ما فيه فيلقيه إلى ميكائيل ويلقيه ميكائيـل إلى جبرائيل ويلقيه جبرائيل إلى الأنبياء(عليهم السلام).

والنحل: كفلس[1]. ذباب العسل الواحدة نحلة كنخلـة. سـمّيت نحلـة لأنّ الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج منها. إذ النّحلة العطيّة.

وفي حديث موسى(عليه السلام) يعني ابن جعفر(عليهما السلام) في الرضـا(عليه السلام): أمّـا أنّي قـد نحلته كنيتي – أي أعطيته إياها. فلذا يكنّى بأبي الحسن الثاني.

وقد اختص الله تعالى شأنه النحل بالذكر في هذه الآية المباركة، لمـا أودع فيـه من الغرائز العجيبة وجمـع فيـه مـن الـصفات الغريبـة، وإن كـان دقيـق النظـر في

---

(١) قال في مجمع البحرين: والفلس الذي يتعامل به، وفاؤه مفتوحة، ويجمع في القلّة عـلى أفلـس وفي الكثرة على فلوس.

مبتدعات عالم الوجود ومخترعات عالم الكون. التي هي آثار الواحد الفرد، إذ لا شيء في المصنوعات إلاّ وهو صنعه وفعله، يقضي بأنّ كل واحد منها آية في الخلق، وبيّنة فاصلة على وجود الحق. يأخذ بالأعناق إلى الإذعان بوجوب الطاعة والانقياد لأوامر العليم الحكيم. فضلاً عن الخضوع والإقرار بتدبير السميع البصير جلّت قدرته.

ولنعم ما قيل في هذا السبيل:

فواعجباً كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية   تدلّ على أنّه واحد

فانظر إلى أضعف مخلوقاته تعالى شأنه، وهو البعوض، الذي أشار إليه عزّوجل بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾(١).

فإنّ البعوض الفرقس، وهو صغار البق الذي قالوا فيه: أنه يحيا إذا جاع ويموت إذا سمن. فكنّى بها عن الناس فيما إذا امتلأوا من الدنيا... واشتقاق البعوضة من البعض، لأنّها كبعض بقة، وما اشتملت عليه من الأعضاء والهيئة. فإنّها على خلقة الفيل إلا أنّها أكثر منه أعضاءً، فإنّ للفيل أربعة أرجل وخرطوماً وذنباً، ولها مع هذه الأعضاء رجلان زائدتان وأربعة أجنحة. وخرطوم الفيل

---

(١) هذه الآية هي الآية ٢٦ من السورة ٢، سورة البقرة...

ولعل أقرب الوجوه في قوله تعالى: ما بعوضة، هو كون: ما مزيدة، وجيء بها للتوكيد، كما في قوله تعالى: فبما رحمة من الله لنت لهم. ويكون المعنى: أن الله لا يستحي أن يضرب بعوضة – مثلاً – فيكون بعوضة مفعولاً ثانياً ليضرب. فما فوقها في الصغر والقلّة. لأنّ الغرض هاهنا الصغر.

مصمت وخرطومها مجوّف. فإذا طعن به جسد الإنسان استقى الدم وقذف بـه إلى جوفه فهوله كالبلعوم والحلقوم.

وحكى عن الزمخشري: أنه أوصى أن يكتب على قبره ما ذكـره مـن الأبيـات عند تفسير سورة البقرة:

يا من يرى مدّ البعـوض جناحـه ... في ظلمـة الليـل البهـيم الأليـل
ويرى منـاط عروقهـا في نحرهـا ... والمـخ في تلـك العظـام النحـل
امـنن عـليّ بتوبـة أمحـو بهـا ... مـا كـان منّـي في الزمـان الأول

ومثل ذلك في عظيم القدرة وخطير الخلق الذرّة، وهي النملة الـصغيرة التـي لا تكاد تدرك بالبصر. ويقال: أن المائة منها زنة حبّـة شـعير. فـانظر فـيما أودع الله تعالى فيها من عظيم الذكاء والفطنة. حتى صارت تدخّر قوتها للشتاء في الصيف. وإذا عجزت الواحدة عن نقل شيء انـصرفت فأفهمـت جماعتهـا وتعاونـت عـلى نقله، كتعاون الإنسان على نقل الثقيل. وإذا خافت على طعامها العفونـة أخرجتـه ونشرته على وجه الأرض وربّما اختارت الليل في حال ضوء القمر، لكونه أحفـظ لها من الطوارئ عمّا لو كان في النهار. وإذا خافت عليه الإنبـات قـسمته نـصفين، أعني الحبّة الواحدة إلى قسمين لئلا تنبت، وإذا كان النصف مما ينبت قسمته أرباعاً كالكزبرة.

ومن عجائبـه اتخـاذ القريـة تحـت الأرض، وفيهـا منـازل ودهـاليز وغـرف وطبقات معلّقات تملؤها حبوباً وذخائر للشتاء، ويدخر ما يكفيه لسنين مع أنـه لا يعيش أكثر من سنة.

ومن ذكائه ما ذكره شارح النهج المعتزلي في ص٢٠٠ من المجلّد الثالـث، مـا ملخّصه:

إنّ شخصاً قد ضجر مما يلقى من النّمل في إفساد طعامه. فاتّخذ له منمّلة بأن اتّخذ محلاً مسطحاً مرتفعاً وجعل له خندقاً، وصبّ فيه الماء. كان مع ذلك كلّه يجد النمل في طعامه. فرصده وتفحّص حاله، فوجده يتسنّم جدار تلك الغرفة التي يكون الطعام في أرضها حتى يصل إلى السقف، فيأخذ خطاً مستقيماً من السقف إلى الصحن الذي فيه الطعام فيلقى نفسه من السقف في نفس تلك المنمّلة فكان ذلك الإنسان يعجب من ذكاء هذا الحيوان وحسن تدبيره.

قال الصفوري الشافعي في ص٢٤٢ من المجلّد الأول من كتاب النزهة:

قال النسفي في زهر الرياض: لّما تولّى سليمان(عليه السلام) الملك، جاءه جميع الحيوانات ليهنئوه، إلاّ نملة واحدة فإنّها جاءت تعزّيه. فعاتبتها النمل في ذلك. فقالت: كيف أهنّئه وقد علمت أن الله إذا أحبّ عبداً زوى عند الدنيا وحبّب إليه الآخرة. وقد اشتغل سليمان بأمر لا يدرى ما عاقبته. فهو بالتعزية أولى منه بالتهنئة.

وقال في المجلد المذكور في ص٢٤٨، منه:

إنّ نملة سليمان(عليه السلام) التي كلمته، كان لها أربعون الف مقدم تحت كل مقدم أربعون صفّاً من النمل. كل صف من المشرق إلى المغرب. فقال لها سليمان(عليه السلام): لِمَ تلبسون السواد؟ قالت: لأنّ الدنيا دار مصيبة ولباس أهل المصائب السواد. قال: فما بالكم عراة؟ قالت: هكذا وردنا الدنيا وهكذا نخرج عنها. قال فكم تحمل النّملة؟ قالت: حبّة أو حبّتين. قال: ولِمَ؟ قالت: لأنّا على سفر والمسافر كلّما خفّ حمله خفّ ظهره. قال: اطلبي مني حاجة. قالت: أنت عاجز والطلب منك غير جائز. قال: لا بدّ من الطلب. قالت: زدني في رزقي وفي عمري. قال: اطلبي شيئاً يكون في يدي. قالت: «**إن الله يقضي حوائج المحتاجين**». كيف ما كان.

فمما قرّر الله تعالى شأنه في غرائز النحل من الأفعال العجيبة التي يعجز عنها عقلاء البشر أمور:

١ – منها: أنها تبني البيوت المسدّسة من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمحض طباعها. والفنيّون من البشر لا يمكنهم ذلك من بناء تلك البيوت إلاّ بمعدّات مخصوصة وآلات متخذة لمثل ذلك العمل كالمسطر والفرجار.

٢ – ومنها: أنه ثبت في الهندسة لدى أربابها: أن تلك البيوت لو كانت مشكّلة بأشكال سوى المسدّسات، فإنّه لا بدّ أن يبقى بين تلك البيوت خلايا وَفُرَج ضائعة. فاهتداء مثل هذا الحيوان الضعيف لمثل هذه الحكمة الخفيّة والدقيقة الغامضة من الأعاجيب.

٣ – ومنها: أن النحل يحصل بينها واحد يكون كرئيس للبقية. وذلك الواحد يكون أعظم جثّة من الباقي. ويكون نافذ الحكم على تلك البقية. وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران. وذلك أيضاً من غرائب أعمال الحيوان.

٤ – ومنها: أنّها إذا نفرت من وكرها نفر معها الباقي إلى مواضع أخر. فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا له بآلات الموسيقى ونحوه. وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردّها إلى وكرها.

٥ – ومنها: عجيب أمرها من تناولها الأزهار واحترازها عن النجاسات والأقذار. وطاعتها لأميرها، وما سخّر الله سبحانه ذلك الأمير له من العدل والإنصاف بينها. حتى أنه ليقتل منها على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة.

٦ – ومنها: ولعله أعجبها وأغربها: ما يحكى عن أرسطاطاليس، لما أراد أنْ يختبرها في أن ما تلقيه من العسل: هل يكون من أفواهها أو من أدبارها، حيث أنّه

محل خلاف. فصنع لها بيتاً من الزجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع. فأبت أن تعمل شيئاً حتى لطخته من باطن الزجاج بالطين.

قيل لطبيب: بم عرفت ربّك؟ قال: عرفته بنحلة بأحد طرفيها تعسل وبالآخر تلسع. والعسل مقلوب اللّسع.

قال حكيم من اليونانيين لتلامذته: كونوا كالنحل في الخلايا. قالوا: كيف النحل؟ قال: إنها لا تترك عندها بطّالاً إلاّ أبعدته وأقصته عن الخلية، لأنّه يضيّق المكان ويفنى العسل ويعلّم النشيط الكسل.

قال العلاّمة الطريحي أعلى الله مقامه في مادة: عسب من مجمعه:

في حديث عليّ(عليه السلام): كنت للمؤمنين يعسوباً.

اليعسوب أمير النحل وكبيرهم وسيّدهم تضرب به الأمثال لأنّه إذا خرج من كوره تبعه النحل بأجمعه. والمعنى: يلوذون به كما تلوذ النحل بيعسوبها وهو مقدّمها وسيّدها.

ومثله ما ورد في الخبر عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال لعليّ(عليه السلام):

«**أنت يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الكفّار**».

ومن هنا: قيل لأمير المؤمنين(عليه السلام): أمير النحل.

قلت: وذكر مثل هذه الرواية شارح النهج المعتزلي في ص٤، من الجزء الأول إلاّ أنه بدل: والمال يعسوب الكفّار، والمال يعسوب الظلمة.

وذكر أيضاً رواية أخرى عن النبي(صلى الله عليه وآله) من قوله(صلى الله عليه وآله) لعليّ(عليه السلام):

«أنت يعسوب المؤمنين وقائد الغرّ المحجّلين»(١).

ثم قال: واليعسوب ذكر النحل وأميرها... وقال: روى هاتين الروايتين أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني في المسند، وأبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء.

وإنما ذكر شارح النهج هذا القول بمناسبة تعرّضه لكنى أمير المؤمنين(عليه السلام) وبعض ألقابه(عليه السلام)... فإنه قال في الصحيفة المذكورة:

وكان يكنى بأبي الحسن إلا أنّ الحسن كان يدعوه على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله): يا أبا الحسين. والحسين يدعوه: يا أبا الحسن. ويدعوان رسول الله(صلى الله عليه وآله): يا أبه... إلى أن توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) جعلا يدعوان أباهما بالأبوة... قال:

ومن جملة كناه أيضاً: أبو تراب. كنّاه رسول الله(صلى الله عليه وآله). وجده يوماً نائماً على الأرض، وقد سقط عنه ردائه، وأصاب التراب بعض جسده فجلس عنده وجعل

---

(١) قال في آخر مادة: غرر من مجمع البحرين:

وفي وصف عليّ(عليه السلام) قائد الغرّ المحجّلين:

جمع أغرّ من الغرّة، وهي بياض في الوجه يزيد بياض وجوههم بنور الوضوء.

وقال في مادة: حجل:

وفي حديث: عليّ قائد الغرّ المحجّلين: أي مواضع الوضوء من الأيدي والأقدام إذا دعوا على رؤوس الأشهاد أو إلى الجنّة كانوا على هذا النهج. استعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه.

وقد قال في أول المادة المذكورة:

في الحديث: خير الخيل الأقرح المحجّل. التحجيل: بياض يكون في قوائم الفرس الأربع أو ثلاث منها أو في رجليه. قيل: أو اكثر بعد أن يتجاوز الأرساغ ولا يتجاوز الركبتين والعرقوبين.

ولا يكون التحجيل باليد أو اليدين ما لم يكن معها رجل أو رجلان.

يمسح التراب عن جسده ويقول له: اجلس إنّما أنت أبو تراب. فكان بعدها عليّ(عليه السلام) يفرح إذا دعي بهذه الكنية. فدعت بنو أمية خطبائها في أن يسبّوه بها على المنابر. وجعلوه وصمة ونقيصة. فإنّما كسوه بها الحلي والحال كما قال الحسن البصري... إلى أن قال:

وتزعم الشيعة أنه خوطب بأمرة المؤمنين على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله). خاطبه بذلك حملة المهاجرين والأنصار. ولم يثبت ذلك في أخبار المحدثين. إلا ما رووا مما هو يُعطي ذلك من قول رسول الله(صلى الله عليه وآله): أنت يعسوب الدين والمال يعسوب الظَلمة. وفي رواية أخرى: أنت يعسوب المؤمنين وقائد الغر المحجّلين. ثم قال: ودُعي بعد وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله): بوصي رسول الله(صلى الله عليه وآله) لوصايته له بما أراده. وأصحابنا لا ينكرون ذلك. ولكن يقولون: أنّها لم تكن وصية بالخلافة بل بكثير من المتجدّدات بعده أفضى بها إليه(عليه السلام)، وسنذكر طرفاً من هذا بعد...

وقال في ص٤٦ من المجلد الأول عند قول عليّ(عليه السلام) في حقّ محمّد(صلى الله عليه وآله): «**ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والوراثة الآن إذ رجع الحق إلى أهله...**».

فأما الإمامية فتقول: أراد نص النبيّ(صلى الله عليه وآله) وعلى أولاده. ونحن نقول: لهم خصائص حق ولاية الرسول(صلى الله عليه وآله) على الخلق. ثم قوله(عليه السلام): «**وفيهم الوصية والوراثة**». أما الوصية فلا ريب عندنا أن علياً(عليه السلام) كان وصيّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) وإن خالف في ذلك من هو منسوب إلى العناد. ولسنا نعني بالوصية النص على الخلافة، ولكن أمور أخرى إذا لمحت كانت أشرف وأجلّ. وأما الوراثة، فالإمامية يحملونها على ميراث المال والخلافة، ونحن نحملها على وراثة العلم.

وأما قوله(عليه السلام): «**إن الحق رجع الآن إلى أهله**». فإنه يقتضي أن يكون فيما قبل

في غير أهله ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الإمامية، ونقول: إنه كان أولى بالأمر وأحق لا على وجه النص، بل على وجه الأفضلية. فإنه(عليه السلام) أفضل البشر بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأحقّ بالخلافة من جميع المسلمين. لكنه ترك حقه لما علمه من المصلحة، وما تفرّس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام وانتشار الكلمة لحسد العرب له وضغنهم عليه. وجائز لمن كان أولى بشيء فتركه ثم استرجعه بأن يقول: قد رجع الأمر إلى أهله...

ثم ذكر من النظم المصرّح بأنّه وصيّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) من شتى الأشخاص بدريين وغيرهم من الأنصار بما ملأ به أربع صحائف وقال: إن هذا قليل من كثير مما ورد في هذا الباب.

قلت: ويكفي في تضعيف هذا الوجه ما اعترف به من كونه من باب التأويل ومخالفة الظاهر والحجّة.

ومثل هذا التأويل ومخالفة الظاهر، بل أظهر منه في المخالفة للظاهر ما ذكره في ص٧٨ من المجلد الثاني عند نقل ما دار بين أم سَلَمة زوجة الرسول(صلى الله عليه وآله) وبين أم المؤمنين عائشة لما أرادت الخروج إلى حرب البصرة، حيث قالت لها أم سَلمة:

وأذكرك أيضاً كنت أنا وأنتِ مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) في سفر له، وكان عليّ(عليه السلام) يتعاهد نعلي رسول الله(صلى الله عليه وآله) فيخصفها وقعد في ظل سمرة وجاء أبوك ومعه عمر، فاستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب. ودخلا يحادثانه فيما أرادا ثم قالا يا رسول الله أنّا لا ندري قدر ما تصحبنا، فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعاً. فقال(صلى الله عليه وآله) لهما: أمّا أني قد أرى مكانه ولو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرّق بنو إسرائيل عن هارون بن عمران. فسكتا ثم خرجا. فلما خرجا خرجنا إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قلتِ له وكنتِ أجرأنا عليه منّا: من كنت مستخلفاً عليهم؟ فقال(صلى الله عليه وآله): خاصف

النعل. فنزلنا فلم نر أحداً إلاّ عليّاً. فقلت: يا رسول الله، ما أرى أحداً إلاّ عليّاً. فقال: هو ذاك. فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك.

والتأويل الذي أشرنا إليه هو ما ذكره الشارح المتقدّم عند حكايته القصّة بقوله: فإن قلت: هذا نص صريح في إمامة عليّ(عليه السلام)، فما تصنع أنت وأصحابك المعتزلة؟

قلت: كلا ليس بنص كما ظننت، لأنّه(صلى الله عليه وآله) لم يقل استخلفته، وإنما قال لو قد استخلفت أحداً لاستخلفته. ولذلك لا يقتضي الاستخلاف.

ووجه التأويل ومخالفة الحجّة، ظاهر في كافة فقرات السؤال والجواب.

أما السؤال فلأنّ ظاهره أنّه سؤال عن تعيين من تكون له صفة الاستخلاف لدى السائلين بعد الفراغ عن تعيّنه لدى المسئول، إذ المطلوب حقيقة في السؤال، إنما هو الاستطلاع على من سيكون خليفة والعلم به، لا عن نفس الاستخلاف وأنه يكون أو لا، كما هو المستفاد من كافة التراكيب المماثلة للمقام. إذ لا شك لو قال قائل: لو أنك أخبرتنا عمّن يُعطى الراية غداً... كان المفهوم من هذا القول طلب معرفة المعطى وتعيينه، لا عن أصل الإعطاء، بل قد أخذ الإعطاء بنحو مفروغ منه.

وأما الجواب فهو أظهر في كون المسئول عنه ذلك، فإن قوله(صلى الله عليه وآله): «**إني قد أرى مكانه**». مؤكداً بأنّ المشبّهة ومقروناً بـ(قد) التحقيقية الداخلة على الفعل الماضي، يكاد ان يكون نصّاً في كون المسئول عنه، أعني من يستخلف، هو تعيينه للسائل. بعد المفروغية عن تعيّنه لدى المسئول ومرئياً له بالرؤية البصرية، غير أنّ هناك ما يمنع عن تعيينه للسائل. وهو ما أفاده(صلى الله عليه وآله) في تتمّة جوابه من قوله: ولو فعلت، أي لو أعلمتكم به وعيّنته لكم لتفرّقتم عنه كما تفرّق بنو إسرائيل عن

هارون... ولا دلالة في ذلك على عدم تعيينه مؤبّداً لاشتماله على المحذور. بل غاية ما فيه أن أخباره(ﷺ) عنه يكون مقروناً بالتفرّق. نعم عدم بيانه لهم فعلاً مقتضى لاقتران البيان فعلاً بالمانع.

وإمّا ما ربما يقال من ذلك، وإن كان صحيحاً إلاّ أنّه لم يخرج عن كونه إخباراً عمّن يستخلف في المستقبل، لا أنّه إخبار عن المستخلف فعلاً وهو مطلوب الخصم لأنّه لا يلزم المطابقة بين الخبر والمخبر عنه في الوقوع... فهو مما لا مجال له في إخبارات الأنبياء(عليهم السلام) ومن جرى مجراهم بوجه.

هذا ولا يخفى ما في قوله(ﷺ): «**ولو فعلتم لتفرّقتم عنه**». من الذّم والقدح للسائلين، لعدم التزامهم بمقرّرات الله تعالى ورسوله(ﷺ) والخروج عن الطاعة والتسليم بنحو لا يرتاب فيه المتأمل... كما أنّه قد وقع ما أخبر به(ﷺ) من التفرّق المذكور لدى إخباره وتعيينه بأبشع صوره وأشكاله.

ومثل هذه الرواية بل أظهر منها في الدلالة على ولاية عليّ(عليه السلام) المطلقة وإمامته العامة، ما ذكره الشارح المذكور في ص٢٥٥ من المجلد الأول من رواية زيد بن أرقم حيث يقول(ﷺ):

«**ألا أدلّكم على ما إن تساءلتم عليه لم تهلكوا. إن وليّكم الله ورسوله وإن إمامكم عليّ بن أبي طالب فناصحوه وصدّقوه، فإن جبرائيل أخبرني بذلك**».

ومن العجيب بعد هذا وغيره ما صرّح به الشارح المذكور من عدم وجود نص على إمامة أمير المؤمنين(عليه السلام)... نعم هذا شأن تطبيق الأدلّة على المذهب لا تطبيق المذهب على الأدلّة.

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة الخامسة

آية المحبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

قال الرازي في شأن النزول: يروى أنه(ﷺ) وقف على قريش في المسجد الحرام يسجدون للأصنام. فقال: يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملّة إبراهيم. فقالت: إنّما نعبد هذه حبّاً لله ليقرّبونا إلى الله زلفى... فنزلت هذه الآية المباركة.

أقول: قد أفادت هذه الآية الكريمة ترتّب متابعة الرسول(ﷺ) وطاعته على محبّة العباد لربّهم، ترتّب الجزاء على الشرط. الذي لازمه كذب دعوى المحبّة لله تعالى، عند تخلّف العباد عن الطاعة له والانقياد لرسوله(ﷺ).

ولعمري إن الأمر كذلك. حيث لا شك أن إطاعة الرسول(ﷺ) إطاعة لله سبحانه وتعالى، ومخالفته مخالفته. ويستحيل اجتماع التخلّف عن أمر الله والتقدّم بمعصيته مع المحبّة له. ضرورة أن الأمر كما قال الحكيم العارف في منظومه:

---

(١) هذه الآية هي الآية ٣١ من سورة آل عمران، وواقعة في ص٤٣١، من المجلّد الأول من مجمع البيان.

تعصى الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمرك في القياس بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

ومن هذا يظهر لك التلازم في شتى الشؤون. فإن الإيمان الصادق بالله تعالى شأنه هو الإيمان المقرون بالنبوّة والمشفوع بتصديق الرسول(ﷺ). وينعكس ذلك أيضاً انعكاساً كليّاً. وكذلك التقدير للأنبياء والأولياء إنّما هو تقدير لله سبحانه. وعلى هذا يجري القياس في كل ما يكون من تلك الشؤون. فإن المحبّة لله عزَّ اسمه لا تصدق إلاّ مع المحبّة لرسوله(ﷺ) ولكل من يحبّه الله ولكل ما يحبّه والبغض لكل من يبغضه الله سبحانه ولكل ما يبغضه.

وللملازمة بين هذه الأمور ملازمة كليّة، قالوا: إن الصديق للمرء صديقان صديقه وصديق صديقه. وأعداء المرء ثلاثة: عدوّه وعدوّ صديقه وصديق عدوّه.

كما قد دلّت الآية المباركة وكثير من الآيات الأخرى على الملازمة بنحو العكس المستوي. أعني ملازمة الحبّ من الله تعالى شأنه لمحبّة من أحبّه جلّ ذكره. بل الله تعالى شأنه أشدّ حبّاً لعباده المحبّين من محبّة العباد له بدرجات، كما ربما يؤمئ إليه الحديث القدسي الذي ذكرناه في المحاضرة الأولى من الجزء الأول من قوله تعالى شأنه: «**من تقرّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً ومن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليه باعاً**». وأن نحو المحبّة من الله سبحانه للعبد غير نحو محبّة العبد له.

فإنه قيل: إن محبة العباد لربّهم محبّة طاعته وابتغاء مرضاته واجتناب ما يوجب سخطه وعقابه. ومحبّة الله تعالى لعباده إرادة إكرامهم وأن يثيبهم أحسن الثواب ويرضى عنهم ويصونهم عن المعاصي.

وهذا التعبير لمحبّة الله تعالى، مبنيّ على ما ذهب إليه جمهور المتكلّمين: من أنّ

المحبّة نوع من الإرادة. والإرادة لا تعلق لها إلاّ بالحوادث، فيستحيل تعلّق المحبّة بذات الله تعالى شأنه وبصفاته. ولأنّها تستدعي الجنسية بين المحبّ والمحبوب...

قال بعض المحقّقين: والمنع عن الأول: أن المحبّة ليست نوعاً من الإرادة، لتعلّقها بالأعيان وتعلّق الإرادة بالأفعال. بل لو عكس لكان صواباً... وعن الثاني: أن المحبّة قد تتعلق بالأعراض، ولا جنسية بين الجوهر والعرض.

والتحقيق: أنها من الوجدانيات التي لا تحتاج إلى التعريف إلى شرح مستقيم، لتمتاز عن باقي المعاني الوجدانية. بأن يقال: هي إدراك كمال حيث هو مؤثر. وكلّما كان الإدراك أتمّ والمدرَك أشد كمالية، كانت المحبّة أكمل.

ولذلك قال العارفون: نحبّ الله تعالى لذاته لا لغرض. ولو كان كل شيء محبوباً لأجل شيء آخر دار أو تسلسل... إلى أن قال:

وهذا يقتضي أن تكون المحبّة لله سبحانه أتمّ وأقوى من كل محبّة. لأنّ الأتميّة الحقّة منحصرة فيه، والأكملية الصادقة لا تنطبق إلاّ عليه. فذاته من حيث ذاته، هي الحقيقة بالعبادة والانقياد والطاعة، لا لأجل تحصيل مثوبة أو دفع عقوبة.

كما ذكر سيّد العارفين بقوله صلوات الله عليه وعلى أبنائه الطاهرين:

«ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك...» إلى آخر الحديث.

قال سيدنا العلاّمة السيد علي خان المدني(تتمّ) في شرح الصحيفة عند ذكر المحبّة:

ولنذكر نبذة من كلام المحبّين في المحبّة. تبرّكاً بأنفاسهم واقتباساً من نبراسهم.

قال بعضهم: المحبّة هي إنقاء القلب عمّا سوى المحبوب.

وقال آخر: المحبّة بذل المجهود والحبيب يفعل ما يريد.

وقال آخر: هي نار تحرق ما سوى الحبيب.

وقال آخر: المحبّة ميلك إلى الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ثم موافقتك له سرّاً وجهراً فيما سرّك أو ساءك. ثم علمك بتقصيرك في حقه.

وقال آخر: المحبّة ما لا تنقصها الإساءة ولا يزيدها الإحسان. ولا ينسيها القرب ولا يسلبها البعد.

ثم قال(قدس سره): وفي قصة برخ العبد الأسود الذي استسقى به موسى(عليه السلام).

أن الله تعالى أوحى إليه أن برخ نِعم العبد، إلاّ أن فيه عيباً. قال: يا رب وما ذاك؟ قال تعالى: يعجبه نسيم الأسحار، ومن أحبّني لا يسكن إلى شيء ولا يأنس بشيء.

إلى أن قال السيد العلاّمة المتقدّم:

وأنشدوا في المحبّة:

لا لأنّي أنساك أُكثر ذكراك	ولكن بذاك يجري لساني
أنت في القلب والجوانح والنفس	وأنت الهوى وأنت الأماني
كل جزء منّي يراك من الوجد	بعين غنيّة عن عياني
فإذا غبت عن عياني أبصرتك	منّى بعين كل مكان

ثم قال(قدس سره):

أقول: في أنّ السالك طريق المحبّة لله سبحانه، لا ينبغي أن يقصر عن طريق العاشق لمن تعلّق حبّه به وتمركز حبّه في قلبه. أتراه كيف لا يتجاوز عن التفكّر في محبوبه وجماله وكماله وصفاته، وأفعال نفسه التي تقرّبه منه وتحبّبه إليه ليتّصف بها،

أو التي تبعّده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزّه عنها. ولو تفكّر في غير ذلك كان ناقص العشق. كذلك المحبّ الخالص لله تعالى شأنه ينبغي أن يحصر فكره في الله وصفاته وفي أفعاله، وفيما يقرّبه منه ويحبّبه، أو يبعده عنه. ولو تفكّر في غير ذلك كان كاذباً فيما يدّعيه من الحب والشوق.

قال بعض العرفاء: كما أنّ لمحبّة المحبّ مراتب متفاضلة، كذلك لمحبّة المحبوب درجات متفاوتة لمن تعلّق حبّه به وتمركز في نفسه. فمحبّته تعالى للعوام باختصاصهم بالرحمة والغفران والتجلّي بالأفعال والآيات. ومحبّته سبحانه للخواص باختصاصهم بالتجلي بصفات الجمال، وستر ظلمة صفاتهم بأنوار صفاته. ومحبّته لأخص الخواص باختصاصهم بالجذبات وستر ظلمة وجودهم بأنوار الوجود الحقيقي. فيتجلّى أولاً بنار الجلال فيحرق عن قلوبهم جميع ما كان فيها. ثم يتجلّى بنور الجلال فيمحوهم عنهم ويثبتهم به ويسلب عنهم السمع والبصر والنطق، كما ورد في الخبر الصحيح المشهور بين الشيعة وأهل السنة والجماعة من قوله عزّوجل في الحديث القدسي:

«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها. إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته».

قلت: وقال بعضهم: إن الرشيد كان في كل سنة يخلع على عبيده وجواريه يوم العيد. فجمعهم يوم عيد على عادتهم. ووضع أنواع الحلل والثياب والديباج والدراهم والدنانير. وقال: من أحبّ شيئاً فليضع يده على ما أراد. فوضع كل منهم يده على ما اختاره، إلاّ جارية منهنّ فإنّها وضعت يدها على الرشيد، فقال لها: ما تصنعين؟ قالت: يا مولاي ألست أمرتنا بأن نضع أيدينا على ما نحبّ، فأنا لا أحبّ سواك. فقال لها الرشيد: أنا ومالي بين يديك. وأعجبته غاية الإعجاب،

وحكّمها في جميع ما عنده[1].

قال المؤلف صاحب الكتاب المتقدّم:

كذلك العبد إذا تعلّق بذكر مولاه ولا أحبّ سواه، قرّبه وأدناه وأعزّه وولاّه، وأعطاه كل ما يتمنّاه من دنياه وعقباه.

ثم قال:

يتمنّى طرف المحب يراكا ... أتراه يفوز منك بذاكا

يا بعيداً عن ناظري وهو في القلب ... مقيم ما آن وقت لقاكا

كيف ما شئت كن وما شئت فاصنع ... بفؤادي فما أحبّ سواكا

إن تكن في الهوى لقتلي راضٍ ... يا حبيبي فقد رضيت رضاكا

إن أعش فالحياة أنت وإن متّ ... ففي القبر حُجّتي ذكراكا

ولكن لا يخفى أنّه لا يحظى بذلك إلاّ من خصّه الله تعالى بكرامته وحباه بلطفه وعنايته، وعلم منه الأهلية والاستعداد للفيض الربوبي والفيض الإلهي، كما قال تعالى شأنه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

كسيّد الوصيّين(عليه السلام) الذي بلغ حبّه لله سبحانه وشوقه إليه جلّ وعلا، أنّه يُغشى عليه في كل يومٍ مرّة، حتى يخاله الرّائي أنه فارقته روحه(عليه السلام).

وقد ذكر البعض أنّ عليّاً(عليه السلام) خرج يوماً خارج المدينة وحده، وقد بصر به بعض المؤمنين فخرج خلفه متخفياً عنه. فجاء حتى إذا تفرّد في نفسه واختفى عن

---

(١) في هذه الرواية مغالطة واضحة، فان الرشيد استعمل (ما) وهي لغير العاقل في قوله: «من احب شيئا فليضع يده على ما اراد...» ، فوضع الجارية يدها على الرشيد واستجابة الرشيد لها مما لايعقل، مع وضوح الكلام ودقته. (د. المدني)

الأبصار، عمد إلى حجارة خشنة فسجد عليها وهو يذكر الله سبحانه، ويبكي كما يبكي المحبّ المشتاق إلى حبيبه، وينشج نشيجاً عالياً. فبينما هو كذلك إذ انقطع صوته وسكن نشيجه. يقول ذلك الرصد: فجئت إليه فحرّكته فإذا هو كالخشبة اليابسة. فأسرعت إلى داره لأخبر أهله. فقلت لهم: إن عليّاً قد مات. فقالت فاطمة(عليها السلام): كيف مات! وليس هذا وقته. صف لي معالمه. فوصفتها لها. قالت(عليها السلام): هذه الغشوة التي تأخذه في كل يوم.

قلت: وكيف لا يكون عليّ(عليه السلام) أهلاً لهذه المنازل الرفيعة والدرجات المنيعة، وهو أخو رسول الله(صلى الله عليه وآله) وشقيق دوحة النبوّة، وقسيم شجرة الرسالة، بل قسيم نوره الذي به كانت تزهر السموات والأرض، حيث لم تكن شمس مضيئة ولا قمر منير، كما رواه الفريقان من الشيعة والسنّة.

قال الشيخ عبد الرحمن الشافعي الصفوري في كتابه: نزهة المجالس المطبوع في القاهرة (١٣٥٧) في ص٢٣٠ منه في فضائل الحسن والحسين(عليهما السلام)، فإنه قال:

عن جابر بن عبد الله الأنصاري(رضي الله عنه) عن النبي(صلى الله عليه وآله) أنه قال(صلى الله عليه وآله): «أن الله خلقني وخلق عليّاً نورين بين يدي العرش نسبّح الله ونقدّسه، قبل أن يخلق آدم بألفي عام. فلما خلق الله آدم أسكننا في صلبه ثمّ نقلنا من صلب طيب وبطن طاهرة، حتى أسكننا في صلب إبراهيم(عليه السلام). ثم نقلنا من صلب إبراهيم إلى صلب طيب وبطن طاهرة حتى أسكننا في صلب عبد المطلب. فصار ثلثاه في عبد الله وثلثه في أبي طالب. ثم اجتمع النور منّي ومن عليّ في فاطمة. فالحسن والحسين نوران من نور ربّ العالمين».

هذا من طرق أهل السنة والجماعة كما سمعت.

وأما من طرق الشيعة ما ذكره السيّد الأجلّ صاحب حق اليقين في ص١٠٦

من المجلّد الأول منه راوياً ذلك عن الصدوق (ﭬ) ما في الإكمال بإسناده عن الرضا(ﷺ) عن آبائه(ﷺ) عن رسول الله(ﷺ)، قال(ﷺ):

«والله ما خلق الله تعالى شأنه خلقاً أفضل مني ولا أكرم عليه مني. قال عليّ(ﷺ): فقلت: يا رسول الله، فأنت أفضل أم جبرائيل؟ فقال(ﷺ): يا عليّ، إنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبيائه المرسلين على ملائكته المقرّبين، وفضّلني على جميع النبيّين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من بعدك. وإن الملائكة لخدّامنا وخدّام محبّينا. يا عليّ إن الذين يحملون العرش ومن حوله، يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون للذين آمنوا بربّهم وبولايتنا. يا عليّ، لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حوّاء ولا الجنّة ولا النار ولا السماء ولا الأرض. وكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى التوحيد ومعرفة ربّنا عزّوجل وتسبيحه وتقديسه وتهليله؟ لأنّ أول ما خلق الله أرواحنا، فأنطقنا بتوحيده وتمجيده، ثم خلق الملائكة، فلما شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً، استعظموا أمرنا فسبّحنا لنعلم الملائكة أنّا خلق مخلوقون، وأنّه منزّه عن صفاتنا، فسبّحت الملائكة أن لا إله إلا الله وأنّا عبيد ولسنا بإله يجب أن نعبد معه أو دونه. فلمّا شاهدوا كبر محلّنا كبّرنا الله تعالى، لتعلم الملائكة أن الله أكبر من أن ينال وأنه عظيم المحل. فلما شاهدوا ما جعله الله عزّوجل لنا من العزّة والقوة، قلنا: لا حول ولا إلاّ بالله العليّ العظيم، قالت الملائكة: لا حول ولا قوة إلاّ بالله. فلما شاهدوا ما أنعم الله به علينا وأوجبه لنا من فرض الطاعة، قلنا: الحمد الله لتعلم الملائكة ما يحق لله تعالى ذكره علينا من الحمد على نعمه. فقالت الملائكة: الحمد لله. فبنا اهتدوا إلى معرفة توحيد الله وتسبيحه وتهليله وتحميده وتمجيده.

ثم إن الله تبارك وتعالى خلق آدم وأودعنا صلبه، وأمر الملائكة بالسجود له

تعظيماً لنا وإكراماً، وكان سجودهم لله عزَّوجل عبودية، ولآدم إكراماً وطاعة، ولكوننا في صلبه. فكيف لا نكون أفضل من الملائكة، وقد سجدوا لآدم كلهم أجمعون.

وأنه لما عرج بي إلى السماء أذّن جبرائيل مثنى مثنى. ثم قال: يا محمّد تقدّم. فقلت: يا جبرائيل، أتقدّم عليك؟ فقال: نعم، لأنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبيائه على ملائكته أجمعين، وفضّلك خاصة. فتقدّمت، وصلّيت بهم ولا فخر.

فلما انتهينا إلى حجب النور، قال لي جبرائيل: تقدّم يا محمّد، وتخلّف عني. فقلت: يا جبرائيل، في مثل هذا الموضع تفارقني؟ فقال: يا محمّد، إن هذا انتهاء حدّي الذي وضعني الله عزَّوجل فيه إلى هذا المكان، فإن تجاوزته احترقت أجنحتي لتعدي حدود ربي جلَّ جلاله. فزجّ بي في النور زجّة حتى انتهيت إلى ما شاء الله عزّوجل من علوّ ملكوته. فنوديت: يا محمّد! فقلت: لبيك وسعديك تباركت وتعاليت.

فنوديت: يا محمّد! أنت عبدي وأنا ربّك، فإيّاي فاعبد، وعليّ فتوكّل، فإنك نوري في عبادي ورسولي إلى خلقي وحجّتي في بريّتي. لمن تبعك خلقت جنّتي ولمن خالفك خلقت ناري، ولأوصيائك أوجبت كرامتي ولمحبيهم أوجبت ثوابي. فقلت: يا ربّي، ومن أوصيائي؟ فنوديت: يا محمّد، أوصيائك المكتوبون على ساق عرشي. فنظرت وأنا بين يدي ربي إلى ساق العرش، فرأيت اثنى عشر نوراً في كل نور سطر أخضر مكتوب عليه اسم من أسماء أوصيائي أوّلهم عليّ بن أبي طالب وآخرهم مهديّ أمّتي. فقلت: يا ربّ، أهؤلاء أوصيائي بعدي؟ فنوديت: يا محمّد، هؤلاء أوليائي وأحبّائي وأصفيائي، وحججي بعدك على بريَتي، وهم أوصياؤك وخلفاؤك وخير خلقي بعدك، وعزّتي وجلالي لأظهرنّ بهم ديني ولأعلينّ بهم

كلمتي، ولأطهرنّ الأرض بآخرهم من أعدائي، ولأمكّنه مشارق الأرض ومغاربها، ولأسخَرنّ له الرياح ولأذللنّ له الرقاب الصعاب، ولأرقينّه للأسباب، ولأنصرنه بجندي، ولأزيدنه بملائكتي حتى يعلن دعوتي ويجمع الخلق على توحيدي، ثم لأديمنّ ملكه ولأداولنَّ الأيام بين أوليائي إلى يوم القيامة».

والأحاديث في ذلك كثيرة... انتهى.

أقول: وناهيك بهذا فضلاً ينحط عنه كل فضل، وتكريماً ينحط عنه كل تكريم.

وبعد هذا، هل ترى أن أحداً يستأهل أن يكون وصياً لرسول الله(ﷺ) غير عليّ وأبنائه(سلام الله عليهم)؟

وهل تستبعد ما يقوله الإمامية: من أنّ مناوئيه ومخالفيه فضلاً عمن شهر عليه سيفاً أو شرع عليه رمحاً، قاصداً قتله أن يكون في أسفل درك من الجحيم؟ وأنه لا يحاسب حسابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد؟

وهكذا الحال في أبنائه وأوصيائه(عليهم السلام).

وهل يبقى لك شك فيما يعزى إلى رسول الله(ﷺ)، من أن عليّاً مدار الحق يدور مداره حيث دار.

هذا ما يرجع إلى عالم الأشباح والأرواح.

وإمّا ما يرجع إلى عالم الحقيقة والتحقّق في هذه النشأة:

فأمّا تربيته(عليه السلام) فهو خريج مدرسة الوحي، والمنقطع إليها عن كل ما سواها منذ الصغر. كما ذكره(عليه السلام) بخطبته المشهورة[1] من قوله(عليه السلام):

---

(١) ذكر هذه الخطبة العلاّمة المعتزلي في ص٢٥٠ من المجلد ٣ من شرحه.

«أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب وكرست نواجم قرون ربيعة ومضر -إلى أن قال- ولقد علمتم موضعي من رسول الله(ﷺ) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه ويُمسّني جسده ويُشمّني عرفه. وكان يمضغ الشيء ويلقمنيه. وما وجد لي كذبة في قول ولا خَطلة في فعل. ولقد قرن الله تعالى شأنه به(ﷺ) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت أتّبعُه اتّباع الفصيل أثر أُمّه. يرفع لي في كل يوم من أخلاقه عَلَماً ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجتمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله(ﷺ) وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزول الوحي(عليه السلام). فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته. إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ أنّك لست بنبيّ ولكنّك لوزير وإنك لعلى خير». انتهى.

قلت: وهل يا ترى ساواه أحد في هذه الصفات، أو باراه أحد في هذه الكمالات؟ وهل إن التعدّي عليه غير التعدّي على مرتبة الإمامة الحقّة والزعامة الدينية المطلقة؟ وهل يليق بالخلافة سواه؟ وهل يصلح لها من كل من في البسيطة غيره؟ فضلاً عمّن عانده وعاداه؟

كلاّ لا أظنّ بعاقل يؤمن بذلك، إن لم يكن مجازفاً في القول أو مخالطاً في الفعل.

قال شارح النهج المعتزلي في شرحه ص٥ ح١، وذكر قريباً منه الشيخ الصفوري الشافعي في نزهته ص٢٠٤ ح٢:

أنّ قريشاً أصابتها أزمة وقحط. فقال رسول الله(ﷺ) لعمّيه حمزة والعباس: ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل. فجاؤا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم. فقال: دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم. وكان شديد الحب لعقيل. فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً وأخذ محمّد(ﷺ) عليّاً. وقال(ﷺ) لهم: «قد اخترت من اختاره الله لي عليكم»[1].

فكان عليّ في حجر رسول الله(ﷺ) منذ كان عمره ست سنين، وكان يسدي إليه من إحسانه وشفقته وبرّه كالمكافآت والمعاوضة لصنيع أبي طالب[2]، حيث مات عبد المطلب وجعله في حجره. وهذا يوافق قوله(عليه السلام): «**لقد عبدت الله تعالى قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمّة سبع سنين**». وقوله(عليه السلام): «**وكنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً، ورسول الله(ﷺ) صامت ما أذن له في الإنذار والتبليغ**».

---

(١) ومهما فاتك من شيء فلا يفوتنك ما في هذه الكلمة الصادرة عن مهبط الوحي وموضع الرسالة.

(٢) قلت: هذه الكلمة وإن كان لها درجة من الصحّة، حيث أن أبا طالب(رضوان الله عليه) كان المفادي بنفسه ونفيسه لرسول الله(ﷺ) منذ كان عمره(ﷺ) ٨ سنين إلى السنة العاشرة من البعثة. فتلك اثنتان وأربعون سنة، كما ذكرنا ذلك عن الحافظ ابن الجوزي في ص٢٦ من هذا المجلّد. فراجع.

لكن صنيع رسول الله(ﷺ) لعليّ(عليه السلام) ليس لمحض ذلك. بل لمعرفته(ﷺ) لعليّ(عليه السلام) وإحاطته(ﷺ) بما له(عليه السلام) من الشأن والمنزلة عند الله جلّ جلاله وأنه(عليه السلام) اخوه ووارث علمه والحجّة على الخلق من بعده وأبو ذريّته، كما في حديث: «كل نبيّ ذريّته في صلبه وذريّتي في صلب عليّ»... ويكفيك في شأن عليّ(عليه السلام) الحديث المشهور من قوله(ﷺ): «يا عليّ ما عرف الله – تعالى شأنه – إلاّ أنا وأنت وما عرفني إلاّ الله وأنت وما عرفك إلاّ الله وأنا».

وقال الشارح المتقدّم في مقام آخر[1]:

قد روى أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله(ﷺ) أنّه قال(ﷺ):

«لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين وذلك أنّه لم يصلّ معي رجل غيره».

هذا وقد ذكر في هذا المقام مما يتعلق بهذا الموضوع، ما يضيق عن إحصائه هذا المؤلّف الصغير، الذي منه تصديقه لما رواه أبو أيّوب، وتفسيره لذلك يعني عبادته(عليه السلام) قبل تظاهر الرسول(ﷺ) بالدعوة سبع سنين، ينطبق على ما يقول بعض أصحابنا من أنّ عمره(عليه السلام) عند إظهار الرسول(ﷺ) الدعوة ثلاث عشرة سنة. وكان انتقاله إلى رسول الله(ﷺ) وكفالته له حين كان عمره ست سنين. فيكون قد عبد الله سبع سنين قبل الناس بأجمعهم.

قلت: وهناك للقوم أحاديث جمّة تنطق بذلك، نشير إلى بعضها:

١ - منها: قوله(ﷺ): أوّلكم وارداً عليّ الحوض أوّلكم إسلاماً علي بن أبي طالب(عليه السلام)[2].

٢ - ومنها: أخذ رسول الله(ﷺ) بيد عليّ(عليه السلام) فقال:

أنَّ هذا أول من آمن بي وهذا أول من يصافحني يوم القيامة وهذا الصديق الأكبر.

(١) ذكر هذا في ص٢٦٢ من المجلد الثالث من الشرح.

(٢) مأخوذ عن الحاكم في المستدرك ح٣ ص١٣٦؛ وصححه الاستيعاب، ح٣ ص٢٨؛ وشرح النهج ح٣ ص٢٥٨؛ ومثله بلفظه عن مناقب الفقيه المغازلي، ومناقب الخوارزمي.

ومثله بلفظه أيضاً السيرة الحلبية: ح١ ص٢٨٥؛ وسيرة زيني دحلان ح١ ص١٨٨.

٣ – ومنها: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله(ﷺ): «**إن أول من صلّى معي عليّ**»[١].

٤ – ومنها: عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله(ﷺ): «**يا عليّ أخصمك بالنبوّة ولا نبوّة بعدي. وتخصم الناس بسبع ولا يحاجك فيه أحد من قريش: أنت أولهم إيماناً بالله وأوفاهم بعهد الله وأقومهم بأمر الله...**» الحديث[٢].

٥ – ومنها: كلمة لأمير المؤمنين(عليه السلام): «**أنا عبد الله وأخو رسوله. وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر. ولقد صلّيت مع رسول الله(ﷺ) قبل الناس بسبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه**».

وذكر بعض المحقّقين المتتبّعين ٢٤ حديثاً من طرق القوم، وعقّبه بجملة شهادات تاريخية تزيد على ستين شهادة من علماء الحديث والتاريخ، بأنّه(صلوات الله عليه) كذلك، أعني كونه أوّل الناس إسلاماً وأقدمهم إيماناً.

وقريب مما أفاده المحقّق المذكور، ما ذكره شارح النهج، قال[٣]:

فأما الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام، المذكورة في الكتب الصحاح والأسانيد الموثوق بها. فمنها: ما روى شريك بن عبد الله عن سليمان بن المغيرة عن زيدان بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: أوّل شيء علمته من أمر رسول الله(ﷺ) أني قدمت مكّة مع عمومة لي وناس من قومي، وكان من أنفسنا شراء عطر، فأرشدنا إلى العباس بن عبد المطلب، فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم. فبينا نحن عنده جلوساً، إذ أقبل رجل من باب الصفا، وعليه ثوبان

(١) مأخوذ عن فرائد السبطين، الباب ٢٧ بأربع طرق.

(٢) مأخوذ عن حلية الأولياء، ح١ ص٦٦.

(٣) ص٢٥٦ المجلّد ٣ من الشرح.

أبيضان، وله وفرة إلى أنصاف أذنيه جعدة، أشمّ أقنى، أدعج العينين، كثّ اللحية، برّاق الثنايا، أبيض تعلوه حمرة، كأنه القمر ليلة البدر. وعلى يمينه غلام مراهق أو محتلم، حسن الوجه، تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها. حتى قصدوا نحو الحجر فاستلمه واستلمه الغلام ثم استلمته المرأة. ثم طاف بالبيت سبعاً والغلام والمرأة يطوفان معه، ثم استقبل الحجر فقام ورفع يديه وكبّر، وقام الغلام إلى جانبه وقامت المرأة خلفهما فرفعت يديها وكبّرت. فأطال القنوت ثم ركع وركع الغلام والمرأة. ثم رفع رأسه فأطال ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل ما يصنع. فلما رأينا شيئاً ننكره لا نعرفه بمكة، أقبلنا على العباس فقلنا: يا أبا الفضل أن هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم، قال: أجل والله. قلنا: فمن هذا؟ قال: هذا ابن أخي محمّد بن عبد الله وهذا الغلام ابن أخي علي بن أبي طالب وهذه المرأة زوجة محمّد خديجة بنت خويلد. والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين إلاّ هؤلاء الثلاثة.

وقال شارح النهج في موضع آخر[1]: وأما حديث أن الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحد يومئذٍ إلاّ النبي(ﷺ) وهو – يعني علياً(عليه السلام) – وخديجة فخبر عفيف الكندي مشهور. وقول العباس له: وأيم الله ما أعلم على الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

قال العلاّمة الكبير[2] في كتابه المسمّى بتحفة العالم في شرح خطبة المعالم. وفي ريحانة الأدباء أن الدعاء بكرّم الله وجهه مختص بأمير المؤمنين عليّ بن أبي

(١) ص٢٥٥، المجلّد الثالث.

(٢) هو السيد المجلّل المقدّر العلاّمة السيد جعفر بحر العلوم(طيب الله ثراه). ذكر هذا في ص٢٣٠ من المجلد الأول من الكتاب المذكور.

طالب(كرّم الله وجهه) في لسان الناس لأنه أسلم صبيّاً ولم يسجد لغير الله.

وقال شارح النهج: وروى الحسن البصري قال: حدثنا عيسى بن راشد عن أبي بصير عن عكرمة عن ابن عباس، قال: فرض الله تعالى الاستغفار لعليّ بن أبي طالب في القرآن الكريم على كل مسلم بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فكل من أسلم بعد عليّ فهو يستغفر لعليّ.

وذكر شارح النهج المذكور عن مجاهد عن ابن عباس قال: للسباق ثلاثة سبق يوشع بن نون إلى موسى(عليه السلام)، وسبق صاحب ياسين إلى عيسى(عليه السلام)، وسبق عليّ(عليه السلام) إلى محمّد(صلى الله عليه وآله).

وهذا وأمثاله يصعب إحصائه ولا يخفى على المتتبّع... والحمد لله ربّ العالمين.

المحاضرة السادسة

آية ومن عنده علم الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (١).

أقول: غير خفي أن هذه الآية المباركة، مفادها التنديد والتفنيد لدعوى منكر الرسالة لخاتم النبيين وسيد المرسلين محمّد(ﷺ). والظاهر أن المقصود من المحكوم عليهم بالكفر في المقام، هم مشركو العرب وغيرهم من كتابيين وغيرهم ممّن عاصر النبي(ﷺ)، بقرينة الآية السابقة عليها من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ وكذلك الآيات الأخرى السابقة عليها.

ووجه التفنيد ما سدّد الله تعالى شأنه به نبيّه(ﷺ)، من ردّ دعواهم بإقامة الشهادة عليهم بمن تكون شهادته قاطعة للخصومة ومفنّدة للدعوى، بنحو لا يبقى معها مجال لتشكيك في صدق دعواه(ﷺ) الرسالة، وحسم مادّة الشبهة حيث جعل سبحانه نفسه شهيداً بصدق دعوى النبوّة وثبوت الرسالة. والشهادة

---

(١) آية ٤٢ من سورة الرعد الواقعة في ص٢٩٩ ج٣ من مجمع البيان، وص٣١٢ من المجلّد ٥ من تفسير الرازي.

من الله تعالى شانه ولو كانت بمحض القول على تثبيت ما يجحدون، لهو أعظم ما يفرض من الأدلّة القاطعة للّجاج والمسقطة للاحتجاج، كالشكل الأول البديهي الإنتاج. لا مكان طرو التشكيك بالغفلة عن تحقّق بعض شرائط إنتاجه، ولكن القول من الله سبحانه والشهادة منه خالية عن كل احتمال. ولكن المقصود بشهادته تعالى، ما يرجع إلى إقامة أكبر دليل وأثبت برهان وهو ما أجراه تعالى شأنه على يد نبيّه(ﷺ) من المعجزات وخوارق العادات، التي يعجز البشر عن مباراتها، بل الأنس والجن على الإتيان بمثلها، كما ذكر ذلك تعالى شأنه بالنسبة إلى بعضها، وإن كان غيرها يجري مجراها في مرحلة الإعجاز، ولا يتأتّى شيء منها إلاّ بالإمدادات الربانية، لأنها من خصائص الرب جلّ وعلا لا من فعل المربوبين. كما في مثل القرآن الكريم الذي تحدّى البشر بالإتيان بسورة من مثله، المنطبقة على ما اشتملت على آيات ثلاث كسورة الكوثر، وكانشقاق القمر وإصابة عيون جمع غفير بكف من تراب ونسيج الحصى بيده وشهادة رضيعين له(ﷺ) بالرسالة في واقعتين، وردّ الشمس لعليّ(عليه السلام) بدعائه(ﷺ) ونبع الماء من بين أصابعه وحنين الجذع عليه وقصة جابر وذبح ولديه وتسليم الشجر والحجر عليه. وغير ذلك مما اشترك الشيعة والسنّة في نقله.

هذا وقد ذكرت لمعجزاته(ﷺ) في الموسوعات من الكتب كالبحار أبواب مفصّلة لا قضايا شخصية وموارد جزئية... فقالوا: باب: فيما ظهر منه(ﷺ) من المعجزات السماوية كانشقاق القمر ورد الشمس وظلال الغمامة وظهور الشهب ونزول الموائد والنعم من السماء. باب: في إطاعة الأرضيات له(ﷺ). باب: معجزاته في الحيوانات. باب: معجزاته(ﷺ) في إحياء الموتى والتكلم معهم وشفاء المرضى. باب: معجزاته(ﷺ) في كفاية شرّ الأعداء. باب: معجزاته(ﷺ)

في استيلائه على الجن والشياطين وإيمان بعض الجن به. إلى غير ذلك مما يقف عليه المتتبّع.

وقد أحصى منها بعضهم ألفاً. وذكر عن بعض آخر: أنها أربعة آلاف وأربعمائة وأربعون معجزة، ذكرت منها ثلاثة آلاف. تتنوّع أربعة أنواع: ما كان منها قبل ميلاده(ﷺ)، وما كان منها بعد ميلاده(ﷺ)، وما كان بعد بعثته(ﷺ)، وما كان منها بعد وفاته(ﷺ). وهذا المقدار وإن كان كثيراً بحسب العدد، إلاّ أن التدبّر في معجزاته(ﷺ) يفضي إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير. حيث أن كل حالة من حالاته(ﷺ) معجزة باهرة وكل خلق من أخلاقه(ﷺ) دليل، وكل صفة من صفاته(ﷺ) برهان، لمن نظر في تناسب أقواله وأفعاله(ﷺ) وتأمّل في سماته وأحواله(ﷺ)، وأنعم النظر في آدابه وعاداته وسجاياه وسياساته(ﷺ)، وعجائب أجوبته في مضائق الأسئلة، وبدايع تدبيراته في مصالح الخلق، وشافي بياناته في تحقيق معالم الدين، وغامض إشاراته لدقائق الحكم، التي يعجز عن إدراكها الفيلسوف، مع رعاية نشأته(ﷺ) بين ظهراني ذلك الخلق الوحشي، الذي لا يعرف من المعارف كثيراً ولا قليلاً. مع أنه(ﷺ) لم يكن تلقّى ذلك عن دراسة وتعاليم ولا مطالعة كتاب، ولم يسافر إلى تحصيل تعليم.

وهل ما أحاط(ﷺ) به بعد ذلك من علم الملك والملكوت إلاّ بالوحي من حكيم عليم؟

ولا ينبغي الريب في أن تلك الأخلاق والصفات والأحوال، وذلك التطابق بين الأقوال والأفعال، دون سائر المعجزات الأخرى، بل لعل التناسب الكلي بين كافة الحركات والسكنات والجمع لكافة الكمالات، من أعظم مقاييس كونه(ﷺ) رسولاً كريماً ونبيّاً صادقاً حكيماً(ﷺ).

نعم هذه الخلال هي معجزات لأولي الألباب وذوي السداد والصواب، وهو قسم خاص من البشر. ولذا قسم بعض أهل العرفان طبقات البشر في مقام النظر في دعوى النبوّة، إلى ثلاثة أقسام. وخصّ المحتاج بالاحتجاج عليه بالمعجز إنما هي الطبقة الثانية من البشر دون الطبقة الأولى وهم أهل التفكير والتدبّر، إذ أنهم لا يحتاجون إلى أكثر من رعاية القياس في مختلف الأوقات بين الأفعال والأقوال، والجري على مقتضيات المقامات والأحوال. وأما الطبقة الثالثة، وهم الهمج الرّعاع الذين هم لا يهتدون سبيلاً، فإنهم لا ينقادون إلاّ بالسيف والسنان أو الأصفر الرّنان.

وكيف ما كان، فالمقصود من شهادة الله تعالى لنبيّه(ﷺ) هو ما جعله له(ﷺ) وأجراه على يده مما يعجز البشر بما هو بشر مهما جلّ قدره وعظم خطره من علم وحلم وغيرهما، عن مباراته ومجاراته. وذلك بطبيعة حاله مما يأخذ بالأعناق إلى الإذعان بالنبوّة والتصديق بالرسالة.

وأمّا شهادة من عنده[١] علم الكتاب، التي جعلها الله سبحانه قرينة لشهادة

---

(١) غير خفي أن المرسوم في المصاحف الشريفة: ومَن عنده علم الكتاب... بفتح الميم. وقيل: أنه قد قرأ بكسر الميم، على أن تكون حرف جر. وهذه القراءة على وجهين:
أحدهما: أن يكون علم مصدراً مضافاً إلى الكتاب.
وثانيهما: أن يكون فعلاً مبنياً للمجهول.
وظاهر مجمع البيان: إن قراءة كسر الميم بكلا وجهيها من الشواذ. حيث قال في مقام بيان القراءة لهذه الفقرة من الآية.
(وفي الشواذ قراءة النبي(ﷺ) وعليّ وابن عباس وسعيد ابن جبير وعكرمة وابن أبي إسحاق والضحّاك والحكم ابن عينية، ومن عنده علم الكتاب. بكسر الميم والدال) من دون تعرض لكون ما بعد الظرف مصدراً أو فعلاً. ومقتضى الإطلاق: إن قراءة كسر الميم مطلقاً محكومة بالشذوذ، سواء اعتبر ما بعد الظرف اسماً أو فعلاً. =

ربّ الأرباب، فهي وإن ذكر في شرح المراد منها أقوال، إلاّ أنّ أقواها ثانيها فيما ذكره الرازي في تفسيره: من أنه من عنده علم القرآن، وفهم معانيه وما اشتمل عليه من دلائل الإعجاز كالنظم الغريب والأسلوب الغريب، الذي لا يقدر البشر على مباراته، بل الأنس والجن على مجاراته بل على سورة من مثله، وما تكفله من أخبار الماضين، بنحو لا يحيط بها خبراً إلاّ ربّ العالمين، وما فيه من أخبار عن غيبيات ووقوعها على حسب ما اقتضته تلك الإخبارات، وما له من خواص وآثار وعظيم الأسرار، وما له من التأثير على القلب من الإصلاح وإزالة الأدران، التي أودعها فيه الانقياد إلى النفس الأمّارة بالسوء وطاعة الشيطان. كما شهد بذلك التأثير إمام المتقين وعيبة علم رسول ربّ العالمين حيث قال(عليه السلام): «**وما جالس أحد هذا القرآن إلاّ قام بزيادة أو نقصان. زيادة في هدى ونقصان من عمى**».

وان نحو شهادة العالم بالقرآن نحو شهادة الله تعالى شأنه، غير أنّه من حيث إتيان مدعي الرسالة بالقرآن المشتمل على تلك الخصائص والنفائس، التي لا يحيط بها ذو العلم الخطير، إلاّ بالتلقي من لدن حكيم خبير. إذ أنّ علمه بالقرآن بما أفاده ذلك البيان، والتصديق بأنّه لم يأت به غير مدّعي النبوّة، يقتضيان شهادته بكل ما له قوة: على أنّ من جاء به نبيّ حقّ ورسول مصدّق...(صلى الله عليه وآله).

= ويترتب على هذا: سقوط القول بأنّ المراد بمن عنده علم الكتاب، هو الله سبحانه وتعالى. سواء أخذ العلم مصدراً أو فعلاً مبنياً للمجهول.

كما أن يسقط القول الثاني هو كون المراد به عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي(رض) وتميم الداري، لأن إسلام هؤلاء بعد الهجرة والسورة المكّية.

فيتعين القول الثالث، وهو كونه أمير المؤمنين ووارث علم سيّد النبيّين صلوات الله وسلامه عليهما وآلهما.

وهذا كلّه مما لا ريب فيه ولا شبهة تعتريه.

غير أنّه بقي أمر مهم جداً، وهو تعيين هذا الشاهد الذي قرن الله تعالى شأنه شهادته بشهادته، إذ قد أهمل القرآن تعيّينه. وبالطبع إنّ هذا الإهمال في المقام إنّما هو من باب إيكال التعيين إلى ما تقتضيه المقاييس، أو يحكم به العيان والوجدان، أو ببيان صاحب الرسالة وتنصيص مهبط الوحي والدلالة.

أما التعيين من قبل الرسول الأمين، بعد الالتفات إلى أنّ رواته تروي عن ثقة من ثقات الحديث، ومن عليهم المعوّل في إثبات ما يتعلق بالدين، وإن قطع سندها بحسب الذكر عن الرسول(ﷺ)، لكنها لا محالة تستند إليه(ﷺ). لأنّ الحكم ما لم يرجع إليه(ﷺ) لا معوّل عليه. وقد نقل كون المقصود بمن عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين(عليه السلام)، صاحبُ ينابيع المودّة. في المحكى عن ينابيعه وأبي نعيم عن ابن الحنفية. ونقله أيضاً في المحكى عنه عن الثعلبي وابن المغازلي عن عبد الله بن عطاء قال: كنت مع محمد الباقر(عليه السلام) في المسجد، فرأيت عبد الله بن سلام، فقلت: هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال: إنّما ذلك علي بن أبي طالب(عليه السلام). ثم ذكر في محكى الينابيع: أنّ ذلك مرويّ أيضاً عن أبي سعيد الخدري وموسى بن جعفر(عليه السلام) وزيد بن علي وإسماعيل السدي أنهم قالوا: هو عليّ بن أبي طالب(عليه السلام). **قلت**: ويؤيد كون الآية الشريفة من آيات أمير المؤمنين علي(عليه السلام)، ما هو المحكي عن الحاكم في مستدركه والذهبي في تلخيصه(ج٣ ص١٤٢) معترفاً بصحّته على شرط البخاري ومسلم: أن رسول الله(ﷺ) قال:

«عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

ومن الواضح: أنّ كونه(عليه السلام) مع القرآن، موقوف على علمه(عليه السلام) بالقرآن. كما يؤيّده ما سوف يذكر لك من الأخبار الواردة في كون المقصود بالشاهد في قوله

تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، أنّه علي بن أبي طالب(عليه السلام).

كما أنّ هناك شهادات لذوي العلم والإنصاف، بأنّه(عليه السلام) لا يساويه أحد في علم القرآن.

١. منها: ما عن الشعبي[١] - على ما في مجمع البيان عند تفسير الآية(ص٣٠١ ج٣) أنه قال: ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبي(صلى الله عليه وآله) من عليّ بن أبي طالب ومن الصالحين من أولاده.

٢. ومنها: ما ذكره شارح النهج المعتزلي[٢] ناقلاً له عن الحسن البصري، المنحرف عن أمير المؤمنين(عليه السلام) المتخلّف عن بيعته(عليه السلام) أنه قال: كان ربّاني هذه الأمة وذا فضلها. ولذا تسميّه الفلاسفة: إمام الأئمة وحكيم العرب.

٣. ومنها: شهادة الخليل بن أحمد النحوي[٣]، في قوله: احتياج الكل إليه،

---

(١) قلت: والشعبي هذا هو أبو عمر عامر بن شراحيل. ينسب إلى شعب بطن من همدان وكان من كبار التابعين وأجلّتهم. وكان فقيهاً شاعراً. روى عن خمسين ومائة من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله). كما هو المحكى عن السمعاني.

وعن بعضهم: الشعبي في زمانه كابن عباس في زمانه.

وقال شيخنا العلاّمة القمّي(رحمه الله) في سفينة البحار، بعد ذكر ما لا يختلف عما ذكرنا إلاّ بقليل. وقد روى عنه تفضيل أبي بكر على عليّ(عليه السلام)، وأن أبا بكر أول من أسلم. ورمى الحرث الأعور بالكذب في الحديث، لإفراطه في حبّ علي(عليه السلام). مات سنة ١٠٤ بالكوفة... إلى أن قال:

أقول: قال في مجمع البحرين: والشعبي أحد علماء أهل السنة والجماعة. ولد زمن عمر. وكان يصحب عبد الملك بن مروان... إلى أن قال: وروى عنه: وما حدثت بحديث إلاّ حفظته. وهو عندهم كابن عباس في زمانه... انتهى.

(٢) ص١٧ من المجلّد الأول من الشرح.

(٣) له ترجمة في ص٤٢٥ من المجلّد الأول من سفينة البحار، جديرة بالمراجعة. ومنها: أنه =

واستغناؤه عن الكل، دليل على أنه إمام الكل.

وقال مرة أخرى عندما سئل عن قوله في عليّ(عليه السلام) فقال: ما أقول في مدح امرئ كتمت أحباؤه فضائله خوفاً وأعداؤه حسداً، ثم ظهر ما بين الكتمين ما ملأ الخافقين.

ذكر ذلك في ص٥ من المجلد الأول من شرح النهج.

٤. ومنها: شهادة ابن عباس – على ما في الشرح المتقدّم – حين سئل عن النسبة بين علمه وبين عليّ(عليه السلام)، قال: كقطرة في بحر محيط.

٥. ومنها: شهادته الأخرى المذكورة في وقائع الأيام(ج١ ص٥١٣) من

= مبتدع علم العروض، يعني موازين الشعر. وأنه إمامي أفضل الناس في الأدب واللغة. وأنه كان أغنى الناس، مع عدم كونه مالكاً شيئاً من الحطام، وإنما غناؤه غناء أخلاقي نفسي. وسبب وصوله إلى ابتكار هذا العلم، أنه دعا الله تعالى بمكة أن يعلّمه علماً لم يكن لأحد قبله ولا يؤخذ إلاّ منه. فلما رجع من الحج فتح عليه هذا العلم.

وأما غناؤه النفسي الأخلاقي، فإنه كان في فاقة بالغة الحد الأقصى، ولكن عن زهد في الدنيا وعدم اعتناء فيها. فقد ذكروا: أن سليمان بن علي العباسي(وقيل هو سليمان بن حبيب المهلبي) وجه إليه من الأهواز أن يحضر لتأديب ولده. فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً، وقال: كُلْ فما عندي غيره. وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان. فقال الرسول: فما أبلغه؟ فقال:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لست ذا مالِ

وقيل على الرواية الثانية: أن سليمان لما أبلغه الرسول قول الخليل، كبت إليه: ما مالك الذي أغناك عنا..؟ فكتب إليه الخليل:

للناس مال ولي مالان مالَهما ... إذا تحارس أهل المال حراس

مالي الرضا بالذي أصبحت أملكه ... ومالي اليأس عمّا حازه الناس

وعن ابن النديم، أنه توفي رحمه الله بالبصرة سنة ١٧٠ وكان عمره ٧٤ سنة.

قوله: وما علمي وعلم أصحاب محمّد(ﷺ) في علم عليّ، إلاّ كقطرة في سبعة أبحر، إلى غير ذلك مما يقف عليه المتتبّع من كلمات المنصفين المؤتمنين على أمر الدنيا والدين.

هذا كله من طرق أخواننا أهل السنة والجماعة.

وأمّا ما كان من طرقنا وروايات المرضيين لدينا في ذلك، فشيء كثير.

منها: ما ذكره العلاّمة الطبرسي(رحمه الله) عند تفسير الآية، بعد أن قال: الثالث – يعني من الأقوال في تعيين من عنده علم الكتاب – هو علي بن أبي طالب(عليه السلام) وأئمة الهدى(عليهم السلام) عن أبي جعفر وأبي عبد الله(عليهما السلام).

وروى عنه عبد الله بن كثير: أنه وضع يده على صدره، ثم قال(عليه السلام): «**عندنا والله علم الكتاب كاملاً**».

وروى عن بريد بن معاوية عن أبي عبد الله(عليه السلام)، أنه قال: «**إيّانا عنى وعليّ أوّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي(ﷺ)**».

وروى عاصم بن أبي النجود[1] عن أبي عبد الرحمن السلمي[2]، قال: ما

---

(١) قال العلاّمة القمي(رحمه الله) في مادة: عصم، من سفينة البحار في ترجمة عاصم الذي هو أحد القراء والمكنّى بأبي النجود:

كان عاصم أحد القراء السبعة. قرأ على عبد الرحمن السلمي. وقال أبو عبد الرحمن: قرأت القرآن كله على عليّ بن أبي طالب(عليه السلام). فقالوا: أفصح القراءات قراءة عاصم، لأنه أتى بالأصل.

(٢) وقال العلاّمة المتقدّم في ص١١١ من المجلّد الأول من كتابه: الكنى والألقاب: أبو عبد الرحمن السلمي عبد الله بن حبيب، أحد أعلام التابعين وثقاتهم. صحب أصحاب أمير المؤمنين(عليه السلام) وسمع منهم. وعدّه البرقي من خواصه من مضر. وكان عاصم أحد القراء السبعة. قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي. وقال أبو عبد الرحمن: قرأت القرآن كله على عليّ ابن أبي طالب(عليه السلام)... إلى آخر ما تقدّم بيانه.

رأيت أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن.

وروى أبو عبد الرحمن أيضاً عن عبد الله بن مسعود(١)، قال: **لو كنت أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منّي لأتيته. قال: فقلت له: فعليّ بن أبي طالب؟ قال: أَوَلم آته... انتهى.**

وقال السيد العلاّمة بحر العلوم(طاب ثراه) في كتابه «تحفة العالم» عند ذكر الآية المباركة: وفي الاحتجاج سأل رجل عليّ بن أبي طالب عن أفضل منقبة له. فقرأ الآية وقال: **إيّانا عنى بمن عنده علم الكتاب.**

وفي المجالس: عن النبي(ﷺ) أنه سئل عن هذه الآية. فقال(ﷺ): ذاك أخي عليّ بن أبي طالب.

والعياشي عن الباقر(عليه السلام) أنه قيل له: هذا ابن عبد الله بن سلام يزعم أن أباه الذي يقول الله: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب. قال(عليه السلام): كذب... هو علي بن أبي طالب.

وعنّه(عليه السلام): نزلت في عليّ(عليه السلام) أنه عالم هذه الأمّة بعد النبي(ﷺ).

---

(١) عبد الله بن مسعود ويكنى ابن أم عبد هو ابن غافل الهذلي أبو عبد الرحمن. قال العلاّمة المتقدّم في ص٢٠٧ من المجلّد الأول: من الكنى عند ذكره: أبو عبد الرحمن جليل القدر عظيم الشأن كبير المنزلة. قرأ القرآن وعلم السنّة. وكان من الذين شهدوا جنازة أبي ذر(رض) وباشروا تجهيزه... إلى أن قال(طاب مرقده):

وكان من الاثنى عشر الذين أنكروا المنكر ونكيره على الثالث وما جرى عليه من الضرب والإهانة في الكتب مسطور. وذكر أبو الصلاح في التقريب: من المعروفين بولايتهم عماراً وسلمان وأبا ذر والمقداد وأبي بن أبي كعب وابن مسعود. وكان هؤلاء(بتبديل أبي بحذيفة) ممّن خلقت الأرض لهم وبهم يمطرون وينصرون، وعليّ إمامهم وشهدوا الصلاة على فاطمة(عليها السلام) إلى أن قال: توفي بالمدينة سنة ٣٢ وكان له نيف وستون سنة... إلى آخره.

إلى آخر ما ذكره هناك من الأخبار.

هذا كلّه مضافاً إلى ما عرفت سابقاً أنّ العلم والاعتبار يقضيان: بأنّه(عليه السلام) هو المقصود والمراد.

مما يزيدك إيماناً بالموضوع، ما في الكافي عن منصور بن حازم. قال: قلت لأبي عبد الله(عليه السلام): إن الله أجلّ وأكرم من أن يعرف بخلقه بل الخلق يُعرفون به. قال(عليه السلام): صدقت. قلت: من عرف أن له ربّاً، فقد ينبغي أن يعرف لذلك الرب رضاً وسخطاً، وأنه لا يعرف رضاه وسخطه إلاّ بوحي أو رسول، فمن لم يأته الوحي فقد ينبغي له أن يطلب الرسل. فإذا لقيهم عرف أنهم الحجّة وأنّ لهم الطاعة المفترضة. وقلت: فحين مضى رسول الله(صلى الله عليه وآله) من كان الحجّة على خلقه؟ قالوا: القرآن. فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجي(١) والقدري(٢) والزنديق(٣) الذي لا يؤمن به، حتى يغلب الرجال بخصومته.

---

(١) قال العلاّمة القمّي(رحمه الله) في ص١٥٠ من المجلد الأول من سفينة البحار:
المرجئة فرقة من المخالفين. يعتقدون أنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية. كما أن لا ينفع مع الكفر طاعة. سمّوا مرجئة لأنهم قالوا: إن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، أي أخّره.

(٢) قال العلاّمة القمّي(تتن) في ص٤٠٩ من المجلد الثاني من سفينة البحار: اعلم أن لفظ القدري يطلق في أخبارنا على الجبري وعلى التفويضي... إلى أن قال: قال شارح المقاصد: لا خلاف في ذم القدرية. وقد ورد في صحيح الأحاديث: لعن الله القدرية على لسان سبعين نبيّاً.
أقول: ومحصّل ما ذكره العلاّمة المذكور أن كلاً من الجبري والتفويضي، ينسب ذلك المعنى المذموم إلى صاحبه، ويفسره بما يلائم طريقة صاحبه. فالجبري يفسر معنى القدرية بنفاة الخير والشر عن الله تعالى شأنه. والمعتزلة يقولون بالعكس وأنهم المثبتون نسبة الخير والشر إليه. وقد عرفت ما سبق من إطلاق القدري في أخبارنا على الفريقين.

(٣) قيل: أنه الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر. والعرب يسمونه بالملحد. =

فعرفت أن القرآن لا يكون حجّة إلاّ بقيّم، فما قال فيه من شيء كان حقاً. فقلت لهم: من قيّم القرآن؟ فقالوا: ابن مسعود كان يعلم وعمر كان يعلم وحذيفة يعلم. قلت: كله؟ قالوا: فلم أجد أحداً يقال أنه يعرف ذلك كله إلاّ عليّاً. وإذا كان الشيء بين القوم فقال هذا لا أدري وقال هذا لا أدري وقال هذا لا أدري، فأشهد أن عليّاً كان قيّم هذا القرآن، وكانت طاعته مفترضة وكان الحجّة على الناس بعد رسول الله(ﷺ) وأن ما قاله في القرآن فهو الحقّ. **قلت:** ولا ريب أن هذا البرهان يجري في كل واحد من الأئمة(عليهم السلام).

وأمّا ما تقتضيه المقاييس، فما سيجيء عند ذكر قوله تعالى شأنه: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ من قول رسول الله(ﷺ) مخاطباً لعليّ(عليه السلام): «أن الله تعالى أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلّمك فتعي، وحقيق على الله أن تعي»، أو قوله(ﷺ): «أنا مدينة العلم وعليّ بابها. وأنا مدينة الحكمة وعليّ بابها». وما جرى مجرى ذلك مما لا يحصى.

وهل يا ترى أنّ من هذا شأنه، لا تتم المقاييس القطعية بأنه عنده علم الكتاب، بكل ما للكتاب من شأن وما فيه من علم[1].

= وقيل: الزنادقة في الحديث هم الدهريون، الذين ينفون الربوبية والجنة والنار. وإنما مهلكهم الدهر.

وعن المجمع: الزنادقة هم قوم من المجوس.

وقيل: هم المزدكية أصحاب مزدك الذي يزعم باشتراك الأموال والحرم.

ونسب أصحاب مزدك إلى زند، فأعربت الكلمة، فقيل: زنديق... إلى آخره.

(١) ومن ظرائف ما ينبغي ذكره هاهنا، بمناسبة معرفة الأشياء بأضدادها مثل معرفتها بنظائرها، ما عن الخطيب في رواية مالك والبيهقي في شعب الإيمان والقرطبي في تفسيره، بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر قال: =

وأما ما يحكم به العيان ويشهد به الوجدان، ما اشتمل عليه كلامه(عليه السلام) من غوامض العلوم وشتى الفنون، وإخباره عن الكائنات وتوصيفه للحقائق التي يعجز الوصّافون عن مثلها.

فانظر في توصيفه للسموات وما فيها من آيات، وتوصيفه للجنة وما فيها من خيرات، وللنار وما فيها من ويلات.

وانظر أيها القارئ الكريم نهج عليّ القويم، واحكم بعده بما يقتضيه وجدانك السليم. هل يكون هذا الفذّ مصداقاً لمن عنده علم الكتاب، بالنحو الذي كان يقتضيه خطاب ربّ الأرباب لسيّد النبيّين(صلى الله عليه وآله): ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وإن شئت أن تزداد معرفة ببعض ما لأمير المؤمنين(عليه السلام) من مقام رفيع في فنون العلم، ومحل منيع في شتى الكائنات من غيب وشهود، فانظر في قوله(عليه السلام) في مقامات شتّى، يعرض نفسه المقدّسة لعويصات المسائل ومشكلات العلوم، فيحلّها من فوره كأكبر عالم قد فرغ في الوقت، عن تحقيقها وتدقيقها. ومن ذلك:

١ - قوله(عليه السلام): «**سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي**».

= تعلم عمر سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً.

وقد ذكر هذا عن ص٣٤ من الجزء الأول من تفسير القرطبي وص١٥٦ من سيرة عمر لابن الجوزي وص١١١ من المجلد الثالث من شرح النهج للمعتزلي وص٢١ من المجلد الأول من الدر المنثور.

أقول: وبطبيعة الحال أن هذا التعلم أو الحفظ، لم يكن كلّه أو جلّه على عهد النبي الكريم(صلى الله عليه وآله). إذ أن السورة الكريمة مدنية، ادّعى على أنها كذلك إجماع المفسرين، عدا عدة آيات نزلت في حجّة الوداع. ومدة مكث النبي(صلى الله عليه وآله) بعد الهجرة بكله لا يبلغ تلك المدّة التي تعلم فيها الخليفة السورة المباركة فضلاً عن بعضه.

حكى ذلك عن الحاكم في(ص٤٦٦ من المجلد ٥) من مستدركه وصحّحه هو والذهبي في تلخيصه.

٢ - قوله(عليه السلام) في مقام آخر: «**لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا سنّة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) إلاّ أنبأتكم بذلك**»[1].

٣ - قوله(عليه السلام): «**سلوني والله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة، إلاّ أخبرتكم. وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل**»[2].

٤ - وقوله(عليه السلام): «**والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت. إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً**»[3].

٥ - وقوله(عليه السلام) وهو على منبر الكوفة، عليه مدرعة رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهو متقلّد بسيفه ومتعمّم بعمامته(صلى الله عليه وآله). فجلس على المنبر وكشف عن بطنه، فقال(عليه السلام):

«**سلوني قبل أن تفقدوني. فإنما بين الجوانح منّي علم جم. هذا سفط العلم هذا لعاب رسول الله(صلى الله عليه وآله). هذا ما زقّني رسول الله(صلى الله عليه وآله) زقّاً. فوالله لو ثنيت الوسادة فجلست عليها، لأفتيت أهل التوارة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم، حتى ينطق الله التوارة والإنجيل فيقولان: صدق عليّ قد أفتاكم بما أنزل فيّ، وأنتم**

---

(١) قالوا: أخرجه ابن كثير في تفسيره ج٤ ص٢٣١ من طريقين وقال: ثبت أيضاً من غير وجه.

(٢) قالوا: أخرجه أبو عمر في جامع بيان العلم ج١ ص١١٤؛ والمحب الطبري في ج٢ من رياضه ص١٩٨، وجملة كتب أخرى.

(٣) قالوا: أخرجه أبو نعيم، ص٦٨ من المجلد الأول من كتابه.

تتلون الكتاب أفلا تعقلون»[١].

أقول: ولا يخفى على المتتبّع أنه لم يعلم أن أحداً قبل أمير المؤمنين(عليه السلام)، قد أوقع نفسه بمثل هذا المأزق الضيّق، الذي لا يتكلّفه إلاّ من علم بأنه ممدود بالإمدادات السماوية وملحوظ بالعنايات الربانية، وأنه قد شرح الله عزّوجل صدره وتولّى أمره. بيد أن علياً(عليه السلام) قد جرى في هذا المقام مجرى الرسول(صلى الله عليه وآله) متابعة له(صلى الله عليه وآله)، كما هو شأنه في المتابعة له قولاً وفعلاً وهدياً وسمتاً. إذ قد ذكر أرباب الإحاطة أن النبي(صلى الله عليه وآله) صدر منه مثل ذلك كثيراً. فإنه كان يكثر من قوله(صلى الله عليه وآله): «**سلوني عمّا شئتم**» وقوله(صلى الله عليه وآله): «**سلوني ولا تسألوني عن شيء إلاّ أنبأتكم به...**» فكان ما صدر عن عليّ(عليه السلام) في هذا الباب وراثة له في القول، كما كانت له وراثة في العلم والصفات.

ولم يقل أحد بعد عليّ(عليه السلام) هذا القول إلاّ افتضح.

ذكروا: أنّ مقاتل بن سليمان قال: سلوني عمّا دون العرش إلى هنا... فقال له رجل: آدم حين حجّ من حلق رأسه؟ فقال له: ليس هذا من عملكم ولكن الله أراد أن يبتليني بما أعجبتني نفسي. وحكى عنه أخرى أنه قال يوماً مثل مقاله الأول. فقال له إنسان: يا أبا الحسن أرأيت الذرّة أو النملة أمعاؤها في مقدمها أو في مؤخرها؟ فبقي الشيخ لا يدري ما يقول.

إلى غير ذلك مما يذكر عنه من الفضائح بانكشاف جهله المطبق، وحمقه وعجزه عن الجواب.

وذكر عن الإمام الشافعي أنه بمكّة قال: سلوني عمّا شئتم أحدثكم من كتاب

---

(١) قالوا: أخرجه شيخ الإسلام الحموي في فرائد السمطين عن أبي سعيد.

الله وسنّة نبيّه، فقيل له: يا أبا عبد الله ما تقول في مَحرم قتل زنبوراً؟ قال: وما أتاكم الرسول فخذوه.

وكيف ما كان بعد الإحاطة بما ذكرنا مما لعليّ(عليه السلام) من خصائص ومزايا، وهي قطرة من بحر فضله وكماله. ترى تطابق العقل والاعتبار والفطرة والأخبار، على تعيّن إرادة عليّ(عليه السلام) من الآية المباركة. لأنّه أكمل مواردها وأوضح مصاديقها، لو كان ثمة مورد سواه أو مصداق غيره.

ثم لا أظنّك بعد هذا تقع في شرك التشكيك في تعيّن عليّ(عليه السلام) للإمامة العامة والزعامة المطلقة والخلافة عن الرسول(صلى الله عليه وآله)، فيما كان له من شؤون الزعامة والإمامة. فإن من جعل الله سبحانه شهادته وحده كشهادته تعالى شأنه، كافية في إثبات نبوّة المرسلين(صلى الله عليه وآله) من دون أن يشاركه أحد في هذا الفضل، كيف يجوز في شرع العقل أو الفطرة كونه مأموراً لغيره ومأموماً لمن هو دونه في الرتبة، فضلاً عمّن كان التقابل بينه وبينه تقابل الوجود والعدم والأنوار والظُلَم.

كما أنه لا شك في دلالة الآية الكريمة على عصمته(عليه السلام). فإن جعله قريناً في الشهادة لربّ الأرباب، يستدعي ملازمته للصدق ومطابقة قوله وفعله للحق. بل بالنظر إلى تكريم النبيّ الكريم(صلى الله عليه وآله) له بما حباه وخصّه به من الدعاء، هو تبعية الحق له ودورانه معه حيث دار. وهذا يعطي معنًى زائداً على محض مطابقة قوله وفعله للحق، إذ المستفاد منه أنه مسدّد بالتسديدات الربانية ومؤيّد بالعنايات الأحدية، نحو عناية الله تعالى برسوله(صلى الله عليه وآله)، حيث قرن به(صلى الله عليه وآله) من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. كما ذكرناه في بعض جمل المحاضرة الخامسة من هذا الجزء.

ومن هذا شأنه لا يجوز في شرع العدل والعقل أن يكون مأموماً لمن هو دونه

في كل فضل وفضيلة، بعد قضاء الكتاب ومما جرى مجراه بما أثبته له من فضل وكمال، إنّ كل من سوّاه من الأمّة دونه في الكمال بدرجات.

فالآية الشريفة من الآيات الدالّة على إمامته(عليه السلام) العامة وخلافته عن الرسول(صلى الله عليه وآله) في كل ما تقتضيه الولاية لله سبحانه ولرسوله(صلى الله عليه وآله). كما نطقت به آية الولاية المتقدمة في المحاضرة الأولى:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

والحمد لله ربّ العالمين

المحاضرة السابعة

آية الارتداد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

قال في مجمع البيان عند ذكر لغة الآية:

الذلّ بكسر الذّال ضد الصعوبة، وبضمّها ضدّ العزّ. يقال: ذلول بيّن الذّل من قوم أذلّه. وذليل بيّن الذُّل من قوم أذلاّء. والأول من اللّين والانقياد، والثاني من الهوان والاستخفاف، والعزّة الشدّة. يقال: عززت فلاناً على أمره، أي غلبته عليه.

وقال في مجمع البحرين:

أعزّه على الكافرين، أي يعازّون الكافرين أي يغالبونهم ويمانعونهم من عزّه

---

(١) هذه الآية المباركة هي الآية ٥٤ من السورة الخامسة وهي المائدة التي موقعها من مجمع البيان ص٢٠٧ من المجلد الثاني، وص٦١٢ من المجلد الثالث من تفسير الرازي.

إذا غلبه.

وقال الطبرسي(رحمه الله) في مقام بيان معنى الآية:

أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين: أي رحماء على المؤمنين، غلاظ شداد على الكافرين، وهو من الذلّ الذي هو اللّين لا من الذُلّ الذي هو الهوان... إلى آخره.

وقال الفخر الرازي: روى صاحب الكشاف أنه كان أهل الردّة إحدى عشرة فرقة. ثلاثة على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله): بنو مدلج[1] ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسي.

قلت: هو عبهلة بن كعب ويعبّر عنه بالأسود العنسي بالعين والنون. وعنس بطن من مذحج. وكان لما عاد رسول الله(صلى الله عليه وآله) من حجّة الوداع، ومرض من السفر غير مرض الموت. بلغ ذلك العنسي فادّعى النبوّة. وكان مشعبذاً[2] يريهم الأعاجيب. فاتبعته مذحج فأخرج عمّال رسول الله(صلى الله عليه وآله) من مخاليف اليمن وقتل العامل على صنعاء. وتزوج امرأة، واستطار أمره كالحريق. وكان معه سبعمائة فارس يوم لقي عامل صنعاء سوى الركبان. واستغلظ أمره وكان خليفته في مذحج عمرو بن معد يكرب، وعلى جنده قيس بن يغوث.

فكتب رسول الله(صلى الله عليه وآله) إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن. فتغيّر عليه قيس. فعزم هو وفيروز وبعض آخر على قتله. فقتله فيروز في فراشه بمساعدة زوجته.

وأتى الخبر من السماء إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله) في الليلة التي قُتل فيها. فقال(صلى الله عليه وآله): قُتل

---

(١) ولعل الصحيح: بنو مذحج.

(٢) هكذا في الاصل ويستعمل الامام المدني هذه الكلمة بدلا من مشعوذ ولم أجد لها تخريجا لغويا(د.المدني)

العنسي، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين. قيل: ومن قتله يا رسول الله؟ قال(ﷺ): فيروز فاز فيروز.

وقال الرازي: وقبض رسول الله(ﷺ) من الغد وجاء خبره في آخر شهر ربيع الأول.

الفرقة الثانية على ما عن الكشاف: بنو حنيفة قوم مسيلمة. ادّعى النبوّة وكتب إلى رسول الله(ﷺ): من مسيلمة رسول الله إلى محمّد رسول الله. أما بعد: فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك... فأجابه رسول الله(ﷺ): أما بعد: فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين.

فحاربه أبو بكر بجنود المسلمين. وقتل على يد وحشي قاتل حمزة(رضوان الله عليه). وكان يقول: «**قتلت خير الناس في الجاهلية وشرّ الناس في الإسلام. أراد جاهليّتي وإسلامي**».

أقول: عساك تتوهّم من قول الكشاف: فحاربه أبو بكر بجنود المسلمين.. مع ما علمت من أن مسيلمة ادّعى النبوّة على عهد رسول الله(ﷺ)، فتظن أن محاربة أبي بكر لمسيلمة كانت بصورة أمارة جيش من قبل رسول الله(ﷺ) لأبي بكر في ذلك الوجه، مع أنّ الذي يظهر للمتتبّع في التاريخ، أنه لا يجد بعثاً من بعوث رسول الله(ﷺ) ولا سرية من سراياه(ﷺ)، أمّر فيها أبا بكر.

وكلّما ذكره شارح النهج المعتزلي[1] مع حرصه على حفظ شأنية أبي بكر، أنه قد روى أصحاب المغازي: أنّه(ﷺ) أمّر أبا بكر في شعبان سنة سبع على سرية بعثها إلى نجد، فلقوا جمعاً من هوازن فبيتوهم. فروى أياس بن سلمة عن أبيه،

---

(١) ذكر هذا في ص١٨٢ من المجلد الرابع من الشرح.

قال: كنت في ذلك البعث، فقتلت بيدي سبعة منهم. وكان شعارنا: أمت أمت. وقتل من أصحاب النبي(ﷺ) قوم، وجرح أبو بكر وارتث وعاد إلى المدينة... إلى أخر ما ذكره هناك مما يرجع إلى بعوث أبي بكر في أيام خلافته، وقصة مالك بن نويرة وما فعله خالد بن الوليد في ذلك الوجه، وتسديد أبي بكر لما صدر منه، ونقد عمر عليه وحكمه عليه باستحقاق حدّ الزنا والقصاص.

ومن هنا نعرف المراد مما أفاده الرازي هنا من محاربة أبي بكر مسيلمة بجنود المسلمين. وأنه بمعنى إرسال البعوث إلى حربه، حيث لا خفاء أن دعوى مسيلمة قد استمرّت إلى ما بعد وفاة الرسول(ﷺ).

قال في(ص٢٢٧) من تاريخ الإسلام السياسي:

مسيلمة بن حبيب الحنفي أول من ادّعى النبوّة في جزيرة العرب وأول من ابتدع هذه البدعة. فقد أجمع الرواة على أنّه ظهر في السنة التاسعة من الهجرة أي قبل ظهور الأسود العنسي وطليحة. ولم يظهر الأول – يعني الأسود – إلاّ في أواخر السنة العاشرة. ولم يظهر الثاني إلاّ بعد وفاة النبي(ﷺ) في السنة الحادية عشرة.

أما سجاح فقد ظهرت في العاشرة أيضاً. ولكن انتهى أمرها باستمالة مسيلمة لها وتزوجه بها. ولما أن توفى الرسول(ﷺ) أغتنم مسيلمة الفرصة، فاستمال قومه بني حنيفة فانضموا إليه. ووضع عنهم الصلاة والصوم والزكاة، وأعفاهم عن التكاليف التي جاء بها الإسلام[1]. إلى أن قتل على يد وحشي... كما مرّ.

---

(١) أقول: قال في تاريخ الإسلام السياسي ص٢١٢:

إذن صح ما يقال: وهو أن أسد من تميم. فيكون اثنان من مدّعي النبوّة من نجد. وإذا ألحقنا بهما سجاح – ويقولون أنها من بني يربوع التميميين – فيكون الثلاثة الذين ادّعوا النبوّة، وأوقدوا تلك الفتنة الكبرى نجديين. =

الفرقة الثالثة على ما عن الكشاف: بنو أسد قوم طليحة بن خويلد، ادّعى النبوّة. فبعث إليه رسول الله(ﷺ) خالد، فانهزم بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه.

هكذا ذكر الرازي عن الكشاف في المقام... ثم ذكر الطوائف الباقية التي ارتدّت. وذكر أن منها سبعة كانت في أيام أبي بكر وأنه قد قضى عليها، وواحدة في زمان عمر. وقد عدّ من السبعة ارتداد بني يربوع، الذين يرأسهم مالك بن نويرة.

وقد أشرنا آنفاً: إلى أنّ الفتك بمالك وقومه، كان من الطعن الذي لا علاج له، لا سيما دخول خالد بزوجة مالك ليلة قتله. فإن القوم لم يجدوا لذلك حيلة تصحيح، فاضطروا إلى دعوى عدم ثبوت ذلك.

ومعلوم ما فيها لدى مراجعي التاريخ في المسألة.

وكيف كان فظاهر الآية المباركة، الإخبار بوقوع الارتداد من بعض مَن تظاهر بالإيمان والإسلام، وأنه تعالى شأنه سوف يأتي بأقوام يحبّهم ويحبّونه، إلى آخر الصفات المذكورة في الآية الكريمة. فيكون ذلك من الإخبارات القرآنية عن أمور غيبية. ولا ريب في وقوع المخبر به على وفق الخبر بالنسبة إلى الارتداد.

= ولم تسلم قبيلة بني أسد إلاّ بعد فتح مكّة. فقد قدم وفدها المدينة سنة ٩ فأسلموا... إلى أن قال: أما طليحة الأسدي نفسه، فقد أجمع الرواة على أنه شهد حجّة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، فأثر في نفسه ما رآه من عظمة مقام النبوة. فلم يتمالك أن نهض يدّعيها في قومه حين وصلت الأخبار بوفاة النبي(ﷺ). إلى أن قال: وبيان ما وقع أن خارجه بن حصين أخا عيّينه سيد غطفان، أوقف جابي الزكاة غبّ وفاة النبي(ﷺ)، وسلبه ما جمعه من صدقات بني فزاره، وأعاده إلى المدينة صفر اليدين.

كما أن فريقي الشيعة والسنّة في الجملة قالوا: بوقوع المخبر به على طبق الخبر، بالنسبة إلى من وعد الله سبحانه من الإتيان بالقوم الموصوفين بالصفات المذكورة.

وإنّما الكلام في تعيين مورد انطباق تلك الصفات. فقد ذكر الرازي ومجمع البيان عن المفسرين أقوالاً في ذلك:

أحدهما: أنه أبو بكر وأصحابه. لأنّهم في قول جماعة: هم الذين قاتلوا أهل الردّة.

وثانيها: في قول بعض آخر: أنها نزلت في الأنصار. لأنهم هم الذين نصروا رسول الله(ﷺ) وأعانوه.

وثالثها: أنها في أهل اليمن. وروي مرفوعاً أن النبي(ﷺ) لّما نزلت هذه الآية، أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: «**هم قوم هذا**».

ورابعها: أنهم الفرس. لأنه روي: أن النبيّ(ﷺ) لما سئل عن هذه الآية ضرب(ﷺ) بيده على عاتق سليمان وقال: «**هذا وذووه**». ثم قال(ﷺ): «**لو كان الدين معلّقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس**».

وخامسها: وقال قوم: أنها نزلت في أمير المؤمنين(عليه السلام).

ويدلّ عليها وجهان:

الوجه الأول: أنه(ﷺ) لما دفع الراية إلى عليّ(عليه السلام) يوم خيبر، قال(ﷺ): «**لأدفعنّ الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله**». وهذه هي الصفة المذكورة في الآية الشريفة.

والوجه الثاني: أنه تعالى شأنه ذكر بعدها، قوله عزّوجل:

﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**..﴾ الآية.

وهـذه الآيـة في حـقّ عـليّ(عليه السلام). فكـان الأَولى جعـل مـا قبلهـا أيـضاً في حقّه(عليه السلام).

هذه جملة من الأقوال المذكورة في تفسير الرازي ومجمع البيان، على تفاوت يسير من البين من حيث التعبير. وإن كانا مختلفين من حيث الاختيار وترجيح أحد الأقوال، الملائمة لطريقته من كونه أمير المؤمنين(عليه السلام) أو كونه أبا بكر.

قلت: والذي يظهر للخبير في التاريخ والمتدبّر في معنى الآية الشريفة، يرى بوضوح عدم انطباقها على جملة الأقوال، عدا القول بأنها في عليّ(عليه السلام). أما عدم انطباقها على الأنصار – وهو القول الثاني –، فلأن المراد من نصرتهم للرسول(صلى الله عليه وآله) أن كان بلحاظ نصرتم له في بدء الإسلام، وجهادهم بين يديه(صلى الله عليه وآله) في بدء الهجرة.

ففيه: مضافاً إلى أن الجهاد آنذاك ليس مقصوراً عليهم، بل يشاركهم المهاجرون في ذلك، فلا وجه لتخصيصهم بالمدح والثناء، إنّ حروبهم تلك لم تكن للمرتدين. والآية المباركة صريحة في الثناء على من يقيّضه لحربهم. فالآية الكريمة لا موضوع لها على هذا القول.

وإن كان بلحاظ نصرتهم المتأخرة عن وفاة الرسول(صلى الله عليه وآله).

ففيه: مضافاً إلى ما ذكر من عدم اختصاصهم بالنصرة لمشاركة المهاجرين لهم في ذلك، إن ظاهر القول هو كون المدح بالنظر لجهادهم مع الرسول(صلى الله عليه وآله) وبين يديه(صلى الله عليه وآله)، لا جهادهم بعده ونصرتهم المتأخرة عن فقده(صلى الله عليه وآله).

وأما عدم انطباق الآية المباركة على أهل اليمن – وهو القول الثالث –، فلأنّه ليس في البين ما يصّح انطباقها عليهم بخصوصهم، ويصلح أن يكون منشأً لاهتمام القرآن الكريم بشأنهم، إلاّ ما سبق ذكره من قتلهم ذي الخمار، الذي ادّعى

النبوة على عهد الرسول(ﷺ). حيث كتب رسول الله(ﷺ) إلى سادات اليمن في شأنه، فبيّته فيروز فقتله.

وهذه الواقعة كما ترى، لا يستجمع أربابها تلك الصفات المهمّة، التي تكفّلتها الآية المباركة، على أن كون طلحة من المرتدّين غير معلوم، إذ لعلّه لم يثبت له الإسلام في وقت. وأما عدم انطباق الآية على قوم أبي موسى الأشعري بالخصوص، فأبعد بمراحل لعدم مظهر خاص بهم، يستحقون به الذكر، فضلاً عن هذا الثناء القرآني البالغ حدّاً عظيماً من المدح. والرواية المذكورة في المقام موهونة بأبي موسى الأشعري، حيث أنّها تعطي تكريمه وتقديره، وهو غير كفؤ لذلك[1].

وأما انطباق الآية على قوم سلمان(رضوان الله عليه) – وهو القول الرابع –، فيردّ عليه بمثل ما أوردناه على من تقدّم ذكره من مورد الأقوال.

وأما عدم انطباقها على أبي بكر – وهو القول الأول –، فلأن الخبير بالتاريخ يعلم، أنّ فهم الحروب المعروفة بحروب الردّة، إنّما هي الحروب الدائرة بين مسيلمة الكذّاب وطلحة مدّعي النبوّة. وأما الأسود العنسي بل وسجاح التميمية وإن كانا شريكين لهما من حيث دعوى النبوّة، إلاّ أن العنسي قتل على عهد رسول

---

(١) قال العلاّمة القمّي(رحمه الله) في ص١٥٦ من الجزء الأول من كتابه: الكنى والألقاب:

الذي يظهر من ترجمة أحوال أبي موسى، أنه كان لغير رشده. ويشهد لذلك تعبير معاوية عنه: بدعي الأشعريين.

ولا يخفى: أن أبا موسى أصله يمني، لأنه ينسب إلى عمر بن حارثة الأسدي، وهو أبو قبيلة باليمن... ذكر ذلك العلاّمة الكبير السيد نعمة الله الجزائري(قدس سره) في ص٢١٣ من الجزء الثاني من زهر الربيع.

الله(ﷺ)، كما سمعت فيما حكاه الرازي عن الكشاف. وأما سجاح فقد اتصلت آخر أمرها بمسيلمة واستمالها للزواج فتزوجته، وانتهى أمرها وقد رجعت إلى أهلها ومات ذكرها[١].

وغير خفي: إن إطلاق الارتداد على مثل مسيلمة وطليحة وجملة من أتباعهما، لعلّه في غير محلّه، إذ لم يعلم إسلامهما في وقت، كي يفرض الارتداد لهما. وكذا جملة من أتباعهما، فإن جملة منهم نصارى، وجملة غير معلومي الانتساب إلى الإسلام.

وأما من كان معلوم الانتساب إلى الإسلام، فلم يعلم خلعه ربقة الإسلام وخروجه عن الدين، وإنما كان انضمامه إليهما صورياً، ورعاية لمصالح شخصية أو وسيلة إلى حفظ نفوسهم وأموالهم، التي لا تحفظ وقتياً إلا بإظهار المسالمة.

وبناءً على هذا لا تكون الآية الشريفة ناظرة إلى تلك الحروب، لعدم انطباق موضوع الآية الكريمة على تلك الحروب.. هذا بالنسبة إلى معظم تلك الحروب المعبّر عنها: بحروب الردّة.

وأما الحروب التي كانت مع بقية الفرق الأخرى، التي أدرجوها في عنوان حروب الردّة، التي لم تنضم إلى الكذّابين المذكورين، مضافاً إلى إرغامهم على ما كانوا يتمنّعون عن القيام به، لم يلاق حروباً ذات شأن وصعوبة، كما يظهر للناظر في التاريخ، كي يستحق ذلك الثناء العظيم من القرآن الكريم. فلم يثبت أنها موضوع للآية المباركة، إذ لم يثبت ارتدادهم عن الإسلام، بل لعل الثابت خلافه

---

(١) وقد ذكر سيدنا العلاّمة الأجلّ السيد نعمة الله الجزائري في ص٢٢١ من الجزء الثاني من(زهر الربيع): أنّها بعد أن رجعت من ملاقاة مسيلمة، أقامت في بني تغلب ثم أسلمت فحسن إسلامها.

كما يشهد به ما ذكره أمين سعيد في كتابه (تاريخ الإسلام السياسي) عند تعرّضه لحروب الردّة حيث أفاد في(ص٢٣٧) وهي آخر صحيفة في الموضوع، يعطي فيها رأيه عمّا استنتجه من تلك البحوث.

فإنّه قال: وإذا استثنينا ما وقع في بزاخه واليمامة، ومنشأه في نظرنا وجود الدعيين طليحة ومسيلمة، فقد خضعت الأقطار الأخرى كلها تقريباً من دون عناء ولا نصب. وهذا مما يؤيد أن حركة الردّة لم يكن مصدرها كره الإسلام ومقته والسعي للتخلص منه، وإنما هو الحقد الشخصي وما رسخ في أذهان القوم من أنه قضي على الإسلام بموت مؤسّسه من جهة أخرى، والرجوع إلى نظم الجاهلية. انتهى.

وهذا كالتصريح في إنكار كون الفرق المفروضة، ممن ينطبق عليها عنوان الارتداد[1].

---

(١) وأصرح من هذا في إنكار صدق الارتداد على جملة من سموهم بالمرتدين، ما ذكره الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه: التاريخ السياسي والديني والثقافي. حيث قال في ص٣٧٩ من الجزء الأول:

وفي الحق أن العرب الذي حاربهم أبو بكر، وسمّوا بمرتدّين، لم يرتدّوا عن الإسلام. كما يتبادر إلى الذهن من تسميتهم مرتدّين.

وإنما كانوا فريقين:

١ – فريقاً منع الزكاة فقط، زاعماً أنها إتاوة وتدفع إلى الرسول(ﷺ). فلما انتقل(ﷺ) إلى جوار ربّه، أصبحوا في حلّ من عدم دفعها إلى الخليفة. وفي شأن هذا الفريق عارض عمر أبا بكر في حربهم، محتجاً بقوله(عليه السلام): أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله... إلى أن قال في ص٣٨: أضف إلى ذلك: أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد، التي هي عماد هذا الدين، بل زعموا أن الزكاة إنما هي إتاوة يدفعونها للرسول(ﷺ)، ومن ثم لم يجدوا مبرراً لدفعها بعد وفاته(ﷺ).

ثم قال: ٢ ـ وأما الفريق الثاني فقد ارتدوا عن الإسلام، ولم يكونوا مسلمين حقاً لأنّ =

قلت: بل التصفّح والتدبّر في أحوال بعض أولئك المعبّر عنهم بالمرتدّين الذين أجرى عليهم حكم الردّة، هم أوثق إيماناً وأصلب إسلاماً من جملة من المدنيّين. لما هو غير خفيّ على الخبير من الحوادث التي وقعت لدى رحلة النبي(ﷺ) إلى دار كرامته ورحمة ربّه، والاضطرابات التي وقعت في أفعالهم، مما لا يصدقها إسلام ولا يعترف بها إيمان. ولعلّها هي المنشأ لما ذكره المؤرخ المتقدّم: من الرسوخ في أذهان القوم بأنه قضى على الإسلام بموت مؤسسه، والرجوع إلى نظم الجاهلية.

ولم يكن امتناع جملة من الطوائف المعبّر عنهم بالمرتدّين، عن أداء صدقاتهم إلى المرشحين من المهاجرين، إلاّ لتلك الاضطرابات التي لا تجتمع مع النظم الإسلامية ومقررات النبي الكريم(ﷺ). بل من الموثوق به: أن امتناع تلك الطوائف عن أداء صدقاتهم، لم يكن لخروج عن الدين ولا لخلع ربقة الإسلام في البين. بل لعله كان من التريّث الواجب عن إعطائها لمن بعد لم يثبت لديهم صدق خلافته عن النبي(ﷺ).

ولو كان أولئك ممّن أنكر وجوب الزكاة، كي يندرجوا في حكم من أنكر ضرورياً من ضروريات دين المسلمين، لما كان معنى للشجار بين عمر وأبي بكر في جواز حربهم، كما أشار إليه الدكتور حسن فيما حكيناه عنه. على أن في بلوغها درجة ضروريات الدين، في كل وقت عند كافة المسلمين في تلك الأزمنة، محل إشكال وتأمّل. كما ينبئك عنه ما ذكره الدكتور حسن فيما نقلناه عنه:

= السواد الأعظم منهم، كان من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق... إلى أن قال في ص٣٨١: وأما معاقبة الإسلام من ارتدّ عنه بالقتل، فذلك أمر اقتضته سياسة الدولة، أكثر من الحرص على إسلام هؤلاء... إلى آخر ما ذكره ثمة.

من أنّ فريقاً منع الزكاة فقط، زاعماً أنها إتاوة تدفع إلى رسول الله(ﷺ)، فلما انتقل(ﷺ) إلى جوار ربّه، أصبحوا في حلّ من عدم دفعها إلى الخليفة... إلى آخر ما ذكره.

وكيف ما كان: إن عدم إعطاء الزكاة في ذلك الأوان، لا يوجب ارتداد الممتنعين عن أدائها، ولا يكون مسوّغاً لإباحة دمائهم واعراضهم وأموالهم إذ يمكن أن يكون امتناعهم من أدائها إلى من كان يطلبها من التريث الواجب، نظراً إلى الوضع المضطرب المتضارب في المدينة، وما عليه الناس من الاختلاف والاضطراب في الأقوال والأفعال. كما أومأنا إليه آنفاً.

وإذا كان الحال على هذا المنوال، كيف تكون تلك الحروب مورداً لقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾.

إذ لا موضوع لها في المقام، حيث أنّ من دارت عليهم رحى الحرب في الحقيقة فريقان: كفّار محض لم يثبت لهم وصف الإسلام في وقت، وهم المتنبّئون.

ومسلمون محض لم يثبت لهم وصف الردّة، والخروج عن الدين في وقت.

وبطبيعة الحال: لا يكون من حاربهم مورداً للآية المباركة. ولا معنيّاً بالمحبّة المتبادلة بين الله تعالى شأنه وبينهم. وكيف يكون مورداً لتلك الصفات الجليلة، التي أخذت في تلك الآية الكريمة؟

ومتى يحصل الإذعان لمنصف، في أن يكون ابن الوليد الذي هو القائد الأعظم في تلك الحروب، مورداً لتكريم تلك الآية الشريفة ومحلاً لثنائها الجليل،

مع ما قام به، في بعض تلك الحروب كواقعة مالك بن نويرة ؟

فقد أمر خالد بقتله، بعد حجاج طويل لمالك معه، يثبت فيه إسلامه ويقيم البرهان على حرمة عرضه وماله ودمه. وخالد لا يعبأ بشيء من ذلك فيقول له: لا أقالني الله إن لم أقتلك. فأمر ابنَ الأزور بقتله، وقبض على زوجته ودخل بها في ليلته. بلا رعاية عدّة ولا مراعاة استبراء، مما يلزم في استحلال زوجة مسلم أو مرتد.

قال أمين سعيد في(ص٢٢٦) من تاريخ الإسلام السياسي:

ولّما وردت الأخبار إلى بني تميم بانتصار خالد في بزاخه، وبزحفه عليهم وعلى اليمامة، خاف الذين منعوا الزكاة كمالك بن نويرة ومن حذا حذوه، وبادروا فأخرجوها وأرسلوها إليه قبل أن يصل إليهم. ومشى خالد بقواه الكبرى حتى بلغ البطاح من أراضي بني يربوع. لأنّهم سبق أن تظاهروا بتأييد سجاح وموالاتها. وأمر مالك رجاله بأن يتفرّقوا، وأن لا يقوموا بأي حركة عداء ضد المسلمين. وضرب خالد خيامه في البطاح بطاح بني تميم، واستقرّ فيها، وبثّ سراياه في أطرافها، فجاءت مستسلمة، وفي جملتها مالك بن نويرة مع بعض قومه، فأمر بهم خالد فحبسوا ثم قتلوا.

ورأى بعض رجال الجيش وفي مقدّمهم بعض الصحابة، أن خالداً خالف بقتلهم أوامر أبي بكر وتعليماته تقضي بأن لا يقتل من يؤذّن. وقد أذّنوا عند وصول الجيش، سيما وقد اقترن القتل بتصرف آخر، وهو زواجه بزوجة مالك بعد قتله. ورفعوا الأمر إلى أبي بكر، فأسف كل الأسف. وأمر بدفع ديّة مالك كما دفع ديّة باقي القتلى...

هذا ما ذكره المؤرّخ المتقدّم.

ويدلّك على صحة هذا الادعاء، ما ذكر عن كل من الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه: الصدّيق أبو بكر (ص١٤٢)، وعباس محمود العقّاد (ص٢٦٧) من عبقرية عمر، بما يأتي نصه:

لما فرغ خالد من أسد وغطفان، أزمع على المسير إلى البطاح يلقي فيها مالك ابن نويرة وقومه. وكان مالك أخلى له البطاح وفرّق قومه...(كما بيّناه آنفاً عن تاريخ الإسلام السياسي) ولمّا عرف الأنصار منويات خالد، من زحفه على مالك وقومه توقّفوا عن المسير معه. وقالوا له: بما وعدناك به. مما نصّ عليه بلفظة الفاضلان هيكل والعقاد وهو:

ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا.. فأجابهم خالد: أنه إن لم يكن عهد إليكم بهذا، فقد عهد إليّ أن أمضي وأنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار. ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصة إنْ أعلمته بها فاتتني وإن أعلِمه حتى أنتهزها، وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنافيه، لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به. وهذا مالك بن نويرة بحيالنا وأنا قاصد له بمن معي.

ومع إعطاء البحث عن حروب الردّة هذا الإنتاج، كيف يستطيع ذو شعور أن يجعل ساسة تلك الحروب وقادتها، مورداً لانطباق قوله تعالى شأنه:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وكيف يكونون مع تلك القسوة مصداقاً لقوله عزّ اسمه:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كلا... لا يظنّ بذي الصحة أن يقول بمثل هذا القول.

وقد تحصّل أن الآية المباركة، لا تنطبق لا بعقد وضعها ولا بعقد حملها على ما يسمّونها بحروب الردّة، لا بلحاظ السائس ولا بلحاظ المسوس، ولا بالنظر إلى الأمر ولا بالنظر إلى المأمور. فما شيّده الرازي في المقام إنّما أقامه على شفا جرف هار، كما لا يخفى على ذوي الأبصار.

وأما انطباقها على أمير المؤمنين(عليه السلام) – وهو القول الخامس – فمن حيث عقد حملها لا ينبغي أن يعتريه الرّيب. إذ كيف يعتري الرّيب في ذلك ذا مسكة، بعد حديث الراية المسلّم بين الفريقين، الذي هو كنسخة ثانية لعقد حمل الآية الشريفة. فإنه عندئذٍ قال(صلى الله عليه وآله): إنّي دافع الراية غداً إلى رجل يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتى يفتح الله له.

وكيف ما كان: ليس بمستور عن ذي عينين كون علي(عليه السلام)، أظهر من يمكن أن يوصف بما تضمّنه عقد حمل الآية الكريمة بعد الرسول المكرم(صلى الله عليه وآله). وأما انطباقها على عليّ(عليه السلام) من حيث عقد وضعها، فبطبيعة الحال أنّه يتوقّف على صدق كونه(عليه السلام) قد حارب المرتدّين وأذلّهم، وأظهره الله تعالى عليهم. ولا ريب أن حروبه(عليه السلام) بعد أخيه وحبيبه محمّد(صلى الله عليه وآله)، محصورة بحرب الناكثين والقاسطين والمارقين. وهؤلاء لم يبعدوا كثيراً عن صدق حدّ الردّ عليهم. لأنّ استحلال قتل من ثبتت إمامته بالقطع واليقين، لدى نوع المسلمين يستلزم بالاستلزام البيّن، خروج المستحلّين لذلك عن الدين. إذ لا ريب أن صدق الردّة على هؤلاء، أقرب بكثير من صدقها على من امتنع عن أداء الزكاة، لا سيما إذا كان لشبهة. وقد سمّوهم مرتدّين بلا رعاية علاقة والتماس عناية.

وأن أبيت عن صدق الردّة بمدلولها اللفظي على هؤلاء، اقتصاراً على تناول مفهوم الارتداد لخصوص من جحد التوحيد والنبوّة والمعاد، فلا يأبى ذو اللّب

عن صدق الارتداد على أولئك بالعناية، نظراً إلى خروجهم عمّا اعتنقوه من إمامة من ثبتت إمامته بما ثبتت به إمامة من تقدّمه من الخلفاء، مع مزيد الشرف له والفضيلة بكل ما لهما من مدلول.

وإرادة هذا المعنى من الارتداد، وإن كان موقوفاً على القرينة كما تقتضيه القواعد العلمية، إلاّ أنّها غير مفقودة في المقام. لما عن الثعلبي أولاً: من أن الآية المباركة نازلة في عليّ(عليه السلام).

ولا ريب أن تطبيقها من مصدرها بعقد وضعها وحملها عليه(عليه السلام)، يستلزم صدق الارتداد على مقوّمي تلك الحروب كلاً أو بعضاً، ولا أقل من كون الصدق بالمعنى الثاني منه.

وأصرح من رواية الثعلبي في تعيين المعنيّين بالارتداد في الآية، هم محاربوا عليّ(عليه السلام) في خلافته، ما ذكره مجمع البيان عند تفسير الآية حيث قال[1]:

وقيل: هم أمير المؤمنين علي(عليه السلام) وأصحابه. قاتل من قاتله من الناكثين والقاسطين والمارقين. وروي ذلك عن عمّار وحذيفة وابن عباس، وهو المروي عن أبي جعفر(عليه السلام) وأبي عبد الله(عليه السلام).

وأكثر صراحة من ذلك كلّه ما ذكره مجمع البيان أيضاً في المقام، كما وذكره غيره أيضاً: من أنّه روي عن عليّ(عليه السلام) أنه قال يوم البصرة:

ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم، وتلا(عليه السلام) هذه الآية.

وإذا كان أهل البصرة من أهلها كان أهل الشام والخوارج أجدر بها وأَولى.

ويفصح عمّا قلناه من كون محاربي عليّ(عليه السلام) من الأحزاب المذكورة، مرتدّين

---

(١) ذكر ذلك في ص٢١٨ من المجلد الثاني المطبوع بمطبعة العرفان.

بالحمل الشائع حقيقة أو ادّعاءً وتنزيلاً، ما عن الرسول(ﷺ): «**من أنّ علياً يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله**»[1].

فإنّ هذا البيان منه(ﷺ) ظاهر جدّاً بأنّ من سوف يقاتلهم عليّ(عليه السلام) مرتدّون على الحقيقة أو على التأويل.

وبالجملة فالآية المباركة بعقد وضعها غير آبية عن الحمل والانطباق على من حارب علياً(عليه السلام)، ليس بكثير الجدوى بعد القطع واليقين بانطباقها عليه(عليه السلام) بكل ما لها من الشؤون والمزايا المأخوذة في عقد حملها. إذ البحث عن انطباق عقد وضعها على تلك الحروب وعدمه، إنما هو توطئة وتمهيد للاستدلال على كونه(عليه السلام) مورداً لعقد حملها بما له من الخصوصيات. وإذا كان ذلك لا يقبل التشكيك كان البحث في موضوعها من الجهة المذكورة غير كثير الأهميّة كما لا يخفى.

---

(١) ذكر هذه الرواية شيخنا المعظم آية الله المظفر في ص١٢٣ من الجزء الثاني من كتابه: دلائل الصدق.

قال قدّس الله نفسه الطاهرة:

الرابع: الأخبار المقتضية لنزولها بعليّ(عليه السلام). فمنها المصرّحة بأنّ النبي(ﷺ) قال: «إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله. قال أبو بكر وعمر: أنا هو؟ قال(ﷺ): ولكنه خاصف النعل...» يعني علياً(عليه السلام).

أخرجه أحمد في مسنده عن أبي سعيد من طريقين.

وقال في الهامش في ص٣٣ من الجزء الثالث من طريق، وص٨٢ منه من طريق آخر.

وقال(قدس سره) في المتن: وأخرجه الحاكم عنه أيضاً من طريقين في المستدرك.

وقال في المتن: وصحّحه على شرط الشيخين ونقله في كنز العمال عن أبي يعلى في مسنده وابن أبي شيبة وأبي نعيم في الحلية وابن حيّان في صحيحه والضياء في المختارة كلهم عن أبي سعيد ورواه النعماني في خصائصه.

ومن التدبّر في هذا البيان: تعرف كمية الفرق بين من يكون انطباق عقد الوضع عليه للمفروغية عن كونه مورداً لعقد الحمل، وبين من يقصد إثبات كونه مورداً لعقد الوضع ليكون مورداً لعقد الحمل.

وكيف ما كان فلقد عرفت أنها غير آبية عن إرادته(عليه السلام)، لا سيما بعد رواية الفريقين الناصّة على إرادته(عليه السلام) منها.

والمناقشة فيما يقتضيه التسويف في الآية، يندفع بإمكان إيماءها إلى تجدّد السلطان والحكومة لا إلى تجدّد الذات وحدوثها. وعليّ(عليه السلام) وإن كان موجوداً في حال نزول الآية، وكان ممّن أتاه الله سبحانه حينئذٍ إلا أنّه لم يكن بذي سلطان في ذلك، وإنّما كان سلطانه متأخّراً.

ولا يخفى أن هذا الإشكال أسّس بالاستدلال على إرادة أبي بكر من الآية المباركة. وقد أجاب عنه الرازي هناك بما أجبنا به هاهنا. فتدبّر في المقام جيّداً.

هذا: وقد ظهر لك ممّا ذكرنا: من عدم أباء الآية الشريفة بموضوعها ومحمولها عن كونها نازلة في أمير المؤمنين علي(عليه السلام): إنّ ما ذكره الرازي من منع انطباقها على عليّ(عليه السلام)، نظراً إلى ظهور لفظ المرتد في المنكر لضروريات المسلمين، وإن إنكار إمامة علي(عليه السلام) لدى من حارب علياً(عليه السلام)، لم يكن من هذا القبيل كي يكون ملتزمه من المرتدّين: ليس بشيء. بل القارئ الذكي يعرف أنّ هذا البيان منه أشبه شيء بالتلبيس. إذ لا شبهة في أن إنكار إمامة أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام) والخروج عليه واستحلال قتله وقتاله(عليه السلام)، بعد كون إمامته وخلافته(عليه السلام) قد ثبتت بالإجماع الذي قد ثبتت به خلافة من تقدّم عليه بالخلافة، إن لم يكن من حقيقة الارتداد، فلا أقل من أنه مصحّح لإطلاق لفظ الارتداد عليه ادعاءً وتنزيلاً، مع قيام القرينة الحالية أو المغالية على تعيين المراد منه، التي منها: فهم

ذلك أرباب القول بنزولها في شأنه(عليه السلام).

إذ ليس إطلاق الارتداد على المورد، بأبعد من إطلاق الكفر على تارك الحج في قوله تعالى شأنه:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما هو غير خفي على العارفين.

والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الثامنة

آية إيتاء داود وسليمان علما

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

أقول: قد ذكر الله عزّوجل في هذه الآية المباركة داود وابنه سليمان(عليهما السلام).

وغير خفيّ: أنّهما(عليهما السلام) نبيّان كريمان. قد استخلصهما الله سبحانه من بريّته واختارهما للسفارة بينه وبين عباده. إحاطة منه تعالى شأنه بما لهما من قابلية واستعداد وأهلية لذلك الوسام، الذي له شأنه الرفيع وأهميته الكبرى.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾

أما نبيّ الله داود(عليه السلام)، فإنّا وإن تبرّكنا بذكر نبذة من ترجمته وتشرّفنا ببيان(٢) شيء نزر من كثير خصائصه(عليه السلام)، إلاّ أنّ ذلك بعض من بعض يسير وجزء من جزء صغير.

---

(١) هذه هي الآية ١٥ من سورة النمل وهي السورة ٢٧. ومحل ذكرها في مجمع البيان ص٢١٣ من المجلد الرابع، وص٥٥٦ من المجلد السادس من تفسير الرازي.

(٢) ذكرنا ذلك في الجزء الاول من محاضراتنا هذه.

وعلى كل فهو(عليه السلام) على ما في مجمع البيان[1] من ولد لاوي بن يعقوب(عليه السلام). وإبراهيم خليل الرحمن(عليه السلام) جدّه الثاني عشر[2].

وقد أعطاه الله سبحانه وتعالى شأنه قوة تستحقر عندها قوة الأسد، إذ كان يقلب رأس الأسد حيث يعتدي فيستخلص فريسته من فيه[3].

ولم يجمع الله تعالى الملك والنبوّة في بني إسرائيل إلاّ له(عليه السلام)، على ما ذكره الرازي[4] حيث قال:

والمشهور في أحوال بني إسرائيل أن الله كان يبعث فيهم نبيّاً وكان يملّك عليهم ملكاً. فكان ذلك الملك ينفّذ أمور ذلك النبي[5].

وكان النبيّ قبل داود(عليه السلام) شمويل وتعريبه إسماعيل والملك في عصره طالوت. فلما توفي شمويل أعطى الله تعالى النبوّة لداود(عليه السلام). ولّما مات طالوت أعطى الله الملك لداود(عليه السلام). فاجتمع الملك والنبوّة فيه. كما قال الله تعالى شأنه: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. إذ الحكمة هي وضع الأمور مواضعها على الصواب

---

(١) ذكر ذلك في ص٣٥٧ من المجلد الأول.

(٢) في ص١٢٢ من قصص الأنبياء للسيد نعمة الله الجزائري قال طاب ثراه: قال في معاني الأخبار معنى: داود انه داوى جرحه بود. وقيل: داوى ودّه بالطاعة حتى قيل عبد.

(٣) ذكر ذلك في ص٤٦٨ من المجلّد الأول من سفينة البحار.

(٤) ذكر هذا في ص٤٤٦ من المجلد الثاني.

(٥) وقريب من هذا ما في ص١٢٢ من قصص الأنبياء للجزائري السيد نعمة الله(رحمه الله). قال: وعن أبي جعفر(عليه السلام) قال: إن الله تبارك وتعالى لم يبعث أنبياء ملوكاً في الأرض إلا أربعة بعد نوح: ذو القرنين واسمه عياش وداود وسليمان ويوسف(عليهم السلام). فأما عياش فملك ما بين المشرق والمغرب. وأما داود فملك ما بين الشامات إلى بلاد اصطخر. وكذلك كان ملك سليمان. وأما يوسف(عليه السلام) فملك مصر بباريها لم يجاوزها إلى غيرها.

والصلاح مهما وضحت سبلها وبانت معالمها أو خفيت أسرارها ودقت أثارها.

ولا ريب أنّه مهما أدّت صفة من صفات الكمال الإنساني، إلى تحقيق الحكمة وبلوغ ذروة العصمة، فكون صفة النبوّة مؤدية إلى ذلك بوجه أتمّ ونحو أكمل، مما لا يقبل الشك.

هذا وقد ألان الله تعالى شأنه لداود نبيّه(عليه السلام) الحديد[1]. وسخّر له الجبال والطير يسبّحن معه(عليه السلام).

وتسبيحهن إما على الحقيقة بخلق معدّات التسبيح فيها معجزة لداود(عليه السلام). كتسبيح الحصى وتسليم الحجر والشجر على نبيّنا(صلى الله عليه وآله).

أو بمعنى تسييرها معه حيث سار فيكون تسبيحهما بمعنى الجاءهما إلى الطاعة والانقياد لأمره.

قال العلاّمة الجليل السيد الجزائري(طاب ثراه) في قصص الأنبياء(ص١٢٢)، بعد أن ذكر قريباً مما ذكرناه من معنى التسبيح المفروض:

قال بعض المتأخرين: يمكن أن يكون تسبيح الجبال كناية عن تسبيح الملائكة الساكنين بها، أو بأن خلق الله الصوت فيها، أو على القول بأن للجمادات شعوراً. ثم قال السيد المتقدّم الذكر: يقول مؤلف الكتاب نعمة الله الموسوي الحسيني(أيّده الله): إنّا ذكرنا في كثير من مؤلفاتنا القول: بأن الطيور والحيوانات لها نفوس ناطقة درّاكة. وحكيناه عن كثير من قدماء الحكماء، بالبراهين والدلائل. والأحاديث المستفيضة بل المتواترة دالّة على إدراكها، وأن لها من الإدراك والشعور ما تزيد على كثير من الناس. وظاهر الآيات شاهد به. وكذلك في الأحاديث شهادة ودلالة

---

(١) قال العلاّمة السيد نعمة الله الجزائري(قدس سره) في ص١٢٢ من قصص الأنبياء: قال الصادق(عليه السلام): اطلبوا الحوائج يوم الثلاثاء فإنّه اليوم الذي ألان الله فيه الحديد لداود(عليه السلام).

على أن للجمادات نوعاً من الإدراك والشعور، تسبّح لخالقها وتطيعه بلسان مقالها مثل لسان حالها. حتّى أنّ جماعة من محققي المفسّرين وأهل الحديث قالوا: إن إعجاز النبيّ(ﷺ) كان في تسبيح الحصى بيده، هو إسماع الحاضرين ذلك التسبيح، وإلاّ فالتسبيح حاصل في الحصى وغيره، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

وقد أطنبنا في الكلام على هذا المرام في كتابنا زهر الربيع وفي شرحينا على كتابي التوحيد وعيون الأخبار للصدوق(ﷺ). انتهى.

وكيف كان فقد عرفت في أن الله سبحانه وتعالى شأنه كرّم داود(ﷺ) بما كرّمه من تسبيح الطيور له وأنواع الحيوانات، أن أعطاه سبحانه الحكمة، فهو يعمل ما تقتضيه، ولذا كانت في أقضيته أقضية غريبة الشكل، تبتنى على العلم بالحقائق وما هو عند الله سبحانه، ولا تبتنى على ما تقتضيه الظواهر والقواعد العملية الصورية.

ومما يجدر أن يذكر منها هو أنه جاءه رجل يتظلّم من رجل ويدّعي أنّه قد ظلمه فأمر داود(ﷺ) المدّعى عليه الذي هو الظالم بحسب صورة الدعوى، أن يضرب رأس من يدّعي الظلامة. فاستعظمت ذلك بنو إسرائيل. ولكن كشف لهم داود(ﷺ) بعد ذلك سرّ هذا العمل. وأبان لهم: بأنّ هذا الذي يدّعي المظلومية كان قد قتل أبا هذا الذي يدّعي عليه أنه ظالم، فأراد الله سبحانه أن يقتص الولد لأبيه. وأخذ داود بني إسرائيل إلى المقبرة التي قد دفن بها ذلك الرجل المقتول، فسأله داود(ﷺ) عن قصّته، فأخبره المقتول بأن فلاناً وهو الذي كان يدّعي المظلومية هو الذي قتله.

فكانت تلك الحكومة من داود(ﷺ) من معجزاته، ومن الأمور المبنية على

القضايا الغيبية. وله(عليه السلام) أحكام غريبة أخرى، منها التي أظهرها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، حيث حكم بمثل ما حكم به داود(عليه السلام). وجرى على منواله في إظهار الحق والكشف عن واقع الأمر، الذي لا إحاطة لغير الله تعالى شأنه به في ذلك الوقت.

وهذا هو ما ذكره العلاّمة السيد الجزائري(طاب مرقده) في(ص١٢٥) من كتابه(قصص الأنبياء)، ناقلاً ذلك عن العلاّمة الكبير صاحب كتاب(من لا يحضره الفقيه) قال(قدس سره): قال أبو جعفر(عليه السلام): دخل عليّ(عليه السلام) المسجد فاستقبله شاب يبكي وحوله قوم يسكتونه. فقال له عليّ(عليه السلام): ما أبكاك؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن شريحاً[1] قضى عليّ بقضية ما أدري ما هي، إن هؤلاء النفر خرجوا بأبي

---

(١) قال في مادة: شرح من مجمع البحرين:

وشريح القاضي هو الحرث بن قيس الكندي استقضاه عمر على الكوفة. وأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة، لم يبطل إلاّ ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء، وذلك أيام فتنة ابن الزبير واستعفى الحجّاج فأعفاه فلم يقض بين اثنين حتى مات.

وقال شيخنا العلاّمة القمّي(رحمه الله) في مادة: شرح أيضاً من سفينة البحار:

مات سنة ٨٧ وعمره مائة وثمان ستين أو مائة. وأدرك الجاهلية، ولا يعدّ من الصحابة بل من التابعين. وكان شاعراً، لا شعر في وجهه، وكان خفيف الروح مزّاحاً قدم إليه رجلان فأقرّ أحدهما بما ادّعى به خصمه وهو لا يعلم. فقضى عليه شريح. فقال لشريح: من شهد عندك بهذا؟ قال: ابن أخت خالتك. وجاءته امرأة تبكي وتتظلم على خصمها، فما رقّ لها. حتى قيل له: ألا تنظر أيها القاضي إلى بكائها؟ فقال: إن أخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاءً يبكون. قاله ابن أبي الحديد.

قلت: وهو الذي حمى ابن زياد(لعنه الله) من مذحج حين جاؤوا لإنقاذ هاني(رحمه الله). فخرج إليهم بأمر ابن زياد(لعنه الله) وصرفهم وأكذب نبأ قتل هاني(رضوان الله عليه). وله من العثرات ما هو فوق ذلك، كما هي غير خفية على المتتبّع.

معهم من سفرهم فرجعوا ولم يرجع أبي، فسألتهم عنه؟ قالوا: مات. فسألتهم عن ماله، قالوا: ما ترك مالاً. فقدّمتهم إلى شريح فاستحلفهم. وقد علمت يا أمير المؤمنين أن أبي خرج ومعه مال كثير. فقال(عليه السلام): ارجعوا. فردّهم جميعاً والفتى معهم إلى شريح. فقال: يا شريح كيف قضيت بين هؤلاء؟ فحكى له. فقال(عليه السلام): يا شريح هيهات هكذا تحكم في مثل هذا! والله لأحكمنّ فيهم بحكم ما حكم به قبلي إلاّ داود النبي(عليه السلام).

يا قنبر ادع لي شرطة الخميس[1]، فدعاهم، فوكّل بكل رجل منهم رجلاً من الشرطة. ثم نظر أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى وجوههم فقال: أتقولون أني لا أعلم ما صنعتم بأبي هذا الفتى إنّي إذن لجاهل. ثم قال(عليه السلام): فرّقوهم وغطّوا رؤوسهم. ففرّق بينهم وأقيم كل واحد منهم إلى أسطوانة من أساطين المسجد، ورؤسهم مغطّاة بثيابهم. ثم دعى بعبيد الله بن أبي رافع كاتبه فقال: هات صحيفة ودواة. وجلس(عليه السلام) في مجلس القضاء واجتمع الناس إليه. فقال(عليه السلام): إذا كبّرت فكبّروا. ثم قال للناس: أفرجوا. ثم دعى بواحد منهم، فأجلسه بين يديه فكشف عن وجهه. ثم قال لعبيد الله: اكتب قراره وما يقول، ثم أقبل عليه بالسؤال.

---

(١) قال في مادة: شرط من مجمع البحرين:

والشرطة بالسكون والفتح: الجند. والجمع: شُرَط مثل رطب.

والشُرَط على لفظ الجمع: أعوان السلطان والولاة، وأول كتيبة تشهد الحرب وتتهيّأ للموت.

وصاحب الشرطة يعني الحاكم.

وإذا نسب إلى هذا، قيل: شرطي بالسكون رداً إلى واحده كتركي.

والخميس: الجيش. وفي حديث الأصبغ ابن نباتة وقد سئل: كيف تسميتكم شرطة الخميس يا أصبغ؟ قال: لأنّا ضمنّا له الذبح وضمن لنا الفتح. يعني أمير المؤمنين(صلوات الله وسلامه عليه).

فقال(عليه السلام): في أي حين خرجتم من منازلكم وأبو هذا الفتى معكم؟ فقال: في يوم كذا وشهر كذا. ثم قال(عليه السلام): وإلى أين بلغتم من سفركم حين مات؟ قال: إلى موضع كذا وكذا. قال(عليه السلام): وفي أي منزل مات؟ قال: في منزل فلان ابن فلان. قال(عليه السلام): وما كان مرضه؟ قال: كذا وكذا. قال(عليه السلام): كم يوماً مرض؟ قال: كذا وكذا يوماً. قال(عليه السلام): فمن كان ممرّضه وفي أي يوم مات ومن غسله ومن كفّنه وبما كفّنتموه ومن صلّى عليه ومن نزل قبره؟ فلمّا سأله عن جميع ما يريد كبّر(عليه السلام) وكبّر الناس معه. فارتاب أولئك الباقون ولم يشكوا أن صاحبهم قد أقرّ عليهم وعلى نفسه. فأطرق يغطي رأسه. ثم دعا بآخر فأجلسه بين يديه وكشف عن وجهه، ثم(عليه السلام): كلا زعمت أني لا أعلم ما صنعتم. فقال: يا أمير المؤمنين ما أنا إلاّ واحد من القوم، ولقد كنت كارهاً لقتله فأقرّ. ثم دعا بواحد بعد واحد وكلّهم يقرّ بالقتل وأخذ المال. ثم ردّ الأول فأقرّ أيضاً. فألزمهم المال والديّة.

وقال شريح: يا أمير المؤمنين وكيف حكم داود؟

فقال(عليه السلام): إن داود النبي(عليه السلام) مرّ بغلمة يلعبون وينادي بعضهم بعضاً: مات الدين. فدعا منهم غلاماً فقال: يا غلام ما اسمك؟ فقال: اسمي مات الدين، سمّتني به أمي. فانطلق(عليه السلام) إلى أمّه. فقال لها: من سمّاه بهذا الاسم؟ قالت: أبوه. قال: وكيف؟ قالت: إن أباه خرج في سفر له ومعه قوم وهذا الصبي حمل في بطني. فانصرف القوم ولم ينصرف زوجي[1]. وقالوا: مات. قلت: أين ماله؟ قالوا: لم يخلّف مالاً. فقلت: أوصاكم بوصيّة؟ قالوا: نعم زعم انك حبلى فما ولد فسمّيه. مات الدين. فقال: أتعرفين القوم الذين كانوا خرجوا مع زوجك؟

---

(١) هكذا النسخة والذي أظن أن من سهو القلم والتعبير الصحيح: فعاد القوم ولم يعد زوجي... إلخ.

قالت: نعم وهم أحياء. قال: فانطلقي بنا إليهم. ثم مضى معها فاستخرجهم من منازلهم. فحكم بينهم بهذا الحكم. فثبت عليهم المال والدم. ثم قال للمرأة: سمّي ابنك: عاش الدين.

وكيف كان فداود(عليه السلام) عظيم الشأن، عظيم المنزلة، عظيم القدر عند الله سبحانه، عظيم السلطان إذ قد أعطاه الله سبحانه ملكاً عظيماً، حتى قيل: أنه كان أشد ملوك الأرض سلطاناً. كما قال الله تعالى شأنه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي قوّيناه وأحكمناه. فقد كان يحرسه في كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل. وقيل: أربعون ألفاً. كما ذكره الرازي في(ص١٨٣) من المجلد السابع.

وكان(عليه السلام) شديد الاجتهاد والبكاء والعبادة، يقوم الليل ويصوم نصف الدهر. وقد كان جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعة إلا وإنسان من أولاده في صلاة. وقد توفّاه الله تعالى وهو ابن مائة وأربعين سنة.

وقال العلاّمة السيد الجزائري(رحمه الله) في(قصص الأنبياء):

في الكافي بالإسناد إلى أبي عبد الله(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): مات داود النبي(عليه السلام) يوم السبت مفجوءاً فأظلّته الطير بأجنحتها... إلى أن قال: قال أبو جعفر(عليه السلام): ثم عرض على آدم أسماء الأنبياء وأعمارهم. فمرّ باسم داود(عليه السلام) فإذا عمره ٤٠ سنة. فقال آدم(عليه السلام): يا رب ما أقصر عمر داود وأكثر عمري، يا رب إن أنا زدت داود من عمري ثلاثين سنة، أتكتب ذلك له؟ قال: نعم. قال: إني زدته من عمري ثلاثين سنة، فأثبتها له واطرحها من عمري. فأثبتها الله تعالى لداود(عليه السلام) ومحاها من آدم(عليه السلام). فذلك قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

فلمّا دنا عمر آدم هبط عليه ملك الموت ليقبض روحه. فقال: يا ملك الموت قد بقي من عمري ثلاثون سنة. فقال: ألَمْ تجعلها لابنك داود وأنت بوادي الروحا؟ فقال آدم(عليه السلام): يا ملك الموت ما أذكر هذا. قال: يا آدم لا تجهل، ألم تسأل الله أن يثبتها لداود ويمحوها من عمرك؟ قال آدم: فاحضر الكتاب حتى أعلم ذلك. وكان آدم صادقاً لم يذكر. فمن ذلك اليوم أمر الله تعالى العباد أن يكتبوا بينهم إذا تداينوا وتعاملوا إلى أجل مسمًّى لنسيان آدم وجحود ما جعل على نفسه.

قلت: وعلى هذه الرواية وبناءً على عمره المقرر كان أربعين سنة، يكون عمره سبعين سنة، فيخالف الرواية المتقدّمة المبيّنة لعمره المبارك من أنه مائة وعشرون سنة.

قال الرازي[1]:

روى أن داود(عليه السلام) لمّا مرض مرض الموت، قال: إلهي كن لسليمان كما كنت لي. فنزل الوحي وقال تعالى: قل لسليمان فليكن لي كما كنتَ لي.

هذا بعض ما يتعلق بالنبي العظيم داود(عليه السلام)، وما أعطاه الله سبحانه من الملك والحكمة وفصل الخطاب.

وأما سليمان بن داود(عليهما السلام)، فقد قال في مجمع البيان[2]:

أعطى الله تعالى سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها. فملك سبعمائة سنة وستة أشهر. ملك أهل الدنيا كلّهم من الجن والإنس والشياطين

---

(١) قال هذا في ص٦٣٥ من المجلّد ٨.

(٢) ذكر في ص٢١٤ من المجلد ٤.

والدواب والطير والسباع. وأعطي علم كل شيء ومنطق كل شيء.

وقال في مجمع البحرين[١]:

وفي حديث الصادق(عليه السلام): أعطى سليمان بن داود مع علمه معرفة النطق بكل لسان ومعرفة اللغات ومنطق الطير والبهائم. وكان إذا شاهد الحروب تكلّم بالفارسية وإذا قعد لعمّاله وجنوده وأهل مملكته تكلّم بالروميّة. وإذا خلا بنسائه تكلّم بالسريانية والنبطية. وإذا قام في محرابه تكلّم بالعربية. وإذا جلس للوفود والخصماء تكلم بالعبرانية.

وكيف كان. فقد قال في مجمع البيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾.

أي علماً بالقضاء بين الخلق وبكلام الطير والدواب.. ثم قال: أهل العربية يقولون: أنه لا يطلق على غير بني آدم، وإنما يقال: الصوت. لأنّ النطق عبارة عن الكلام ولا كلام للطير، إلا أنّه لمّا فهم سليمان معنى صوت الطير سمّاه منطقاً مجازاً... ثم قال: وقال عليّ بن عيسى: إنّ الطير كانت تكلّم سليمان. معجزةً له، كما أخبر عن الهدهد.

ومنطق الطير: صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة، بخلاف منطق الناس الذي يتفاهمون به المعاني على صيغ مختلفة، ولذلك لم نفهم عنها شيئاً مع طول مصاحبتها، ولم تفهم هي عنّا لأن أفهامها مقصورة على تلك الأمور المخصوصة.

ولمّا جعل سليمان(عليه السلام) يفهم عنها كان قد علم منطقها.

---

(١) ذكر ذلك في ص٤١١ في مادة: نطق.

وجاء العلم بالتنكير إمّا لبيان أنّه مقدار من العلم لإتمامه.

وإمّا لبيان أنه قسم مهمّ منه. كما يأتي التنكير لذلك أحياناً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ... فهو لبيان قيامهما بالشكر بأتمّ مظاهره، من الشكر بالقلب الذي هو توطين النفس على الطاعة والانقياد وترك المخالفة، ومن الشكر الفعلي الذي هو من عمل الجوارح كالصلاة والصيام ونحوهما، ومن الشكر القولي وهو ما يكون باللسان كقولهما: الحمد لله. لأن الشكر باللسان إنّما يحسن إذا كان مسبوقاً بشكر الجنان والعمل بالأركان. وهذا المعنى هو الذي صحّح عطف قولهما: الحمد لله بالواو. إذ أنّ مقتضى المقام لولا ذلك هو العطف بالفاء على ما يقتضيه التفريع. فيكون المعنى على ما ذكرنا: وأتينا داود وسليمان علماً فأدّيا حقّه بالجنان وعملا بمقتضاه بالأركان وقاما بواجبه باللسان.

ولا خفاء في دلالة الآية الشريفة على عظيم مرتبة العلم، حيث جعل فيها منشأً للتفضيل دون غيره من وافر النعم التي أنعم الله تعالى بها على داود وسليمان(عليهما السلام)، من الملك والسلطان فلو كان شيء منشأً للفضل بحيث يكون فوق فضيلة العلم، لكان ذلك أنسب في التعليل به في المقام، مجتمعاً مع العلم أو منفرداً عنه. كما أن حكاية التفضيل على الكثير من المؤمنين دون التفضيل على الكل، إلماح إلى عدم انحصار ما به الفضل والفضيلة فيهما، بل يوجد ذلك في غيرهما بنحو التساوي أو بنحو أتمّ.

وقد أجمعت الأمّة قاطبة على أنّ خاتم النبيّين محمّد(صلى الله عليه وآله) هو أفضل المرسلين، كما هو كذلك لأقتضاء البراهين العقلية والأدلّة النقلية ذلك. إذ لو كان التفضيل بمزيد العلم والمعرفة فهو(صلى الله عليه وآله) أرفعهم فيه درجة وأوسعهم فيه إحاطة وأجمعهم

لأنواعه حفظاً. ولو لم يكن في معلوماته إلاّ ما في القرآن الكريم من ظواهر وبطون لكان ذلك كافياً. فإنّه فيه تبيان كل شيء كما نطق بذلك قوله تعالى شأنه:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

ويوضح لك غزير علمه(ﷺ) ويوقفك على تيار بحر فضله قوله المأثور وحديثه المشهور: أنا مدينة العلم، مرّة. وأنا مدينة الحكمة، أخرى. الذي قد روته الصحاح.

فانظر في هذا التصوير الذي صوّره(ﷺ) لك، من تشبيه صدره المبارك بالمدينة، التي هي محتوى طبيعة العلم وجنسه الشامل لكل أنواعه، كما هو مقتضى أل الجنسية المفيدة للشمول على ما تقتضيه القواعد العلمية. وهذا صيغة منتهى جموع الفضل وأقصى مراتب الفضيلة التي لم يعهد مثلها لغيره.

وقد نبّهنا في محاضراتنا المعدّة لأيام المحرّم الحرام أن الجملة المعطوفة على هذه الجملة، لها من الأهميّة والعظمة نحو الأهمية والعظمة للجملة المعطوف عليها.

فإن الحديث المذكور المأثور عند الفريقين والمصحّح عند الطائفتين هو بهذا النص، وهو قوله(ﷺ): «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**».

وإن اختلف المتن فيما زاد على هذه الفقرة، مثل المروي عن جابر[1] بن عبد

---

(١) قال شيخنا العلاّمة الحجّة الحبر المظفّر في ص٢٨٦ من الجزء الثاني من كتابه(دلائل الصدق)، ونقل السيوطي في اللئالي المصنوعة عن ابن الجوزي: أنه نقل هذا الحديث بلفظه – يعني حديث أنا مدينة العلم وعليّ بابها – أو ما يشبهه من خمسة عشر طريقاً. أخرجها ابن عدي وأبو نعيم وابن مردويه والطبراني والخطيب والعقيلي وابن حيّان عن علي وابن عباس وجابر. ولفظ حديث جابر هكذا: سمعت رسول الله(ﷺ)... إلى آخر ما نقلناه من الحديث.

الله من قوله: سمعت رسول الله(ﷺ) يوم الحديبية وهو أخذ بيد عليّ(ع) يقول: «**هذا أمير البررة وقاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله...**» يمدّ بها صوته: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد العلم فالباب الباب**».

وغير خفي على كل ذي علم ما لتشبيه عليّ(ع) بباب مدينة العلم المكنّى بها عن صدر سيّد النبيين والمرسلين محمّد(ﷺ)، من الشان العظيم الذي لا يحيط به الفكر، ويقصر عن بلوغ أعماقه التحديد والحصر.

إذ بطبيعة الحال أن محتوى تلك المدينة هو كل ما يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم منذ البعثة إلى يوم النفخ في الصور. وإذا كان عليّ(ع) هو الباب والمسلك لذلك المحتوى، لزم لزوماً بيّناً بالمعنى الأخص من هذا التشبيه: أن يكون علي(ع) وسيلة موصلة لكل ما تحتاج الأمّة إليه، منذ صدور هذا القول من مدينة العلم والحكمة إلى يوم النفخ في الصور.

إذ لا ريب لذي فطنة أن هذا كناية تفوق التصريح بلاغة، عن أنّ علياً محتوى علم النبوّة. وهو الوسيط الفذّ في إيصال الأمّة إلى كل ما للرسول(ﷺ) من علم.

مضافاً إلى ما في هذا التعبير من النبيّ الكريم(ﷺ) الذي هو ينبوع الحكمة، من دقائق المعاني ما لا يخفى على ذي فطنة. فإن تصوير نفسه المقدّسة وتشبيهها بمدينة العلم وتصوير عليّ وتشبيهه ببابها، يعطي بوضوح فرض انحصار المسلك لمن أراد التزوّد من تلك المدينة بذلك الباب، وإلاّ كان الداخل إليها من غير الباب متسوّراً سارقاً. ولا شك أن هذا البيان يأخذ بالأعناق إلى وجوب الائتمام بعليّ(ع) ويقصر الرجوع فيما يرجع فيه إلى الرسول(ﷺ) عليه، ويرشد إلى أنّه محتوى علم النبوّة وحامل ثقة الرسالة وأنّه(ع) وعاء علمه المكين وحافظ سرّه الأمين. كما وأنّ في هذا التشبيه لفت نظر آخر، وهو أن ذلك العلم الجمّ لم يجمعه

غير عليّ(عليه السلام) كما لم يشذّ عنه شيء منه، حيث لم تجد تنويهاً في شيء من الأحاديث النبوية عن مثل تلك الجامعية لغير علي(عليه السلام)، كما هو غير خفيّ على من سبر الأخبار في الباب ورفع عن محيّاها الحجاب[١].

أما سند هذا الحديث فقد ذكر سيّدنا الحجّة شرف الدين(قدس سره) في مراجعاته[٢]: أنه أخرجه الطبراني عن ابن عباس كما في الجامع الصغير للسيوطي(ص١٠٧) وأخرجه الحاكم(ص٢٢٦) من مناقب عليّ(عليه السلام) في الجزء ٣ بسندين صحيحين أحدهما عن ابن عباس بطريقين صحيحين والآخر عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

وقال السيد(طاب مرقده): وأفرد الإمام أحمد بن محمّد بن الصديق المغربي نزيل القاهرة لتصحيح هذا الحديث الأزهر كتاباً حافلاً سمّاه (فتح الملك العليّ بصحّة حديث باب مدينة العلم عليّ) وقد طبع سنة ١٣٤٥هـ بالمطبعة الإسلامية.

أقول: والذي يدلّك على أن الحديث المبارك أوفر من ذلك إخراجاً وأكثر انتشاراً حيث أنّه يرسل في بعض الكتب المعتمدة إرسال المسلّمات.

قال شارح النهج المعتزلي عند شرح قول عليّ(عليه السلام)[٣]: «**نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب**».

يمكن أن يعنى به خزنة العلم وأبواب العلم لقول رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد الحكمة فليأت الباب**». وقوله(صلى الله عليه وآله) فيه: «**خازن**

---

(١) ولا ريب أنّ علم عليّ(عليه السلام) وهبي لا كسبي بدعاء النبي(صلى الله عليه وآله) لما بعثه قاضياً إلى اليمن. فراجع الحديث الوارد في الموضوع.

(٢) ذكر هذا في ص١٥٢ من المراجعات.

(٣) ذكر ذلك في ص٤٤٨ من المجلد الثاني من شرح النهج.

علمي». وقال(ﷺ) تارة أخرى: «**عيبة علمي**».

وقال العلاّمة الأميني رحمه الله[(١)]:

ومصادر حديث: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها، هي مائة وواحد وأربعون مصدراً».

وكيف كان: فالحديث الشريف إن لم يكن باللفظ متواتراً، فالظاهر أن كونه من المتواتر معنًى من المسلّمات.

ولا يخفى أن شارح النهج المعتزلي بعدما احتمل أن يكون مراد أمير المؤمنين(عليه السلام) من الخزنة والأبواب خزنة العلم وأبوابه، قال:

ويمكن أن يريد(عليه السلام) خزنة الجنّة وأبواب الجنّة، أي لا يدخل الجنّة إلاّ من وافى بولايتنا فقد جاء في حقّه الخبر الشائع المستفيض أنّه(عليه السلام) قسيم النار والجنّة.

قال: وذكر أبو عبيدة الهروي في الجمع بين الغريبين: إن قوماً من أئمة اللّغة فسّروه فقالوا: لأنّه لمّا كان محبّه من أهل الجنّة ومبغضه من أهل النار، كان بهذا الاعتبار قسيم النار والجنّة. قال أبو عبيدة: وقال غير هؤلاء: بل هو قسيمها بنفسه في الحقيقة يدخل قوماً إلى الجنّة وقوماً إلى النار.

وهذا الذي ذكره أبو عبيدة أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه. يقول الإمام(عليه السلام) للنار: **هذا لي فدعيه وهذا لكِ فخذيه**.

أقول: وهذا نص بعض الأبيات المنسوبة إليه التي خاطب بها الحارث الهمداني الذي هو من شيعته ومخلصيه. وقد ذكره شارح النهج في(ص٩٩) من

---

(١) ذكر هذا في ص٥٤ من المجلد ٦ من الغدير وقد عقّب من نقلناه عنه بما صح من أحاديثه وضبط لفظه. فراجع.

المجلد الأول من شرح النهج.

ثم قال شارح النهج عقيب ذلك الكلام الذي حكيناه عنه آنفاً:

واعلم أن أمير المؤمنين(عليه السلام) لو فخر وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته التي آتاها الله إيّاه واختصّه بها، وساعده على ذلك فصحاء العرب، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول(صلى الله عليه وآله) الصادق في أمره. ولست أعني بذلك الأخبار العامّة الشائعة التي يحتجّ بها الإمامية على إمامته كخبر الغدير والمنزلة وقصة براءة وخبر المناجاة وخبر الدار بمكّة في ابتداء الدعوة ونحو ذلك، بل الأخبار الخاصة التي رواها فيه(عليه السلام) أئمة أهل السنة والجماعة التي لم يحصل أقل القليل منها لغيره. وأنا أذكر من ذلك شيئاً يسيراً مما رواه علماء الحديث الذين لا يتّهمون فيه، وجلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه. فروايتهم فضائله توجب سكون النفس ما لا يوجبه غيرهم...

أقول: ثم ذكر أربعة وعشرين حديثاً بمصادرها(١).

---

(١) أقول: الأخبار المؤمأ إليها هي ما ذكره الشارح المؤما إليه في ص٤٤٩ من المجلّد الثاني:

الحديث الأول: قول رسول الله(صلى الله عليه وآله): «يا عليّ قد زيّنك الله بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها، هي زينة الأبرار عند الله الزهد في الدنيا. جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً. وُهب لك حبّ المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً».

رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه المعروف بحلية الأولياء وزاد فيه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في المسند: «فطوبى لمن أحبّك وصدّق فيك وويل لمن أبغضك وكذّب فيك».

الحديث الثاني: قال(صلى الله عليه وآله) لوفد ثقيف: «لتُسلمنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلاً منّي - أو قال - عديل نفسي فليضربنّ أعناقكم وليسبينّ ذراريكم وليأخذنّ أموالكم».

قال عمر: فما تمنّيت الإمارة إلاّ يومئذٍ وجعلت أنصب له صدري رجاء أن يقول(صلى الله عليه وآله): هو هذا. فالتفت(صلى الله عليه وآله) فأخذ بيد عليّ(عليه السلام) وقال: «هو هذا» مرّتين. رواه أحمد في المسند ورواه =

= في كتابه فضائل عليّ(عليه السلام): «لتنتهينّ يا بني وليعة أو لأبعثنّ إليكم رجلاً كنفسي يمضي فيكم أمري يقتل المقاتلة ويسبي الذريّة».

قال أبو ذر: فما راعني إلاّ برد كفّ عمر في حُجزتي* من خلفي يقول: من تراه يعني؟ فقلت له: لا يعنيك وإنما يعني خاصف النعل بالبيت وأنه(صلى الله عليه وآله) قال: هو هذا.

الحديث الثالث: قوله(صلى الله عليه وآله): «إنّ الله عهد إليّ في عليّ عهداً فقلت: يا رب بيّنه لي. قال تعالى: اسمع إنّ علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين. من أحبّه فقد أحبّني ومن أطاعه فقد أطاعني. فبشّره بذلك.

فقلت: قد بشّرته يا رب، فقال: أنا عبد الله وفي قبضته فإن يعذّبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً، وإن يتمّ لي ما وعدني فهو أولى.

وقد دعوت له فقلت: اللهمّ أجلِ قلبه واجعل ربيعه الإيمان بك. قال تعالى: قد فعلت ذلك غير أني مختصّه بشيء من البلاء لم أختص به أحداً من أوليائي.

فقلت: ربّي أخي وصاحبي.

قال: إنّه سبق في علمي إنّه لُمبتلى ومبتلى به.

ذكره أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء عن أبي برزة الأسلمي. ثم رواه بإسناد آخر بلفظ آخر، عن أنس بن مالك:

إن ربّ العالمين عهد عَليّ في عليّ عهداً انه راية الهدى ومنار الإيمان وإمام أوليائي ونور جميع من أطاعني، أميني غداً في القيامة وصاحب رايتي، بيد عليّ مفاتيح خزائن رحمة ربي.

الحديث الرابع: قوله(صلى الله عليه وآله): «من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه وإلى آدم في علمه وإلى إبراهيم في حلمه وإلى موسى في فطنته وإلى عيسى في زهده فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب». رواه أحمد بن حنبل في المسند ورواه أحمد البيهقي في صحيحه. =

(*) [أقول: قال في ص٢٩٦ من مجمع البحرين في مادة حجز في حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله): «خذوا بحجزة هذا الأنزع يعني علياً فإنّه الصديق الأكبر والفاروق الأعظم يفرّق بين الحق والباطل. الحجزة: بضم الحاء المهملة وإسكان الجيم والراء. معقد الإزار. ثم قيل للإزار حجزة للمجاورة. مثل: غرفة غرفف. وقد استعير الأخذ بالحجزة للتمسك والاعتصام يعني تمسّكوا واعتصموا به. انتهى]

= الحديث الخامس: قوله(ﷺ): «من سرّه أن يحيى حياتي ويموت ميتتي ويتمسّك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده ثم قال لها كوني فكانت فليتمسّك بولاء عليّ بن أبي طالب». ذكره أبو نعيم الحافظ في كتابه حلية الأولياء. ورواه أبو عبد الله أحمد ابن حنبل في المسند وفي كتاب فضائل عليّ بن أبي طالب. وحكاية لفظ أحمد:

«من أحبّ أن يتمسّك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جنّة عدن بيمينه فليتمسّك بحبّ علي بن أبي طالب».

الحديث السادس: قوله(ﷺ): «والذي نفسي بيده لولا أن تقول طوائف من أمّتي ما قالت النصارى في ابن مريم لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بملأ من المسلمين إلاّ أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة». ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل في المسند.

الحديث السابع: خرج رسول الله(ﷺ) على الحجيج عشية عرفة فقال لهم: «إن الله باهى بكم الملائكة عامّة وغفر لكم عامّة وباهى بعليّ خاصة وغفر له خاصة. إني قائل لكم قولاً غير مجاب فيه لقرابتي:

إنّ السعيد كل السعيد حقّ السعيد من أحبّ علياً في حياته وبعد موته». رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائل عليّ(عليه السلام).

الحديث الثامن: قوله(ﷺ): «أنا أول من يدعى به يوم القيامة فأقوم عن يمين العرش في ظلّه ثم أكسى حلّة ثم يدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض. فيقومون عن يمين العرش ويكسون حُللاً. ثم يدعى بعليّ بن أبي طالب لقرابته مني ومنزلته عندي ويدفع إليه لوائي لواء الحمد، آدم ومن دونه تحت ذلك اللواء».

ثم قال(ﷺ) لعليّ(عليه السلام): «فتسير به حتى تقف بيني وبين إبراهيم الخليل ثم تكسى حلّة وينادي منادٍ من العرش:

نِعم العبد أبوك إبراهيم ونِعم الأخ أخوك عليّ.

أبشر فإنك تدعى إذا دعيت وتكسى إذا كسيت وتحيا إذا حييت».

رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين – يعني المسند وكتاب الفضائل.

الحديث التاسع: يا أنس اسكب لي وضوءاً ثم قام(ﷺ) فصلّى ركعتين ثم قال(ﷺ): «أول من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتّقين وسيّد المسلمين ويعسوب الدين وخاتم الوصيّين =

= وقائد الغرّ المحجّلين».

قال أنس: فقلت اللهمّ اجعله رجلاً من الأنصار. وكتبت دعوتي. فجاء عليّ(عليه السلام). فقال(صلى الله عليه وآله): من جاء يا أنس؟ فقلت: عليّ. فقام إليه مستبشراً فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه. فقال علي(عليه السلام): يا رسول الله صلّى الله عليك وآلك لقد رأيت منك اليوم تصنع بي شيئاً ما صنعته بي قبل. قال(صلى الله عليه وآله):

«وما يمنعني وأنت تؤدي عني وتسمعهم صوتي وتبيّن لهم ما اختلفوا فيه بعدي».

رواه أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء.

الحديث العاشر: قوله(صلى الله عليه وآله): «ادعوا لي سيّد العرب عليّاً». فقالت عائشة: ألست سيّد العرب؟ فقال(صلى الله عليه وآله): «أنا سيّد ولد آدم وعليّ سيّد العرب». فلمّا جاء أرسل(صلى الله عليه وآله) إلى الأنصار فأتوه. فقال(صلى الله عليه وآله) لهم: «يا معشر الأنصار ألا أدلّكم على ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا أبداً؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال(صلى الله عليه وآله):

«هذا علي فأحبّوه بحبّي وأكرموه بكرامتي فإن جبرائيل أمرني بالذي قلت لكم عن الله عزّوجل».

رواه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء.

الحديث الحادي عشر: قوله(صلى الله عليه وآله): «مرحباً بسيّد المؤمنين وإمام المتّقين». فقيل لعليّ(عليه السلام): كيف شكرك؟ فقال: «أحمد الله على ما أتاني وأسأله الشكر على ما أولاني وأن يزيدني مما أعطاني».

ذكره صاحب الحلية أيضاً.

الحديث الثاني عشر: قوله(صلى الله عليه وآله): «من سرّه أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنّة عدن التي غرسها ربي فليوالي عليّاً من بعدي وليوالي وليّه وليقتدي بالأئمة من بعدي فإنّهم عترتي خلقوا من طينتي ورزقوا فهماً وعلماً فويل للمكذّبين من أمّتي القاطعين فيهم صلتي لا أنالهم الله شفاعتي».

ذكره صاحب الحلية أيضاً.

الحديث الثالث عشر: بعث رسول الله(صلى الله عليه وآله) خالد بن الوليد في سرية وبعث عليّاً(عليه السلام) في سرية أخرى وكلاهما إلى اليمن، وقال(صلى الله عليه وآله): «إن اجتمعتما فعليّ على الناس وإن افترقتما فكل واحد منكما على جنده». =

= فاجتمعا وأغارا وسبيا وأخذا أموالاً وقتلا أناساً. وأخذ عليّ جارية فاختصّها لنفسه. فقال خالد لأربعة من المسلمين منهم بريدة الأسلمي: اسبقوا إلى رسول الله(ﷺ) فاذكروا له كذا واذكروا له كذا، لأمور عدّدها على عليّ(عليه السلام). فسبقوا إليه فجاء واحد من جانبه فقال: إنّ علياً فعل كذا. فأعرض(ﷺ) عنه. فجاء الآخر من الجانب الآخر فقال: إن علياً فعل كذا. فاعرض(ﷺ) عنه. فجاء بريدة الأسلمي، فقال: يا رسول الله إن علياً فعل كذا فأخذ جارية لنفسه. فغضب(ﷺ) حتى احمرّ وجهه وقال: «ادعوا لي علياً» يكرّرها: «إنّ علياً مني وأنا من عليّ، وإن حظّه في الخمس أكثر مما أخذ وهو وليّ كل مؤمن بعدي».

رواه أبو عبد الله أحمد في المسند غير مرّة ورواه في فضائل عليّ ورواه أكثر المحدّثين.

الحديث الرابع عشر: قوله(ﷺ): «كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله عزّوجل قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلق آدم قسم ذلك فيه وجعله جزئين فجزء أنا وجزء عليّ».

رواه أحمد في المسند وفي كتاب فضائل عليّ. وذكره صاحب كتاب الفردوس وزاد فيه: «ثم انتقلنا حتى صرنا في عبد المطلب فكان لي النبوّة ولعليّ الوصية».

الحديث الخامس عشر: قوله(ﷺ): «النظر إلى وجهك يا عليّ عبادة أنت سيّد في الدنيا وسيّد في الآخرة من أحبّك أحبّني وحبيبي حبيب الله وعدوك عدوي وعدوي عدو الله الويل لمن أبغضك».

رواه أحمد في المسند قال: وكان ابن عباس يفسّره ويقول: إن من ينظر إليه يقول: سبحانه الله ما أعلم هذا الفتى، سبحانه الله ما أشجع هذا الفتى، سبحانه الله ما أفصح هذا الفتى.

الحديث السادس عشر: لمّا كانت ليلة بدر قال رسول الله(ﷺ): من يستسقي لنا ماءً؟ فأحجم الناس. فقام عليّ فاحتضن قربة ثم أتى بئراً بعيدة القعر مظلمة، فانحدر فيها. فأوحى الله إلى جبرائيل وميكائيل وإسرافيل: أن تهيّأوا لنصر محمّد وأخيه وحزبه. فهبطوا من السماء لهم لغط يذعر من يسمعه. فلمّا حاذوا البئر سلّموا عليه من عند آخرهم إكراماً له وإجلالاً.

رواه أحمد في كتاب فضائل عليّ وزاد فيه في طريق آخر عن أنس بن مالك: «لتؤتين يا عليّ يوم القيامة بناقة من نوق الجنّة فتركبها وركبتك مع ركبتي وفخذك مع فخذي حتى تدخل الجنّة».

الحديث السابع عشر: خطب(ﷺ) الناس يوم جمعة فقال(ﷺ): =

= «أيها الناس قدّموا قريشاً ولا تقدموها وتعلّموا منها ولا تعلّموها. قوة رجل من قريش تعدل قوة رجلين من غيرهم. وأمانة رجل تعدل أمانة رجلين من غيرهم. أيها الناس أوصيكم بحبّ ذي قرباها أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب لا يحبّه إلا مؤمن ولا يبغضه إلاّ منافق من أحبّه فقد أحبّني ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني عذّبه الله بالنار».

رواه أحمد في فضائل عليّ(عليه السلام).

الحديث الثامن عشر: الصدّيقون ثلاثة حبيب النجار الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ومؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه وعليّ ابن أبي طالب وهو أفضلهم. رواه في كتاب فضائل علي(عليه السلام).

الحديث التاسع عشر: قوله(صلى الله عليه وآله): «أعطيت في عليّ خمساً هنّ أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها:

أما واحدة: فهو كابٍ بين يدي الله عزّوجل حتى يفرغ من حساب الخلائق.

وأما الثانية: فلواء الحمد بيده آدم ومن ولد تحته.

وأما الثالثة: فواقف على عقر حوضي يسقي من عرف من أمّتي.

وأما الرابعة: فساتر عورتي ومسلّمي إلى ربي.

وأما الخامسة: فإنّي لست أخشى عليه أن يعود كافراً بعد إيمان ولا زانياً بعد إحصان».

رواه أحمد في كتاب الفضائل.

الحديث العشرون: كان لجماعة من الصحابة أبواب شارعة في مسجد الرسول(صلى الله عليه وآله). فقال(صلى الله عليه وآله) يوماً: «سدّوا كل باب في المسجد إلاّ باب عليّ» فسدّت. فقال في ذلك قوم حتى بلغ رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقام فيهم فقال(صلى الله عليه وآله):

«إنّ قوماً قالوا في سدّ الأبواب وتركي باب عليّ. إنّي ما سددت ولا فتحت ولكنّي امرت بأمر فاتبعته».

رواه أحمد في المسند مراراً وفي كتاب الفضائل.

الحديث الحادي والعشرون: دعا(صلى الله عليه وآله) عليّاً في غزاة الطائف فانتحاه وأطال نجواه، حتى كره قوم من الصحابة ذلك فقال قائل منهم: لقد أطال اليوم نجوى ابن عمّه. فبلغه(صلى الله عليه وآله) ذلك فجمع منهم قوماً ثم قال(صلى الله عليه وآله):

«إنّ قائلاً قال لقد أطال اليوم نجوى ابن عمّه أمّا إنّي ما انتجيته ولكنّ الله انتجاه». =

وكل واحد من تلك الأحاديث لا تكافئه الدنيا بل أضعافها المضاعفة.

ثم قال الشارح بعد إنهاء الأحاديث المومأ إليها في(ص٤٥١) من المجلّد الثاني:

= رواه أحمد في المسند.

الحديث الثاني والعشرون: قوله(ﷺ): «أخصمك يا عليّ بالنبّوة فلا نبوّة بعدي وتخصم الناس بسبع لا يجاحد فيها أحد من قريش:

١ - أنت أولهم إيماناً بالله. ٢ - وأوفاهم بعهد الله. ٣ - وأقومهم بأمر الله. ٤ - وأقسمهم بالسوية. ٥ - وأعدلهم في الرعية. ٦- وأبصرهم بالقضية. ٧ - وأعظمهم عند الله مزيّة».

رواه أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء.

الحديث الثالث والعشرون: قالت فاطمة(عليها السلام): «إنّك زوّجتني فقيراً لا مال له». فقال(ﷺ): «زوّجتكِ أقدمهم سلماً وأعظمهم حلماً وأكثرهم علماً. ألا تعلمين أن الله اطلع إلى الأرض اطلاعة فاختار منها أباكِ ثم اطلع إليها ثانية فاختار منها بعلك».

رواه أحمد في المسند.

الحديث الرابع والعشرون: لمّا أنزل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾... بعد انصرافه(ﷺ) من غزوة حنين جعل يكثر(ﷺ) من: سبحانه الله أستغفر الله. ثم قال: «يا عليّ إنه قد جاء ما وعدت به جاء الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً. وإنه ليس أحد أحقّ منك بمقامي لقدمك في الإسلام وقربك منّي وصهرك وعندك سيّدة نساء العالمين وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب عندي حين نزل القرآن فأنا حريص على أن أرعى ذلك لولَده».

رواه أبو إسحاق الثعلبي في تفسير القرآن. والحمد لله ربّ العالمين.

* [أقول: قال في ص٢٩٦ من مجمع البحرين في مادة حجز في حديث رسول الله(ﷺ): «خذوا بحجزة هذا الأنزع يعني عليّاً فإنّه الصديق الأكبر والفاروق الأعظم يفرّق بين الحق والباطل. الحجزة: بضم الحاء المهملة وإسكان الجيم والراء. معقد الإزار. ثم قيل للإزار حجزة للمجاورة. مثل: غرفة نوف. وقد استعير الأخذ بالحجزة للتمسك والاعتصام يعني تمسّكوا واعتصموا به. انتهى]

واعلم أنّا إنّما ذكرنا هذه الأخبار هاهنا لأنّ كثيراً من المنحرفين عنه إذا مرّوا على كلامه في نهج البلاغة وغيره، المتضمّن التحدّث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول(ﷺ) له(عليه السلام) وتمييزه إيّاه عن غيره، ينسبونه إلى التيه والزهوّ والفخر. ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة. قيل لعمر: ولّ عليّاً أمرَ الجيش والحرب. فقال: هو أتيهُ من ذلك. وقال زيد بن ثابت: ما رأينا أزهى من عليّ وأسامة... فأردنا بإيراد هذه الأخبار هاهنا عند تفسير قوله(عليه السلام): «**نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب**» أن ننبّه على عظم منزلته عند الرسول(ﷺ) وإنّ مَن قيل في حقّه ما قيل لورقى إلى السماء وعرج في الهواء وفخر على الملائكة والأنبياء تعظيماً وتبجّحاً، لم يكن ملوماً بل كان بذلك جديراً. فكيف وهو(عليه السلام) لم يسلك قط مسلك التعظّم والتكبّر في شيء من أقواله ولا من أفعاله، وكان ألطف البشر خلقاً وأكرمهم طبعاً... إلى أن قال: وإنّما كان يذكر أحياناً ما يذكره نفثة مصدور وشكوى مكروب وتنفّس مهموم، ولا يقصد به إذا ذكره إلاّ شكر النعمة وتنبيه الغافل على ما خصّه الله به من الفضيلة. فإنّ ذلك من باب الأمر بالمعروف والحضّ على اعتقاد الحق والصواب، والنهي عن المنكر الذي هو تقديم غيره عليه في الفضل. فقد نهى الله تعالى عن ذلك فقال:

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة التاسعة

ابتلاء إبراهيم ربّه بكلمات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم كتابه الشريف وأنيق بيانه المنيف[1]:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى[2] ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) هذه الآية هي الآية ١٢٤ من سورة البقرة المحرّرة في ص١٩٩ من مجمع البيان ح١ ص٧٠٣، ح١ من تفسير الرازي.

(٢) الموجود من لفظ عهدي في قرآن مجمع البيان يعني الموسوم في متن المجمع هو فتح الياء من عهديَ. وقد نظرت في قرانين غير مشروحين فكان المرسوم فيهما إسكان الياء من عهدي. ولكن قال المجمع عند ذكر قراءة الآية: وقرأ حمزة وحفص بإرسال الياء والباقون بفتحها. وقال عند ذكر الحجّة للوجهين: وأما قوله عهدي فإنّما فتح هذه الياء – يعني من فتحها – إذا تحرك ما قبلها. لأنّ أصل هذه الياء الحركة؛ فإنّها بإزاء الكاف للمخاطب فكما فتحت الكاف كذلك تفتح الياء.

ومن سكنها فإنه يحتجّ بأنّ الفتحة مع الياء قد كرهت في الكلام، كما كرهت الحركتان الأخريان فيها. ألا ترى أنهم قد أسكنوها في حالة السعة إذا لزم تحريكها بالفتحة. كما أسكنوها إذا لزم تحريكها بالحركتين الأخريين.

وذلك قولهم: قالي قلا وبادي بدا ومعدي كرب.

فالياء في هذه المواضع في موضع الفتحة التي في آخر أول الاسمين نحو: حضرَموت. وقد أسكنت كما أسكنت في الجر والرفع.

أقول: فيما يتعلق بشرح الآية المباركة من حيث المعنى الإفرادي والمعنى التركيبي المتعلّق بها، حيث لا خفاء في أن الله تعالى شأنه لّما لم يجز عليه الاختبار والامتحان حقيقة، إذ أنّه العالِم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد، كان لا محالة استعمال لفظ الابتلاء في الآية الشريفة، وفي كل مقامات كلامه تعالى شأنه، مجازاً تشبيهاً لأوامره بأوامر غيره التي تكون مستعملة في الاختبار لأمر الطاعة والعصيان، أو حقيقة لكن لا بداعي رفع حيرة المتكلّم، بل بداعي انكشاف حال المكلّف للغير بناءً على عدم أخذ دواعي الإنشاء في مفاهيم المنشآت، كما عليه بعض المحقّقين من المتأخّرين، فيكون ابتلاء إبراهيم(عليه السلام) في المقام لإبانة فضله وفضيلته وعظيم شرف نفسه، لدى من لم يحط خبراً بانقياده وإطاعته لسيّده فيما يأمره به مهما لاقى من المشاق والمصاعب في سبيله.

وعلى كل: إنّ من هذه الآية المباركة والآيات الأخرى الكثيرة المتكفّلة لبيان حال إبراهيم(عليه السلام)، تستفاد شأنيته العظمى ومقامه الأسمى. فلذا كان(عليه السلام) ممّن يعترف بفضله جميع الطوائف والملل.

فالمشركون كانوا معترفين بفضله متشرّفين بأنّهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته. وأهل الكتاب من اليهود والنصارى والصابئة كانوا معترفين بفضله أيضاً متشرّفين بأنّهم من أولاده. فحكى الله تعالى عن إبراهيم(عليه السلام) أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى والصابئة قبول قول محمّد(صلى الله عليه وآله) والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه. وبيانه من وجوه التي منها:

إنّ القبلة لّما حوّلت إلى الكعبة وشقّ ذلك على اليهود والنصارى والصابئة، بيّن الله سبحانه أنّ هذا البيت قبلة إبراهيم(عليه السلام) الذي يعترفون بفضله، فيجب

الاقتداء به. وكان هذا البيان مما يوجب زوال الغضب عن قلوبهم.

وكيف كان فإبراهيم خليل الرحمن وهو ابن آزر (وقيل تارخ)(١). وجدّه العاشر نوح النبي الكريم والرسول العظيم(عليه السلام) ينتسب إلى إبراهيم بواسطة سام بن نوح لا بواسطة حام بن نوح، الذي ينتسب إليه نمرود إبراهيم بعد ستة آباء. فإنّ نمرود هذا جدّه الخامس نوح(عليه السلام). ونمرود هذا هو أحد الأربعة الذين ملكوا الأرض بأسرها، كما قد ورد بذلك الحديث الشريف الذي نصّه:

ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران. فأمّا المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين صاحب الخضر. وأما الكافران: فنمرود وبخت نصر.

ونمرود هذا أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته.

---

(١) قال في مادة: آزر من مجمع البحرين:

قوله تعالى: وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر. واختلف فيه. فذهب بعض: أنّه كان جدّ إبراهيم لأمّه. وقيل: بل هو اسم أبي إبراهيم استدلالاً بقوله: قال لأبيه آزر، وبما روي أن آزر أبا إبراهيم كان منجّماً لنمرود. وهو صريح في أنّ آزر أبو إبراهيم. وليس بشيء(*) لانعقاد الإجماع من الطائفة المحقّة على أنّ أجداد نبيّنا(صلى الله عليه وآله) كانوا مسلمين موحّدين إلى آدم(عليه السلام). وقد تواتر عنهم: نحن من أصلاب المطهّرين وأرحام المطهّرات لم تدنسهم الجاهلية بأدناسها. وقد نقل بعض الأفاضل عن بعض كتب الشافعية كالقاموس وشرح الهمزية لابن حجر المكّي: أن آزر كان عمّ إبراهيم(عليه السلام)، وكان أبوه تارخ. ومثله نقل بعض الأفاضل: أنّه لا خلاف بين النسابين أن اسم أبي إبراهيم(عليه السلام) تارخ. وهذا غير مستبعد لاشتهار تسمية العم بالأب في الزمن السابق. انتهى.

(*) من العجيب ان مؤلف (مجمع البحرين) يبدو مخالفا للنص القراني بابوية آزر لابراهيم ويستدل بحديث الاصلاب بدلامن النص القراني. (د.المدني)

فأمّا مولد إبراهيم(عليه السلام) فالذي عليه عامّة السلف من أهل العلم كما قيل: أنّه ولد في زمن النمرود. وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم ألف ومائتان وثلاث وستون سنة، وذلك بعد خلق آدم(عليه السلام) بثلاثة آلاف وثلاثمائة وسبعة وثلاثين سنة. وعن أبي عبد الله(عليه السلام) أنّه ولد في أول يوم من ذي الحجّة. والأقوال في موضع مولده مختلفة.

فقيل: أنّه حران وأنّ أباه نقله إلى بابل.

وقيل: الأشهر أنّه وُلد بأرض العراق.

وقيل: غير ذلك[1].

وقد اهتم القرآن الكريم بذكر خليل الرحمن إبراهيم(عليه السلام). فذكره في ٧١ مورداً وشرّفه الله تعالى بما أبانه في قوله عزّوجل:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[2].

أي من قبل بلوغه، أي أعطاه الله سبحانه النبوّة قبل بلوغه لعلمه جلّ وعلا

---

(١) قال العلاّمة الأجلّ السيد الجزائري(رحمه الله) ص١٢٨ من الجزء الأول من كتابه: قصص الأنبياء، الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله(عليه السلام)، قال: إنّ إبراهيم(عليه السلام) كان مولده بكوتار يعني قرية من قرى الكوفة وكان أبوه من أهلها. وكانت أم إبراهيم وأم لوط أختين وهما ابنتا للأحج. وكان الأحج نبيّاً منذراً ولم يكن رسولاً. وإن إبراهيم تزوج سارة وهي ابنة خالته، وكانت سارة صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحالة حسنة فملكتها إبراهيم(عليه السلام) فقام فيها وأصلحها... إلى آخر ما ذكر هناك من قصة نفي النمرود لإبراهيم وإخراجه من أرضه وما جرى لإبراهيم في الطريق مع الملك وهبة الملك جارية لسارة وهي هاجر وابتياع إبراهيم هاجر من سارة ووقوعه عليها وتولّد إسماعيل بينهما.

(٢) هذه آية ٥١ من سورة الأنبياء ومحلّها ص٥١ من المجلّد الثالث من المجمع.

بصلاحيته(عليه السلام) للسفارة وأهليته لـذلك. وهـذا أحـد الأقـوال في المسألة، إذ أنّ إلقاءه(عليه السلام) في النار كان في ١٦ من عمره، وقد كرّمه الله سبحانه بـأن جعـل النـار عليه برداً وسلاماً.

قال الرازي: لمّا اجتمع النمرود وقومه لإحراق إبراهيم(عليه السلام) حبسوه في بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة، وذلك ما حكاه تعالى شـأنه عـنهم قولـه: ﴿ **قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ** ﴾ ثم جمعوا له الحطب الكثير ونقلـوا لـه الحطـب عـلى الـدّواب أربعين يوماً، فلمّا اشتعلت النار صار الهواء بحيث لو مرّ عليه الطير في أقصى الهواء لاحترق. ثم أخذوا إبراهيم(عليه السلام) ورفعوه عـلى رأس البنيـان وقيّـدوه ثـم اتخـذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيّداً مغلولاً. وقد قيل: أنّه أول منجنيق نصب في العالم.

قال الرازي: فصاحت السماء والأرض ومَن فـيهما مـن الملائكـة إلاّ الثقلـين صيحة واحدة: أي ربّنا ليس في أرضك أحد يعبـدك غـير إبـراهيم خليلـك وأنّـه يحرق فيك. فأذن لنا في نصرته. فقال جلّ وعلا: إن استغاث بأحد مـنكم فـأغيثوه وإن لم يدع أحداً غيري فأنا أعلم به وأنا وليّه فخلّوا بيني وبينه.

قال في مجمع البيان: قال أبو عبد الله(عليه السلام):

لـمّا جلـس إبـراهيم عـلى المنجنيـق وأرادوا أن يرمـوا بـه في النـار، أتـاه جبرائيل(عليه السلام)، فقال له: السلام عليك يا إبراهيم ورحمة الله وبركاته ألك حاجـة؟ فقال(عليه السلام): أمّا إليك فلا. فلمّا طرحوه دعا الله فقال:

يا الله يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد يا من لم يلد ولم يولـد ولم يكـن لـه كفـواً أحد. فحسرت النار عنه وأنه لمحتب ومعـه جبرائيـل وهمـا يتحـدّثان في روضـة خضراء... إلى أن قال: وقال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم غير وثاقه.

قال الرازي: إنّ ما دعا إبراهيم(عليه السلام) هو أن قال:

اللهمّ أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس في الأرض أحد يعبدك غيري حسبنا الله ونِعم الوكيل.

ثم قال: ورموا به في النار فأتاه جبرائيل(عليه السلام) وقال: يا إبراهيم هل لك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا. قال: فاسئل ربّك. قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1].

إلى أن قال: في رواية مجاهد لو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم من بردها.

قال: ولم يبق يومئذ في الدنيا نار إلاّ أطفئت.

إلى أن قال: ثم نظر نمرود من صرح له وأشرف على إبراهيم فرآه جالساً في روضة. ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وما حوله نار تحرق حطباً. فناداه نمرود: يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم. قال: قم فاخرج فقام يمشي حتى خرج منها. قال بعضهم بما مضمونه: أن النمرود لما نظر ما عليه إبراهيم من

---

(١) قال السيد العلاّمة الجزائري(طاب ثراه) في ص١٢٥ من كتابه قصص الأنبياء:

قال الرازي: اختلفوا في أن النار كيف بردت على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الله تعالى أزال منها ما فيها من الحر والإحراق وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق.

وثانيها: أنّه سبحانه خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه، كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة كما أنّه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرّها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندر بحيث لا يضرّه المكث في النار.

وثالثها: أنه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع عن وصول النار إليه.

قال المحققون: والأول أولى لأنّ ظاهر قوله: يا نار كوني برداً، إن نفس النار صارت باردة. انتهى.

الكرامة، قال لإبراهيم: نعم الرّب ربّك يا إبراهيم، إني مقرّب إلى ربّك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزمه فيما صنع بك حين أبيت إلاّ عبادته، إني ذابح له أربعة آلاف بقرة. فقال له إبراهيم: لا يقبل الله منك شيئاً ما دمت على دينك هذا حتى تفارقه إلى ديني. فقال: لا أستطيع ذلك، وإنّي سوف أذبحها فذبحها وقرّبها، ومنع العذاب عن إبراهيم.

وقريب من هذا ما ذكره الرازي أيضاً متصلاً بما نقلناه عنه آنفاً.

وقد أهلك الله النمرود وجموعه بأن وجّه عليه وعلى جنده البعوض، فأكلت لحومهم وشربت دمائهم إلاّ النمرود فإنّه لم يصبه شيء إلاّ بعوضة دخلت في دماغه. فكان أبرّ الناس به من ضربه بكلتا يديه على رأسه. ولم تزل في دماغه أربعمائة سنة بمقدار ملكه ثم أهلكه الله تعالى بعظم سلطانه.

وكيف كان فإبراهيم(عليه السلام) هو صاحب الخصائص الكريمة والمحامد الجسيمة. التي منها أنّه باهى الله تعالى به أفضل ملائكته وسادات سكّان سمواته.

قال الصفوري الشافعي في كتابه: نزهة المجالس:

لمّا اتخذ الله تعالى شأنه إبراهيم خليلاً قالت الملائكة: له زوجة وولد. فقال الله تعالى: ما في قلبه غيري. اذهبوا فجرّبوه. فجاءه جبرائيل وميكائيل(عليهما السلام) وهو يرعى غنماً وله أربعة آلاف كلب في عنق كل كلب طوق من الذهب. فسألاه عن ذلك. فقال: لأنّ الدنيا جيفة وطلاّبها كلاب. فقدّم لهما طعاماً، فقالا له: ما نأكله إلاّ بثمنه. فقال: ثمنه بسم الله الرحمن الرحيم في أوّله والحمد لله آخره. فقالا: يحق لك أن تكون خليلاً. ثم قالا بصوت حسن:

سبحان الله من قديم ما أقدمه، ومن كريم ما أكرمه، ومن رحيم ما أرحمه، سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح.

قال إبراهيم من الطرب: قولاه مرة ثانية. فقالا: ما نقول إلاّ بشيء. فقال: قد وهبتكما كل ما أملكه من الأغنام. فقالا بصوت أحسن من الأول. قال: قولا مرة ثالثة. قالا: ما نقول إلاّ بشيء. فقال: قد وهبتكما جميع ما في الدار من المتاع والأولاد. فقالا بصوت أحسن من الأول. فقال: قولا مرة رابعة. فقالا: ما نقول إلاّ بشيء. فقال: قد وهبتكما نفسي أكون لكما راعياً. فقالا: بارك الله فيك وفي مالك وأولادك، أنا جبرائيل وهذا ميكائيل. فقال: أنا خليل الله فلا أرجع في هبتي، فأمره الله أن يبيعها ويشتري بثمنها الضياع ويجعلها وقفاً... ذكره النسفي في زهرة الرياض.

وذكر في بعض كتب قصص الأنبياء(عليهم السلام):

قال أهل التاريخ والسير: لمّا أراد الله تعالى قبض روح إبراهيم(عليه السلام) أرسل إليه ملك الموت في صورة شيخ هرم. قيل: وكان إبراهيم(عليه السلام) كثير الإطعام، يطعم الناس ويضيّفهم، فبينما هو يطعم الناس إذ هو بشيخ كبير يمشي في الجادة. فبعث إليه بحمار فركبه. فلمّا أتى قدّم إليه الطعام. فجعل الشيخ يأخذ اللّقمة ويريد أن يدخلها فاه فيدخلها في عينه مرّة وفي أذنه مرّة... إلى أن قال:

وكان إبراهيم(عليه السلام) قد سأل ربّه أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت. فقال للشيخ حين رأى حاله: ما بالك يا شيخ تصنع هكذا؟ فقال: يا إبراهيم من الكِبَر. فقال: ابن كم أنت؟ فقال: كيت وكيت. فحسب إبراهيم فوجد عمره يزيد على عمر إبراهيم بسنتين. فقال له إبراهيم: إنّما بيني وبينك سنتان فإذا بلغت عمرك صرت مثلك؟ قال: نعم. فقال إبراهيم: اللهمّ اقبضني قبل ذلك.

فقام الشيخ فقبض نفسه، وكان الشيخ ملك الموت.

وكان عمر إبراهيم(ﷺ) مائتي سنة وقيل مائة وخمسة وتسعين سنة. ودفن عند قبر سارة في مزرعة جيرون.

هذا بعض ما يتعلق بترجمة إبراهيم(ﷺ).

وأمّا قوله تعالى في الآية المباركة:

﴿ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾: فقد قيل في تعيينها على ما عن ابن عباس كما حكاه العلاّمة الطبرسي(أعلى الله مقامه)، أنها ثلاث خصال من شرائع الإسلام لم يبتل بها أحد قبله فأقامها كلّها إبراهيم(ﷺ) وأتمّها فكتب له البراءة فقال: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾.

وهي عشرة في سورة البراءة وعشرة في سورة الأحزاب وعشرة في سورة المؤمنون.

أما العشرة التي في سورة البراءة فهي قوله تعالى:

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وأما العشرة التي في سورة الأحزاب فهي قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

وأما العشرة في سورة المؤمنون فهي قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

وقيل في تعيين الكلمات غير ذلك.

ففي مجمع البيان: أنّ منها أمره بالختان وذبح ولده إسماعيل[1](عليه السلام) والصبر

(١) قلت: ولو لم يكن لإبراهيم خليل الرحمن من الابتلاء والاختبار، المعرب عن عظيم إخلاصه وتفانيه في الله تعالى شأنه، وتقديم إرادته على كل شيء عزيز وعظيم، إلا أمره بذبح ولده إسماعيل الذي تولّد له بعد الشيخوخة، لكفى هذا مع رقّة إبراهيم(عليه السلام) وحنوّه وعطفه على من تحسس فيه ذرّة من الإيمان ولو كان بعيداً، فضلاً عن فلذة كبده وقرّة عينه الذي ولد له على الكبر، والذي يتحسّس فيه إبراهيم ما يتحسّس من صفات الكمال، البالغة الحد الأقصى من كمالات الإنسان التي منها عظيم الطاعة لله تعالى شأنه ولأبيه(عليهما السلام).

ويكفيك شيء واحد من إسماعيل(عليه السلام) فإنه قيل: لمّا قال له أبوه إبراهيم(عليه السلام): يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى. فقال له الولد المطيع الصابر: يا أبتي افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. ثم قال له إسماعيل(عليه السلام): يا أبتي إني أرى أن تقلبني على وجهي عند الذبح لئلاّ تأخذك رقّة الأبوّة عند النظر في وجهي وإليه فيصعب عليك الأمر، كما أني أرى أن تشدّ يدي ورجلي بحبل لئلاّ يحصل مني مطال عند إجراء العمل.

فلعمري ولعمر الحقيقة هذا غاية ما يتصوّر من الطاعة والإخلاص والتفاني في الله سبحانه من الولد ووالده. ولم يعهد مثل ذلك لأحد.

نعم هناك أمر واحد شبّهه رسول الله(صلى الله عليه وآله) الصادق الأمين(صلى الله عليه وآله) بهذه الحادثة بخصوصياتها، وهو ما ذكره الفاضل الكاظمي(*) في الجزء السادس من سلسلته المعنونة بقول الرسول(صلى الله عليه وآله): «مَن كنت مولاه فعليّ مولاه». =

(*) هو الشيخ عبد المنعم الكاظمي صاحب المؤلفات المعروفة(د.المدني)

على النار والهجرة.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

فقد قال في مجمع البيان:

معناه: إني جاعلك للناس إماماً يقتدى بك في أفعالك وأقوالك. لأنّ المستفاد من لفظ الإمام أمران:

أحدهما: أنّه المقتدى به في أقواله وأفعاله.

والثاني: أنّه الذي يقوم بتدبير الأمّة وسياستها والقيام بأمورها وتأديب جُناتها وتولية ولاتها وإقامة الحدود على مستحقيها ومحاربة من يكيدها ويعاديها.

فعلى الوجه الأول لا يكون نبي من الأنبياء إلاّ وهو إمام.

= قال في ص٥ منه: وفي السيرة الحلبية ج٢ ص٢٨، قال(ﷺ) لعليّ بن أبي طالب(عليه السلام): «نم على فراشي واتّشح بردائي هذا الحضرمي» وقد كان يشهد فيه العيدين وكان طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعين وشبراً... ثم نقل الحلبي عن سيرة الدماميني أنّه(ﷺ) قال: وارتد بردائي هذا الأحمر. والحضرمي منسوب إلى حضرموت... وقال رسول الله(ﷺ) لعليّ(عليه السلام): «ثم إني أخبرك أن الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه. فاشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل وقد امتحنك يا بن عم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن خليله إبراهيم والذبيح إسماعيل فصبراً صبراً فإن رحمة الله قريب من المحسنين»... انتهى.

وأنت لدى التأمّل في هذا البيان النبوي تعرف ما فيه من التشبيه والخصائص، ومنزلة محبّة إبراهيم لإسماعيل، وتضحية عليّ(عليه السلام) وصبره نحو تضحية إسماعيل وصبره. وهذا من أوضح البيان على تشبيه الحادثتين بكل جهاتها وأطوارها وخطير أمرها، وما فيها من التفاني في الله ولله من كل من النبيّ(ﷺ) وعليّ(عليه السلام) بما يقصر البيان عن تحديده وتوصيفه. فتدبّر ذلك جيداً ولا تفوتنّك خصائص الأمر ومزاياه.

وعلى الوجه الثاني لا يجب في كل نبي أن يكون إماماً، إذ يجوز أن لا يكون مأموراً بتأديب الجناة ومحاربة العداة والدفاع عن حوزة الدين. فلمّا ابتلاه الله بالكلمات فأتمّهن جعله إماماً للأنام جزاءً على ذلك.

والدليل على ذلك: أن قوله: ﴿جَاعِلُكَ﴾ قد عمل في قوله: ﴿إِمَامًا﴾ واسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عمل الفعل، ولو قلت: أنا ضارب زيداً أمس لم يجز، فوجب أن يكون المراد أنّه قد جعله إماماً في الحال أو في الاستقبال والنبوّة كانت حاصلة قبل ذلك.

قلت: وأما قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فهو طلب من إبراهيم(عليه السلام) ودعاء في أن يجعل من ذريّته أئمّة يهدون بأمره وبه يعملون. وقد أجاب الله تعالى شأنه خليله إلى ما طلبه وأنه سوف يفعل ذلك كما هو ظاهر قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال في مجمع البيان:

واستدل أصحابنا بهذه الآية المباركة على أنّ الإمام لا يكون إلاّ معصوماً من القبائح. لأنّ الله سبحانه نفى أن ينال عهده الذي هو في الإمامة ظالم أو أن ينال ظالماً. ومن ليس بمعصوم فقد يكون ظالماً لنفسه أو لغيره.

قلت: الحكم بعدم نيل العهد ظالماً ووجوب كونه معصوماً، وإن كان معلّقاً على موضوعه واقعاً لا خصوص المعلومة عصمته، لكن حيث لا سبيل للبشر إلى تشخيص ذلك غالباً، كان لا محالة الحكم في الظاهر دائراً مدار من أحرزت عصمته فلا يكفي فيه مشكوك الحال.

قال الرازي في(ص٧١٠) من المجلّد الأول من تفسيره:

قوله تعالى: ﴿جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾... يدل على أنّه(عليه السلام) كان معصوماً من

جميع الذنوب. لأنّ الإمام الذي يؤتم به ويقتدى لو صدرت المعصية منه، لوجب علينا الاقتداء به في ذلك، فيلزم أن يجب علينا فعل المعصية، وذلك محال لأن كونه معصية عبارة عن كونه ممنوعاً من فعله، وكونه واجباً عبارة عن كونه ممنوعاً عن تركه، والجمع بينهما محال.

وقال السيد الأجلّ(تتش) في(ص١٤٩) من الجزء الأول من حقّ اليقين، كما قد ذكر العلاّمة أعلى الله مقامه نسبة هذه الرواية إلى الجمهور.

قال الأول: روى الفقيه ابن المغازلي الشافعي مسنداً عن عبد الله بن مسعود...

وقال الثاني: روى الجمهور...

قال: قال رسول الله(ﷺ): **«انتهت الدعوة إليّ وإلى عليّ بن أبي طالب، لم يسجد أحدنا لصنم قط، فاتخذني نبيّاً واتخذ عليّاً وصيّاً»**.

قلت: ومقتضى هذا الحديث بضميمة الآية الشريفة أن الوصاية التي هي بمعنى الإمامة التي انتهت إلى عليّ، إنّما هي الإمامة التي فوق النبوّة لا الإمامة التي لا تنفك عن كل نبيّ. لأنّ الإمامة بذلك المعنى هي مورد الدعوة والطلب لإبراهيم(عليه السلام)، وهي التي فرض رسول الله(ﷺ) انتهائها إليه(ﷺ) وإلى عليّ(عليه السلام). ولا ينافي ذلك علوّ مرتبتها على النبوّة، فإنّها إنّما تكون أعلى مرتبة من النبوّة المنفكّة عنها لا المقرونة بها.

وحيث أنّها منتقلة إلى أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام) بنحو الخلافة والنيابة عن الرسول المطهر(ﷺ)، كان لا محالة في أنّ عليّاً(عليه السلام) دون رسول الله(ﷺ) مرتبة، كما هو الشأن في الأصل والفرع.

ولا ينافي ذلك ما ربّما يقوله الإمامية من تفضيل عليّ(عليه السلام) على كافّة الأنبياء(عليهم السلام) حتى مثل إبراهيم(عليه السلام)، الذي كانت إمامته بالمعنى المذكور، فإن التفضيل بهذا الاعتبار لأدلّة أخرى من آية أو رواية فلا تغفل.

كما أن مقتضى ما سلّمه الرازي من دلالة الآية الكريمة على وجوب عصمة الإمام، هو اختصاص أمير المؤمنين عليّ وأبناءه الطاهرين عليهم السلام المدّعى ثبوت العصمة لهم دون غيرهم كائناً من كان، لانعقاد الإجماع على انتفاء العصمة عن غيرهم.

فتدبّر ذلك جيداً.

والحمد لله ربّ العالمين

المحاضرة العاشرة

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم قرآنه وحكيم فرقانه:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

أقول: قد ذكر الله تعالى شأنه الحكمة في قرآنه وعظيم فرقانه في ١٩ مورداً. وكون عظمة الحكمة وخطير شأنها مقتضياً لتكرار ذكرها وتوكيد نبأها لا سيما في القرآن الكريم، مما لا يخفى على ذي مسكة وروية، أنها مجمع الخيرات وخير الصفات.

قال في مجمع البيان[2]:

والحكمة العلم الذي يرفع الإنسان عن القبيح. مستعار من الحكمة اللّجام وهي ما أحاط بحنك الدابّة يمنعها من الخروج... إلى أن قال:

وسمّيت حكمة لأنّها مانعة من الجهل. قيل: ومنه الآية: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

---

(١) هذه هي الآية ٢٦٩ من السورة الثانية أي سورة البقرة.

(٢) ذكر ذلك في ص٤٦٨ من المجمع.

قلت: وفي الكافي عن الصادق(عليه السلام) كما في تحفة العالم(ص٨٦):

«إنّما طاعة الله ومعرفة الإمام».

قال صاحب التحفة(رحمه الله): وهذا القول منه(عليه السلام) إشارة إلى أن الحكمة النظرية والعلمية هما خروج النفس من القوة والاستعداد إلى حقيقة العلم. لأنّ معرفة الإمام إشارة إجمالية إلى معرفته على ما ينبغي، ومعرفة الرسول(صلى الله عليه وآله) وما جاء به ومعرفة الله وما يليق به. وهذه المعارف عبارة عن الحكمة النظرية.

وطاعة الله إشارة إلى تخلية الظاهر والباطن عن الرذائل وتحليتها بالفضائل، وهذه هي الحكمة العملية.

ويرجع إلى هذا تفسير قول القاضي أنّها هي تحقيق العلم والعمل، وصاحب الكشاف هي العلم والعمل به. والحكيم عند الله هو العالم العامل...

إلى أن قال بعد نقل أقوال أخر في معنى الحكمة:

والمعنى العام لكل ذلك هو أنّ الحكمة عبارة عن تحقيق العلم وإتقان العمل.

وقال العلاّمة الطبرسي[1](أعلى الله مقامه) عند شرح معنى الآية المباركة، وذكر في معنى الآية وجوه:

١ – أنه علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدّمه ومؤخّره وحلاله وحرامه وأمثاله. عن بن عباس وابن مسعود.

٢ – وقيل هو الإصابة في القول والفعل. عن مجاهد.

٣ – وقيل هو علم الدين. عن بن زيد.

---

(١) ذكر ذلك في ص٣٨٢ من المجلد الأول من مجمع البيان.

٤ – وقيل هو النبوة. عن السدي.

٥ – وقيل هي المعرفة بالله تعالى. عن عطاء.

٦ – وقيل هو الفهم. عن إبراهيم.

٧ – وقيل هو خشية الله. عن الربيع.

٨ – وقيل هو القرآن والفقه. عن أبي عبد الله(عليه السلام). وروي أيضاً عن مجاهد.

٩ – وقيل هو العلم الذي تعظم منفعته وتجلّ فائدته. وهذا جامع الأقوال.

١٠ – وقيل هو ما أتاه الله أنبيائه وأممهم من كتابه وآياته ودلالته التي يدلّهم بها على معرفتهم به وبدينه، وذلك تفضّل منه يؤتيه من يشاء. عن أبي علي الجبائي...

إلى أن قال: ويروى عن النبي(صلى الله عليه وآله) أنّه قال:

«إنّ الله أتاني القرآن وأتاني الحكمة مثل القرآن وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلاّ كان خراباً ألا فتفقّهوا وتعلّموا فلا تموتوا جهّالاً».

قلت: وبأيّ معانيها السامية أخذت فرسول الله(صلى الله عليه وآله) مصدرها وأمير المؤمنين عليّ(عليه السلام) موردها، كما صحّ عن الفريقين من قوله(صلى الله عليه وآله): **«أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها، المفضي إلى كل ما فيها»**.

ولا ريب لأحد في أنّ هذه الخصوصية أعني خصوصية الإحاطة بما عند الرسول(صلى الله عليه وآله) من الحكمة بكل معانيها، إنّما هي لعليّ(عليه السلام) وحده لا يشاركه فيها غيره، لعدم ورود مثل هذا التشبيه البليغ في حق غيره. نعم يشاركه في ذلك أبنائه(عليهم السلام)، الذين هم أبواب لمدينة علمه(عليه السلام) كما هو(عليه السلام) باب لمدينة علم النبي(صلى الله عليه وآله)، كما يشهد لذلك حديث الثقلين المسلّم بين الفريقين. حيث

جعلهم(عليهم السلام) عدلاً للكتاب المبين، وأخبر الصادق(عليه السلام) بأنّهم لن يفترقوا عن القرآن المبين طرفة عين حتى يردوا عليه الحوض الدين.

هذا بعض ما يتعلق ببيان معنى الحكمة ومن أوتيها.

وأما الخير الكثير المعنى بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

فقد قال بعض الأعلام: التنكير في الموصوف والصفة للتكثير والتعظيم جميعاً، والوصف بالكثرة للمبالغة والتأكيد. وكثرته باعتبار اشتماله على خير الدنيا والآخرة. وفيه دلالة على كمال العلم وعلوّ منزلته وعموم فوائده، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، لأنّ قلّته بالنسبة إلى علم الواجب لا ينافي كثرته بالنظر إلى ذاته ومدّة بقاء السعادة اللازمة له.

وقال بعضهم: ثم تأمّل أيها المسكين فإنّه تعالى ما أعطى إلاّ القليل من العلم، قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وسمّى الدنيا بأسرها قليلاً، فقال: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾. وانظر مقدارها هذا القليل حتى تعرف عظمة ذلك الكثير.

والبرهان العقلي أيضاً يطابقه لأن الدنيا متناهية المقدار، متناهية العدد، متناهية المدّة، والعلوم لا نهاية لمراتبها وعددها ومدّة بقاءها والسعادة الحاصلة[1] بسببها وذلك ينبؤك على فضيلة العلم.

قلت: وحيث أنك قد عرفت أن علياً(عليه السلام) هو مورد الحكمة ومجمع شاردها وواردها، فينبغي أن تعرف أن علياً(عليه السلام) ممّن قد أوتي ذلك الخير الكثير الذي لا يحصيه علماً إلاّ من أحصى كل شيء عدداً وأحاط بكل شيء خبراً.

---

(١) لم تكن هذه اللفظة في نسختنا الأصلية.

فعليّ(عليه السلام) هو المخصوص بكل فضل وفضيلة، بحيث لا يساويه في فضله وفضيلته السابقون ولا يطمع في إدراكه اللاحقون. كما اعترف بذلك إمام المعتزلة[1] ناسباً له إلى أصحابه عامة، حيث حكى عنهم القول بأنه(عليه السلام) أفضل الخلق في الدنيا وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب، وأنّ كل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فإنّه عدوّ لله سبحانه وخالد في النار مع الكفّار والمنافقين إلاّ أن يكون قد ثبتت توبته ومات على تولّيه وحبّه...

ثم قال متصلاً بما نقلناه عنه:

فأمّا الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله، فلو أنَّه أنكر إمامتهم، وغضب عليهم، وسخط فعلهم، فضلاً عن أن يشهر عليهم السيف، أو يدعو إلى نفسه، لقلنا أنَّهم من الهالكين كما لو غضب عليهم رسول الله(صلى الله عليه وآله). لأنَّه قد ثبت أنَّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**حربك حربي وسلمك سلمي**» وأنَّه قال(صلى الله عليه وآله): «**اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه**». وقال(صلى الله عليه وآله): «**لا يحبُّك إلاّ مؤمن ولا يبغضُك إلاّ منافق**». ولكنَّا رأيناه رضي إمامتهم وبايعهم وصلَّى خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم، فلم يكن لنا أن نتعدَّ فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه. ألا ترى أنَّه لَّما تبرّأ من معاوية برئنا منه، ولَّما لعنه لعنّاه، ولَّما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وابنه وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم.

والحاصل أنّا لم نجعل بينه وبين النبي(صلى الله عليه وآله) إلاّ رتبة النبوّة وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه... إلى أن قال:

والقوم بالتفضيل قوم قديم قال به أكثر الصحابة والتابعين. فمن الصحابة

---

(١) هو عبد الحميد بن ابي الحديد المعتزلي المدائني شارح نهج البلاغة (د.المدني)

عمّار والمقداد وأبو ذر وسلمان وجابر بن عبد الله وأبيّ بن كعب وحذيفة وأبو أيوب ثابت وأبو الطفيل عامر بن وائلة والعباس بن عبد المطلب وبنوه وبنو هاشم كافة وبنو المطلب كافة، وكان الزبير من القائلين به في بدء الأمر ثم رجع. وكان من بني أميّة قوم يقولون بذلك. منهم خالد بن سعيد بن العاص، ومنهم عمر بن عبد العزيز(١).

---

(١) قال العلاّمة البحاثة القمّي (طاب مرقده) في ص ٢٧١ من المجلد الثاني من سفينة البحار عند التعرّض له: أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة. كانت أمّه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. توفي بدير سمعان من أرض حمص سنة ١٠١ ... قال:

قال الدميري: هو أول من اتخذ دار الضيافة من الخلفاء وأول من فرض لأبناء السبيل، وأزال ما كانت بنو أميّة تذكر به عليّاً (عليه السلام) على المنابر وجعل مكان ذلك قوله تعالى: إن الله يأمر بالعدل والإحسان... الآية... إلى أن قال: ورثاه السيد الرضي (رض) بقوله:

يابن عبد العزيز لو بكت العين ... فتًى من أميّة لبكيتك
أنت نزّهتنا عن السّب والشتم ... فلو امكن الجزاء جزيتك
دير سمعان لأغبّك غاد ... خير ميت من آل مروان ميتك

وذكر العلاّمة المتقدّم تلو ما ذكر قال:

أن عمر بن عبد العزيز ردّ فدك على وُلد فاطمة (عليها السلام). فاجتمع عنده قريش ومشايخ أهل الشام... وقالوا له: نقمت على الرجلين فغلبهما وطعنت عليهما ونسبتهما إلى الظلم والغضب. فقال: صحّ عندي وعندكم أن فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ادّعت فدك وكانت في يدها وما كانت لتكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع شهادة عليّ (عليه السلام) وأم أيمن وأم سلمة.

وفاطمة (عليها السلام) عندي صادقة صادقة فيما تدّعي وإن لم تقم البيّنة وهي سيدة نساء الجنّة. فأنا اليوم أردّ على ورثتها أتقرّب بذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله). وأرجو أن تكون فاطمة (عليها السلام) والحسن والحسين (عليهما السلام) يشفعون لي يوم القيامة.

ولو كنت بدل أبي بكر وادّعت فاطمة كنت أصدّقها على دعوتها. فسلّمها إلى الباقر (عليه السلام).

وهناك بعض المطالب المهمة في الموضوع. فلتراجع.

قلت: ولمّا انتهى العلاّمة المعتزلي إلى هذا القول، قال:

وأنا أذكر هنا الخبر المروي المشهور عن عمر وهو من رواية الكلبي، قال:

بينما عمر بن عبد العزيز جالساً في مجلسه دخل حاجبه ومعه امرأة أدماء طويلة حسنة الجسم والقامة، ورجلان متعلّقان بها ومعهم كتاب من ميمون بن مهران إلى عمر، فدفعوا إليه الكتاب ففضّه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ميمون بن مهران.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، وهذه المرأة والرجلان أحدهما زوجها والآخر أبوها. وإنّ أباها يا أمير المؤمنين زعم أنّ زوجها حلف بطلاقها أنّ علي بن أبي طالب خير هذه الأمة وأولاها برسول الله(ﷺ)، وأنه يزعم أن ابنته طلّقت منه، وأنه لا يجوز له في دينه أن يتّخذه صهراً، وهو يعلم أنها حرام عليه كأمّه، وإن الزوج يقول له: كذبت وأثمت لقد برَّ قسمي وصدقت مقالتي وإنها امرأتي على رغم أنفك وغيظ قلبك.

فاجتمعوا إليَّ. فسألت الرجل عن يمينه. فقال: نعم قد كان ذلك، وقد حلفت بطلاقها أن علياً خير هذه الأمّة وأولاها برسول الله(ﷺ)، عرفه من عرفه، وأنكره من أنكره، فليغْضب من غَضِب، وليرْضَ من رَضِي... وتَسامع الناس بذلك، فاجتمعوا له، وإن كانت الالسن مجتمعة فالقلوب شتّى. وقد علمت يا أمير المؤمنين اختلاف الناس في أهوائهم وتسرّعهم إلى ما فيه الفتنة فأحجَمْنا عن

الحكم لتحكم بما أراك الله.

وإنّهما تعلّقا بها، وأقسم أبوها ألا يدعها معه، وأقسم زوجها ألا يفارقها، ولو ضُربت عنقه، إلاّ أن يحكم عليه بذلك حاكم لا يستطيع مخالفته والامتناع منه. فرفعناهم إليك أحسن الله يا أمير المؤمنين توفيقك وأرشدك...

قال: فجمع عمر بن عبد العزيز بني أميّة وبني هاشم وأفخاذ قريش. ثم قال لأبي المرأة: ما تقول أيّها الشيخ؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا الرجل زوّجته ابنتي، وجهّزتها إليه بأحسن تجهيز، حتى إذا أمّلت خيره ورجوت صلاحه حلف بطلاقها كاذباً ثم أراد الإقامة معها. فقال له عمر: يا شيخ، لعلّه لم يطلّق امرأته، فكيف حلف؟ قال الشيخ: سبحان الله الذي حَلف عليه لأبين من الشمس وأوضح كذباً من أن يختلج في صدري منه شك، مع سني وعلمي لأنّه يزعم أن عليّاً خير هذه الأمّة وإلاّ فالمرأة طالق ثلاثاً. فقال للزوج: ما تقول أهكذا حلفت؟ قال: نعم... فقيل: إنّه لمّا قال نعم، كاد المجلس يرتجّ بأهله، وبنو أميّة ينظرون إليه شزراً، إلاّ أنّهم لم ينطقوا بشيء، كلٌّ ينظر إلى وجه عمر. فأكبَّ عمر مليّاً ينكث الأرض بيده والقوم صامتون ينتظرون ما يقول. ثمّ رفع رأسه وقال: ما تقولون في يمين هذا الرجل؟ فسكتوا. فقال: سبحان الله! قولوا. فقال رجل من بني أميّة: هذا حكم في فرج ولسنا نجترئ على القول، وأنت عالم بالقول، مؤتمن لهم وعليهم. فقال له عمر: قل ما عندك فإنّ القول ما لم يكن يحقّ باطلاً أو يبطل حقاً جائز عليّ في مجلسي. فالتفت إلى رجل من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب، فقال له: ما تقول فيما حلف به هذا الرجل يا عقيلي؟ فاغتنمها، قال: يا أمير المؤمنين إن جعلت قولي حكماً أو حكمي جائزاً قلت، وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لي وأبقى للمودّة. قال: قل وقولك حكم وحكمك ماض. فلـمّا سمع بنو

أميّة قالوا: ما أنصفتنا يا أمير المؤمنين إذ جعلت الحكم إلى غيرنا، ونحن من لحمتك وأولوا رحمك. فقال عمر: اسكتوا عجزاً ولؤماً، عرضتُ ذلك عليكم آنفاً فما اهتديتم إليه. قالوا: لأنّك لم تعطنا ما أعطيت العقيلي، ولا حكّمتنا كما حكّمته. فقال عمر: إن كان أصاب وأخطأتم، وحزم وعجزتم، فما ذنب عمر لا أباً لكم. أتدرون ما مثلكم؟ قالوا: لا ندري. قال: لكن العقيلي يدري. ثم قال: ما تقول يا رجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين مثلهم كما قال الأول:

دُعيتم إلى أمرٍ فلما عَجَزْتُم   تَناوَله من لا يُداخِلهُ العَجْزُ
فلمّا رأيتم ذاكَ أبدتْ نفُوسُكُمْ   نداماً وهل يُغنى من الحذر الحرزُ

قال له عمر: أحسنت وأصبت.

قال: يا أمير المؤمنين برَّ قسمه ولم تطلّق زوجته. قال: وأنّى علمت ذلك؟ قال: نشدتك الله يا أمير المؤمنين، ألَم تعلم أنّ رسول الله(ﷺ) قال لفاطمة(عليها السلام) وهو عندها في بيتها عائداً لها: يا بنيّة ما علّتك؟ قالت: يا أبتاه الوعك. وكان عليّ(عليه السلام) غائباً في بعض حوائج النبي(ﷺ). فقال(ﷺ) لها: أتشتهين شيئاً؟ قالت: نعم أشتهي عنباً وليس وقت عنب. فقال(ﷺ): إن الله قادر على أن يجيئنا به. ثم قال: اللهمّ ائتنا به مع أفضل أُمّتي عندك منزلةً. فطرق عليّ الباب، ودخل ومعه مكتل قد ألقى عليه طرف ردائه. فقال(ﷺ): ما هذا يا عليّ؟ قال(عليه السلام): عنب التمسته لفاطمة(عليها السلام). فقال(ﷺ): الله أكبر الله أكبر، اللهمّ كما سررتني بأن خصصت عليّاً بدعوتي فاجعل فيه شفاء بنيّتي. ثم قال(ﷺ): كلي على اسم الله يا بنيّة. فأكلت، وما خرج رسول الله(ﷺ) حتى استقلت وبرأت. فقال عمر: صدقت وبررت، أشهدُ لقد سمعته ووعيته. يا رجل، خذ بيد امرأتك فإن عرض بك أبوها فاهشم أنفه.

ثم قال: يا بني عبد مناف والله ما نجهل ما يعلم غيرنا، ولا بنا عمىً في ديننا، ولكنّا كما قال الأوّل:

تَصيّدت الدنيا رجالاً بفخّها   فلم يدرِكوا خيراً بل استقبحوا الشرّا

وأعماهم حبّ الغنى وأصمّهم   فلم يدركوا إلاّ الخسارة والوزرا

قيل: فكأنّما ألقم بني أميّة حجراً.

ومضى الرجل بامرأته. وكتب عمر إلى ميمون بن مهران:

عليك سلام..

إنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو..

أمّا بعد:

فإني قد فهمت كتابك، وورد الرجلان والمرأة، وقد صدق الله يمين الزوج، وأبرّ قسمه، وأثبته على نكاحه، فاستيقن ذلك واعمل عليه، ورحمة الله وبركاته. انتهى.

قلت: وليس مورداً للشك في أن عليّاً(صلوات الله وسلامه عليه) خير البريّة[1] في الدنيا بعد الرسول الكريم(ﷺ)، لما عرفت من أنّه أكثر الخلق

---

(١) وليس كونه(عليه السلام) خير البريّة بمستنكر فإن الله سبحانه قد شهد له بذلك. بل ليست الشهادة له بذلك فحسب، بل له(عليه السلام) ولمحبيه التابعين له المقتدين به المعتقدين بإمامته المجعولة له من الله سبحانه.

هذا السيوطي [تقدّمت ترجمته في الجزء الأول من المحاضرات] وهو العالم الكبير يحدّثنا في كتابه الدرّ المنثور [الكتاب المذكور مطبوع] في تفسير كتاب الله بالمأثور عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

قال: أخرج ابن عساكر عن جابر ابن عبد الله قال: كنا عند النبي(ﷺ) فأقبل عليّ(عليه السلام)، =

خصائص ومزايا ومناقب فهو أفضل، لأنّه أجمع لخلال الكمال وجميل الخصال. وهو(عليه السلام) خير البريّة في الآخرة وأعلاهم منزلة في الجنّة، لأنّه أكثرهم معرفة وأوفرهم طاعة وأشدّهم مرابطة وأعظمهم مراقبة.

وكيف كان:

فالآية المباركة تعظّم شأن الحكمة وشأن من يعطاها بما يقصر البيان عن تحديد الحال.

ثم عقّب تعالى شأنه ما ذكره في شأن الحكمة ومن يؤتها بقوله عزّ من قائل:

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قال المفسّر: أي وما يتعظ بآيات الله إلاّ ذو العقول.

ثم قال:

فإن قيل: لم عقد بأولي الألباب التذكّر وكل مكلّف ذو لبّ؟

قيل: لم تطلق على جميع المكلّفين هذه الصّفة لما فيها من المدحة، فلذلك عقد التذكّر بهم، وهم الذين يستعملون ما توحيه عقولهم من طاعة الله في كل ما أمر به ودعا إليه.

وسمّى العقل لبّاً، لأنّه أنفس ما في الإنسان كما أنّ لبّ الثمرة أنفس ما فيها.

والحمد لله رب العالمين

= فقال النبي (صلى الله عليه وآله): «والذين نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة». ونزلت:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

والروايات متكرّرة بهذا المضمون من الطرق المعتمدة لدى أهل السنّة.

راجع ص١١٠ من أصل الشيعة وأصولها تجد ذلك موفوراً.

المحاضرة الحادية عشرة

آية الأذن الواعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في كلامه المجيد وشريف فرقانه الحميد:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1].

أقول: غير خفي على كل ناظر أن الآية المباركة تشير إلى قصّة نوح(عليه السلام)، التي هي من أعظم القصص، وإلى الآية التي جرت على يده التي هي من أعظم الآيات، والتي لا يقوى على مثلها الخلق مجتمعاً متعاوناً ولو كان من الكثرة والقوة بنحو لا يتناهى عدّة وشدّة.

قال العلاّمة الطريحي(أعلى الله مقامه) في(ص١٨٢) من كتابه المجمع:

نوح هو النبيّ المشهور ابن لامك ابن متوشلخ ابن أخنوخ وهو إدريس النبي(عليه السلام)... إلى أن قال: **قيل:** وهو أول نبي بعد إدريس وكان نجاراً. ولد في العام الذي مات فيه آدم(عليه السلام) قبل موت آدم(عليه السلام). في الألف الأولى وبعث في الألف الثانية.

وقال(رحمه الله) في مادة آدم:

---

(١) الآية هي الآية ١١ من سورة الحاقة ومحلّها ص٣٤٤ ج٥ من المجمع، وص٢٨٢ ج٨ من تفسير الرازي.

مدّة عمره – يعني آدم(عليه السلام) – منذ خلق إلى يوم توفي ٩٣٠ سنة ودفن بمكة[1]. ولم يمت حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً.

وكان مبعث نوح(عليه السلام) في سنة ٤٠٠ من عمره. وقيل: بعث وهو ابن خمسين سنة.

وفي الحديث عن الصادق(عليه السلام) أنه عاش ألفين وخمسمائة سنة منها ثمانمائة وخمسون قبل أن يبعث، ومنها ألف إلاّ خمسين عاماً في قومه يدعوهم، ومنها سبعمائة بعد نزوله من السفينة ومصّر الأمصار وأسكن ولده في البلدان.

ثم إن ملك الموت جاءه وهو في الشمس. فقال: السلام عليك. فردّ(عليه السلام) وقال: ما جاء بك يا ملك الموت؟ قال: جئت لأقبض روحك. فقال له: تدعني أتحول من الشمس إلى الظل؟ فقال: نعم. فتحوّل نوح. فقال: يا ملك الموت كأن ما مرّ بي من الدنيا مثل تحوّلي من الشمس إلى الظل فامض لما أمرت به.

وفيه: كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء أنبياء وأوصياء كلهم، وإنّما أخفى ذكرهم في القرآن ولم يسمّوا كما سمّى من استعلن من الأنبياء، لأنّ قابيل أتى إلى هبة الله بعد موت آدم فقال له: إن أبي خصّك من العلم بما لم أخص أنا وهو العلم الذي دعا به أخوك هابيل فتقبّل منه قربانه، وإنّما تقتله لكيلا يكون له عقب يفتخر على عقبي، وإنك إن أظهرت من العلم الذي خصّك به أبوك شيئاً قتلتك كما قتلت أخاك هابيل.

فلبث هبة الله والعقب منه مستخفين بما عندهم من العلم والإيمان حتى بعث

---

(١) ان هذا مخالف للمأثور في زيارة الامام علي(عليه السلام) المسماة (زيارة الدورة) من القول "السلام عليك وعلى ضجيعيك آدم ونوح" بمعنى ان آدم مدفون في ارض الغري. (د. المدني)

الله نوحاً(عليه السلام).

قلت: والذي يظهر من بعض أخبارنا أن الاسم الاصلي لأبي البشر الثاني، ليس هو نوح وإنّما هو لقب له(عليه السلام). والاسم الأصلي مختلف فيه.

فقيل: إنّه عبد الغفّار. وقيل: إنّه عبد الملك. وقيل: إنّه عبد الأعلى. وإنّما سمّي نوحاً لأنه بكى خمسمائة عام أو لأنّه كان ينوح على نفسه أو قومه.

وقد ذكر السيد العلاّمة الجزائري(رحمه الله) في(ص٨٥) من قصصه:

أنّه جاء إبليس(لعنه الله) إلى نوح(عليه السلام) فقال: إنّ لك عندي يداً عظيمةً فانتصحني فإني لا أخونك. فتألّم نوح بكلامه ومسائلته. فأوحى الله تعالى إليه: أن كلّمه وسله فإنّي سأنطقه بحجّة عليه. فقال نوح(عليه السلام): تكلّم. فقال إبليس(لعنه الله): إذا وجدنا ابن آدم شحيحاً وحريصاً أو حسوداً أو جبّاراً أو عجولاً تلقّفناه تلقّف الكرة. فإذا اجتمعت لنا هذه الأخلاق سمّيناه شيطاناً. فقال نوح(عليه السلام): ما اليد العظيمة التي وصفت؟

قال: إنّك دعوت على أهل الأرض فألحقتهم في ساعة بالنار فصرت فارغاً، ولولا دعوتك لشغلت بهم دهراً طويلاً.

وملخص قصّة نوح(عليه السلام):

أنّه بعد أن يأس من قومه وأقرّه الله سبحانه على ذلك وأخبره بأنّه لن يؤمن[1]

---

(١) الآية الشريفة هي الآية ٣٦ من سورة هود ونصّها:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

من قومك إلاّ من قد آمن، وأكثر ما قيل في عددهم أنهم ٨٠ وأقل ما قيل في عددهم أنّهم ٧... فأمره الله تعالى بصنع السفينة على هيئة خاصة كما ربّما سنذكرها... فعملها بيده.

قال السيد العلاّمة الجزائري(قدس سره) في قصصه:

وكان نجر السفينة في مسجد الكوفة. فلما أراد الله تعالى إهلاكهم – يعني قوم نوح – كانت امرأة نوح تختبز في الموضع الذي يُعرف بفار التنور في مسجد الكوفة... إلى أن قال: وصاحت امرأته – يعني امرأة نوح(عليه السلام) – لمّا فار التنور، فجاء نوح إلى التنور وفض الخاتم ورفع الطين وانكشفت الشمس، وجاء من السماء ماء منهمر صبّ بلا قطر وتفجّرت الأرض عيوناً.

وكيف ما كان فأمر الله نبيّه(عليه السلام) لمّا حان وقت الطوفان، بصنع السفينة على هيئة خاصة فعملها بيده.

فجعل(عليه السلام) طولها – كما في مجمع البحرين – ألف ذراع و٢٠٠ ذراع وعرضها ٨٠٠ ذراع وطولها في السماء ٢٠٠ ذراع، وجعل بابها في عرضها.

وجعلها – كما في رواية ابن عباس – ثلاث طبقات:

طبقة للناس وطبقة للأنعام والدواب وطبقة للهوام والوحوش.

وجعل أسفلها للوحوش والسباع والهوام، ووسطها للدواب والأنعام.

وركب هو ومن معه في الأعلى، مع ما يحتاجون إليه من الزاد.

ولمّا جاء أمر الله تعالى، كما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ ارتفعت السفينة على الماء واستولى الماء على كل ما سواها.

قال الرازي عند شرح الآية المباركة: طغى الماء على خزّانه فلم يدروا كم

خرج وليس ينزل من السماء قطرة قبل تلك الواقعة وبعدها إلاّ بكيل معلوم.

قلت: وكما نطقت بعض الأحاديث أنّه ما من قطرة تقع في برّ أو بحر إلاّ ومعها ملك يضعها حيث أمر الله سبحانه أن توضع.

جلّ المدبّر وعظم المقدّر. وليس هذا الإحكام والإتقان والتقدير المبني على محكم التدبير، مقصوراً على خصوص خروج الماء بل الريح أيضاً مثله في ذلك. فإنه لم يخرج شيء من الريح إلاّ بكيل وتقدير، على يد ملك موكل في ذلك، وأمّا عاد فإنّه أذن لها دون الخزّان. وإلى ذلك يومي قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

فإنّها عتت على الخزّان.

بل يظهر من بعض الحكايات: أنّه ما من موجة من أمواج البحر ولا صخرة من جبل ولا ورقة من شجرة إلاّ وعليها ملك موكل بها يتصرّف بها حيث يأمر الله سبحانه.

قال صاحب النزهة الشافعي[1]:

رأيت في نرجس القلوب: أن بعض الصدّيقين أصاب ذنباً. فجاء إلى البحار فقال: أيتها البحار البعيدة غوراً الكثيرة أمواجاً، قد أصبت ذنباً، فهل تغيّبيني عن الله ساعة واحدة؟

فأمر الله البحار أن تجيبه: ما منّا موجة إلاّ وعليها ملك[2] موكّل بها.

---

(١) ذكر هذا في ص٤٢ من المجلّد الأول منها.

(٢) لا يخفى أن لفظ: موكّل بها في الموارد الثلاثة هي زيادة منّا فهي من قبيل الاستفادة باللازم فلا تغفل.

فأتى الجبل وقال: أيتّها الجبال الشامخة أصبت ذنباً، فهل تغيبيني عن الله تعالى ساعة واحدة؟ فأمر الله تعالى الجبال فأجابته: ما منّا صخرة إلاّ وعليها ملك موكّل بها.

فأتى الأشجار وناداها كذلك.

فنادته الأشجار: ما منّا ورقة إلاّ وعليها ملك موكّل بها.

فبرز فقال: يا إلهي يا إلهي عذّبني بما شئت وافعل بي ما شئت.

فخرج النداء: يا حبيبي يا حبيبي لأسكنتك جنّتي جزاء لك بخوفك مني.

فانظر أيها الخلق الكريم إلى هذا اللّطف العظيم والعطف الجسيم، وتأمّل في كبير هذا الإحسان وغزير هذا الفضل والامتنان.

ولعظيم حنانه ووافر إحسانه قيل بلسان الحال عن فضله وامتنانه:

ما بال قلبك عن هوانا نازح	هل أنت في دعوى المحبّة مازح
كم ذا تحن لغيرنا ولحبّنا	في كل عضو منك نور لائح
فارفع حجاب البعد عنك وعد لنا	ودع البعاد وخلّنا نتصالح
واسمح بنفسك إن أردت وصالنا	ولئن حظيت بنا فإنّك رابح
وإذا خشيت إساءة قدّمتها	زرنا فإنّا للمسيء نسامح

وكيف كان قد سمعت أن المقصود من قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ هو طغيانه على خزّانه في كيله ومقداره، فلم يدروا مقدار ما خرج منه.

وإن مبدأ مخرج الماء من الأرض كان تنور في مسجد الكوفة، أو من حوالي الكوفة على قول آخر. وقد جعل الله سبحانه فورانه علامة لنوح(عليه السلام) في نزول العذاب وآية من آياته، كما أشار تعالى شأنه إلى ذلك بقوله عزّوجل:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ .. ﴾ الآية[١].

وقد قيل: إن التنور كان أصله لآدم(عليه السلام).

ومن هنا يعلم، مضافاً إلى ورود الرواية أيضاً بذلك على ما ذكره مجمع البيان[٢] في تفسير سورة هود: إنّ مسجد الكوفة من أقدم المساجد عدا مسجد البيت الحرام، حيث ذكر هناك أنّه قديم وأنّه مصلّى الأنبياء(عليهم السلام). ولقد صلّى فيه رسول الله(صلى الله عليه وآله) حين أسري به إلى السماء. قال له جبرائيل(عليه السلام): **يا محمّد هذا مسجد أبيك آدم ومصلّى الأنبياء فانزل فصلّ فيه.**

وعن أبي جعفر(عليه السلام) كما في المجمع أيضاً في هذا المقام:

إنّ مسجد كوفان وسطه روضة من رياض الجنّة. الصلاة فيه بسبعين صلاة. صلّى فيه ألف نبيّ وسبعون نبيّاً. فيه فار التنور وجرت السفينة وهو سرّة بابل ومجمع الأنبياء.

والحاصل بعد أن طهّر الله تعالى الأرض بالماء الذي استولى على كلّ مرتفع وأفنى كل موجود فيها، عدا من كان محمولاً في السفينة مع نوح(عليه السلام)، أوحى الله تعالى إلى الأرض أن ابلعي ماءك، وإلى السماء أن اقلعي واقطعي مائك وقطركِ. وأطاعت الأرض وامتثلت السماء، وغيض الماء ونزف وجفّ واستقرّت السفينة على الجودي، وهو جبل قرب الموصل كرّمه الله سبحانه بأن جعله محلاً لمرسى سفينة نوح(عليه السلام)، وأنزل الله سبحانه على نوح قوله تعالى شأنه:

---

(١) هذه آية ٤٠ من سورة هود وموقعها ص١٦٠ من المجلد ٣ من المجمع وهذه التفاصيل توجد هناك.

(٢) ذكر ذلك في ص١٦٣ من المجلد الثالث من مجمع البيان.

﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فنزل نوح من السفينة بالموصل مع الثمانين، وبنوا مدينة الثمانين هناك. وكانت لنوح(عليه السلام) بنت ركبت معه في السفينة فكان التناسل منها. وإلى هذا يؤمي قول الرسول(صلى الله عليه وآله): «**نوح أحد الأبوين**»(١).

فأمّا قوله تعالى شأنه: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

فقد قال الرازي(٢):

الضمير في قوله: لنجعلها إلى ماذا يرجع؟ فيه وجهان:

الأوّل: قال الزّجاج: أنّه عائد إلى الواقعة التي هي معلومة وإن كانت هنا غير مذكورة، والتقدير: لنجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة عظة وعبرة.

قال الرازي: وهو الأصوب. والرجوع إلى السفينة ضعيف.

---

(١) قال السيد العلاّمة الجزائري(طاب ثراه) في قصصه، يذكر ذلك عن كتابه إكمال الدين بإسناده إلى أبي عبد الله(عليه السلام) قال: عاش نوح بعد النزول من السفينة خمسين سنة ثم أتاه جبرائيل(عليه السلام) فقال: يا نوح إنه قد انقضت نبوّتك واستكملت أيامك فانظر الاسم الأكبر وميراث العلم فادفعها إلى ابنك سام، فإنّي لا أترك الأرض إلاّ وفيها عالم تعرف به طاعتي ويكون نجاة فيما بين قبض النبيّ وبعث النبيّ الآخر.
فدفع(عليه السلام) آثار علم النبوّة إلى ابنه سام.
فأمّا حام أو يافث فلم يكن عندهما علم ينتفع به.
وبشّرهم نوح بهود وظهرت الجبرية في ولد حام.
واستخفى ولد سام بما عندهم من العلم.
وجرت على سام بعد نوح الدولة لحام ويافث.

(٢) ذكر ذلك في ص٢٨٢ من المجلد الثامن من تفسيره.

وقال الرازي في قوله تعالى شأنه: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، مسألتان:

الأولى: يقال لكل ما حفظته في نفسك وعيته ووعيت العلم ووعيت ما قلت.

ويقال لكل ما حفظته في غير نفسك أوعيته. يقال: أوعيت المتاع في الوعاء... إلى أن قال: وعن النبي(ﷺ) عند نزول الآية: سألت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ. قال عليّ(عليه السلام): فما نسيت شيئاً بعد ذلك وما كان لي أن أنسى.

وغير خفي: إن ظاهر كلمات الرازي هذه أنّ هذه الرواية من المسلّمات، لأنّه أرسلها ذلك الإرسال.

ومثل ذلك ما يظهر من مجمع البيان حيث أنّه قال:

روى الطبراي بإسناده عن مكحول أنّه: لّما نزلت[1] هذه الآية قال النبي(ﷺ): «**اللهمّ اجعلها أذن عليّ**». ثم قال علي(عليه السلام): «**فما سمعت شيئاً من رسول الله فنسيته**».

قال: وروى بإسناده عن عكرمة عن بريدة الأسلمي: أن رسول الله(ﷺ) قال لعليّ(عليه السلام): «إن الله تعالى أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلّمك وتعي وحق على الله أن تعي...» فنزل: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

ثم ذكر صاحب المجمع طريقاً آخر معنعناً بمضمون ما ذكره الرازي من الرواية التي نقلناها عنه.

وقال العلاّمة الأميني(رحمه الله) في(ص٣٤٥) من المجلّد ٣ من كتاب الغدير عند شرح قول الزاهي في جملة أبيات له عند تعداد فضائل أمير المؤمنين(عليه السلام):

والأذن الواعية الصمّاء عن ... كل خنا يلفظ فيه من غلط

---

(١) ذكر ذلك ي ص٣٤٨ من المجلد ٥.

قولـه: الأذن الواعيـة: إشـارة إلى مـا أخرجـه الحـافظ أبـو نعـيم في حليـة الأولياء(ح١ ص٦٤) عن رسول الله(ﷺ) أنّه قال: «يا عليّ إن الله عزّوجل أمـرني أن أدنيك وأعلّمك لتعي... وأنزلت هذه الآيـة: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، فكانـت أذن عليّ واعية لعلمي».

وأخرجه جمع من الحفّاظ.

وقال القاضي عضد الأيجـي في المواقيـت(ح٣ ص٢٧٦): أكثـر المفسّرين في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أنه عليّ(عليه السلام).

قلت: من نظر في أحوال أمير المؤمنين(عليه السلام) عرف أنّه منبع كل كمال، ومحتوى كل فضيلة بنحو كان بالغاً أقصى غاياتها ومنتهى درجاتها التي تنحط عنها درجات أهل الدرجات عدا سيّد النبيّين وخاتم المرسلين(ﷺ). فانظر في قوة حدسـه(عليه السلام) البالغ أعلى المراتب.

قال شارح النهج المعتزلي(١):

عن أبي الأسود الدُؤلي: لمّا ظهر عليّ يوم الجمل دخل بيـت المـال بالبـصرة في أناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم. نظر(عليه السلام) إلى المـال وصـعّد فيـه بـصره وصوّب وقال: «**اقسموه بين أصحابي خمسمائة**». فقسّم بيـنهم. فـلا والـذي بعـث محمّداً(ﷺ) بالحق ما نقص درهماً ولا زاد درهماً، كأنّه كان يعرف مبلغه ومقـداره، وكان ستة آلاف درهماً والناس اثنا عشر ألفاً(٢).

---

(١) ذكر ذلك في ص٨٣ من المجلد الأول من شرح النهج.

(٢) ذكر ذلك في كتابه: سموّ الذات في سموّ المعنى، ص١٣٨.

مقتضى هذا الحساب ان يكون المبلغ ستة آلاف الف درهم (ستة ملايـين)لاسـتة آلاف. (د. المدني)

وقال العلائلي في كتابه سموّ الذات:

إن امرأة استنكحها رجل أسود اللون، ثم ذهب في غزاة فلم يعد. فوضعت غلاماً أسود فتغيرته. فبعد ان شبّ الغلام استعداها إلى عمر فلم يجد شهادة إثبات وكاد يتمّ للمرأة ما أرادت، بيد أن عليّاً(عليه السلام) أدرك في طرفه ما تجتهد المرأة بإخفائه. فقال(عليه السلام):

«يا غلام! أما ترضى أن أكون أباك والحسن والحسين أخويك؟

فقال الغلام: بلى.

ثم التفت(عليه السلام) إلى أولياء المرأة فقال:

أما ترضون أن تضعوا أمر هذه المرأة في يدي؟

قالوا: بلى.

فقال(عليه السلام): إنّي زوّجت مولّيتي هذه من ابني هذا على صداق قدره كذا وكذا.

فأجفلت المرأة وقالت: النار النار يا عليّ والله ابني ولكنّي تغيّرته بسواد لونه».

ومثل ذلك ما ذكره في الكتاب المذكور:

إن رجلين أتيا امرأة ووضعا عندها مالاً، وأوصياها أن لا تعطي المال إلاّ لهما. وبعد لأي جاء أحدهما وطلب المال بناءً على أن صاحبه توفي فأسلمت إليه المال. ولم ينشَب أن جاء صاحبه فطلب المال. فقالت: دفعته إلى صاحبك.

فدعاها إلى أمير المؤمنين عمر وكان عليّ(عليه السلام) يشهد الدعوى وقد فهم من سير الخصومة: أن الرجلين يمكران بالمرأة، فقال(عليه السلام) للرجل: عندي ما طلبت

ولكن إأتِ بصاحبك على مقتضى الشرط.

فذهب الرجل ولم يعد.

وهذا شيء نزر من شيء كثير بل قطرة من بحر محيط.

كيف لا وعليّ(صلوات الله وسلامه عليه) ممّن عرفت فيه قول الصادق الأمين(ﷺ) الذي لا ينطق إلاّ بالحق وطبق الوحي.

إنّ الله أمرني أن أعلّمك فتعي وحقيق على الله أن تعي.

وقوله(ﷺ): «**ما علّمني ربّي شيئاً إلاّ وأمرني أن أعلّمه عليّاً**»(١).

وما ذكره الحافظ بن الجوزي الحنفي في تذكرته(٢):

ناقلاً له عن الإمام أحمد في الفضائل عند إرسال النبي(ﷺ) عليّاً إلى اليمن ليقضي بين قوم منهم. فقال(ﷺ) له(عليه السلام): أدن. قال(عليه السلام): فدنوت منه فضرب في صدري. وقال: «**اللهمّ اهد قلبه وثبّت لسانه**».

فقال عليّ(عليه السلام): «**فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين**».

قال: وأخرجه في المسند أيضاً. وذكره ابن إسحاق في المغازلي.

قال بعضهم: كان عليّ(عليه السلام) يجيب عن أول المسألة قبل إكمال آخرها.

قيل: وقال له بعض: لم تتسرّع في جواب المسألة ولم تتأمل فيها؟

فباغته علي(عليه السلام) ففتح كفّه الشريف وفرّق بين أصابع كفّه الخمسة وقال

---

(١) في كتاب الحجّة من أصول الكافي في باب في أن الله سبحانه ما علّم نبيّه(ﷺ) علماً إلا وأمره أن يعلّمه علياً(عليه السلام) وفيه ثلاثة أحاديث.

(٢) ذكر ذلك في ص٢٦ من كتابه: تذكرة الخواص.

للسائل: كم هذه؟

فقال الرجل: بلا تأمّل منه: إنّها خمسة.

فقال له علي(عليه السلام): لم لا تتأمّل في الجواب؟

قال الرجل: إن هذه المسألة بديهية.

فقال عليّ(عليه السلام): والمسائل عندي بديهية أيضاً كهذه المسألة.

وعلى كلّ:

فكلّما يذكره الذاكر في أمير المؤمنين عليّ(صلوات الله وسلامه عليه) من علم وفضل في أي نحو من أنحائه، فإنّما يذكر ما هو كقطرة من بحر محيط. كما هو غير خفيّ على المطّلع الخبير.

والحمد لله ربّ العالمين

المحاضرة الثانية عشرة

آية المناجاة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم قرآن المجيد:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١).

أقول: هذه الآية الشريفة على نسق كثير من الآيات الفرقانية المصدّرة بالخطاب للمؤمنين، من ملك يوم الدين ورب العالمين، تنبيهاً على مزيد التكريم لهم وجزيل التقدير لهم، وإلماحاً إلى أن الخطاب منه تعالى شأنه لا يليق إلاّ بهم ولا يستأهله سواهم، لأنهم المنتفعون به دون غيرهم. وبذلك فليفرح المؤمنون حيث أنّهم مورد عنايته سبحانه ومحط تكريمه ورعايته جلّ وعلا.

بل لدى التحقيق أنّ كل ما خلق الله سبحانه إنّما هو لأجل المؤمن. فهو الغاية من الخلق والمقصود بالإنعام والفضل في العاجل والآجل.

---

(١) هذه الآية هي الآية ١٢ من سورة المجادلة الواقعة في ص٢٥١ من المجلد ٥ من مجمع البيان.

وكيف كان: إن إيجاب الصدقة في الآية الكريمة لدى إرادة التشرّف بحظيرة قدس الرسالة ومناجاته، لا بد من أن يكون لغايات سامية ومقاصد عالية ولعل أظهرها تجليل النبي الكريم(ﷺ) وبيان ما يستحقّه(ﷺ) من الميزة والتقدير والتوقير. كما صرّحت به بعض الآيات الأخرى كقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[(١)].

وكذا ما سبقها ولحقها من الآيات الثلاث في الموضوع.

فإنها تفرض له(ﷺ) الميزة في مقام المحاورة ولزوم المحافظة على تأدية واجباته(ﷺ) من التعظيم والتكريم في كل وقت وعلى كل تقدير. ولعل من حِكَم إيجاب التصدّق عند إرادة المناجاة، حصول صلاحية واستعداد وأهلية لمن أراد أن يقوم في ذلك بسبب ذلك التصدّق. فإن الصدقة زكاة والزكاة طهارة للنفس، كما أومأ إلى ذلك بقوله عزّوجل:

---

(١) هذه هي الآية ٢ من سورة الحجرات الواقعة في ص١٢٨ من المجلد ٥ من مجمع البيان.

والآية التي قبلها وهي الآية الأولى من السورة المذكورة هكذا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

والآيات الثلاث التي بعدها والتي لها نحو ارتباط بها هي:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وهناك آيات أخرى في سورة الأحزاب وغيرها، جارية هذا المجرى من التنبيه على ما يجب على الأمّة من جعل الميزة الخاصة للرسول(ﷺ) في مناجاته ومحاوراته وغير ذلك مما هو حقيق به، كما هي غير خفية على المتتبع.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١].

فالإنسان يتطهّر بالتصدّق فيتأهل بذلك للمثول بين يدي صاحب الشفاعة. كما يتأهل الإنسان للصلاة والقيام بين يدي بارئ النسمات وكافة المخلوقات، بواسطة طهارته الخبثية والحدثية المائية والترابية.

هذا...

وأما ما ذكره الرازي في أسباب النزول فمما ينافيه التدبّر في مضمون الآية المباركة.

وحاصل ما ذكره الرازي ما مضمونه: من أنّ المسلمين قد أكثروا المسائل على رسول الله(ﷺ)، حتى شقّوا عليه، وأراد الله تعالى شأنه أن يخفّف عن نبيّه(ﷺ) لعلمه تعالى أنهم سوف يكفّون عن المسألة، كما قد وقع ذلك حيث أنّه لما نزلت هذه الآية الشريفة شحّ كثير من الناس عن أداء ذلك الواجب. ولربّما كانت بعض الحِكَم في المسألة: أنّ أرباب الحاجات كانوا يلحّون على الرسول(ﷺ) ويشغلون أوقاته، التي هي مقسومة على الإبلاغ والعبادة، أو أنّه ليتميّز محبّ الدنيا فإنّ المال محكّ الدواعي.

فتدبّر في الآيتين تجدهما غير ملائمين لهذا التعليل والمنشأ.

وكل هذا محاولة لإسقاط هذه الفضيلة وإخراجها عن كونها كذلك، لئلا يلزم العار والشنار لأصحابه المتخلّفين عن المناجاة، بل يحاول أن يجعل ذلك نقصاً في أمير المؤمنين(عليه السلام)، حيث أن الله عزّوجل أراد بزعم الرازي أن يخفّف على الرسول(ﷺ) المراجعة والسؤال وعليّ(ﷺ) قد أكثر السؤال عليه(ﷺ). ولكن

(١) هذه هي آية ١٠٤ من سورة التوبة(البراءة).

هذه المحاولات الفاشلة لا تخفى على ذوي دين وعقل، فلذا كان شريكاً في قبح التخلّف عن المناجاة كمن تخلّف عنها.

وكيف ما كان فالذي يظهر لمن راجع المسألة أنّه لم يقم بامتثال هذا الواجب من كل ذلك المجتمع الإسلامي إلاّ الإمام عليّ بن أبي طالب(عليه السلام).

قال الفضل بن روزبهان في(ص١٤٠٤ ج٢) من دلائل الصدق للعلاّمة المرحوم المظفر(قدس سره) عند ذكر العلاّمة الحلّي أعلى الله مقامه هذه الآية الشريفة وأنها من آيات الإمام عليّ(عليه السلام) واختصاصها به:

هذا من روايات أهل السنّة وإن آية النجوى لم يعمل بها إلاّ عليّ(عليه السلام). ولا كلام في أنّ هذا من فضائله التي عجزت الألسن عن الإحاطة بها ولكن لا يدل النص على إمامته. انتهى.

وقال الفضل أيضاً في(ص٢٤٩ ج٢) من الكتاب المذكور:

إن هذا من فضائل أمير المؤمنين(عليه السلام) ولم يشاركه أحد في هذه الفضيلة وهي مذكورة في الصحاح[1].

---

(١) ذكر شيخنا المظفر أعلى الله مقامه عند ذكر الآية الكريمة في كتابه: دلائل الصدق، ج٢ ص١٠٤. أنّ الحاكم بعد ذكر هذه الآية والحديث عن عليّ(عليه السلام) في ص٤٨٢ من الجزء الثاني من مستدركه قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال المظفّر(قدس سره): ونقله السيوطي في الدر المنثور عن الحاكم أيضاً. وعن سعيد بن منصور وبن راهويه وبن أبي شيبة وعبد بن حميد وبن المنذر وبن أبي حاتم وابن مردويه.

ثم قال المظفر الأكبر(رحمه الله): ومثل هذا الحديث باختصار في تفسير الرازي والزمخشري.

ثم قال(طاب ثراه):

وقال السيوطي: أخرج عبد بن حميد وبن المنذر وأبي حاتم عن مجاهد قال: نهوا عن مناجاة النبي(صلى الله عليه وآله) حتى يقدّموا صدقة فلم يناجه إلاّ عليّ بن أبي طالب(عليه السلام). فإنّه قدم ديناراً =

قال الرازي في(ص١٦٧ من المجلّد ٨) من تفسيره:

روي عن عليّ(عليه السلام) أنّه كان يقول: أنّه في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي. كان لي دينار فاشتريت به عشرة دراهم فكلما ناجيت رسول الله(صلى الله عليه وآله) قدّمت بين يدي نجواي درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد.

وقال الرازي أيضاً: روي عن ابن جريح الكلبي وعطاء عن ابن عباس:

أنّهم نهوا عن المناجاة حتى يتصدّقوا فلم يناجه أحد إلاّ عليّ تصدّق بدينار ثم نزلت الرخصة.

قال: قال القاضي: والأكثر في الروايات أنه(عليه السلام) تفرّد بالتصدّق قبل مناجاته ثم ورد النسخ.

قال: وقد روي أيضاً: أن أفاضل الصحابة وجدوا الوقت وما فعلوا.

قلت: ومن هذه الرواية تعرف أنّه لا وقع لما اعتذر به الرازي بقوله بعد ذلك: ولو ثبت أنّه(عليه السلام) اختص بذلك فلأن الوقت لم يتسع لهذا الفرض، وإلاّ فلا شبهة في أنّ أكابر الصحابة لا يعدون مثله.

وقال ابن الجوزي في(ص١١) من كتابه(تذكرة الخواص):

= فتصدّق ثم ناجى النبي(صلى الله عليه وآله) فسأله عن عشر خصال ثم نزلت الرخصة.

وقال المظفر(طاب مرقده): وقال السيوطي أيضاً: قال الكلبي:

تصدّق به في عشر كلمات سألهن النبيّ(صلى الله عليه وآله).

ولا يخفى: أن في رواية الحاكم الأولى التي ذكر صحتها على شرط الشيخين مذيلة بقول عليّ(عليه السلام) عندما تصدّق بما ذكر وناجى الرسول(صلى الله عليه وآله) بما ذكر ثم نسخت الآية المباركة بقوله: فنزلت: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ .. الآية. فراجع.

وكان ابن عمر يقول: كانت لعليّ(عليه السلام) ثلاث لو كانت لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النَعم[1]:

١ - تزويجه بفاطمة[2]. ٢ - وإعطائه الراية يوم خيبر[1]. ٣ - وآية النجوى.

---

(١) قال في ص٢٤٣ من مجمع البحرين:
وفي الحديث: ما أحبّ بدل نفسي حمر النعم. هي بضم الحاء وسكون الميم: الإبل الحمر. وهي أنفس النعم وأقواها وأجلدها، فجعلت كناية عن خير الدنيا كله.
قلت: ومن هنا تعرف ما لكل واحدة من هذه الخصائص من الأهمية والعظمة. أما اقترانه(عليه السلام) بسيّدة نساء العالمين(عليها السلام) التي هي مهجة سيّد النبيّين(صلى الله عليه وآله)، التي يرضى لرضاها ويغضب لغضبها، فتلك فضيلة تقصر عنها الفضائل.
يدلّك على ذلك ما ذكره صاحب الغدير(طاب ثراه) في ص٢٦٨، من المجلّد ١، من كتابه: الغدير، عند قول العبدي الذي هو من أصحاب أبي عبد الله الصادق(عليه السلام):

كان الإله وليّها   وأمينه جبريل خاطب

قال العلاّمة الأميني(قدّس الله روحه):
ورد عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله):
هذا عليّ بن أبي طالب أنتم تزعمون أنني أنا زوجته ابنتي فاطمة. ولقد خطبها إليّ أشراف قريش فلم أجب. كل ذلك أتوقع الخبر من السماء حتى جاءني جبرائيل(عليه السلام) ليلة أربع وعشرين من شهر رمضان. فقال: يا محمّد العليّ الأعلى يقرأ عليك السلام وقد جمع الروحانيين والكروبيين في واد يقال له: الأفيح تحت شجرة طوبى وزوّج فاطمة عليّاً وأمرني فكنت الخاطب والله تعالى الوليّ.
الحديث كفاية الطالب ص١٦٤.
ثم ذكر البحاثة المذكور(طاب مرقده) روايات أخر بهذا المضمون عن جملة من جهابذة العلم من أهل السنّة والجماعة من ص٢٨٣ إلى ص٢٨٥.
(٢) قال الفضل بن روزبهان في مقام ردّه على العلاّمة الحلّي(أعلى الله مقامه) عندما ذكر العلاّمة(رحمه الله) أنه في مسند أحمد بن حنبل: أن أبا بكر وعمر خطبا إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله) =

وقال أيضاً في الصحيفة نفسها:

أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً، وقال له[٢]: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ فقال سعد: أمّا ما ذكرت ثلاث سمعت رسول الله قالهن له فلن أسبّه أبداً ولأن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم.

وقد ذكر أن أولها: حديث الراية. ونحن سوف نذكره في المقام المناسب

= فاطمة (عليها السلام) فقال (صلى الله عليه وآله): إنها صغيرة. فخطبها عليّ (عليه السلام) فزوّجها منه... قال الفضل هنا: صحّ في الأخبار أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنيّ أنتظر أمر الله فيها.
قلت: فهذا اعتراف منه أن الرسول (صلى الله عليه وآله) كان ينتظر أمر الله تعالى في تزويجها... والروايات في أن أمر تزويجها (عليها السلام) كان موكولاً إلى الله وبأمره وإرادته متكررة، حتى أن عمر في رواية كان يقول: أنه – يعني الرسول – ينتظر أمر الله فيها – يعني في تزويجها (عليها السلام).

(١) قال العلاّمة الحلّي (أعلى الله مقامه) على ما في دلائل الصدق للمظفّر الأكبر (رحمه الله)، ص٢٥٤ ح٢: في مسند أحمد من عدة طرق، وصحيحي مسلم والبخاري من طرق متعددة وفي الجمع بين الصحاح الستة أيضاً عن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: حاصرنا خيبر وأخذ اللواء أبو بكر فانصرف ولم يفتح له. ثم أخذهُ عمر من الغد فرجع ولم يفتح له، وأصاب الناس يومئذٍ شدّة وجهد. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أني دافع الراية غداً إلى رجل يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتى يفتح الله له».
فبات الناس يتداولون ليلتهم أيهم يعطاها. فلما أصبح الناس غدوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكلهم يرجو أن يعطاها. فقال (صلى الله عليه وآله): أين عليّ بن أبي طالب؟ فقالوا: إنّه أرمد العين. فأرسل (صلى الله عليه وآله) إليه فأتى فبصق رسول الله (صلى الله عليه وآله) في عينيه ودعا له فبرأ، فأعطاه الراية ومضى عليّ (عليه السلام) فلم يرجع حتى فتح الله على يديه.
قال الفضل بن روزبهان معلّقاً على هذا الكلام في الصحيفة المذكورة: حديث خيبر صحيح وهذا من الفضائل العليّة لأمير المؤمنين (عليه السلام) لا يشاركه فيها أحد، وكم له من فضائل مثل هذا... إلى آخر ما ذكره.

(٢) النسخة هكذا. ولعل فيها سقط وهو: أنه أمره بسبّ علي (عليه السلام) فامتنع فقال له... إلى آخره.

لذكره.

وثانيها: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ دعا رسول الله(ﷺ) علياً وفاطمة والحسن والحسين(عليهم السلام) وقال: «اللهمّ هؤلاء أهلي».

وثالثها: أني سمعت رسول الله(ﷺ) وقد خلّفه في بعض مغازيه فقال: يا رسول الله أتتركني مع النساء والصبيان؟

فقال رسول الله(ﷺ): «**ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ألا أنّه لا نبيّ بعدي**». قلت: هذا مع العلم أن كلاً من سعد بن أبي وقاص وعبد الله ابن عمر من المنحرفين عن أمير المؤمنين عليّ (صلوات الله وسلامه عليه) ولم يبايعا له[1].

---

(١) ومن طريف الحكايات ما ذكره العلاّمة القمّي(طاب مرقده) في ص١٣٦ من كتابه: سفينة البحار، في مادة: عبد، قال:

لّما دخل الحجّاج مكّة وصلب ابن الزبير راح عبد الله بن عمر إليه وقال: مدّ يدك لأبايعك لعبد الملك، فقد قال رسول الله(ﷺ): «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

فأخرج الحجّاج رجله وقال: خذ رجلي فإنّ يدي مشغولة.

فقال ابن عمر: أتستهزئ مني؟

قال الحجّاج: يا أحمق بني عدي ما بايعت مع عليّ وتقول اليوم: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، أو ما كان عليّ إمام زمانك. والله ما جئت لقول النبي(ﷺ) بل جئت مخافة تلك الشجرة التي صلب عليها ابن الزبير.

قال: وفي أسد الغابة توفى عبد الله بن عمر سنة ٧٣ بعد قتل ابن الزبير ثلاثة أشهر وقبر بمكّة بموضع يقال له: فخ.

وقال قدّس الله نفسه في ص٢٢٤ من المجلد الأول من سفينة البحار: =

وكيف كان: فهذه الفضيلة لعليّ(عليه السلام) مختصّة به، لم يسبقه إليها سابق ولم يلحقه لنيلها لاحق.

ومن المحتمل قريباً بل من المظنون قوياً: أن تشريع هذا الحكم تلك المدة مع علم الله سبحانه وتعالى بمن يمتثله من عباده ومن لم يوفق للفوز بثوابه، كان لغاية إظهار ما لأمير المؤمنين عليّ(عليه السلام) من فضيلة المسارعة إلى الطاعة ومزيد المحافظة على اكتساب المعارف وعظيم الاهتمام بالمواظبة على الاتصال بالرسول(صلى الله عليه وآله)، والتخلّق بأخلاقه وتقديم الاتصال به(صلى الله عليه وآله) على كل أمر من أموره والانقطاع إليه في كل أوقاته(صلى الله عليه وآله).

ولولا هذه الغاية، فقد يقال: أيّ فائدة في تشريع حكم عام لم يمتثله إلاّ شخص واحد. فالإنصاف: أن الآية المباركة من أظهر آيات فضله وأجلّ أمارات تكريمه(عليه السلام). ولا ينكر ذلك إلاّ مجازف غير منصف.

والحمد لله رب العالمين

= قال المسعودي: مات الحجّاج سنة ٩٥ وهو ابن ٥٤ سنة بواسط العراق. وكان تأمّره على الناس عشرين سنة. وأحصي من قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة ألف وعشرون ألفاً. ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهن ستة عشر ألفاً مجرّدة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء...

إلى أن قال: وعن تاريخ ابن الجوزي: إنّه كان يطعم المسجونين خبز الشعير مخلوطاً بالملح والرماد، وكان لا يلبث الرجل في سجنه إلاّ يسيراً حتى يسود وجهه ويصير كأنه زنجي...

إلى أن قال:

ويحكى عن الشعبي قال: لو أخرجت كل أمّة خبيثها وفاسقها وأخرجنا الحجّاج لغلبناهم.

المحاضرة الثالثة عشرة

آية الاعتصام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم كتابه وجميل خطابه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

قال الرازي عند شرح الآيتين المباركتين:

أنّه تعالى شأنه أمر المؤمنين في هذه الآيات بمجامع الطّاعات ومعاقد الخيرات، فأمرهم **أولاً**: بتقوى الله وهو قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾. **وثانياً**: بالاعتصام بحبل الله وهو قوله: {﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾. **وثالثاً**: بتذكّر نِعَم الله وهو قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

والسبب في هذا الترتيب أنّ فعل الناس لا بدّ وأن يكون معلّلاً إمّا بالرهبة

---

(١) هذه الآية هي آية ١٠٢ من السورة الثالثة، آل عمران، وتوجد في ص٤٨١ من المجلّد الأول، من مجمع البيان؛ وص٢٢ من المجلّد ٣ من تفسير الرازي.

وإمّا بالرغبة. والرهبة مقدّمة على الرغبة، لأنّ دفع الضرر مقدّم على جلب النفع.

فقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ : إشارة إلى التخويف من عقاب الله تعالى، ثم جعله سبباً للتمسّك بدين الله والاعتصام بحبل الله، ثم أردفه بالرغبة وهي قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فكأنّه قال: خوف عقاب الله يوجب ذلك وكثرة نِعَم الله عليكم توجب ذلك. فلم تبق جهة من الجهات الموجبة للفعل إلاّ وهي حاصلة في وجوب انقيادكم لأمر الله تعالى ووجوب طاعتكم لحكم الله.

فظهر بما ذكرنا: ان الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية مرتّبة على أحسن الوجوه.

أقول: ومعنى الاتّقاء هو الاحتراس وجعل الحاجز بين المخوف عليه وبين المخوف منه. وحيث إن ذلك بما له من المعنى غير ممكن للعبد مع ربّه جلّ وعلا، إذ أنّ العبد في جميع أحواله وأطواره في قبضة ربّه القدير وفي حيطة سيّده العليم الخبير، حيث أنّه كما في الدعاء الشريف:

لا تغشى بصره الظُلمة ولا يستتر منه بستر، ولا يواري جدار، ولا يغيب عنه برّ ولا بحر، ولا يكنّ منه جبل ما في أصله ولا قلب ما فيه ولا جنب ما في قلبه...

وعلى هذا فلا بدّ وأن يكون التوقى منه سبحانه والتحرّز عنه جلّ وعلا، بمعنى الاحتراز والاحتجاب. والاحتراز عن عقوبته وسطوته عظم شأنه.

ولا يحترس عن ذلك إلاّ موافقة أمره والانقياد لإرادته جلّت قدرته.

وأمّا معنى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، فقد قال بعض المفسّرين: أنّه تعالى يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى. وهذا الوجه حقيق بالقبول إذ أنّه لازم لكلّ مكلّف، لأن تخصيصه مستلزم للترخيص في المعصية غالباً، وكذلك النسيان حيث

يراد منه ما ينسب إلى الاختبار، كالإعراض عن التفكّر فيما يوجب على العبد القيام بوظائف العبودية.

وعلى هذا فلا وجه لالتزام كون الآية المباركة من الآيات المنسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾، إذ هذه الآية الشريفة لا يزيد مفادها على الآية الأولى، بل مؤيّدة لها ومؤكّدة لمفادها.

ولكن الإنصاف أن هذا المعنى إنما ينطبق على أصل التقوى لا على حقّ الاتّقاء.

بل لو قيل: بأنّ المراد من قولهم عند تفسير حق الاتّقاء بأنّه يطاع ولا يعصى ويشكر ولا يكفر ويذكر ولا ينسى، هو المواظبة والمداومة على وضع الشيء في محلّه الملازم للأخذ بالحد الوسط في كافة الأفعال والحركات، كان أنسب بمعنى الاتّقاء. ويرجع ذلك إلى الدرجة العالية من التقوى، وتنطبق على ما ذكره بعضهم في تحديد التقوى بأنّها: ما أدّت إلى أن لا يجد الخلق في لسانك عيباً ولا الملائكة في أفعالك عيباً ولا ملك العرش في سرّك عيباً.

وعلى هذا فلا تتحد هذه الآية الكريمة كل الاتحاد، كما ذكرنا سابقاً مع قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾، بل يختلفان نحواً من الاختلاف.

قال بعض المحققين بعدما شرح قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾، بنحو ما أجملناه: وهذا المعنى غير ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾، فإن هذه الآية في معنى: لا تذروا التقوى في شيء فما تستطيعون، غير أنّ الاستطاعة تختلف باختلاف قوى الأشخاص وأفهامهم وهممهم. ولا ريب أنّ حق التقوى بالمعنى الذي ذكرناه ليس في وسع كثير من الناس، فإنّ في هذا المسير الباطني مواقف ومعاهد ومخاطر لا يعقلها إلاّ العالمون، ودقائق ولطائف لا يتنبّه بها إلاّ

المخلصون، فربّ مرحلة من مراحل التقوى لا يصدق الفهم العامي بكونها مما تستطيعه النفس الإنسانية فيجزم بكونها غير مستطاعة، وإن كان أهل التقوى الحقّة خلّفوها وراء ظهورهم وأقبلوا بهمّهم على ما هو أشق وأصعب.

فقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾... الآية كلام تتلقّاه الأفهام المختلفة بمعانٍ مختلفة على حسب ما يطبّقه كل فهم بما يستطيعه صاحبه، ثم يكون ذلك وسيلة ليفهم من هذه الآية أعني قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ إنّ المراد أن يقعوا في صراط حقّ التقوى ويقصدوا نيل هذا المقام الأسمى والشخوص والمثول فيه بين يدي الربّ الأعلى، وذلك نظير الاهتداء إلى الصراط المستقيم الذي لا يتمكّن منه إلاّ الأوحديون، ومع ذلك يدعى إليه جميع الناس.

فيكون محصّل الآيتين: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

أن يندب جميع الناس ويدعوا إلى حق التقوى ثم يؤمروا بالسير إلى هذا المقصد ما قدروا واستطاعوا، وينتج ذلك أن يقع الجميع في صراط التقوى إلا أنهم في مراحل مختلفة وعلى درجات مختلفة على طبق ما عدّ من الأفهام والهمم، وعلى ما يفاض عليهم من توفيق الله وتأييده وتسديده.

فهذا ما يعطيه التدبّر في معنى الآيتين.

ومنه يظهر أن الآيتين غير مختلفتين بحسب المضمون. ولا أنّ الآية الأولى أعني قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ - الآية - أريد بها عين ما أريد من قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ - الآية، بل الآية الأولى تدعوا إلى المقصد والثانية تبيّن كيفية السلوك. هذا ما ذكره ذلك المحقّق الكبير. نقلناه بطوله لما فيه من جمّ

الفوائد وغزارة التحقيق.

ثم قال تعالى شأنه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وهذا إيماء منه تعالى شأنه ولفت نظر لعباده، تفضّلاً منه وتلطّفاً إلى ما ينبغي لهم من الاهتمام بحفظ مبادئ الدين والإسلام وتربية النفس وتوطينها على الطاعة والانقياد للشرع والعقل، فيما أمر ونهى وتحذيراً عن متابعة الهوى والانقياد للنفس الأمّارة فيما ترغب وتطلب، إذ أن ذلك يؤدي إلى الهلاك والعطب، فإنّ النفس إن أهملت وهواها استعصت على صاحبها وأسرته بإشراكها وحبائلها، وعندها يبعد عن الفيض والرحمة ويتأهل للحرمان والنعمة، فلا يوفّق للموت على الإسلام وعندها النازلة العظمى والرزيّة الكبرى التي لا تُرْجعُ إلى خير أبداً. أعاذنا الله والمؤمنين عامة بلطفه وأعاننا على أنفسنا بما يعين الصالحين على أنفسهم أنّه لطيف كريم.

ثم قال تعالى شأنه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

فقد أمر الله تعالى المؤمنين بوجه أخصّ بالاعتصام بحبله، وعامة المكلّفين بوجه آخر وهو عموم مناطات الأحكام المقتضية لعموم التكاليف، المنبعث عن عميم اللطف وعظيم العطف، لما في التكاليف من البعث على ما فيه سعادة المكلّف وسوقه إلى ما به حياته الخالدة.

وقد أشار تعالى شأنه إلى طريق الوصول إلى ذلك المقصد الأسنى، بما بيّنه من الاعتصام بحبله المنسوب إليه جلّ وعلا، والتمسّك والاحتباس به الذي يراد منه قوة التعلّق به وشدّة التشبّث، لأن النجاة مقرونة به والهلكة مترتّبة على التخلي عنه.

ولا ريب أنّ المراد من الحبل المنسوب إلى الله عزّوجل والمضاف إليه، إنّما هو الوسيلة المؤدية إليه جلّ جلاله، والسبب المبلّغ إلى رضوانه والطريق الموصل إلى ما ندب إليه. وبالحقيق أن يكون الحبل المؤما إليه والطريق الذي دلّ عليه، وأمر عامّة العباد وخاصّتهم بالركون إليه، وأن تكون أيديهم جميعاً كيد واحدة أو كيدي واحد جعلت ذلك الحبل معصمها ومعتصمها، أمراً معيناً في نفسه متعيّناً في حدّ ذاته غير موكول في عالم تعيّنه إلى ما يختاره كل إنسان، أو ما يترجّح لدى كل فريق، فإنّ ذلك ينافي الغرض المقصود أعني الإجماع في الاعتصام والاتحاد في التمسّك. إذ اختلاف آراء الناس واجتهاداتهم يكون سبيل التشتّت والفرقة لا الاجتماع والوحدة.

وحيث لم يكن السبيل المقصود بيّناً في نفسه ولا مبيّناً في نفس الآية المباركة، فلا محالة من أن يكون على حدّ غيره مما طوى بيانه القرآن الكريم، وأوكل تفصيله إلى صاحب الشريعة الصادع بها والمبلّغ لأحكامها، كما في تحديد الصلاة والزكاة والحج والصيام وغيرها من الواجبات، فيكون بيانه هو المتّبع وتعيينه هو المتعيّن، الذي لا يشذّ عنه إلاّ هالك ولا ينفلت عن الاعتصام به سعيد موفّق.

وقد ورد الحديث المتسالم عليه بين الفريقين، المصحّح عند المفسّرين والمحدّثين، بل المتواتر معنًى من قوله(ﷺ):

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي».

على ما ذكره الرازي في تفسيره.

فإنّ ظاهر الحديث الشريف لدى التدقيق، يقضي بكون الحبل صفة لكل من الكتاب والعترة، حيث أن الحديث المبارك مضافاً إلى التصريح بذلك في رواية

مجمع البيان[1] عن أبي سعيد الخدري راوي الحديث الأول من قوله(ﷺ):

«إني قد تركت فيكم حبلين إن أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ألا وإنهما لا يتفرقان حتى يردا عليّ الحوض».

وما رواه فيه ايضاً عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد(عليهما السلام) من قوله(عليه السلام): «**نحن حبل الله الذي قال: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾**».

بل وكل ما ورد من الأحاديث الكريمة بهذا المضمون على كثرتها واختلاف مواردها ومقاماتها يرمي إلى بيان الوحدة في وجهة كل من الكتاب والعترة، وإلى أنّ كل واحد منهما يدعو إلى ما يدعو إليه الآخر، وأنهما لن يختلفا ولن يفترقا، مهما اختلف الوضع وتشعّبت الآراء والأهواء، وأنهما وسيلة إلى الحق ومعتصم إلى النجاة وسدّ منيع عن تيّار التشتّت والفرقة.

وإن التوسّل وطريق التوصل إلى ما ينتظم به أمر المعاش والمعاد، بالنحو الذي كان للمستخلف(ﷺ) لا يكون إلاّ بهما.

لكن لا يخفى أنّهما وسيلة ومعتصم إلى ما به نظام أمر المعاش والمعاد، بما أنّهما وسيلة واحدة إلى الحق لا بما أنّ كل واحد منهما بانفراده ومن حيث هو طريق مستقل. كما هو ظاهر ما اشتمل من روايات الباب على قوله(ﷺ): «**أنهما لن يفترقا حتى يراد عليّ الحوض**». وقوله(ﷺ) في بعضها: «**إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا أبداً**». فإن هذا البيان ظاهر كل الظهور بل يكاد أن يكون صريحاً في أنهما واحد لا اثنان، وعلى أن ما عند العترة هو ما في القرآن الكريم.

---

(١) ذكر ذلك في ص٤٨٦ من المجلد الأول، من الكتاب المذكور، وكذلك الرواية الأخرى.

بل لو أنعم النظر ذو بصر رأى أن تمام الهدف الذي يرمي إليه البيان المذكور في الحديث المزبور وما جرى مجراه، هو إيجاب التشبّث بحبال العترة والرجوع إليهم في تحليل معنى القرآن وتفصيل مضامينه، لما هو معلوم من حال القرآن والمصرّح به فيه بأنّه مشتمل على ما لا يعلم تلك المضامين إلاّ الله والراسخون في العلم، وهم أهل بيت الوحي وخزنة التنزيل الذرية الطاهرة(صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) المعبّر عنها بالعترة.

وحينئذٍ يكون الغرض الأقصى من أحاديث الباب، هو بيان أن النجاة مقرونة بالرجوع إليهم(عليهم السلام)، وإن الوصول إلى ما جاء به الرسول(صلى الله عليه وآله)، على نحو لا زيغ فيه ولا تحريف ولا تغيير ولا تزييف، إنّما يكون بالأخذ منهم(عليهم السلام) إذ أنّهم(عليهم السلام) حملة القرآن وخزّانه وكنوزه وترجمانه.

فالقرآن الكريم وإن كان فيه تبيان كل شيء، إلاّ أن فيه العام والخاص والمطلق والمقيّد والمجمل والمبيّن والمتشابه والمحكم والمنسوخ والناسخ، فهو محتاج إلى الحافظ له المبيّن لما أبهم من مضمونه الموضح لما خفي من مكنونه. ولولا الحاجة إلى ذلك واستواء الناس في فقهه، لما استدلّت به الفرق المتضاربة في الآراء المتباينة في الأهواء، ولما استدلّ به الملحد الذي لا يعتقد صدقه، فيغلب الرجال ويفحم خصومه في مقام الاستدلال به. وهل يكون القرآن داعياً إلى الضلال أو مشتملاً على المحال، من التناقض في المضمون أو التضاد في المعنى؟ كلا وألف كلا.

لكن الله سبحانه تعالى لمّا جعل له حملة وحفظة، وخصّهم بمعرفة كل ما فيه وجب الرجوع إليه من حيث كونه مأخوذاً من أهله وملتقًى من حفّاظه وحملته.

وهذا ينبغي أن يكون خالياً عن الريب وعارياً عن شوب الشك.

وإذ قد أحطت خبراً ببيان صاحب الشرع، الذي لا ينسج غالباً إلاّ على وفق

النسج القرآني، يتعيّن لديك أن المراد من الحبل في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾، هو القرآن والعترة معاً أي بما أنهما واحد في الحقيقة، وإن خُيّل أنهما اثنان لمختل البصر، لما عرفت من أن النفي التأبيدي في قوله(ﷺ): وإنهما لن يفترقا، يراد منه نفي الافتراق في العلم وإنّ ما في القرآن المجيد هو ما عند العترة الطاهرة بل هذه الجملة هي الغاية من هذا البيان، حيث أنها ترشد إلى أن العترة هم حملة القرآن وحفّاظه والراسخون في العلم وترجمان آياته، وإن التارك لما عندهم حائد عن طريق الرشاد وزائع عن منهج الهدى والسداد.

وعلى هذا يكون حاصل الآية الشريفة هو إيجاب الاعتصام بالعترة والالتزام بقوة التمسّك بحبلهم، الذي لا يعرضه النقض ولا يطرأه الانقطاع.

ومن هذا يظهر لك بوضوح: أنّ ما عليه المجتمع الإسلامي قديماً وحديثاً من التشتّت والفرقة على خلاف ما يفرضه الكتاب وتدعو إليه السنّة، من الاجتماع والوحدة. وكون أيدي المجتمع الإنساني كيدي إنسان واحد في التمسك بحبل واحد، والاعتصام به الذي هو ميزان الحياة الصحيحة في هذه النشأة والسعادة الخالدة في النشأة الأخرى.

بقي شيء لا غنى لنا عن التنبيه عليه، إذ كثيراً ما يغفل عن الشيء وإن كان ظاهراً ويذهل عنه وإن كان واضحاً.

وذلك هو أنّ الحديث الذي عرفت شهرته بين الفريقين، وتكرّر صدوره في مواقف شتّى ومقامات مختلفة، الذي جعلناه شارحاً للمراد من حبل الله في الآية المباركة، لم ينص في متنه على المراد من العترة أهل البيت الذين هم قد جعلهم في الميزان عدلاً للقرآن، وملازمين له لا يفترقون عنه في حال. وبالضرورة أنّه لولا وضوح المقصود منهم ومعلوميتهم الغنيّة عن البيان والشرح، لكان بيانه(ﷺ) في

هذا الحديث الشريف عارياً عن الفائدة خالياً عن المحصّل، إذ أنه يكون إذ ذاك إرشاداً إلى مجهول وتعويلاً على غير معلوم. وحاشا نبي الحكمة وسيّد أهل العصمة(ﷺ) أن يبني كلامه على ما لا يرجع إلى محصّل، ولا يعود عليه بفائدة ولا على الأمّة بطائل، مع كونه(ﷺ) في مقام البيان القاطع للمعاذير والرافع للأباطيل.

وبعد هذا فمن ذا يا ترى أولئك الذين هم بتلك المثابة من المعروفية والوضوح، الذي أغنى نبيّ البيان والحكمة(ﷺ) عن التصريح بهم والتنصيص عليهم بأسمائهم؟ وهل تجد في وسعك وترى من نفسك أن يكون في عهده(ﷺ) معنيّاً من أهل بيته، غير باب مدينة علمه وحكمته وسبطيه إمامي الأمّة وسيدي شباب أهل الجنة؟ حتى لو عمّمنا مفهوم العترة أهل البيت إلى ما يشمل نساءه(ﷺ) وبني هاشم عامة أو هم بالخصوص دون النساء – على القولين في المقام –، لا أراك إلاّ أن تقول: كلاّ وألف كلاّ.

فإنّ قرائن المقال وشواهد الحال تمنع أن يكون قرين القرآن سواهم، ومعادله عند الوزن يتعدّاهم، سواءً ضاق ذلك المفهوم في نفسه أو اتّسع. فإن القرائن المقامية القطعية العقلية واللفظية المتصلة والمنفصلة – كما أومأنا إليه آنفاً –، تقصر الأمر عليهم وتخرجه عن كل من سواهم، حتى البضعة ذات العصمة أم الأئمة سيدة نساء أهل الجنة فاطمة الزهراء(عليها السلام)، فإنه(سلام الله عليها) وإن كانت ربّة بيت النبوّة، إلاّ أن الحديث الشريف لما كان وارداً في مقام بيان الخلافة عنه(ﷺ)، وتعيين مقام الإمامة والزعامة العامّة التي هي من مراتب النبوة ببعض معانيها، خرجت(سلام الله عليها) عنه بقرائن المقام، كما هو غير خفي على ذوي الأفهام.

نعم لمّا جَعَل الحديث الشريف العترةَ أهل البيت، قريناً للقرآن غير مفارق له في حال من الأحوال، مع كون القرآن هو الحبل والوسيلة لكافة الأمّة على تعاقب

الأجيال وتبادل القرون، علمنا أن العترة كالقرآن لا يخلو منهم زمان ولا يستغنى عنهم في عصر وأوان. وليس من هم بهذه الصفات إلاّ الأئمة الهداة الاثنى عشر(عليهم السلام) الذين قد طهّرهم الله سبحانه من الزّلل ونزّههم من الخلل، إذ هم الباقون ببقاء القرآن والحافظون له على مرور الأزمان.

وقد صرّح حديث الإمام الصادق(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) عن الحسن بن علي(عليهما السلام) بذلك، حيث قال(عليه السلام):

سئل أمير المؤمنين(عليه السلام) عن معنى قول رسول الله(صلى الله عليه وآله):

«**إنّي مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي...**» مَن العترة؟

فقال(عليه السلام): «**أنا والحسن والحسين والأئمة التسعة من وُلد الحسين تاسعهم مهديّهم وقائمهم لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم حتى يردوا على رسول الله(صلى الله عليه وآله) حوضه**».

وإليه يرشد أيضاً ما أسلفناه من تفسير الإمام الصادق(عليه السلام) قوله تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ في رواية مجمع البيان عن أبان بن تغلب حيث قال(عليه السلام): «**نحن حبل الله الذي قال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾**».

إلى غير ذلك من الأدلّة المثبتة لهذا المضمون. فإن هذا الحديث المبارك ليس هو كل ما في الباب مما يتكفّل إثبات هذا المضمون، بل هو واحد من آحاد بل من عشرات.

وبالجملة فهذه الحجج والبيّنات مما تأخذ بالأعناق إلى أن حبل الله الذي يجب على الأُمّة الاعتصام به، ليس إلاّ الأئمة الهداة أهل بيت النبوّة والرحمة(عليهم السلام). وأنه لا ينفلت عن الاعتصام بحبلهم إلاّ حائد عن سَويّ السبيل سائر بغير دليل.

عصمنا الله والمسلمين عامة من الضلال والعطب وسوء المنقلب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ ظاهر المعنى، إذ هو تأكيد في المعنى للاعتصام بحبل القرآن والعترة، ونصّ في النهي عن التفرّق والأخذ بذات اليمين وذات الشمال لذلك المعتصم. وكل ما قاله المفسّرون في شرح هذه الفقرة من عدم التفرّق في دين الله كما عن ابن مسعود، أو عن القرآن بترك العمل به، راجع إلى ما ذكرنا. بل هو المنطوق الصريح في المقام كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

قال في المجمع:

قيل: أراد ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب التي تطاولت مائة وعشرين سنة، إلى أن ألّف الله بين قلوبهم بالإسلام، فزالت تلك الأحقاد.

قلت: وفيه تذكير بمضار الفرقة ومفاسدها الملموسة لهم، وتنبيه على منافع الاجتماع والوحدة وفوائدها، التي منّ الله سبحانه وتعالى عليهم بواسطة نبيّه(ﷺ) وأهل بيته(عليهم السلام) والصالحين الصادقين من صحابته وأنصاره، حتى أصبحتم بنعمته تعالى شأنه أخواناً متحابين متواصلين.

قوله عزّوجل: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، أي كنتم على شفير جهنّم لم يكن بينكم وبينها إلاّ الموت.

فأنقذكم منها: بفضله ولطفه وبواسطة رسوله(ﷺ).

كذلك يبيّن الله لكم آياته: أي الحجج والدلالات من أوامره ونواهيه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أي إلى طريق الحق وسبيل النجاة.

والحمد لله ربّ العالمين

المحاضرة الرابعة عشرة

آية النور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم قرآنه المجيد وشريف فرقانه الحميد:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1].

قال في مجمع البحرين[2]:

النور كيفية ظاهرة بنفسها مظهرة لغيرها.

وقال الرازي:

---

(١) هذه الآية هي الآية ٣٦ من السورة ٢٤ المسمّاة سورة النور، وموقع تحريرها ص١٤١ من المجلد ٤ من مجمع البيان وص٣٩٣ من المجلد ٦ من تفسير الرازي.

(٢) قال ذلك في ص٢٩٠.

أعلم أنّ لفظ النور موضوع في اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما.

قال بعض المحقّقين ما محصّله:

لا ريب أنّ توصيف الله سبحانه ذاته المقدّسة بالنور، ليس من باب توصيفه بصفاته الذاتية التي يقال فيها أنها عين ذاته، ليكون النور إلهاً وربّاً لضرورة أنّ النور سواءً كان جسماً أو عرضاً حالاً في جسم، منقسم. وكل منقسم يكون لا محالة ذا أجزاء، وكل ذي أجزاء مفتقر إلى أجزائه، وكل مفتقر محدث محتاج في تحققه إلى المفيض والمحدِث، فلا يعقل أن يكون ربّاً.

فلا محالة حينئذٍ من تقدير في الآية، إمّا تقدير مضاف محذوف هو كونه تعالى ذو نور السماوات والأرض، كأن يكون النور بمعنى الهداية، فيكون المعنى: الله هادي أهل السماوات والأرض بإرشاداته وتعاليمه. ويكون إطلاق النور على الهداية بجامع تسبّب كلّ من الهداية والنور عن الظهور.

وإما بفرض كون النور مصدراً قد وضع موضع اسم الفاعل، نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾. أي غائراً. وعلى هذا تكون الإضافة غير حقيقية.

وإلى أحد الوجهين يشير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فإنه رافع لإيهام كون النور هو حقيقة الذات، ومبيّن للإضافة بأحد الوجهين. وكذا قوله بعد: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾...

قلت: وعلى هذا يتعيّن كون المشبّه في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾، ما هو مختار الرازي وما نصره القاضي من أنّ المراد به: الهدى والآيات البيّنات.

والمعنى: إنّ هداية الله سبحانه قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات

وصارت في ذلك بمنزلة المشكاة، التي تكون فيها زجاجة صافية، وفي الزجاجة مصباح يتقّد بزيت بلغ النهاية في الصفاء.

ولعل القولين الأخيرين: من أنّ المراد به القرآن، كما هو المنسوب إلى الحسن وسفيان بن عيّينه وزيد بن أسلم بدليل قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾، أو الرسول(ﷺ)، كما هو المنسوب إلى عطا بدليل قوله تعالى في وصفه(ﷺ): ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، يرجعان إليه كما اسْتقرَبَه الرازي. نظراً إلى أنّ من جملة أنواع الهداية إنزال الكتب وبعثة الرسل(عليهم السلام). ويكون تفصيل كونه(ﷺ) هو المشبّه ما ذكره كل من المحقق الطبرسي(أعلى الله مقامه) والرازي قولاً في المسألة من أنّه: مثل ضربه الله تعالى لنبيّه(ﷺ) محمّد، فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوّة، لا شرقية ولا غربية أي لا يهودية ولا نصرانية، لأنّ النصارى يصلّون إلى المشرق واليهود إلى المغرب، توقد من شجرة مباركة يعني شجرة النبوّة وهي إبراهيم(عليه السلام)، يكاد نور محمّد(ﷺ) يبين للناس ولو لم يتكلم به، كما أنّ ذلك الزيت يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.

لكن العلاّمة الطبرسي رحمه الله قال[1]:

وفي كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه(رحمه الله) بالإسناد عن عيسى بن راشد عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام) في قوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال(عليه السلام): «نور العلم في صدر النبي(ﷺ). ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ الزجاجة صدر عليّ(عليه السلام). صار علم النبي(ﷺ) إلى صدر عليّ(عليه السلام). علّم النبي(ﷺ) علياً(عليه السلام). ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾: نور العلم. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: لا يهودية ولا نصرانية. ﴿يَكَادُ

---

(١) ذكر ذلك في ص١٤٣ من المجلد ٤ من مجمع البيان.

﴿زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ قال: يكاد العالِم من آلِ محمّد(ﷺ) يتكلّم بالعلم قبل أن يُسئل. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: أي إمام مؤيّد بنور العلم والحكمة في أثر إمام من آل محمّد(ﷺ)، وذلك من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة.

فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء في أرضه وحججه على خلقه، لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم.

ويدلّ عليه قول أبي طالب(رضوان الله تعالى عليه) في رسول الله(ﷺ):

أنت الأمير محمد	قرم أغر مسود
لمسودين أطاهر	كرموا وطاب المولد
أنت السعيد من السعود	تكنّفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل	فينا وصيّ مرشد
ولقد عرفتك صادقاً	والقول لا يتفنّد
ما زلت تنطق بالصواب	وأنت طفل أمرد

تحقيق هذه الجملة يتقضي: أن الشجرة المباركة المذكورة في الآية المباركة، هي دوحة التقى والرضوان وعترة الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوّة وفرعها الإمامة وأغصانها التنزيل وأوراقها التأويل وخدمها جبرائيل وميكائيل(عليهما السلام).

انتهى ما عن المجمع.

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

قال الرازي عند شرح هذه الآية الشريفة:

اعلم أن في الآية مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾، يقتضي محذوفاً وذكروا فيه وجوهاً:

أحدهما: إن التقدير: كمشكاة فيها مصباح في بيوت أذن الله.

وهو اختيار كثير من المحققين.

وقال العلاّمة الطبرسي أعلى الله مقامه عند شرح الآية المذكورة:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾: معناه هذه المشكاة في بيوت هذه صفتها وهي المساجد، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد والجبائي. ويعضده قول النبي (ﷺ): **«المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض»**.

ثم قيل: إنها أربع مساجد لم يبنها إلاّ نبي.

الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام). ومسجد بيت المقدس بناه سليمان (عليه السلام). ومسجد المدينة ومسجد قبا[1] بناهما رسول الله (ﷺ).

قلت: ولكن الرازي بعد أن روى النبوي المتقدّم في كلام الطبرسي (رحمه الله) عن ابن عباس، ضعّف كون المراد من البيوت هي خصوص المساجد الأربعة، واختار أنّها مطلق المساجد لإطلاق النبويّ المذكور.

ثم قال العلاّمة الطبرسي (قدس سره):

وقيل: هي بيوت الأنبياء، وروى ذلك مرفوعاً أنه سُئل النبي (ﷺ) لما قرأ

---

(١) قال العلاّمة القمّي (رحمه الله) في ص٣٩٤ من سفينة البحار:

مسجد قُبا: بضم القاف موضع بقرب المدينة المشرفة من جهة الجنوب نحواً من ميلين. وهو المسجد الذي أسّس على التقوى من أول يوم.

قلت: يشير إلى آية ١٠٨ من سورة التوبة وهي قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

والتقوى صفة مدح لا تطلق إلاّ على مستحق الثواب.

وللآية الكريمة شرح مفصّل في تفسير مجمع البيان. فليراجع.

الآية: أي بيوت هذه؟ فقال(ﷺ): بيوت الأنبياء. فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها؟ يعني بيت عليّ وفاطمة(عليهما السلام). قال(ﷺ): نعم من أفاضلها.

ويعضد هذا القول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وقوله: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

فالإذن برفع بيوت الأنبياء والأوصياء(عليهم السلام) مطلق، والمراد بالرفع التعظيم ورفع القدر من الأرجاس والتطهير من المعاصي والأدناس.

وقيل: المراد برفعها رفع الحوائج فيها إلى الله تعالى. ويذكر فيها اسمه: أي يتلى فيها كتابه. وقيل: تذكر فيها أسمائه الحسنى. انتهى.

وفي الدرّ المنثور للسيوطي في تفسيره هذه الآية الشريفة، كما في دلائل الصدق لشيخنا الحجّة المظفّر(قدس سره) عن ابن مردويه أنه أخرج عن أنس بن مالك وبريدة قال: قرأ رسول الله(ﷺ) هذه الآية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾. فقام إليه رجل فقال: أيّ بيوت هذه يا رسول الله؟ قال(ﷺ): بيوت الأنبياء. فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها، لبيت عليّ وفاطمة(عليهما السلام)؟ قال(ﷺ): نعم من أفاضلها.

ونقل(قدس سره) عن العلاّمة أعلى مقامه في منهاج الكرامة عن الثعلبي عن أنس وبريدة نحوه.

وذكر سيّدنا الحجّة الأجلّ شرف الدين(طاب ثراه) في مراجعاته ص٣٣ هذه الآية المباركة وجعلها من آيات آل محمّد(ﷺ). وقال في هامش الصحيفة: أخرج الثعلبي في معنى الأية من تفسيره الكبير بالإسناد إلى أنس بن مالك وبريدة قال: قرأ رسول الله(ﷺ) هذه الآية. فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها؟ وأشار إلى بيت عليّ وفاطمة(عليهما السلام). قال(ﷺ): نعم من أفاضلها.

قال: وفي الباب الثاني عشر من غاية المرام تسعة صحاح ينشق منها عمود الصباح.

قلت: وغير خفي على ذي لبّ أنّه يستفاد بوضوح من قوله(ﷺ): «**إنّها بيوت الأنبياء وإن بيت عليّ وفاطمة(عليهما السلام) من أفاضلها**»، على ما روى الكل من الفريقين: إن المراد من البيوت في الآية الكريمة، هي مطلق البيوت المضافة إلى الله تعالى شأنه والمنسوبة إليه جلّ جلاله.

ولا ريب بعد هذا في أن بيت عليّ وفاطمة(عليهما السلام) من أفاضل تلك البيوت، المنسوبة إليه سبحانه وتعالى.

وحينئذٍ ينفتح من الآية المباركة باب من الشرف والفضل لعليّ أمير المؤمنين وبيته، يفضي إلى أبواب كثيرة من الكرامة والعظمة، التي منها مشاركة بيته(عليهم السلام) بنص الكتاب لبيوت الله، أعني المساجد في وجوب التعظيم والتطهير والتكريم، ووجوب التقديس والصيانة عن الأرجاس والتدنيس، وأنّه مما ترفع فيه الحاجات إلى الله، إذ كان محطّ الخيرات ومنبع البركات.

والأمر من الوضوح بمكان: من أن تقديس المكان للمكين. فتكريم بيوت الأنبياء(عليهم السلام) لكرامتهم وتجليل مبانيهم لتجلتهم، وإلاّ فحقيقة البيوت بعد ذلك كما قال العلائلي: ليس إلاّ مقدراً من الحجارة في مقدار من الأرض لا روح فيهما ولا روحانية لهما، لولا تلك الإضافة وذلك الاعتبار.

وكيف كان: فتقديس تلك البيوت والتكريم لها، إنّما هو لشرف تلك الإضافة وفضيلة تلك النسبة.

وبعد هذا ليس لذي صحّة حق الشك والتشكيك، في صحّة تكريم تلك البيوت. بل رجحان تقديسها وتعظيمها من تعظيم شعائر الله سبحانه، الذي لا

ينبغي الشك فيه لذي دين، ولا مجال لوزنها بوزان سائر الجمادات المقطوعة عن تلك الإضافات.

وبهاذ البيان تنحسم مادة تشكيك آخر، وهو ما ينفثه الشيطان في روع جاهل أو متجاهل، فيحسب أن هذا التعظيم نوع من العبادة المحرّمة بكل مراتب التحريم لغيره الله تعالى شأنه.

وذلك أن هذا التعظيم وذاك التكريم لتلك البيوت أو لأربابها، ليس من باب العبادة لها. حيث الفرق الواضح بين التكريم لشيء والتبرّك به والصلاة فيه والدعاء عنه، وبين العبادة له والصلاة تخضّعاً وتعبّداً له.

فمشاهد الأنبياء والأولياء(عليهم السلام) لا تتفاوت من حيث رجحان الاعتناء بها، والتعظيم لشأنها بتقبيلها والتبرّك بها، بين كونها مشاهدهم وبيوتهم في حال حياتهم وبعد وفاتهم، لتوافر الأدلّة على وجوب تكريمهم وحفظ حرمتهم أحياءً وأمواتاً.

ومن هنا تعرف: أن الهمز واللّمز من بعض طوائف المسلمين، على أخوانهم القائمين بمثل هذه الشعائر، لا يستند إلى مبدأ صحيح. وأقصى ما يقتضيه حملهم على الصحّة، نسبتهم إلى قلّة الاطلاع فيما يثبته الشرع أو ينفيه من حيث الجواز والتحريم. ولو اتبعنا أهوائهم في ذلك لزمنا تسرية الحكم إلى القرآن الكريم، لوحدة الملاك في ذلك جوازاً أو منعاً. لضرورة أن ما بين دفتي جلد المصحف الشريف، ليس إلاّ حبراً على ورق مكيّفاً بكيفية خاصة، وهو من هذه الجهة حكمه حكم سائر المجلات والصحف. فلولا امتياز القرآن الكريم بتلك الإضافة إلى المولى الحق والنسبة إلى السيد المطلق، لكان تكريمه والاعتناء بشأنه من سفاسف الأمور وسخائف الأعمال.

وبالجملة إن تكريم الأنبياء والأولياء(عليهم السلام)، أمواتاً كانوا أم أحياءً بكل ما

يكون محققاً للتكريم والتعظيم، إنّما هو تكريم لله سبحانه لتعلّقهم به وانتسابهم إليه، نحو انتساب كتابه إليه وتعلّقه به عظم شأنه، إذ أنّهم(عليهم السلام) كتابه الناطق وحديثه الصادق.

وبهذا يتجلّى لك: أنّ ما تشطح به أقلام بعض الأقوام، في تضعيف هذه الآراء أو تسخيف هذه الأقوال، لا يكون منبعثاً إلاّ عن غيظ كامن وحقد مزمن، توارثه أبناء جهلة عن آباء جاهليين.

وكيف ما كان: فلا ريب أن بيت عليّ أمير المؤمنين(عليه السلام)، في حال حياته أو بعد مماته من البيوت التي أذن الله، أن ترفع وتكرم وتعظم وتحترم، بل من أفاضل ما يلزم تكريمه من البيوت كما نص عليه الحديث الشريف، تكريماً لأخ الرسول(صلى الله عليه وآله) وتعظيماً لبعل العذراء البتول(عليها السلام)، شريك الرسول(صلى الله عليه وآله) في كل فضل وسموّ وكرامة وعلوّ، إذ أنّه(عليه السلام) جار مجراه(صلى الله عليه وآله) في الفضل ولا يفترق عنه إلاّ فيما تقتضيه خصائص النبوّة. وهذا مما انطوت عليه ضمائر جلّ المسلمين واعترفت به الثقات من علماء الفريقين.

هذا إمام من أئمة المعتزلة وشيخ من مشايخهم(١): يحكى عمن يحفظ عنه العلم من مشايخ طائفته، بأنهم لم يفرّقوا بين عليّ(عليه السلام) وبين رسول الله(صلى الله عليه وآله) في كل ما لهما من مزيّة وخصوصية إلاّ النبوّة، كما نبّهنا على ذلك فيما سبق من هذا الكتاب حيث قال:

ولهذا كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز في هذه المسألة، لأنهم سلكوا طريقاً مقتصدة، قالوا: هو(عليه السلام) أفضل الخلق في الآخرة وأعلاهم منزلة

---

(١) هو عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي المدائني شارح نهج البلاغة. (د. المدني).

في الجنّة وأفضل الخلق في الدنيا وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب. وكل من عاداه وحاربه وأبغضه فإنه عدوّ الله سبحانه، وخالد في النار مع الكفّار والمنافقين إلاّ أن يكون ممن قد ثبتت توبته: ومات على تولّيه وحبّه.

وقال في ص٤ من المجلد الأول من شرح النهج:

وأما القول في البغاة عليه والخوارج فهو على ما أذكره لك:

أمّا أصحاب الجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلّهم إلاّ عائشة وطلحة والزبير، فإنهم تابوا ولولا التوبة لحكم لهم بالنار لإصرارهم على البغي.

وقال في ص٢٩٦ من المجلد الثالث عند التعرّض لبعض أحوال عائشة:

وقال قوم من الحشوية والعامة: اجتهدوا، يعني أصحاب الجمل فلا إثم عليهم ولا يحكم بخطأهم ولا خطأ عليّ(عليه السلام) وأصحابه.

وقال قوم من هؤلاء: بل نقول أصحاب الجمل أخطأوا ولكنّه خطأ مغفور كخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند من قال بالأشبه.

وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية.

وقال أصحابنا المعتزلة: كل أهل الجمل هالكون إلاّ من ثبتت توبته منهم.

قالوا: وعائشة ممّن ثبتت توبتها وكذلك طلحة والزبير.

أما عائشة فإنّها اعترفت لعليّ(عليه السلام) يوم الجمل بالخطأ وسألته العفو.

وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم، وأنّها كانت تقول: ليته كان لي من رسول الله(صلى الله عليه وآله) بنون عشرة كلّهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل... وأنها كانت تقول: ليتني متّ قبل يوم الجمل.

هذا حال الناكثين.

وأما القاسطون: فهم على منوال السابقين، بل أعظم جرماً وأثقل وزراً وإن اختصّ الأولون بمصداقيتهم لقوله(عليه السلام): «**من سنّ سنّة سيئة فعليه وزره ووزر من عمل بسنّته**».

وقد ذكر طرفاً من حالهم شارح النهج[1] مبيّناً لمعتقده فيهم ومعتقد أصحابه المعتزلة حيث قال:

وأمّا عسكر الشام بصفّين فإنّهم هالكون كلّهم عند أصحابنا لا يحكم لأحد منهم إلاّ بالنار، لإصرارهم على البغي وموتهم عليه رؤسائهم والأتباع.

وقال أيضاً في مقام آخر[2]:

وقد اتفقت المعتزلة: على أنّ أمراء بني أميّة كانوا فجّاراً، عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد.

هذا:

وأما المارقون فنقتصر في بيان حالهم على البيان النبوي، الذي أشار إليه شارح النهج بقوله[3]:

وأمّا الخوارج فإنّهم مرقوا عن الدين، بالخبر النبوي المجمع عليه. ولا يختلف أصحابنا في أنهم من أهل النار.

ثم تطرّق شارح النهج في كلامه هذا إلى بعض الصحابة فقال:

وقد يرى كثير من أصحابنا في قوم من الصحابة: أحبطوا ثوابهم كالمغيرة بن

---

(١) ذكر هذا في ص٤ من المجلّد الأول من شرح النهج.
(٢) ذكر هذا في ص٢١٥ من المجلّد الأول من الشرح.
(٣) ذكر هذا في ص٤ من المجلّد الأول من شرح النهج.

شعبة، وكان شيخنا أبو القاسم البلخي إذا ذكر عنده عبد الله بن الـزبير يقـول: لا خير فيه.

وقال مرّة: لا تعجبني صلاته وصومه، وليسا بنـافعين لـه مـع قـول رسـول الله(ﷺ) لعليّ(عليه السلام): لا يبغضك إلاّ منافق.

وقال أبو عبد الله البصري لما سئل عنه:

ما صحّ عندي أنّه تاب من يوم الجمل، ولكنّه استكثر مما كان عليه.

قلت: هذه قطرة من بحر مما يتعلّق بمبغضي أمير المـؤمنين عـليّ(صـلوات الله وسلامه عليه)، والشرح لحالهم من طرق أخواننا أهـل الـسنة والجماعـة، قـد مـلأ مجلّدات يعسر عدّها وضبطها، كما هي غير خفية على المراجعين.

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة الخامسة عشرة

﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه في محكم قرآنه المجيد:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[1]

أقول: لا ريب أن ما ترمي إليه الآية المباركة، إنّما هو التعويض لما يصدر عن العبد من الطاعة والانقياد، إذ أنّ نصرة العبد لله سبحانه بعد غنائه تعالى عن كل شيء وفقر كل من في الوجود سواه إليه، بمعنى طاعته له وانقياده إليه، كما أنّ نصرة الله تعالى شأنه لعبده إنّما هي معونته له على اختلاف أنحاء المعونة، من إمداد بجنوده وعنايته به وتسديده له، وتوفيقه لما يصلحه من حركة أو سكون.

وقد رتّب تعالى شأنه نصرته لعبده، على نصرة العبد له ترتّب الجزاء على الشرط. الذي مقتضاه عدم التخلّف والانفكاك.

ولذا قال بعضهم: من الحق على الله تعالى شأنه أن ينصر من نصره.

وقد تكثّر هذا المضمون في عدة من الآيات الكريمة:

مثل قوله تعالى شأنه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

---

(١) هذه الآية هي آية ٧ من سورة محمّد(ﷺ) ومحلّها ص٩٨ من المجلد الخامس من المجمع.

ومثل قوله عزّوجل: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾.

ومثل قوله جلّ جلاله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾.

وكقوله جلّت قدرته: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الشريفة التي هي بهذا المضمون.

ولا يخفى أن النصرة التي هي بمعنى الطاعة، منقسمة على كافة جوارح البدن. فإن لكل جارحة من جوارح بدن الإنسان نصرة وخذلان، فإنّ قيام الجارحة بما فرض الله تعالى عليها من صرف قوتها في الجهة التي عيّنت للصرف فيها، نصرة لله تعالى شأنه، وتخلّفها عن ذلك أو صرفها في ضدّ ما فرض عليها يكون معصية وخذلاناً.

كما ينبغي أن يعلم: أن نصرة الله تعالى شأنه لعباده، لا تختص بالآخرة إذ قد يجمع الله سبحانه للعبد بين النصرتين، وإن كانت نصرته لعباده في الآخرة هي أهم النصرتين وأعظم.

غير أن نصرته تعالى في الدنيا لأوليائه، أكثر من أن تحدّ وأعظم من أن تعدّ. ولكن قد قلّ المطيعون وكثر العاصون، وتخلّف الإنسان عن العدل فضلاً عن الإحسان. بل ربّما يكون الحيوان أوفر حظاً منه في الطاعة والانقياد لما سخّر له.

ذكر بعضهم عن العلاّمة الحبر المولى الصفي الشيخ جعفر التستري أعلى الله مقامه أنّه قال يوماً في مجلس وعظه:

قد خاصمني يوماً من الأيام حمار فخصمني... ثم قال لمجتمع الوعظ:

لعلّكم يذهب بكم الوهم، إلى أن تعبيري بالحمار أنه من باب التورية، كما

يعبّر عن الرجل البليد بالحمار. وليس الأمر كذلك بل إنّما أقصد الحمار حقيقة، وأنّه المصداق للحيوان الناهق ذي القوائم الأربع والأذان الطوال.

وذلك: أنّي احتجت يوماً إلى الحطب فأخذت معي حماراً إلى الجبل، فحملته ما يستطيع حمله حتى أتيت به إلى المنزل، وألقيت الحمل عن ظهره فنظر إليّ بعينيه الواسعتين، ووجّه إليّ أذنيه الطويلتين وكأنّه يريد أن يتكلم، غير أنّه لا يستطيع الكلام. ففكرت فيما يريده ذلك الحيوان، فألقى في نفسي مقصوده وفهمت أنه يريد أن يقول لي:

أنّي قد أدّيت الوظيفة التي خلقت لها كما يلزم، وقمت بالطاعة المطلوبة منّي كما يجب. فهل أنت كذلك قد أدّيت ما خلقت له من الطاعة والانقياد، وقمت بوظائف العبودية كما يجب، أو أنّك قد قصّرت في الواجب وتخلّفت عمّا يقتضيه اللازم..؟

وعندها انقطعت عن الجواب ولم أستطع التخلّص عن هذا السؤال، لأنّي لم أكن على يقين لدى مفاجئة السؤال، بالقيام بالواجب حسب ما تقتضيه العبودية. وعلى هذا فالإنسان المقصّر بوظائف العبودية، دون الحمار في الرتبة. فإن الحمار أوفى منه وأبرّ، لا سيما مع علم الإنسان واعتقاده بالمكافأة الجزيلة من اللطيف المنّان عظم شأنه، على الأعمال والنصرة له من الله سبحانه في الدنيا والآخرة، بما لا يسعها البيان ولا تخطر على البال.

وإن أردت أن تعرف نصرة الله سبحانه في الدنيا فضلاً عن الآخرة، مكافأةً لنصرته لله تعالى، فتأمّل في نصرة الله تعالى شأنه لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب(عليه السلام). فإنّه قد اجمع الناس في قرون من الأزمان، على إخفاء فضله واندراس معالمه(عليه السلام) ولم تزدد بذلك إلاّ ظهوراً وانتشاراً، كما قال الخليل على ما

ذكره عنه شارح النهج المعتزلي في شرحه، فإنّه قال:

كتمت أولياؤه فضائله خوفاً وكتمت أعداؤه فضائله حسداً، وقد خرج ما بين الكتمين ما ملأ الخافقين.

بل قد آل الأمر إلى أنّ أعداءه وخصومه يشهدون له بالفضل من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

فانظر إلى ما ذكره العلاّمة الواقدي على ما في ص٤٩١ من كتاب (وقائع الأيام)، فإنّه قال:

عن محمّد بن عمر الواقدي[1]:

---

(١) الواقدي: هو أبو عبد الله محمّد بن عمر بن واقد المدني. ترجمه ترجمة وافية العلاّمة القمّي(رحمه الله) في ص٢٣٠ من الجزء الثالث من كتابه: الكنى والألقاب. ومن جملة ما ذكر هناك أنّه قال:

كان له ستمائة قمطر كل قمطر يحمله حمّالان. وينقل عنه أنه كان يقول: ما من أحد إلاّ وكتبه أكثر من حفظه وحفظي أكثر من كتبي.

وينقل عنه أيضاً: أنّه كان يروى أن علياً(عليه السلام) كان من معجزات النبيّ(صلى الله عليه وآله)، مثل العصا لموسى ومثل إحياء الموتى لعيسى(عليهما السلام). ومن النوادر التي تحكى عنه: أنّه كان له صديقان أحدهما هاشمي والآخر غير هاشمي، وكان معهم كنفس واحدة. فأصابت الواقدي ضائقة وحضر العيد، فقالت له امرأته: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدّة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم، لأنّهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم، وهم على هذه الحالة من الثياب الرثّة، فلو احتلّت في شيء فصرفته في كسوتهم.

قال: فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ بما حضر. فوجّه إليّ كيساً مختوماً ذكر أنّ فيه ألف درهم، فما استقرّ قراري حتى كتب إليّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشمي، فوجّهت إليه الكيس بختمه وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحياً من امرأتي. فلما دخلت عليها استحسنت ما كان منّي ولم تعنّفني عليه. فبينا أنا =

قال: كان هارون الرشيد يقعد للعلماء في يوم عرفة، فقعد ذات يوم وحضره الشافعي، وكان هاشمياً يقعد إلى جنبه. وحضر محمّد بن الحسن وأبو يوسف فقعدا بين يديه. وغصّ المجلس بأهله فيهم سبعون رجلاً من أهل العلم، كل منهم يصلح أن يكون أمام صقع من الأصقاع.

قال الواقدي: دخلت في آخر الناس، فقال لي الرشيد: لِمَ تأخرت؟ فقلت: ما كان لإضاعة حق ولكنني شغلت بشغل عاقني عما أحببت. قال: فقرّبني حتى أجلسني بين يديه. وقد خاض الناس في كل فن من العلم، فقال الرشيد

= كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس على هيئته، فقال: أصدقني عمّا فعلته فيما وجّهت به إليك، فعرفته الخبر على وجهه. فقال لي: إنّك وجّهت إليّ وما أملك على الأرض إلاّ ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا اسأله المواساة فوجّه إليّ كيسي بخاتمي.

قال الواقدي: فتواسينا الألف درهم بيننا، ثم إنّا أخرجنا للمرأة مائة درهم قبل ذلك، ونمى الخبر إلى المأمون فدعاني وسألني فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد منا ألفا دينار وللمرأة ألف دينار.

ومن النوادر التي تحكى عنه أيضاً: أنه مع ما هو عليه من العلم وكثرة الحفظ، وأنّه كان يحفظ أكثر مما في كتبه كان لا يحفظ القرآن. فقد روي أن المأمون قال للواقدي: أريد أن تصلّي الجمعة غداً بالناس فامتنع. قال له: لا بدّ من ذلك. فقال: لا والله يا أمير المؤمنين ما أحفظ سورة الجمعة. قال: فأنا أحفظك. قال: فافعل. فجعل المأمون يلقنه سورة الجمعة حتى إذا بلغ النصف وحفظه، ابتدأ بالنصف الآخر فإذا حفظه نسي النصف الأول. فأتعب المأمون ونعس فقال: لعلي ابن صالح: حفّظه أنت، فذكر أنه مثل المأمون لم يقدر على أن يحفظه. فقال المأمون: اذهب فصلّ بهم واقرأ أي سورة شئت.

وروي عن غسان قال: صلّيت خلف الواقدي، فقرأ: (إنّ هذا لفي الصحف الأولى * صحف موسى وعيسى).

وكانت ولادته سنة ١٣٠، ووفاته ببغداد سنة ٢٠٧ فمجموع عمره ٧٧ عاماً.

للشافعي: يا بن عمي كم تروي في فضائل عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)؟ فقال: أربعمائة حديث أو أكثر. فقال له: قل ولا تخف. قال: يبلغ خمسمائة ويزيد. ثم قال لمحمّد بن الحسن: كم تروي يا كوفي من فضائله؟ قال: ألف حديث أو أكثر. فأقبل على أبي يوسف[1] فقال: كم تروي أنت يا كوفي من فضائله أخبرني ولا تخشى؟ قال: يا أمير المؤمنين لولا الخوف لكانت روايتنا في فضائله أكثر من أن تحصى. قال: ممّ تخاف؟ قال: منك ومن عمّالك وأصحابك. قال: أنت آمن تكلم وأخبرني كم فضيلة تروي فيه؟ قال: خمسة عشر ألف خبر مسند وخمسة عشر ألف حديث مرسل.

قال: قال الواقدي: فأقبل عليّ فقال: ما تعرف في ذلك أنت؟ فقلت: مقالة أبي يوسف. قال الرشيد: لكنّي أعرف له فضيلة رأيتها بعيني وسمعتها بأذني، أجلّ من كل فضيلة تروونها أنتم، وإنّي لتائب إلى الله تعالى مما كان منّي من أمر الطالبية ونسلهم. فقلنا بأجمعنا: وفّق الله أمير المؤمنين وأصلحه إن رأيت أن تخبر بما عندك. قال: نعم، وليت عاملي يوسف بن الحجّاج بدمشق، وأمرته بالعدل في

---

(١) قال العلاّمة الشيخ القمّي(رحمه الله) في الجزء الأول من كتابه: الكنى والألقاب:

أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي، كان تلميذ أبي حنيفة ومن أتباعه... وهو أول من جعل الامتياز بين لباس العلماء والعوام. ونقل ابن خلكان عن أبي الفرج المعافى عن الشافعي أنّه قال: مضى أبو يوسف ليستمع المغازي من محمّد بن إسحاق وغيره، وأخلّ بمجلس أبي حنيفة أياماً، فلما أتاه قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف: إنّك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ، فأمسك عنه.

وكان ولي القضاء سنة ١٦٦ في أيام خروج الهادي إلى جرجان، وأقام على القضاء ١٥ سنة. توفي سنة ١٨٢ فهو ابن ٦٩ سنة.

الرعية والإنصاف في القضيّة. فاستعمل ما أمرته فرفع إليّ أن الخطيب الذي يخطب بدمشق يشتم علياً(عليه السلام) في كل يوم وينقصه. قال: فأحضره وسأله عن ذلك. فأقرّ له بذلك. فقال له: ما حملك على ما أنت عليه؟ قال: لأنّه قتل آبائي وسبى الذّراري فلذلك له الحقد في قلبي، ولست أفارق ما أنا عليه. فقيّده وغلّه وحبسه وكتب إليّ بخبره فأمرته أن يحمله إليّ على حالته من القيود، فلما مثل بين يدي زبرته وصحت به وقلت: أنت الشاتم لعليّ بن أبي طالب؟ فقال: نعم، فقلت: ويلك قتل من قتل وسبى من سبى بأمر الله تعالى وأمر النبي(صلى الله عليه وآله). قال: ما أفارق ما أنا عليهَ ولا تطيب نفسي إلاّ به. فدعوت بالسياط والعقابين فأقمته بحضرتي هاهنا وِظهره إليّ. فأمرت الجلاّد فجلده مائة سوط، فأكثر الصياح والغياث فبال في مكانه، فأمرت به فنحّى عن العقابين وأدخل ذلك البيت، وأومأ بيده إلى بيت في الإيوان. وأمرت بغلق الباب عليه وإقفاله، ففعل ذلك ومضى النهار وأقبل الليل، ولم أبرح من موضعي هذا حتى صليت العتمة، ثم بقيت ساهراً أفكّر في قتله وفي عذابه وبأيّ شيء أعذّبه، فمرّة أقول أضرب علاوته ومرّة أقول أقطع أمعاءه، ومرّة أفكر في تعذيبه أو قتله بالسوط، واستمرّ الفكر في امره حتى غلبتني عيني في آخر الليل، فإذا أنا بباب السماء قد انفتح وإذا النبي(صلى الله عليه وآله) قد هبط، وعليه خمس حُلل. ثم هبط عليّ(عليه السلام) وعليه ثلاث حلل، ثم هبط الحسن(عليه السلام) وعليه ثلاث حلل، ثم نزل الحسين(عليه السلام) وعليه حُلّتان. ثم نزل جبرائيل(عليه السلام) وعليه حلّة واحدة، فإذا هو من أحسن الخلق في نهاية الوصف، ومعه كأس فيه ماء كأصفى ما يكون من الماء وأحسنه. فقال النبي(صلى الله عليه وآله): أعطني الكأس فأعطاه فنادى بأعلى صوته: يا شيعة محمّد وآله. فأجابوه من حاشيتي وغلماني وأهل الدار أربعون نفساً، أعرفهم كلّهم. وكان في داري أكثر من خمسة آلاف إنسان فسقاهم من الماء وصرفهم، ثم قال: أين الدمشقي؟ فكان الباب قد

انفتح فأخرج إليه فلمّا رآه عليّ(عليه السلام) أخذه وقال: يا رسول الله هذا يظلمني ويشتمني من غير سبب أوجب ذلك. فقال(صلى الله عليه وآله) له: خلّه يا أبا الحسن ثم قبض النبي(صلى الله عليه وآله) على يده وقال: أنت الشاتم لعليّ بن أبي طالب؟ فقال: نعم. قال: اللهمّ امسخه وامحقه وانتقم منه. قال: فتحوّل وأنا أراه كلباً وردّ إلى البيت كما كان. وصعد النبيّ(صلى الله عليه وآله) وجبرائيل وعليّ(عليهما السلام) ومن كان معهم.

فانتبهت فزعاً مذعوراً فدعوت الغلام فأمرت بإخراجه فأخرج وهو كلب. فقلت له: كيف رأيت عقوبة ربك؟ فأومأ برأسه كالمعتذر وأمرت بردّه وهو ذا في البيت. ثم نادى وأمر بإخراجه فأخرج وقد أخذ الغلام بأذنه، فإذا أذناه كأذان الناس وهو في صورة كلب. فوقف بين أيدينا يلوك بلسانه ويحرك بشفتيه كالمعتذر.

قال الشافعي للرشيد: هذا مسخ ولست آمِن أن تعجله العقوبة. فأمر بإخراجه عنّا فأمر به فردّ إلى البيت. فما كان بأسرع من أن سمعنا رجّة وصيحة فإذا صاعقة قد سقطت على سطح البيت فأحرقته وأحرقت البيت، فصار رماداً وعجّل الله بروحه إلى نار جهنّم.

قال الواقدي: فقلت للرشيد: يا أمير المؤمنين هذه معجزة وعظة وعظت بها فاتق الله في ذريّة هذا الرجل. قال الرشيد: أنا تائب إلى الله تعالى مما كان منّي وأحسنت توبتي. انتهى.

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة السادسة عشرة

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى شأنه:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)

أقول: ذكر الله سبحانه الجهاد فيه وفي سبيله، وهو سبيل الحق والخير والنجاح والفلاح والسعادة في الدارين.

والمستفاد من الأخبار: أنّ الجهاد جهادان: جهاد أكبر وجهاد أصغر.

وإن الجهاد الأكبر هو المجاهدة للنفس، وهو بعثها نحو أداء الواجب وهو المعبّر عنه: بالصبر كما في سورة العصر المباركة. وبعثها نحو ترك الحرام أو زجرها عن فعله وهو المعبّر عنه: بالصبر عن الحرام.

ولا ريب أن لهذا القسم من الجهاد مكانه الأسمى ومقامه الأرفع، وإنّ من فاز به فاز بالسبق وحاز درجة الأبرار. وهو لا يحصل إلاّ بتعاهد النفس وتربيتها وتأديبها بآداب الشرع، التي هي أبواب الخير بل الخير نفسه.

وإن الجهاد الأصغر هو التضحية في سبيل تركيز أعلام الدين، وتوسيع نطاق المسلمين ودحض كلمة الكفر والكافرين، وهو باب من أبواب الجنة كما في بعض

---

(١) الآية الشريفة هي الآية ٦٩ من سورة العنكبوت الواقعة في ص٢٩٢ ج٤ من المجمع.

خطب أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام). وأنّه أحد فروع الدين التي من شكّ في وجوبها فضلاً عن جحدها كان من الكافرين. وإنّ المقتول في هذا السبيل كان من الشهداء الفائزين بدرجات النعيم المقيم.

ومن أحكامه التكريمية: أن من فاز بالشهادة به، لا تجري عليه أحكام الأموات العاديين من التغسيل والتكفين، بل يُلف بثيابه ويبقى على ما هو عليه من كونه مرمّلاً بدمائه. ويصلّى عليه ويدفن ليقوم يوم القيامة على هذا الحال، لتشهد له حاله بما قام به من الجهاد والنصرة لله سبحانه، ويفوز بما أعدّه الله تعالى للمجاهدين في سبيله وإعزاز دينه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت... فهذا حكم الشهيد.

وأما غير الشهيد بهذا المعنى الخاص أعني المقتول في الجهاد، فلا تجري عليه أحكام الشهادة من عدم التغسيل والتكفين، فهو على حدّ سائر المسلمين، من وجوب إجراء هذه المراسيم له التي هي مراسيم احترامية. فإن وجوب تغسيل الميت المسلم وتكفينه والصلاة عليه ومواراته في الأرض، إنّما هو تكريم له من الله سبحانه.

ولذا بالنسبة إلى غير المسلم من الأموات سواء كان مقتولاً في الحرب أم في غيره، لا يجب تغسيله أو لا يجوز.

ويظهر من فقهاء أهل السنّة الخلاف في جواز دفن الكافر وعدمه.

قال في ص٧٣ من المجلّد الرابع من فقه السنّة للسيد سابق:

ولا يجب على المسلم أن يغسل الكافر، وجوّزه بعضهم. وعند المالكية والحنابلة: أنّه ليس للمسلم أن يُغسّل قريبه الكافر ولا يكفّنه ولا يدفنه، إلاّ أن يخاف عليه الضياع فيجب عليه أن يواريه.

والذي يظهر من أحاديثنا الشريفة عدم الجواز مطلقاً.

ففي الحديث الأول من الباب التاسع عشر من أبواب الوسائل في أحكام الميت عن أبي عبد الله(عليه السلام)، أنه سئل عن النصراني يكون في السفر وهو مع المسلمين فيموت؟ قال(عليه السلام): «**لا يغسله مسلم ولا كرامة ولا يدفنه ولا يقوم على قبره وإن كان أباه**».

وفي الحديث الثاني من الباب المذكور عن أبي عبد الله(عليه السلام):

«النهي عن تغسيل المسلم قرابته الذميّ أو المشرك وأن يكفّنه ويصلّي عليه ويلوذ به».

وفي الحديث الثالث من الباب المذكور:

أن معاوية قال للحسين(عليه السلام): هل بلغك ما صنعنا بحجر بن عديّ وأصحابه شيعة أبيك؟ فقال(عليه السلام): وما صنعت بهم؟ قال: قتلناهم وكفّناهم وصلّينا عليهم. فضحك الحسين(عليه السلام) فقال: «**خصمك القوم يا معاوية. لكنّا لو قتلنا شيعتك ما كفّناهم ولا صلّينا عليهم ولا دفنّاهم**».

والحاصل: أنّ غير المسلم لا يغسل ولا يكفّن ولا يصلّى عليه ولا يُدفن، وجوباً أو جوازاً. وعلى هذا كان عمل محاربي أبي عبد الله السبط(عليه السلام) وأبنائه وأخوته وأهل بيته وأنصاره، فإن المعروف من حال الواقعة أن ابن سعد لما وضعت الحرب أوزارها، وقتلوا الحسين(عليه السلام) ومن معه، رتّبوا عليهم أحكام الكفّار. فجمع قتلاه وصلّى عليهم ودفنهم، وترك ريحانة رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأحد سيديّ شباب أهل الجنة(عليه السلام) وأهل بيته وأنصاره. الذين ليس لهم على وجه الأرض شبيه مجزّرين كالأضاحي، تصهرهم الشمس وتسفى عليهم الرياح. زعماً أن يدلسوا على المسلمين ويموّهوا عليهم، بأن الحسين(عليه السلام) قد كفر بخروجه على

إمام العدل والحق والقائم مقام أبيه القائم مقام رسول الله(ﷺ) وخليفته على الخلق أجمعين يزيد بن معاوية، الذي لم يترك حرمة لله عزّوجل ورسوله(ﷺ) إلاّ انتهكها، وهو صاحب الأبيات المعروفة:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

وهكذا سوق بنات الرسالة والإمامة سبايا على أقتاب المطايا من بلد إلى بلد. إنما ارتكبوه من هذا الباب، أعني للتمويه على خروج هؤلاء أعني آل محمّد(ﷺ) عن الإسلام، وأنهم دخلوا في عنوان الكفر لأنّ السبي[١] لا يحلّ إلاّ للكفّار.

قال في جهاد بداية المجتهد ونهاية المقتصد للعلاّمة الكبير ابن رشد:

فاتفق المسلمون على أن المقصود بالمحاربة لأهل الكتاب، عدا أهل الكتاب من قريش ونصارى العرب، هو أحد أمرين: إما الدخول في الإسلام وإما إعطاء الجزية. واختلفوا فيما سوى أهل الكتاب من المشركين: هل تقبل منهم الجزية أم لا؟ بعد الاتفاق على أنّ المجوس تقبل منهم.

فإنّ الكفّار هم الذين تجري عليهم أحكام السبي وهي الاستعباد.

قال في البداية في هذا الموضوع:

أما النكاية التي هي الاستعباد فهي جائزة بطريق الإجماع في جميع أنواع

---

(١) قال في مجمع البحرين: والسباء أيضاً، والقصر لغة الاسم من سبيت العدو سبياً من باب رمى أسرته. والسبي ما يسبى وهو أخذ الناس عبيداً وإماءً. والسبية المرأة المنهوبة والجمع سبايا كعطية وعطايا.

المشركين، أعني بذكرانهم وإناثهم وشيوخهم وصبيانهم صغارهم وكبارهم، إلاّ الرهبان ففيه خلاف.

قال: وأكثر العلماء على أن الإمام مخيّر في الأسارى في خصال:

منها: أن يمنّ عليهم.

ومنها: أن يستعبدهم.

ومنها: أن يقتلهم.

ومنها: أن يأخذ منهم الفداء.

ومنها: أن يضرب عليهم الجزية.

وفي قتل الأسير خلاف.

وقال: وكذا لا خلاف بينهم في أنّه لا يجوز قتل صبيانهم ولا قتل نسائهم، ما لم تقاتل المرأة والصبي، فإذا قاتلت المرأة استبيح دمها. ولا قتل الأطفال منهم.

وقال شيخنا الشهيد(أعلى الله مقامه) في كتاب الجهاد من اللّمعة:

وهنا فصول: **الأول**: فيمن يجب قتاله وكيفية القتال وأحكام الذمّة.

قال: يجب قتال الحربي وهو غير الكتابي من أصناف الكفّار، الذين لا ينتسبون إلى الإسلام. فالكتابيّ لا يطلق عليه اسم الحربي وإن كان بحكمه على بعض الوجوه. وكذا فرق المسلمين وإن حكم بكفرهم كالخوارج، إلاّ أن يبغوا على الإمام فيقاتلون من حيث البغي.

قال: يجب قتال الحربي بعد الدعاء إلى الإسلام، حتى يسلم أو يقتل... إلى أن قال: ولا يجوز قتل الصبيان والمجانين والنساء وإن عاونوا، إلاّ مع الضرورة. وكذا لا يجوز قتل الشيخ الفاني... إلى أن قال: وتجب مواراة المسلم المقتول في

المعركة دون الكافر. إلى أن قال(تتَّئُ) في باب الغنيمة:

وتملك النساء والأطفال بالسبي وإن كانت الحرب قائمة. والذكور البالغون يقتلون حتماً إن أخذوا والحرب قائمة، إلاّ أن يسلموا فيسقط قتلهم. ويتخيّر الإمام حينئذٍ بين استرقاقهم والمنّ عليهم والفداء... إلى أن قال(طاب ثراه):

وإن أخذوا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، أي أثقالها من السلاح وغيره وهو كناية عن تقضّيها، لم يقتلوا ويتخيّر الإمام فيهم تخيّر نظر ومصلحة بين المنّ عليهم والفداء والاسترقاق حرباً كانوا أم كتابيين... إلى أن قال:

والبغاة: وهو من خرج على الإمام المعصوم من الأئمة(عليهم السلام) فهو باغٍ. واحداً كان كابن ملجم أو أكثر كأهل الجمل وصفّين، يجب قتاله حتى يفيء أي يرجع إلى طاعة الإمام أو يقتل، وقتاله كقتال الكفار في وجوبه على الكفاية...

إلى أن قال(طاب مرقده): ولا تسبى نساء الفريقين ولا ذراريهم في المشهور، ولا تملك أموالهم التي لم يحوها العسكر إجماعاً... إلى أن قال(قدّس الله روحه الزكيّة): والأصح عدم قسمة أموالهم مطلقاً، يعني ما حواه العسكر وما لم يحوه، عملاً بسيرة عليّ(عليه الصلاة والسلام) يوم البصرة حتى القدر كفاها صاحبها إذا عرفها. ولم يصبر على أربابها إلى التفريغ... انتهى موضع الحاجة من النقل.

والغرض: أنّ كل ما قام به بنو أميّة في واقعة الطفّ، طبقوا عليه أحكام الكفّار البغاة، من نهب الأموال وقتل الأنفس وزادوا على ذلك قتل الصغار كعبد الله الرضيع بين يدي أبيه الحسين السبط(عليه السلام)، وسوق الباقين منهم إلى يزيد وحكمه فيهم، وقوله للإمام السجّاد(عليه السلام): أما قتلك فقد عفونا عنك، وقوله للحوراء العقيلة زينب(عليها السلام)، عندما طلب الشامي استعباد فاطمة بنت الحسين(عليهما السلام): إن ذلك لي، يعني استرقاقها وهبتها للشامي، ولو شئت لفعلت...

فكل ذلك أرادوا أن يغسلوا هذا العار عنهم، وهو قتل ابن بنت نبيّهم(عليه السلام). ومَن ورد فيه ما ورد من أقوال النبي(صلى الله عليه وآله) وأفعاله من إخراجه للمباهلة مع نصارى نجران، وغير ذلك مما لا يحصى مما نصّ عليه القرآن الكريم وغيره، على قرب العهد من صدورها في أهل البيت الطاهر(عليهم السلام).

وليس هذا بغريب ولا مستبعد، فإن أباه معاوية قد سبقه إلى ذلك، فإنّ مقاتلته لعليّ(عليه السلام) ليست خارجة عن هذا الباب، وأكّده بتشريعه اللّعن لعليّ(عليه السلام) بعد قتله. كل ذلك إعلان منه بأنه(عليه السلام) ليس من المسلمين وأنّه لا حريجة له في الإسلام ولا كرامة، مع أن هذا هو الكفر الصريح بعد قول النبي(صلى الله عليه وآله) لعليّ(عليه السلام): «**حربك حربي وسلمك سلمي، ومن سبّك فقد سبّني ومن سبّني فقد سبّ الله، ومن قتلك فقد قتلني، وأنت منّي بمنزلة نفسي...**» إلى ما لا يحصى من هذا ونظائره. فتأمل في المقام جيداً تعرف مقام هذه الفئة ومتابعيها والراضين بأفعالها والمصحّحين لأعمالها من الدين والحق والكفر والإيمان.

ولو وسّعت النظر لوجدت الحال على هذا المنوال قديماً وحديثاً ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم.

والحمد لله ربّ العالمين

الفهـرس